
هل معجزات الأنبياء مستحيلة؟
دكتور/ محمد سعيد المكاوى
أبريل 2020

هل معجزات الأنبياء مستحيلة؟

أ.د/ محمد سعيد المكاوى

Copyright © 2020 Muhammad Said El-Mekkawy

All rights reserved.

نشر هذا الكتاب على منصة أمازون كيندل للكتب الرقمية بتاريخ 22 أبريل 2020 ورقم:

ASIN: B087G1BFB9

وهذه نسخة إلكترونية توزع لوجه الله تعالى

المؤلف



دكتور/ محمد سعيد المكاوى ، باحث فى قضايا الفكر الإسلامى. ولد عام 1976م بمحافظة المنوفية فى مصر. تخرج من كلية الطب عام 2000م. حصل على الدكتوراة فى طب الأطفال عام 2011م ، ويشغل حاليا منصب أستاذ مساعد طب الأطفال بكلية طب المنوفية. والكتاب الحالى يمثل إصدارا جديدا فى سلسلة مواجهة الإلحاد. يؤمن المؤلف أن ظهور الإسلام هو أعظم حدث شهدته البشرية قاطبة ، ورغم مرور أكثر من 1400 سنة على مجىء هذا الدين العظيم إلا أن ما نعرفه عن الإسلام أقل كثيرا مما نجهله ، ولا يزال هذا الدين يحمل فى جعبته ما لا يحصى من الكنوز والأسرار والبراهين التى ادخرها الله عز وجل للبشرية فى آخر الزمان توازيا مع الصعود المضطرد لمنحنى الضلال الذى يقترب بالإنسانية من النهاية المحتومة.

الفهرس

مقدمة: ارفع رأسك أيها المسلم

تبا لهذا العصر الذى جعل المؤمن يخجل من التكلم عن حقائق دينه وتراثه! أصبح عليك أن تتفادى الحديث عن عصا موسى ، وهدهد سليمان ، ومولد عيسى ، ومعراج محمد. لم يعد من الملائم أن تتكلم عن مثل هذه الأمور البالية حتى لا يسخر منك المفكرون ، وينصرف عنك العامة. أصبح على الداعية العصرى أن يسلط الضوء– بدلا من ذلك –على الأمور المجردة ، والمبادىء الكلية ، والقواعد العامة التى جاء بها الدين ، والتى تتفق مع الفكر العالمى ، وتنسجم مع الحضارة الحديثة ؛ **فصارت الحضارة هى التى تحكم على الدين وتشكله مع أن المفترض أن يكون الدين مشكلا للحضارة ، وحاكما عليها.**

ونحن لن نفعل هذا ، لن نخجل ، بل سنرفع أصواتنا ، وننقل كلمتنا للعالم ، ونؤكد أن الإسلام يقر بوقوع المعجزات. هذا هو ديننا ، ومن لا يعجبه هذا الدين فليتركه ، وليمض إلى غيره ؛ فليس من شأن العاقل أن يتخلى عن الحق كى يُرضى أهل الباطل. وسنقدم لكم فى هذا الكتاب الأدلة القاطعة على صدق معجزات القرآن ، ليس من داخل القرآن ، ولكن من قلب الكتاب المقدس للإلحاد: من مبادىء العلم المادى الذى لا يعترفون بغيره سبيلا للحقيقة.

وقد جاء هذا الكتاب فى سياق مواجهتنا للهجمة الإلحادية العاتية التى اجتاحت العالم الإسلامى مؤخرا ، والتى انضم إليها أغلب من كانوا يسمون أنفسهم مسلمين علمانيين ، فإذا بهم فجأة يخلعون الأقنعة ، ليظهروا على حقيقيتهم ، ويجاهروا بإلحادهم ، وينقضوا على شبابنا ، فيلتهموا بلا رحمة كل أخضر ويابس.

والحقيقة أنه لم يخطر ببالى يوما أن أكتب كتابا خاصا عن المعجزات. كنت قد عقدت العزم منذ سنوات على إخراج كتاب واحد يتناول كل جوانب العقيدة ، ولكن وجدت أن موضوع العقيدة واسع للغاية ، ومن الصعب أن يحصره كتاب واحد. وفى طريق البحث تعرضت لمسألة المعجزات ، وسجلت بعض الخواطر والقراءات المتناثرة ، وفجأة وجدتنى – أثناء إعدادى لكتاب آخر – أعرج على موضوع المعجزات ، فاضطررت للغوص فيه ، ولم أفق إلا وقد انتهيت منه بسرعة عجيبة،

لا تفسير لها إلا مجيء العون من رب العالمين ، فالحمد لله الذى بيده كل فضل ونعمة. ولنبدأ رحلتنا ، وبالله التوفيق.

دكتور/ محمد سعيد المكاوى ، mekkawy55@gmail.com

4 من جمادى الثانى 1441 هجرية- 29 يناير 2020م

الباب الأول: مدخل

من قاض إلى متهم !

منح الله عز وجل أنبياءه المعجزات كى تبرهن على صدقهم ، وتثبت أنهم مرسلون من إله الكون ، فكان الناس يشاهدون المعجزات ، فيؤمن بسببها الكثيرون ، ولكن مر الزمان ، وجاء العصر الحديث ، فتغيرت العقول ، **وأصبح الإنسان المادى ينكر من الأصل وقوع شىء اسمه المعجزات** ، وذلك لسببين: أولا: أنه لم ير هذه المعجزات بعينيه لكونها وقعت منذ آلاف السنين. وثانيا: أنه يؤمن فقط بالعلم الطبيعى ، ولذا فالمعجزات تمثل بالنسبة له طعنة نافذة فى القلب ، وهدما كاملا لصرح العلم الحديث. وهكذا صارت المعجزات فى نظر الماديين قصصا خيالية اخترعتها العقول البدائية الحالمة ، أو حكايات ساذجة أدخلها رجال الدين إلى النصوص المقدسة منذ آلاف السنين ، فظل العامة يتناقلونها حتى يومنا هذا. وفى هذا السياق وجدنا الفيلسوف ديفيد هيوم يرى أن الدليل الذى يثبت حدوث المعجزة –حتى إن أكد وقوعها شهادات قوية لعدد كبير من الناس– سيبقى دوما أقل قوة من الدليل على اضطراد قوانين الطبيعة وتواترها[1،2]. ومعنى كلام هيوم أنه بفرض أن ألف شخص مثلا قد شاهدوا عيسى عليه السلام وهو يحول التمثال الطينى لطائر حى ، فسيكون علينا ألا نصدق كلامهم لأن بلايين الناس غيرهم فى مختلف الأماكن والأزمان قد شاهدوا مرات كثيرة أن التماثيل تبقى تماثيل، ولا تدب فيها الحياة قط ، ولهذا فكفة المعجزات كتب عليها دوما أن تكون مرجوحة[3].

وكلام ديفيد هيوم لا يمكن قبوله ، وإلا لما صدقنا وجود قبائل تأكل لحوم البشر على اعتبار أن من رأوا أناسا يأكلون لحوم البشر أقل عددا من أولئك الذين رأوا الناس يمتنعون عن أكلها. وبالمثل ما كان لنا أن نصدق أن هناك قبائل يسير أفرادها عراة تماما فى الشوارع لأن أغلب سكان الأرض لم يروا هذا المشهد الغريب. وقبل ذيوع آلات التصوير كانت المباراة الرياضية تجرى ، وبعد عدة أيام يعرف ملايين الناس حول العالم نتيجتها مع أن من شاهدوها بأعينهم فى

---

1) **Miracles**. By David Corner. Internet encyclopedia of Philosophy. Accessed on October 1, 2019. https://www.iep.utm.edu/miracles/#H4

2) **In defense of miracles**. By Rachel McKee; Spring 2014. The Dartmouth ApologiA. Volume 8, issue 2.

3) وقع هيوم هنا فى التناقض حين أنكر وقوع المعجزة لأن إمكان وقوع المعجزة نتيجة طبيعية لمذهبه الذى ينكر به ضرورة التتابع السببى بين الأشياء والحوادث. انظر: **قصة الفلسفة الحديثة**. تأليف ذكى نجيب محمود. ص 245-246. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. 1936م.

الاستاد آلاف معدودة. إذن ندرة الحدث ليست دليلا مطلقا يحتم علينا إنكار وقوعه. ثم إن من الظلم أن نعاير المعجزات بأنها وقعت فى مرات نادرة مع أن هذه الندرة يجب أن يُنظر إليها على أنها من قبيل الحكمة الإلهية البالغة لأن الكون إن سادته المعجزات عَمَّ التواكل ، وتوقف الناس عن العمل ، وأصيبت الحياة بالشلل لأن كل إنسان سيقعد مكانه انتظارا لمجىء المعجزات من السماء ، وستفقد الحياة معناها.

أيا ما كان الأمر فقد **تحولت المعجزات – كما نرى – فى العصر الحديث من قاض يصدر أحكاما إلى متهم ينتظر سماع الحكم بالإعدام. لقد أصبحت المعجزات عبئا على المؤمنين ، وصارت عقبة فى طريق الإيمان بعد أن كانت فى يوم من الأيام بابا رحبا يدخل منه الناس إلى نور الله.** وبات من المطلوب اليوم أن نقدم للإنسان المتعجرف البراهين الكافية على أن المعجزات قد وقعت بالفعل ، وأنها ليست مجرد أساطير. تعسا لك أيها الإنسان!

"معجزات" أم "آيات"؟

قد يفاجأ القارىء حين يعلم أن مصطلح "معجزة" غير موجود فى القرآن. وكذلك مصطلح "كرامة" غير موجود. إن هذه المصطلحات التى نتداولها الآن بكثرة ظهرت فى أزمان لاحقة لنزول القرآن ، والقرآن يستخدم مصطلحات أخرى للتعبير عن نفس المدلول أهمها "آية" و"برهان" و"سلطان".[4]

وعلى ذلك **فما اشتهر بين المسلمين بالمعجزات فالمقابل القرآنى له هو "آيات"** ، أى براهين وأدلة تثبت قضايا الدين.

ولكن لماذا لم يستخدم القرآن مصطلح "معجزة" بدلا من "آية"؟

كلمة (معجزة) اسم فاعل من فعل (أعجز) ، وأصلها يعود إلى مادة (عجز) التى تشير إلى التأخر[5] ، ومنها كلمة (العَجُزُ) ، أى موخَّر الشيء. ومن هذا المعنى جاءت كلمة (العجز)

---

[4]) كلمة (سلطان) ترد فى القرآن كثيرا بمعنى (حجة) أو (دليل). وهذا تشبيه للدليل القوى الغالب بالسلطان ؛ قال تعالى على سبيل المثال: {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يونس: 68]

[5]) من هذا المعنى الأولى جاءت كلمة (العَجوز) ، أى المرأة الكبيرة (أو الرجل الكبير) ، ربما لأنها تتأخر عن الشباب أثناء المشى ، وربما لأنها تتأخر عنهم فى العمر. وقد تسمَّى الخمرُ عجوزاً لعتقِها ، أى لكونها مصنوعة منذ فترة طويلة. والعِجْزَةُ: آخر ولد الرجل. يقال: فلانٌ عِجْزَةُ ولد أبويه، إذا كانَ آخرهم. وأَعْجاز الأُمور: أَواخِرُها.

بمعنى الضعف ، وعدم القدرة على عمل شيء ، فكأن الإنسان يحاول اللحاق بالشيء فيتأخر عنه ، ولا يصل إليه. **وفعل (أعجز) يعنى (جعله عاجزا) أى (فاته وسبقه وغلبه)**[6]**. وفعل (عاجزه) – كما فى تفسير الكشاف– يعنى (سابقه)، لأنّ كل واحد من الاثنين يطلب إعجاز الآخر عن اللحاق به،** فإذا سبقه قيل: أعجزه وعجزه.

ونعود للسؤال: لماذا أحجم القرآن عن استخدام لفظ (مُعجزة)؟

السبب هو أن الرسل أمروا بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: 125]. وقد قال الله لموسى وهارون عليهما السلام: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: 43، 44]. ولهذا وجدنا أن موسى عليه السلام لما ذهب إلى فرعون لأول مرة لم يحول العصا إلى ثعبان إلا بعد أن هدده فرعون بالسجن: {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ} [الشعراء: 29 – 33].

ولا شك أن التحدى يجر تحديا ، والتعالى يولد تعاليا ، ولهذا تحاشى القرآن استخدام كلمة (معجزة) ، وكأنه يقول لنا أن الرسل لما فعلوا الأمور العجيبة الخارقة أمام أقوامهم فإنهم لم يبادأوهم بالتحدى ، ولم يتكبروا عليهم ، ولم يعايروهم بالعجز ؛ رسل الله أكبر من هذا الأسلوب الأحمق فى الدعوة ، فمن الحكمة أن تنحنى لخصمك ، وتتواضع ، وتتحاشى التعالى والتكبر لأن المرء حين يُطعن فى كرامته يفقد صوابه ، ويطير عقله ، وتتبخر حكمته فيتمادى فى التكذيب ، ويتصرف كما لو كان فى مبارزة ليس أمامه إلا أن يقتل فيها خصمه ، فتكون النتيجة إصرارا على الكفر ، واستماتة فى الدفاع عن الباطل. ولهذا كان من الأمور اللافتة للنظر أنه فى الوقت الذى أحجم القرآن فيه عن استخدام كلمة (معجزة) نجده يستخدم كلمة (معاجزين) حين يتكلم عن الكفار ، وذلك فى ثلاث آيات منها: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ

[6]) يُقَالُ: أَعْجَزَني فُلَانٌ أَي فَاتَنِي ، وأَعْجَزَني فُلَانٌ إذا عَجَزْتَ عَنْ طَلَبِهِ وإِدراكه. ومن قبيل ذلك قوله تعالى: {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا} [الجن: 12].

الْجَحِيمِ} [الحج: 51]. إن كلمة (معاجزين) اسم فعل من (أعجز) ، أى أن الكفار هم الذين يبدأون بالتنافس والتحدى ومحاولة هزيمة الرسل. ومن الملاحظات المدهشة حقا أن ترى كلمة (آياتنا) بجوار كلمة (معاجزين) فى الآية الأخيرة: إن كلمة (آياتنا) تعنى (معجزاتنا) لكن القرآن لم يقل: (معجزاتنا) ، وفى نفس الوقت قال أن الكفار هم الذين كانوا (معاجزين) ، أى أنهم بدلا من أن يستسلموا ويخضعوا للرسل بعدما رأوا الآيات إذا بهم يحولون القضية لمسألة كرامة يجب إنقاذها من خلال شن هجوم مضاد على المعجزات كاتهام الرسل بالسحر والكهانة ، أو ادعاء القدرة على محاكاة معجزاتهم. لقد أذهلنى القرآن ببلاغته فى هذه الآية الأخيرة ، وأثبت لى أن كل فطاحل اللغة العربية قد أخطأوا حين اخترعوا مصطلح (المعجزة) أو تقبلوه كوصف للأحداث الخارقة التى جاء بها الرسل ، أما القرآن فكان له رأى آخر ، فرسل الله لا يبادأون الناس بالتحدى والتعالى ، ويتحاشون قدر الإمكان تحويل عملية البحث عن الحقيقة إلى مباراة مصيرية تستوجب هزيمة الخصم حتى لو تم التضحية بالحقيقة نفسها. ومن واقع تجربتى الشخصية تعلمت ألا أحاول استفزاز خصومى أثناء المناظرات الفكرية ، وألا أتطلع إلى إثبات جدارتى واستعراض قدراتى وإشعارهم بالانكسار ، فهذا السلوك لن يقودهم للإيمان ، بل سيجر مزيدا من العناد والبعد عن الحق ، فالناس لا ترضخ للحق فى أغلب الأحيان بالعقول بل بالقلوب ، وإبليس نفسه كان يعلم علم اليقين أن الله هو الإله الأعظم ، ولكنه كفر لأن الكبر ملأ قلبه.

إذن كان القرآن معه كل الحق فى ترك كلمة (معجزة). أما كلمة (آية) فهى تعنى العلامة ، أى أن الفعل الخارق للعادة علامة ودليل على صدق الرسل. وكما ترى ، فكلمة (آية) لا تحمل معنى التنافس ، وإنما فقط معنى الإرشاد.

ورغم أن مصطلح "آية" الذى يستخدمه القرآن أدق من مصطلح "معجزة" ، إلا أننا نجد أنفسنا مضطرين فى هذا الكتاب إلى الميل إلى مصطلح "معجزة" مجاراة لما شاع على الألسن.

ويمكن للمرء أن يصنف الآيات التى تؤيد الدين إلى نوعين: **"آيات مادية"** ، **و"آيات معنوية"**.

والآيات المادية هى أحداث خارقة للعادة مثل تحويل العصا لثعبان ، أو إحياء عيسى للموتى ، أو تسخير الريح لسليمان.

أما **الآيات المعنوية** غير المادية فهى نوعان على الأقل:

النوع الأول: الآيات العقلية العلمية: وهذه تشمل الأدلة التى يتوصل بها العقل إلى صدق قضايا الدين ، وهى تشمل أدلة وجود الله مثل أدلة الاختراع ، والمحرك الأول ؛ ومنها اكتشافات علم الأحياء التى تحتم الاعتقاد بوجود خالق فائق المهارة ؛ ومنها أيضا الاكتشافات الحديثة فى علم الفيزياء التى تظهر أن الكون مضبوط ضبطا دقيقا بشكل يصعب جدا أن يحدث بالمصادفة مثل الاختيار الدقيق لشحنة الإلكترون ومقدار الثابت الكونى. والأدلة العقلية تبرهن كذلك على ضرورة إرسال الرسل ، والبعث ، والجزاء ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم. ومن الأدلة العقلية أيضا الإعجاز البلاغى والعلمى للقرآن. وقد استعان القرآن بالأدلة العقلية فى مواضع كثيرة منها قوله تعالى: { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} [الطور: 35] ، وقوله: {فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الإسراء: 51]

النوع الثانى: الآيات الروحية: ومن أشكال هذه الأدلة الراحة النفسية الكبيرة التى يحس بها المؤمن فى ظل الإيمان بالله ، والتوكل عليه ، والرضا بقضائه ، وقراءة قرآنه. ويتضمن هذا النوع كذلك إحساس المرء بوجود الله من خلال إجابتة للدعاء ، وإنصافه للمظلوم ، وحسن توزيعه للأرزاق ، ورزقه للضعفاء. ومن أهم الأدلة الروحية الإلهام ، حيث يجد المرء أن فكرة جديدة قد قفزت فجأة إلى رأسه دون تمهيد منطقى ، ففتحت له بابا مغلقا ، أو أرشدته لحل مشكلة مستعصية ، فلا يجد تفسيرا لما حدث إلا أن هناك إلها مد له يد العون. ومن أمثلة الآيات الروحية أيضا تلك الظواهر التى تثبت وجود أشياء وراء المادة مثل التخاطر ، وتحقق الأحلام على أرض الواقع.

والقرآن الكريم لا يفرق فى الاصطلاح بين الآيات المادية والآيات المعنوية ، فهو يستخدم كلمة (آيات) للإشارة إلى النوعين باعتبار أن كليهما من شأنه أن يبرهن على صدق قضايا الدين ، فالفرق بينهما شكلى ، وليس جوهريا. وحين نتكلم فى هذا الكتاب عن "المعجزات" أو "المعجزات المادية" فإننا نشير إلى النوع الأول من الآيات ، أى "الآيات المادية" التى تتضمن خرقا فجا للعادة.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الوصف التشريحى للمعجزة

من مجمل معرفتنا بالإسلام يمكننا أن نُعرف المعجزة –أو بعبارة أدق: الآية المادية– على أنها "**حدث خارق للعادة ، بلا تفسير مادى ، يفعله الله تعالى بغرض إثبات صدق قضايا الدين لواحد أو أكثر من الناس**". ومن هذا التعريف نجد أن للمعجزة عدة خصائص:

الخاصية الأولى:

المعجزة أمر خارق للعادة. ولاحظ هنا أننا نُعرف المعجزة على أنها حدث خارق للعادة ، خلافا للتعريف الشائع القائل بأن المعجزات هى "انتهاك أو خرق لقوانين الطبيعة". وسنزيد هذه النقطة تفصيلا فى فصل لاحق إن شاء الله تعالى.

الخاصية الثانية:

المعجزة ليست هى الشكل الوحيد من أشكال خرق العادة ، فهناك أشكال أخرى غيرها ، من أهمها السحر. وسنناقش هذه النقطة فيما بعد.

الخاصية الثالثة:

لا يكفى أن يكون الحدث خارقا للعادة كى نعتبره آية أو معجزة ، بل لا بد أن يكون هذا الحدث بدون تفسير طبيعى ، فمثلا من الأمور غير المألوفة والخارقة للعادة أن يصطدم مذنب كبير بكوكب الأرض ، لكن إن حدث هذا فى يوم من الأيام فسيكون من الخطأ اعتباره معجزة لأن اصطدام المذنب بالأرض له أسباب مادية تتمثل فى قوة الجاذبية ، والقوى الطبيعية الأخرى. وبالعكس **قد يكون الحدث بلا تفسير مادى ، ولكنه غير خارق للعادة ، ولذا فهو لا يعتبر من المعجزات** ، ومن أمثلة ذلك ظاهرة التخاطر ، وتحقق الأحلام ، والحسد ؛ فهذه الظواهر تفتقر للتفسير المادى ، لكنها شائعة الحدوث بين الناس ، ولذا فهى ليست من المعجزات.

الخاصية الرابعة:

من سمات المعجزة أن مخالفتها للمألوف تكون بالنسبة للزمن الذى وقعت فيه ، فعلى سبيل المثال سنجد أن معجزات من قبيل شفاء الأبرص والأعمى ومعرفة ما يأكله الناس وما يدخرونه

فى بيوتهم قد أصبح من الممكن حدوثها فى العصر الحديث ، ولكنها كانت أحداثا عجيبة خارقة فى عصر سيدنا عيسى عليه السلام.

الخاصية الخامسة:

من خصائص المعجزة أن تجرى على يد إنسان صالح. وعلى ذلك فرغم أن السحر يمثل خرقا للعادة ، ولا تفسير مادى له ، إلا أنه ليس من قبيل المعجزات لأنه يجرى على أيدى السحرة الأشرار الكفار.

الخاصية السادسة:

من السمات المهمة للآية أو المعجزة أن يكون الغرض منها هو البرهنة على صدق قضايا الدين. وما دعانا إلى القول بهذا أمور ، منها أن كلمة (آية) التى يستخدمها القرآن للتعبير عن المعجزة المادية تعنى (علامة) أو (دليل) ، وهذا لا يجوز إلا إذا كان الحدث العجيب يهدف إلى البرهنة على قضية ما. وعلى ذلك **فالحدث الخارق للعادة الذى لا يقصد به البرهنة على قضية دينية فهو لا يدخل فى عداد المعجزات.** ومن هذا القبيل أحداث يوم القيامة مثل احتراق البحار ، وانشقاق السماء ، ونسف الجبال. وهذه قطعا أمور خارقة للعادة ، لكن غرضها ليس إثبات قضايا الدين ، ففى هذه اللحظة لن يكون هناك مجال لإثبات أى شىء لأى إنسان ، وحتى إذا آمن الناس بأن ما يحدث هو من الله فلن يقبل منهم ساعتها أى توبة ، فقد انقضى كل شىء.

ومن قبيل الخوارق التى لا تدخل فى عداد المعجزات حادثة الإسراء والمعراج ، فرغم أنها أمر خارق للعادة ، ولا تفسير مادى له ، **إلا أن الله تعالى لم يفعله كى يبرهن به للناس على صدق رسوله عليه السلام** ، ولهذا نجد القرآن يصف حادثة الإسراء والمعراج بأنها "فتنة للناس" وليس "آية للناس": {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ} [الإسراء: 60]. والفتنة هى الاختبار والابتلاء.

والآية القرآنية التى سبقت هذه (آية 59 من سورة الإسراء) أكدت أن الله تعالى لم يمنح محمد عليه السلام معجزات مادية لإثبات نبوته ، وذلك لأن هذا النوع من المعجزات قوبل بالرفض من الأمم السابقة: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ} [الإسراء: 59]. وهذه الآية

الأخيرة تفرض علينا سؤالا: وماذا عن الإسراء والمعراج؟ أليست هذه معجزة لإثبات صدق الرسول؟ أليس فى هذا تناقض؟ ولهذا عقب القرآن قائلا أن الله عز وجل **لم يكن هدفه من وراء الإسراء والمعراج أن يبرهن على صدق الرسول ، بل أن يختبر درجة تصديق كل واحد من الناس للغيب** ، فيتبين من يَثبُت على الإسلام (كأبى بكر الصديق) – باعتبار أن الإسراء والمعراج مجرد شكل من أشكال الغيب الكثيرة التى جاء بها الإسلام مثل الله والملائكة والجنة والنار – ومن يرتد من ضعاف الإيمان الذين لا يحتملون مزيدا من الغيبيات. وطبعا سيزداد الكافر كفرا ، وسيتخذ من الإسراء والمعراج مادة للسخرية من النبى عليه الصلاة والسلام[7]. واقرأ معى الآيات كاملة:

{وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا

[7]) يجب أن يفهم القارىء المعنى الدقيق لآية الإسراء المذكورة ، وما يربطها بالآيات التالية لها، وهذا المعنى الإجمالى لم يرد من قبل فى كتب التفسير، فانتبه من فضلك:

{وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } [الإسراء: 59]: معناها أن الأولين لم يكتفوا فقط بتكذيب المعجزات ، وإنما تجرأوا عليها ، فرأينا ثمود يذبحون الناقة العجيبة بدلا من أن يتخذون منها آية تقودهم إلى الإيمان بالله. وهكذا فالمعجزة التى أرسلها الله لثمود ليخوفهم بها أدت بهم لمزيد من العناد والجرأة والطغيان ، وهذا مظهر من مظاهر إخفاق المعجزات المادية.

{وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ} [الإسراء: 60]: هذه مقولة اعتراضية. والله تعالى هنا يريد أن يقول للرسول: وإذا كنا قد امتنعنا عن عمل المعجزات المادية فإننا لم نحرمك من المعجزات بشكل كامل ، فقد منحناك يا محمد معجزات من نوع لطيف ، ومن قبيل ذلك صدق قولنا لك أن الله قد أحاط بالناس ، أى صدق نبؤتنا بهزيمة الكفار وانتصار الإسلام ، رغم أن النبوءة قيلت وقت ضيق وضعف وهوان وانكسار للمسلمين.

{وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ } [الإسراء: 60]: هذه أيضا جملة اعتراضية وردت كتعقيب على سؤال قد يتبادر إلى الأذهان بعد سماع الآية السابقة التى أكدت أن الله عز وجل لن يبرهن على صدق دينه باستخدام المعجزات المادية المعتادة. إن السؤال الذى سيقفز للأذهان هو: وماذا عن الإسراء والمعراج؟ أليست هذه معجزة مادية؟ أليس هذا تناقضا؟ والإجابة التى يستبق بها القرآن السؤال هى: أن الإسراء والمعراج لم يكن غرضه التحدى أو إثبات صدق نبوة محمد للناس ، ولكن خُطط له أن يكون فتنة للناس ، أى اختبار يكشف قلوب الناس ، فالمؤمن الحقيقى سيصدق بحدوث الإسراء والمعراج باعتباره مجرد شكل من أشكال الغيب الكثيرة التى جاء بها الرسول مثل الله والملائكة والجنة والنار. أما المؤمن الضعيف فسيرتد عن الإسلام لأنه لا يحتمل مزيدا من الغيبيات. وطبعا سيزداد الكافر كفرا ، وسيتخذ من الإسراء والمعراج مادة للسخرية من النبى عليه السلام.

{وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ} [الإسراء: 60]: هذه أيضا جملة اعتراضية. وهنا يستبق القرآن القارىء مرة أخرى فيرد على سؤال متوقع هو: أليس من الظلم أن يكون الإسراء والمعراج فتنة (اختبارا) للناس مع أنهم لم يشاهدوه بأعينهم؟ وكيف يلام المرء على تكذيبه بشىء لم يره ولم يلمسه؟ وإجابة القرآن تتمثل فى قياس الإسراء والمعراج على شجرة الزقوم. فكما أن شجرة الزقوم غيب ذكره القرآن وصار على المرء أن يصدقه كما يصدق غيره من الغيبات الكثيرة التى وردت فى القرآن مثل الجنة والنار والله والملائكة ، نقول كما أن شجرة الزقوم غيب فكذلك الإسراء والعراج غيب يجب على المؤمن تصديقه طالما آمن من البداية بمحمد نبيا. وقد نجح المؤمنون فى الاختبار ، فصدقوا بوجود شجرة الزقوم ، أما الكفار فاتخذوها مادة للسخرية ، وقالوا كيف تنبت شجرة وتثمر فى وسط الجحيم؟

{وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا} [الإسراء: 60]: هنا يذكر الله تعالى سببا آخر لذكر شجرة الزقوم وذكر الإسراء والمعراج فى القرآن. لقد كان السبب الأول لذكرهما هو "الفتنة" ، أى اختبار الناس ليرى الله من يصدق بالغيب ومن يكذب به ، أما السبب الثانى لذكر الإسراء وذكر شجرة الزقوم فهو أنهما أداتان لتخويف للناس ، فالمفترض أن يخاف المرء من ذلك الإله الذى أعد نارا فى وسطها شجرة ثمرها قبيح المنظر كرءوس الشياطين ، ، ، إذا دخل إلى الجوف مزقه. كما أن من المفترض أن يخاف المرء من ذلك الإله الذى بلغت قدرته أنه استطاع أن يحمل رجلا فى رحلة شديدة الطول فى أرجاء السماء والأرض فى لمح البصر. ولكن رغم هذا التخويف ازداد الكفار طغيانا مثلما ازدادت ثمود طغيانا حين رأوا معجزة الناقة.

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا} [الإسراء: 61]: هذه الآية لا تعبر عن فكرة منقطعة تماما عما سبقها ، فالقرآن هنا يريد أن يقول لمن يصر على مطالبة الرسول بمعجزات مادية تثبت صدق نبوته أن الكفر بالله لا ينبع دائما من غياب الدلائل على وجوده (أى وجود الله) ، فإبليس يعتبر مثالا صارخا لشخصية كانت تعرف الله ، وتوقن بوجوده ، بل تتكلم معه ومع ملائكته ، وتدرك حجم عظمته وجلاله ، ومع ذلك أصر إبليس على عصيان الله لأنه تكبر وانساق وراء غروره ، بل تحدى الله ، وأقسم له أن يضل عباده أجمعين إلى يوم القيامة. إذن العاقل لا يهتم كثيرا بغياب المعجزات المادية فى الإسلام ، فأقصى ما يمكن أن تفعله المعجزات هو أن تجعل الناس يعرفون أن هناك إلها ، ولكن هذه المعرفة لا تؤدى بالضرورة لخضوعهم للإله وتوقيرهم له. إن قصة إبليس ذات مغزى خطير جدا ، فهى تقدم سببا فى غاية الوجاهة يجعل امتناع الله عن تأييد نبيه محمد بالمعجزات المادية ليس كارثة كما يتصور الكثيرون.

الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا} [الإسراء: 59، 60]

وهنا قد يقول قائل: ولكن القرآن استخدم فى الآية الأولى من سورة الإسراء مصطلح "آية" وهو يتكلم عن الإسراء حيث قال: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: 1]. ونحن نرد على ذلك بأن ضمير الغائب (الهاء) فى كلمة (لنريه) يعنى أن الإسراء والمعراج تضمن آيات للرسول عليه الصلاة والسلام وحده (كالنجوم والشموس وسدرة المنتهى والملائكة) ، وليس للناس عامة. والحقيقة أن من المستحيل أن يقول الرسول للناس: "بما أننى طويت هذه المسافات الشاسعة فى دقائق معدودة فعليكم أن تؤمنوا بى" ؛ هذا غير ممكن لأن الناس من الأصل لم يشاهدوا الإسراء ولا المعراج كى يدركوا من خلاله مدى قدرة الله وعظمة ملكوته. وعلى ذلك فقد كان الإسراء والمعراج ذا وجهين: "آية" للرسول من ناحية ، و"فتنة" للناس من ناحية أخرى.

ومن الأمور الخارقة الأخرى التى وردت فى الآية 60 من سورة الإسراء "الشجرة الملعونة" ، أى شجرة الزقوم التى تنمو وتترعرع فى قلب جهنم ؛ فرغم أن هذا حدث خارق للعادة إلا أن الله تعالى لم يقصد بذكره البرهنة على صدق قضايا الدين لأن الناس لم يروا من قبل شجرة تنمو فى قلب النار ، ومن غير المعقول استخدام شىء غيبى للبرهنة على شىء غيبى آخر. إن **شجرة الزقوم مثل الإسراء والمعراج: أمر أخبر به الله الناس ليختبر مدى تصديقهم لقضايا الدين الغيبية ، كما أنه يعتبر من قبيل تخويف الناس من الآخرة ، ولذا فشجرة الزقوم ليست معجزة.**

ومن الأمور الخارقة للعادة التى لا تعد معجزة ما حدث للسيدة مريم بعد ولادتها ، حيث جعل الله تعالى قناة من الماء تسرى بجوارها ، وجعل التمر يتساقط عليها من النخلة بمجرد هزة خفيفة. ولا يمكن اعتبار هذه معجزة بل هى أقرب للنعمة والفضل والمنة ، فقد فعلها الله تعالى أساسا ليكرم مريم ويُذهب عنها الجوع والعطش والهم ، ويوفر عليها عناء البحث عن الزاد ، وهى فى غاية الإعياء والحزن والخوف بعدما جرى لها بعيدا عن أهلها ، حتى أنها تمنت الموت: { فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا } [مريم: 23]. وقد

جاءتها المواساة من السماء ، فسمعت من المولود[8] كلاما هدأ من روعها: {فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا} [مريم: 24، 26]. ولاحظ معى قول القرآن: (ألا تحزنى) ، وقوله: (فكلى واشربى وقرى عينا) ، ولاحظ عدم وصف التمر والماء بالآية ، فلم يقل مثلا: (فتلك آية من الله). ثم كيف يقال أن النهر والتمر آية مع أن من بشرها بهما هو طفلها المولود؟ لقد كان كلام المولود هو الآية الطاغية على المشهد فى تلك اللحظة ، وهذا هو ما أدهش مريم ، وأدهش قومها فيما بعد ، لأن أحدا لم ير شيئا كهذا من قبل ، أما مجىء الطعام والشراب لمريم بطريقة عجيبة فقد كان أمرا سبق أن تعودت عليه منذ أن كانت صبية تتعبد لله فى خلوتها: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: 37]. والأمر الذى يحدث للإنسان مرار يفقد بمرور الوقت شيئا من قدرته على البرهان والإقناع.

وسنجد أيضا أن بعض **الأحداث الخارقة جرت على يد رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام** ، ولكنها أقرب لباب النعمة والفضل منها لباب التحدى والبرهنة على صدق الرسول ، ومن قبيل ذلك البركة فى الطعام وفى ماء الوضوء. ومثل هذه العجائب لا تدخل فى عداد المعجزات أو الآيات المادية كما سنرى فيما بعد.

وهذا الرأى الذى قدمناه هنا يتفق مع رأى الأشاعرة عن المعجزات ، وفى هذا يقول الباقلانى:

> (وأما ما يدل على أنه لا يكون معجزا إلا إذا فُعل عند احتجاج الرسول به لصدقه وتحديه بمثله ، فهو أنه قد ثبت أنه ليس بمعجز لجنسه ، وأن الله عز وجل لو ابتدأ بفعله – نحو أن يحيى ميتا ويُطلع الشمس من مغربها ويزلزل الأرض ويظلنا بالسحاب– لا عند دعوى أحد للرسالة وكون ذلك آية له ، لم يكن ما يفعله الله سبحانه من ذلك معجزا ، وإن كان من جنس المعجز. **فلذلك لا يكون إحياء الأموات يوم القيامة وإطلاع الشمس من مغربها وطي السماوات وأمثال ذلك من آيات الساعة آية لأحد وإن كان مثله وما هو من جنسه لو فعل فى وقتنا هذا عند تحدى الرسول لكان آية له وحجة**

8) يرى بعض المفسرين أن من كلم مريم كان جبريل ، وليس عيسى عليهما السلام.

لنبوته. فهذا من أقوى الأدلة وأصحها على أن **المعجز ليس بمعجز لجنسه ونفسه** ولا لحدوثها وإنما يصير معجزا للوجوه التى ذكرناها ، **ومنها التحدى والاحتجاج).**[9]

وفى المقابل قرأت كلاما لشيخ الإسلام ابن تيمية ينكر فيه أن يكون "التحدى" من خصائص المعجزة:

(إنّ الدليل الدالّ على المدلول عليه، ليس من شرط دلالته استدلال أحدٍ به، بل ما كان النظر الصحيح فيه موصلاً إلى علمٍ، فهو دليل، وإن لم يستدلّ به أحدٌ؛ فالآيات أدلةٌ وبراهين تدلّ سواءٌ استدلّ به النبيّ، أو لم يستدلّ. وما لا يدلّ إذا لم يُستدلّ به لا يدلّ إذا استدلّ به، ولا ينقلب ما ليس بدليلٍ دليلاً إذا استدلّ به مدّعٍ لدلالته.)[10]

والذى لا أشك فيه أن رأى الأشاعرة فى هذه النقطة هو الصحيح ، وذلك لما سبق أن قلناه (وهو كاف) ، أما قول ابن تيمية أن الدليل يبقى دليلا حتى لو لم يستدل به أحد فهو فى رأينا خطأ لأن كلمة "آية" أو "دليل" لا تطلق على الفعل إلا إذا ورد فى سياق شك وبرهان ؛ فمثلا إن رأيت الأم تعطى ابنها الدواء ، فسيكون من الغريب أن تقول هذا "دليل" على أنها تحب ولدها ، لأن هذا السلوك هو المتوقع من كل الأمهات ، لكن إن كان السياق يتضمن شكا (كأن يكون بعض الناس قد أشاعوا أن هذه الأم سئمت من رعاية ابنها لأنه مشلول ومتخلف عقليا) ، فهنا يمكن أن يقال أن إعطاء الأم الدواء للابن "دليل" على حبها له وصبرها على مرضه. وعلى ذلك فليس من الجائز خلع صفة "آية" أو "دليل" على حدث فى سياق لا يتضمن شكا ولا برهانا.

وبشكل عام نقول أن **الفعل الواحد قد يكون له مدلولات مختلفة بل متعارضة** ، فمثلا قد يستعير الرجل سيارة جاره كى يُشعر جاره بأنه لا يتكبر عليه ، وأنه واحد من الأسرة ، لكن فى أحيان أخرى يستعير الرجل سيارة جاره حتى يحافظ على سيارته الخاصة من التلف. وشتان بين مدلول نفس الفعل فى الحالتين! وبالمثل قد يصيب الله تعالى إنسانا بالمرض كى يعاقبه على ذنب فعله، وقد يصيب إنسانا آخر بالمرض لأنه تعالى يعلم أنه سيصبر ، وسينال المغفرة بصبره على المرض. وشتان بين المرض هنا ، والمرض هناك.

---

[9]) **كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات**. صفحة 47-48. تأليف القاضى أبو بكر من بن الطيب بن الباقلانى.

[10]) **النبوات لابن تيمية** (1/ 500).

وهكذا يتجلى أن **الحدث الخارق للعادة قد يفعله الله تعالى ذات مرة ليكون معجزة أو آية** (مثل عصا موسى) ، **ومرة ثانية ليكون فتنة أو ابتلاء** (كالإسراء والمعراج) ، **ومرة ثالثة ليكون فضلا من الله ونعمة** (مثل كرامات رسولنا وصحابته وكذلك سريان الماء وسقوط التمر على مريم بعد الولادة).

وما يحزننى أن بعض المسلمين يتحزب ويتعصب لرأى هذا الشخص أو ذاك ، مع أنه لا أحد من العلماء ادعى لنفسه العصمة من الخطأ ، كما أن موضوع المعجزات بطبعه موضوع فلسفى يكتنفه الغموض ، ويحتمل الأخذ والرد واختلاف الآراء ، وليس من أركان الدين أن يعتنق المسلم تعريفا بالغ الدقة للمعجزات ، وليس كل مبحث من المباحث التى درج العلماء على تناولها فى كتب علم الكلام يدخل فى صلب عقيدة المسلم. ومن أشد ما يغيظ أن تجد مسلما ينتصر لرأى ابن تيمية رحمه الله فى موضوع كالمعجزات وهو يظن أن رأى ابن تيمية يمثل دائما السنة والمنابع الصافية التى جاء بها الرسول والصحابة ، مع أنه لا القرآن ولا السنة ولا الصحابة جاءوا لنا بنظريات فلسفية واضحة حول هذه الأمور. أقول هذا ، وأنا لا أنتمى للأشاعرة ، ولا لغيرهم ، بل ستجد فى هذا الكتاب أننى خالفت الأشاعرة فى موضوع السببية. وأنا على يقين أن المسلم يجب أن يكون مفتوح الأفق ، وأن يأخذ من كل فريق ما قام عليه البرهان. ومن العجيب أن يتبنى البعض مبدأ "الدليل" ، وفى نفس الوقت يتعصب مسبقا لكل كلام ابن تيمية ، وكأنه يكرر نفس الخطأ الذى حاول ابن تيمية إصلاحه حين ثار على تقديس الناس لمشاهير العلماء ، ودعا لتغليب الدليل. ولو عاش ابن تيمية إلى يومنا هذا ، ورأى الناس يضفون هالة من القداسة على مذهبه – كما فعلوا من قبل مع مالك وابن حنبل وأبى حنيفة والشافعى – لهاله ما يرى. وهنا أؤكد أن كلامى هذا يجب ألا يؤخذ على أنه دعوة للتسامح مع تلك المذاهب الغارقة فى الضلال والكفر مثل الشيعة. أنا فقط أتمنى أن يود السلام بين فصائل أهل الحق من المسلمين ، وأن نوسع بعض الشىء من العباءة التى يشتمل بها المسلمون الصالحون.

وفى نهاية هذا الجزء نحب أن نوضح أن **قولنا بأن المعجزات أو الآيات غرضها إثبات صدق قضايا الدين لا يتناقض مع قول القرآن أن الله تعالى يرسل الآيات للتخويف فقط:** {وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} [الإسراء: 59]. وفى رأينا أنه لا تناقض بين كون الآيات للتخويف ، وكونها

لإثبات صدق الرسل ، وذلك لأن الناس كثيرا ما يكونون عالمين بصدق الرسل ، ولكنهم يمتنعون عن الإيمان بسبب الكِبر والمصالح الدنيوية ، وهنا يأتى دور المعجزات التى تشعر الإنسان بوجود قوة خارقة فوق قوى الطبيعة المعروفة ، فيدب الخوف فى قلبه ، ويشعر بضرورة الخضوع والإيمان لأنه لا قِبَل له بمقاومة هذه القوة الرهيبة. **إذن التخويف يؤدى إلى البرهان والهداية، فالبرهان ليس عملية عقلية محضة بل هو عملية عقلية وقلبية فى نفس الوقت ، وربما كان تأثير القلب فيها أقوى من تأثير العقل.** إذن الله تعالى يخوف الناس بالمعجزات ، وهذا الخوف يؤدى بهم إلى الإيمان بصدق الرسل ، ومن هنا صدق القرآن حين أخبرنا أن الله يرسل الآيات فقط للتخويف ؛ فالخوف يؤدى إلى تصديق الناس للرسل والاستدلال على صدق قضايا الدين. الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الخاصية السابعة:

من خصائص المعجزات أنها تجرى فى العادة على يد نبى ، لكنها فى بعض الأحيان يمكن أن تقع فى غياب الأنبياء ؛ فعلى سبيل المثال وقعت معجزة أهل الكهف فى العالم المسيحى بعد موت عيسى عليه السلام بفترة طويلة وأدخلها القرآن فى عداد الآيات المادية: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا} [الكهف: 9]. وقد اعتبرها القرآن آية لأنها برهنت للناس على صدق قضية البعث والقيامة: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا} [الكهف: 21].

الخاصية الثامنة:

كثيرا ما تمثل المعجزات خرقا فجا صارخا ضخما للعادة من حيث الكم أو الكيف أو الاثنين معا ؛ فمثلا إحياء عيسى عليه السلام للموتى يمثل خرقا نوعيا (كيفيا) للعادة ، أما شق البحر بعصا موسى وكذلك رفع الجبل فوق رءوس بنى إسرائيل ، فكلاهما نموذج لخرق كمى وكيفى للعادة. وإذا ذهبنا إلى لقاء التحدى بين موسى عليه السلام والسحرة لوجدنا فيه تفوقا كميا واضحا

للمعجزة ؛ فقد التهم ثعبان موسى وحده كل الثعابين الأخرى ، وإن كانت هذه المعجزة فى الحقيقة تتضمن كذلك خرقا نوعيا للعادة[11].

وهذه الأمثلة تكشف عن أحد أوجه تميز المعجزة عن غيرها من الأشكال الأخرى لخرق العادة كالسحر والكرامة التى تتميز بالضآلة الكمية والنوعية ؛ فلم يحدث أبدا أن تمكن ساحر من إحياء ميت ، ولم نسمع من قبل أن أحد شيوخ الصوفية قد شق بحرا بعصاه ، أو رفع جبلا فوق الرءوس. وكل ما عرفه الناس عن أعمال السحرة وكرامات الأولياء لا يتجاوز خرقا خفيفا للعادة. وسنرى فيما بعد أن الكرامات التى ثبت فى السنة النبوية أنها حدثت لصحابة الرسول عليه الصلاة والسلام مثلت هى الأخرى خرقا خفيفا لطيفا للعادة ، ولم تكن على الإطلاق أحداثا ضخمة تخرق العادة بشكل صارخ فج.

ورغم ذلك فيجب ألا يفهم أن المعجزة "دائما" حدث ضخم ؛ نحن فقط نقول أن المعجزة "فى أغلب الأحيان" تمثل خرقا ضخما للعادة ، لكن بعض المعجزات تكون من النوع الخفيف مثل إخبار عيسى عليه السلام لقومه بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم. أريد أن أقول أن من دواعى قبول العمل الخارق واعتباره معجزة من الله أن يكون متسما بالضخامة ، لكن لا يزال من المحتمل أن يكون الخرق الخفيف للعادة معجزة ، أو يكون أمرا آخر كالكرامة والسحر.

الخاصية التاسعة:

قد يفعل الله تعالى المعجزة من أجل واحد أو أكثر من الناس. ومن أمثلة المعجزات التى كانت تستهدف هداية إنسان واحد فقط معجزة إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام حين سأل الله أن يريه كيف يحيى الموتى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: 260].

[11]) فى الحقيقة تفوقت معجزة موسى على عمل السحرة تفوقا "نوعيا" لأن موسى تمكن من خلق كائن حى ذى روح هو الثعبان ، وهذا فعل خص به الله عز وجل نفسه ، ولم يمنحه لأحد من الخلق. والسحرة لم يخلقوا ثعابين بل أوهموا الناس أنهم فعلوا ذلك ، وخدعوا أبصارهم ، بدليل قول القرآن: {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} [طه: 66]. ورغم ذلك فما ظهر للناس هو أن موسى تفوق من ناحية "الكم" لا "الكيف" لأن الناس لا يمكنها أن تدرك الفرق النوعى بين ثعابين موسى الحقيقية وثعابين السحرة الزائفة.

الباب الثانى: هل المعجزات مستحيلة؟

افتح يا سمسم !!!

هل تذكرون فيلم "على بابا والأربعين حرامى" لعلى الكسار وإسماعيل ياسين؟ حين كنا صغارا كانت قمة الدهشة والإثارة بالنسبة لنا أن نرى "على بابا" واقفا أمام باب مغارة اللصوص ثم يقول: "افتح يا سمسم" ، فينفتح الباب تلقائيا دون أن تمتد إليه يد. ولما كنا نسأل الكبار عن هذا الباب العجيب كان الرد المعتاد هو أن هذه مجرد حكايات خيالية ينفذها مخرج بارع فى صنع الخدع السينمائية.

ولكن ما هى إلا خمس وعشرون سنة فقط حتى رأيت المعجزة تتحقق أمام عينى بدرجة تفوق الفيلم روعة. لقد استطاع العلماء أن يبتكروا أبوابا زجاجية تفتح تلقائيا بمجرد اقتراب الشخص منها حتى دون أن يشير أو يقول: "افتح يا سمسم" ، وكأن الباب له عين ترى ، وعقل يفهم. ولما رأيت هذا الباب لأول مرة فى إحدى المستشفيات الخاصة تذكرت على الفور فيلم على بابا ، وقلت: سبحان الله من كان يصدق أن شيئا مثل هذا يمكن أن يحدث فى يوم من الأيام؟

ومن كان يتخيل أيضا أنه سيأتى يوم تستطيع فيه أن ترى صديقك وتتحدث معه وجها لوجه حتى لو كان بعيدا عنك بآلاف الأميال؟ كيف أصبح بإمكان الإنسان أن يخترق ببصره المبانى والأشجار والغابات والجبال والظلمات ، ليطلع على ما يحدث على الجانب الآخر من الكرة الأرضية؟ لقد أصبح هذا سهلا اليوم من خلال المكالمات الهاتفية المصورة والإنترنت والأقمار الصناعية. ولو رأى أجدادنا هذا لأصيبوا بالسكتة القلبية.

وسلسلة المعجزات التى تحققت فى العصر الحديث طويلة ، ومن الصعب حصرها: لقد أصبح بالإمكان السفر حول الكرة الأرضية فى ساعات معدودة ، بل تحقق حلم الصعود إلى القمر ، وأصبح من الممكن أن ينقل الأطباء قلبا أو كبدا أو كلية أو رئة من شخص سليم إلى شخص آخر مريض لإنقاذه من موت محقق. كما أصبح بالإمكان معرفة نوع الجنين قبل ولادته ، ومعرفة كثير من الأمراض الوراثية التى سيصاب بها فى المستقبل ، والأدوية التى سيستجيب لها ، وتلك التى قد تضره. وأصبح بالإمكان إجراء جراحات للأجنة قبل الولادة، بل وصل الأمر إلى

أن أصبح بإمكان الأبوين أن ينجبا ذكرا أو أنثى حسب هواهمها. من كان يتخيل هذا؟ أكان لرجل من الفراعنة أن يصدق أن من الممكن له أن يحمل فى صدره قلب صديقه المتوفى؟ وهل كان من الممكن لفيلسوف إغريقى أن يصدق أن بإمكانه أن يحمل ملايين الكتب الموجودة فى مكتبة الإسكندرية على جهاز صغير فى يده دونما حاجة لأطنان الأوراق؟ وهل كان لفارس رومانى مغوار أن يتخيل قدرته على النيل من أعدائه ، وهو جالس على مكتبه يحتسى القهوة ، وذلك من خلال الضغط على زر صغير ، يترتب عليه إطلاق سيل من الصواريخ النووية، فتمحو شعوبا بأكملها من على الخريطة فى دقائق معدودة؟ ولو قدر لأناس من العصر الحجرى أن يعودوا إلى الحياة اليوم لأصابهم مس من الجنون ؛ يكفى أن يروا المصابيح الكهربية وهى تحول الليل إلى نهار ، يكفى أن يركبوا مصعدا داخل أحد الأبراج الشاهقة ، أو يستقلوا طائرة تحلق بهم فوق السحاب ، بل يكفى أن يشاهدوا طفلا وهم يمسك بجهاز التحكم عن بعد (الريموت كونترول) ليحرك به سيارة صغيرة للأمام والخلف على سبيل اللهو.

إننا لا نشعر بمدى الإعجاز الذى وصلنا إليه اليوم لأنه حدث بتدرج شديد ، ولأننا ولدنا ، ووجدناه معنا ، فألفناه ، لكنك لو وضعت نفسك مكان الإنسان القديم لأدركت هول التغير.

لقد أثبت العلم الحديث بشكل قاطع **أن "المستحيل" شىء "نسبى" فى كثير من الأحيان ، وأن شيئا "مستحيلا" فى ظرف معين قد يصير "ممكنا" بل "يسيرا" فى ظرف آخر** بفضل تطور التقنية (التكنولوجيا). ومن الحماقة الشديدة أن يستهزىء الملحد بمعجزات القرآن ، فما أغبى من لم يتعلم من دروس الواقع المعاش.

من فضلك أيها الملحد: تعقل قليلا ، فالإيمان بالمعجزات لا يتطلب منك أكثر من أن تنظر حولك. **لقد صنعت التكنولوجيا المعجزات ، أفلا يصنعها الله؟!**

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

منطق بسيط لكنه حاسم

لم أكن أتصور فى يوم من الأيام أننى سأكتب لأبرهن على إمكان حدوث المعجزات. لقد كانت المشكلة الرئيسية لى دوما هى إثبات وجود الله ، فإن ثبت وجود إله قادر تأكدت بقية قضايا الدين على الفور ، بما فى ذلك قدرة الله على خرق العادة وإحداث المعجزات. وبالفعل حُسم كل شيء بالنسبة لى حين آمنت بوجود الله من خلال الأدلة العلمية والفلسفية والخبرات الشخصية. ولكن مرت السنوات ، وأطل علينا الإلحاد بوجهه القبيح ، وجداله السقيم ، فأثار الغبار حول المعجزات ، وسمعنا كلاما سخيفا يردده أقزام يزعمون أنهم تركوا الدين لأنه يفرض عليهم الإيمان بخوارق لا يقبلها العلم.

إننى أؤكد أن من يؤمن بالله فليس فى حاجة حقيقية لقراءة هذا الكتاب. يكفيك أن تعرف أن هناك إلها ، وأن هذا الإله ذو قدرة مطلقة ، وحينئذ سيكون من الطبيعى أن تتوقع من هذا الإله أن يفعل كل ما يريد. وقبل أن تسأل: كيف تحدث المعجزة؟ فعليك أن تسأل: معجزة بالنسبة لمن؟ بالنسبة لله؟ كيف ، والله لا يعجزه شيء؟ إن الإله الذى خلق هذا الكون الضخم البديع لن يستعصى عليه أن يجرى معجزة ، فالمعجزة – مهما بدت صعبة– هى أهون من خلق هذا الكون وذلك لسببين:

أولا: خلق الله الكون من عدم ، أما المعجزة فهى تتضمن فى الغالب إحداث تغيرات فى أشياء موجودة بالفعل ، ولا شك أن الخلق من العدم أصعب كثيرا من تحويل شيء لشيء آخر ، فمثلا شق موسى للبحر أيسر من خلق البحر نفسه ، وخلق عيسى من أم فقط أيسر من خلق آدم من تراب بلا حياة ، وإبراء يد موسى أيسر من خلق اليد نفسها.

ثانيا: من البديهى أن كل المعجزات التى جرت على أيدى الأنبياء هى أقل حجما من خلق الكون كله. إن خلق الكون ككل هو أضخم معجزة عرفها الإنسان ، ولا شك أن مَن خلق الكون كله فلن يكون عسيرا عليه أبدا أن يكرر التجربة على نطاق محدود ، فمثلا ليس من الصعب على الإله الذى خلق آلاف البلايين من الكائنات الحية أن يخلق ثعبانا ابتداء من عصا أو يخلق رجلا بلا أب.

وعلى ذلك **فحين نتكلم عن معجزة ما فعلينا أن نتذكر باستمرار أننا لسنا فقط أمام "فعل" عجيب ، ولكننا أيضا أمام "فاعل" عجيب قادر على عمل كل شيء .**

آمنوا أولا بوجود الله ، وبعدها ستختفى مشكلة المعجزات نهائيا لأنها مجرد مشكلة فرعية وليست مشكلة أصلية. ومن أسخف الأمور أن يكفر إنسان بالله بسبب عجزه عن تصديق المعجزات. هذه طفولة فكرية ومراهقة فلسفية أشبه بوضع العربة أمام الحصان أو بطفل أراد أن يدرس نظرية النسبية قبل أن يتعلم جدول الضرب.

إن منكرى المعجزات قد ضلوا نقطة البداية الصحيحة.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله رب العالمين.

الكون نظام مفتوح

ننتقل الآن من المنطق البسيط إلى منطق أكثر تفصيلا ، فنتساءل: هل الكون نظام مغلق أم نظام مفتوح؟

نقول أولا أن النظام هو مجموعة من العناصر أو الوحدات أو الأشياء التى تتفاعل مع بعضها لتحقيق هدف مشترك. والنظام المفتوح هو نظام يسمح بدخول المادة والطاقة إليه ، وخروجهما منه ، أما النظام المغلق فلا يسمح لشيء أن يدخل إليه أو يخرج منه[12]. ولو كان الكون الطبيعى الذى نحيا فيه نظاما مغلقا لكان معناه أن من غير الممكن دخول أى مواد أو أشياء من خارج الكون إليه ، وأنه لا توجد أى قوة من خارج الكون قادرة على التأثير عليه ، وأن كل شيء يحدث فى الكون مرده فقط إلى الأسباب الكونية الطبيعية ، وهذا وينفى حدوث المعجزات. أما القول بأن الكون نظام مفتوح فمعناه أن من الممكن دخول أشياء إلى كوننا من خارجه ، وأن هناك قوى من خارج الكون قادرة على التأثير على مجريات الأحداث فيه ، وهذا يسمح بحدوث المعجزات.

---

[12]) إن شئنا الدقة فهناك فرق بين النظام المغلق Closed system والنظام المعزول Isolated system. النظام المغلق يسمح بتبادل الطاقة لكنه لا يسمح بتبادل المادة (مثل إناء مغطى يحتوى على الشوربة ، موضوع فوق الموقد). أما النظام المعزول فلا يسمح بتبادل المادة والطاقة مثل ترموس الشاى Thermos. والنظام المعزول فكرة نظرية وتكاد تكون غير موجودة فى الطبيعة.

ولقد اعتقد ديفيد هيوم وكثيرون غيره أن الكون نظام مغلق. وهذا الاعتقاد –كما يقول جلوبر أروجو– "يؤيد التصور القائل بأن كل شيء في الكون تحدده قوانين الطبيعة. وهو يستبعد احتمال وجود تأثير خارجي على النظام ، تاركا هذا النظام كي يتم تنظيمه وتوجيهه بواسطة قوانينه الخاصة (الكون المغلق)"[13].

إن القول بأن الكون نظام مغلق يعني أن من غير الممكن أن تدخله مادة أو طاقة أو شحنة جديدة من خارجه ، ومن غير الممكن فناء مادة أو طاقة أو شحنة موجودة به ، وهذا خلافا لما درسناه في المرحلة الإعدادية عن **قانون بقاء الطاقة** (أو حفظ الطاقة) الذي يقول بأن الطاقة لا تفنى ولا تُستحدث. **واعتبار أن الكون نظام مغلق يجعل المعجزات مستحيلة التحقق لأن الأسباب الطبيعية لا تؤدي إلا إلى ظواهر طبيعية ، لكن افتراض أن الكون نظام مفتوح يتدخل فيه الإله يسمح على الفور بحدوث المعجزات** من خلال إدخال قوى أو طاقات أو مواد أو شحنات جديدة غير مألوفة إلى الكون ، فسيصبح من السهل عمل أي شيء عجيب. ويعبر أحد الفلاسفة عن هذا المعنى قائلا:

> **بإنكار أن الكون نظام مغلق تنطبق عليه قوانين الحفظ**[14] Conservation laws **بشكل ملائم فإننا نفتح الطريق للمعجزات.** يمكنك أن تدعو هذا ب "تكتيك النظام المفتوح". وطبقا لوجهة النظر هذه فإن **كل النشاط الإعجازي يتحقق من خلال الخلق والإفناء للمادة الطبيعية.** ولا يوجد انتهاك للقوانين الديناميكية ، أو التفاف حولها حتى في لحظة حدوث المعجزة مثلما كان الأمر في حالة "تكتيك الإعفاء". كل المادة المخلوقة حديثا تخضع لكل القوانين الديناميكية كالمعتاد. وعلى سبيل المثال فإن **تحول**

---

[13]) **Miracles and Natural Law: Are They Compatible?** By Glauber S. Araújo. Journal of the Adventist Theological Society, 28/2 (2017): 120-138.

[14]) قوانين الحفظ (أو البقاء) في الفيزياء هي مجموعة من المبادىء التي تقرر أن بعض الخصائص الفيزيائية لا تتغير بمرور الزمن داخل نظام فيزيائي معزول Isolated system . ومن أمثلة هذه القوانين قانون حفظ الطاقة ، وقانون حفظ الكتلة ، وقانون حفظ الشحنة ، وقانون حفظ الزخم (كمية التحرك) ، وقانون حفظ الزخم الخطي ، وقانون حفظ الزخم الزاوي. انظر الموسوعة البريطانية:

Conservation laws: https://www.britannica.com/science/conservation-law; accessed December 17, 2019

الماء لخمر يمكن إحداثه ببساطة من خلال إفناء بعض المياه ، وخلق كل الجزيئات التى تُكون الخمر"[15].

ويقول الفيلسوف لارمر:

"**إن القول بأن معجزة قد حدثت يتناقض إذن ليس مع قوانين الحفظ** Conservation laws **بل مع الزعم الميتافيزيقى القائل بأن الطبيعة نظام معزول ، غير مفتوح أمام فعل الله**".[16]

وكلام لارمر يستند إلى رفضه لمبدأ الفيزيائية أو الطبيعية Physicalism الذى يتضمن إنكار وجود الأشياء غير المادية والأسباب غير الطبيعية.

هل تجد صعوبة فى استيعاب الفكرة؟ دعك من الكلام النظرى ، وتأمل هذا المثال المهم:

تخيل أن سفينة محملة بالركاب قد غرقت ، فمات كل من عليها ، ولم ينج إلا طفل عمره سبعة أشهر قذفت به الأمواج على شاطىء جزيرة مهجورة. إذا جاع هذا الطفل فكيف يتغذى؟ هناك زجاجة من اللبن طارت من السفينة أثناء تحطمها لتقع خلف جبل صغير ، ولكى يتغذى الطفل فلا بد أن يتسلق الجبل ليصل إلى زجاجة اللبن ، ثم يفتحها ويشرب ما فيها. لدينا فى هذه الحالة "نظام" من ثلاثة عناصر رئيسية هى الطفل والجبل وزجاجة اللبن ، ولا شىء آخر ذى بال. ولو كان هذا النظام "مغلقا" لمات الطفل من الجوع لأن من المستحيل على طفل رضيع أن يتسلق الجبل ، وإن تسلقه ووصل إلى زجاجة اللبن فمن المستحيل أن يتمكن من فتحها ، كما أن من المستحيل أن تتحرك الزجاجة وحدها لتصل إليه ، ومن المستحيل أيضا أن يزول الجبل الفاصل بينهما كى يحبو الطفل ويصل إلى الزجاجة. ولئن وجدنا الطفل يمسك بزجاجة اللبن ويشرب منها فسنهتف: "هذه معجزة" ، ولكن إن علمنا أن أحد الرحالة قد وصل مصادفة إلى الجزيرة ، فرأى

---

[15]) **Miracles: metaphysics, physics, and physicalism.** By: Kirk McDermid**.** Religious Studies 44, 125–147; 2008. Cambridge University Press.

وتؤكد مبرهنة نيثر Noether theorem أن قوانين الحفظ ذات طابع سببى مثلها مثل القوانين الديناميكية تماما، وانتهاك أحد قوانين الحفظ يصاحبه بالضرورة انتهاك للقوانين الديناميكية. ويحاول البعض إحداث توافق بين تكتيك النظام المفتوح وبين هذه المبرهنة بالقول بأنه بدلا من الخلق والإفناء السابق ذكرهما يوجد انتقال للمادة بين الكون الفيزيائى والكون غير الفيزيائى ، وبذلك تسرى قوانين الحفظ على العالم الفيزيائى المادى والعالم غير المادى فى نفس الوقت.

[16]) **المرجع السابق.** صفحة 127

الطفل ، وحمله ، وأحضر زجاجة اللبن ، وفتحها ، وسقاه ، فلن نندهش قط. **هنا تحققت المعجزة لمجرد أن النظام الذى حسبناه مغلقا قد تبين لنا أنه نظام مفتوح بعد أن دخلت إليه مادة وقوة من خارجه** متمثلة فى الرحالة الذى حط على شاطىء الجزيرة.

والمثال السابق فى غاية الأهمية ، فهو يثبت لنا أن المستحيل أمر نسبى ، وهو يرجع لعدم كفاية الأسباب الذاتية داخل النظام، لكن إن توافرت أسباب خارجية فمن الممكن تحقيق المعجزات. **إن الفرق بين الممكن والمستحيل قد يكون خطوة أصغر مما نتخيل.** يجب أن نفكر فى أمر المعجزات بهذا المنطق ، فالمعجزات تصبح أمورا ممكنة إن افترضنا أن الكون نظام مفتوح ، أى أن هناك قوة إلهية من خارجه تتدخل فيه كما تشاء. هنا تصبح كل المعجزات فى غاية السهولة ، مثلما لا نشعر بأى غرابة حين نرى الرحالة يلتقط الطفل ويطعمه. إن ما فعله الرحالة مع الطفل أمر عادى للغاية ، وهذا يبرهن على أن تحقيق المعجزة قد لا يتطلب أكثر من وجود سبب بسيط ، لكنه رغم بساطة هذا السبب فهو قادر على أن يقلب الموازين ويحقق المستحيلات. إن المعجزات ليست فى ذاتها أمورا مستحيلة ، ولكنها أمور تفتقر لوجود مادة أو قوة من خارج النظام (الكون) ، فإن توافرات هذه المواد والقوى تحققت المعجزات. فقط عليك أن تقتنع بأن الكون نظام غير مغلق. انظر على سبيل المثال إلى معجزة شق موسى عليه السلام للبحر بعصاه. إن الكون لو كان نظاما مغلقا لقلنا أن شق البحر غير ممكن لأنه لا شىء فى الكون يقدر على ذلك ، فموسى بقوته البشرية لا يستطيع ، ولا العصا الضعيفة تستطيع ، ولا الريح تستطيع ، ولا الزلازل تستطيع ، ولا أى قوة طبيعية تستطيع شق البحر ، وضرب طريق جاف فى وسطه ، لكن إن افترضنا أن هناك قوى وموجودات غير طبيعية تستطيع أن تدخل إلى كوننا أو تؤثر عليه من بُعد فسيكون من الممكن حينئذ شق البحر.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

هل تمثل المعجزات خرقا لقوانين الطبيعة؟

كثيرا ما يتساءل الملحدون: كيف تكون قوانين الطبيعة قوانين بحق مع أن من الممكن خرقها فى لحظة من اللحظات عن طريق المعجزات؟ أليس القانون هو ذلك المبدأ الذى يحدد للطبيعة كيف تسلك؟

ونحن نرد على ذلك مؤكدين أن المؤمن ليس مضطرا للقول بأن المعجزات تمثل خرقا لقوانين الطبيعة. وسواء اعتقد المرء أن من الممكن خرق قوانين الطبيعة أو أن من المستحيل خرقها فسيظل من الممكن الإيمان بالمعجزات. ولذا فنحن نفضل القول بأن المعجزات تمثل خرقا للعادة، وليس خرقا لقوانين الطبيعة كى نتجنب هذا الجدل.

ومن يصر على إنكار المعجزات لأنه يرفض القول بأن من الممكن خرق قوانين الطبيعة فإننا نقول له ما يلى:

إن علينا أن نعلم أن قوانين الطبيعة التى يعرفها العلماء حاليا –وتلك التى سيعرفونها فى المستقبل– ليست سوى قمة جبل جليد معظمه خاف عنا. والكون المعروف لنا ليس هو كل شىء فى الوجود ، فهناك عالم آخر غيبى لا نعرف شيئا عن بنيته ، ولا مكوناته ، ولا قوانينه.

وقد شاع بين الفلاسفة تصنيف الوجود إلى شيئين: "الطبيعة" و "ما وراء الطبيعة" ، لكن القرآن يقدم تصنيفا أدق للوجود إلى: "عالَم الغيب" و "عالَم الشهادة": قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [الرعد: 9] ، وقال: {عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [المؤمنون: 92].

وتصنيف القرآن أدق من التصنيف الشائع لأن عالم الطبيعة الذى نشاهده والذى يخضع لدراسة العلماء يحتوى على كثير من الغيبيات ، فمثلا ما يحدث للجسيمات الذرية أغلبه خاف عنا ، وغيب بالنسبة لنا ، ويكفى أن أقول لك أن العلم الحديث لا يعرف من الأساس هل الجسيمات الأولية –كالإلكترونات والبروتونات– هى فعلا "جسيمات" أم "موجات" أم اهتزازات فى

"مجالات" أم "شيء رابع"[17]. والفضاء الذى نعيش فيه قد يكون مكونا من أبعاد ميكروسكوبية تختلف عن الأبعاد المكانية الثلاثة المعروفة (الطول والعرض والارتفاع). والكون الذى نعيش فيه يتكون أساسا – كما يؤكد العلماء – مما يعرف بالمادة المظلمة Dark matter والطاقة المظلمة Dark energy التى لا يعرف أحدا ما شكلها وما خصائصها. وما يجرى داخل مسافة بلانك وزمن بلانك يستحيل أن نعرفه مهما بلغت دقة الأجهزة التى يمكن أن نخترعها.

إذن **ما يسميه العلماء والفلاسفة بالطبيعة هى فى الحقيقة مزيج من الغيب والشهادة** ، ونحن غارقون فى الغيب الذى يكمن داخل ما نراه بأعيننا. وفى الحقيقة **فإن كلا من "عالم الغيب" و"عالم الشهادة" مصطلح ديناميكى متغير** ، فالجراثيم كانت تنتمى إلى عالم الغيب فى العصور القديمة ، ثم أصبحت تنتمى إلى عالم الشهادة فى القرن العشرين بعد اختراع المجهر (الميكروسكوب). والمجرات البعيدة كانت هى الأخرى غيبا ، ثم أصبحت تنتمى إلى عالم الشهادة بعد اختراع التلسكوبات ، ونفس الشيء يسرى على الذرة التى لم يكن أحد يحلم يوما بأن يراها ، ثم تغير الأمر بعد اختراع الميكروسكوب الماسح النفقى. وأيضا أصبح بإمكاننا أن نكتشف وجود الجسيمات الأولية بعد بناء معجلات الجسيمات ، واختراع كشاف الجسيمات. وبالجملة **فكل زيادة فى مساحة عالم الشهادة يقابلها نقص فى مساحة عالم الغيب ، وكل من العالمين ذو طبيعة نسبية.**

إذن هناك ثلاثة عوالم:

1. **عالَم الشهادة:** هو كل الموجودات التى يعرفها البشر فى وقت من الأوقات.
2. **عالَم الغيب:** هو كل الموجودات التى يجهلها البشر فى وقت من الأوقات.
3. **الوجود:** هو مجموع ما فى عالم الشهادة وعالم الغيب فى أى وقت من الأوقات ، وهو يشمل كل ما هو كائن.

وإذا كان لعالم الشهادة المعروف قوانين يدرسها العلماء ، ويسمونها "قوانين الطبيعة"، فلعالم الغيب أيضا قوانينه. ومن المؤكد أن **هناك منظومة قوانين واحدة تربط بين هذين العالمين ،**

---

[17]) **Quantum physics: What is real?** By Meinard Kuhlmann. Scientific American. August, 2013. Page 41

ويمكن أن نسمى هذه المنظومة الشاملة ب "قوانين الوجود". ووجود هذه المنظومة الشاملة أمر لا مفر منه لمن يقر بوجود المعجزات ، **فأى معجزة تتضمن حدوث تأثير من موجود ينتمى إلى عالم الغيب على موجودات تنتمى إلى عالم الشهادة.** وإضافة إلى المعجزات ، فهناك دائما تواصل بين عالمنا الذى نحيا فيه والموجودات التى تنتمى إلى عالم الغيب ، وعلى رأسها الله عز وجل والملائكة والجن. وهذه الموجودات الغيبية تؤثر على حياة الناس بشكل يومى ، وهذا لا بد أن يتم فى إطار قانون شامل يحدد العلاقة بين موجودات هذين العالمين. وإذا ذهبنا إلى القرآن الكريم لوجدناه يخبرنا بوجود كتاب يبدو أنه يحتوى على كل العلوم أو على كل "قوانين الوجود" ، ومن يُتح له الاطلاع على هذا الكتاب فيمكنه أن يصنع أمورا عجيبة ، وقد حدث هذا مع ذلك العفريت من الجن الذى أحضر عرش ملكة سبأ من اليمن للشام قبل أن يغمض سليمان عينيه ، وذلك بفضل امتلاكه لعلم من الكتاب ، أى اللوح المحفوظ على الأرجح: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} [النمل: 40]

وعلى ذلك فالمعجزات لا تمثل خرقا لقوانين الطبيعة لأنها تتم فى إطار قانون شامل يحدد التفاعل بين الطبيعة وما وراء الطبيعة أو بالأحرى بين عالم الغيب وعالم الشهادة. إن قوانين عالم الشهادة (ما نسميه بقوانين الطبيعة) وقوانين عالم الغيب منظومتان جزئيتان تنتميان إلى منظومة واحدة أكبر هى "قانون الوجود"، إنهما وجهان لعملة واحدة ، ومن غير الضرورى أن نقول أن إحدى هاتين المنظومتين الجزئيتين توقف عمل الأخرى حتى إن بدا الأمر خلاف ذلك ، مثلما لا يجوز القول بأن قوانين الكهرومغناطيسية أدت إلى اختفاء قانون الجاذبية من الطبيعة حين مكنت المغناطيس من أن يرفع مسمارا من الحديد رغما عن جاذبية الكرة الأرضية كلها ؛ لقد ظلت الأرض تشد المسمار لأسفل ، وظل المغناطيس أيضا يشده لأعلى ، لكن شد أحدهما كان أقوى من الآخر. **إن وجود أكثر من قانون يؤثر كل منهم على نفس الشىء بشكل متعارض لا يعنى أن أحد هذه القوانين يتسبب فى إيقاف القوانين الأخرى ، فكل القوانين تمارس عملها ، وكل ما فى الأمر أن الغلبة تكتب للقانون الأقوى.** ومن الأمثلة الأخرى على ذلك قوة التنافر الكهربية بين أنوية الذرات ، فهذه القوة تمارس عملها عبر مسافات أبعد ، لكن إن اقتربت نواتان من بعضهما بدرجة كافية أصبحت القوة النووية القوية هى الغالبة ، فتقوم بجذب النواتين تجاه بعضهما ، وتدمجهما معا فى نواة واحدة جديدة رغما عن قوة التنافر الكهربى ، ولا

يمكن لأحد أن يقول أن إحدى القوتين تسببت فى إلغاء وجود الأخرى ، فالكل يبقى موجودا ، ولكن الكلمة النهائية تكون للقوة الأكبر.

وبالمثل لا ضرورة للقول بأن المعجزات لكى تقع فلا بد أن يتم إيقاف قوانين الطبيعة ، **والحقيقة أن قوانين الطبيعة تبقى سارية كما هى ، ولكن تطغى عليها لحظة وقوع المعجزة قوى غيبية أكبر تجبر الطبيعة على أن تسير بطريقة غير مألوفة. ولو قدر لنا أن نلم بتفاصيل منظومة "قوانين الوجود"** – تلك المنظومة الشاملة التى تحدد العلاقة بين الموجودات التى تنتمى إلى عالم الغيب وتلك التى تنتمى إلى عالم الشهادة– **لأدركنا أن المعجزة ليست أكثر من صراع قُوى مختلفة كانت موجودة كلها جنبا إلى جنب داخل نفس الكيان الكبير، لكن أحدها تغلب فى إحدى اللحظات على ما عداه.**

إن علينا أن نعى جيدا أننا **لكى نُحدث معجزة ما فليس من المحتم علينا أن نوقف أحد القوانين؛ فمثلا لكى توقف عمل الجاذبية وتمنعها من إسقاط لوحة على الأرض فعليك أن تعلق الصورة بحبل ومسمار فى الحائط ، لا أن تحاول إيقاف قانون الجاذبية.** وإذا أردت أن تحمل معك عبر البحر آلة من حديد فليس عليك أن توقف عمل قانون الطفو ، ولكن أن تضع الحديد على سفينة من الخشب فيطفو معها. وإن أردت أن تحمى إنسانا من طلقة رصاص صادرة من مسدس فلا يجب عليك إيقاف قانون بقاء الطاقة – الذى يقضى بتحويل الطاقة الحركية للرصاصة إلى طاقة حرارية مدمرة للجسم – ولكن يكفى أن ترتدى قميصا واقيا من الرصاص. وعلى ذلك فيمكن لله تعالى أن يفعل أي معجزة دون حاجة لإيقاف قوانين الطبيعة ، بل فقط باستخدام قوى ، أو أدوات ، أو قوانين أخرى تعاكس هذه القوانين الطبيعية. ويشرح تيموثى بريتشارد هذا المعنى قائلا:

"إن كل القوانين لديها ضمنا بند إضافى هو: "بفرض تساوى كل الأشياء الأخرى" Ceteris Paribus clause. وهذا البند ليس مصمما خصيصا وفى الذهن التدخل الفائق للطبيعة ، بل الفكرة الأكثر عموما المتعلقة **بأي قوة ربما تمنع عمل قانون ما.** إن هذا البند يعبر عن الفرض المسبق القائل بأنه لا توجد قوة أخرى. فى ظل قانون الجاذبية فإن جسمين ثقيلين **سيتسارعان تجاه بعضهما البعض إلا إذا منعتهما قوى**

أخرى. والمصباح الضوئى فى غرفتى لا ينتهك قانون الجاذبية رغم أنه يرفض بعناد أن يترك مكانه فى وسط الهواء. هناك أسباب (طبيعية) تفسر لماذا تتم معارضة قانون الجاذبية فى هذه الحالة. **إن قانون الجاذبية لا "يُنتهك" لأن القوى المضادة تؤخذ فى الاعتبار** فى البند الضمنى "بفرض تساوى كل الأشياء الأخرى"... **ولو ضمنا فى هذا البند إشارة ضمنية إلى قوة متدخلة فائقة للطبيعة فإن أية معجزة لن تكون انتهاكا (لقوانين الطبيعة). إن القانون لن يُنتهك لأنه يسمح بهذا النوع من التدخل بنفس الطريقة التى يسمح بها قانون الجاذبية بشكل ضمنى لأي قوة طبيعية تتعارض مع طموح المصباح الكهربى للسقوط**"[18].

وهكذا فالأفضل أن نقول أن المعجزات تمثل خرقا للعادة والمألوف وليس خرقا لقوانين الطبيعة.

****

ها نحن أولاء قد أرحنا أولئك الذين يرون مشكلة فى القول بأن المعجزات تمثل خرقا لقوانين الطبيعة ، وبهذا نكون قد أزلنا الشبهة. لكن يحق لنا أن نعيد التفكير بهدوء فى المسألة من جذورها ، ونتساءل: ما المشكلة فى أن يوقف الله عز وجل عمل أحد قوانين الطبيعة؟ أليس الله هو الذى خلق الطبيعة وهو الذى رسم لها قوانينها؟

يجب أن نفهم بوضوح أن الإيمان بالمعجزات لا يتطلب بالضرورة القول بخرق قوانين الطبيعة، ولكن من حيث المبدأ ليس من المستحيل على الله عز وجل أن يوقف عمل قوانين الطبيعة ، فالله تعالى هو الذى خلق الأكوان ، وهو الذى خلق القوانين التى تحكم كل كون ، وتلك التى تحدد العلاقات بين الأكوان المختلفة. والقانون – أيُّ قانون– هو قيد يحدد للموجودات الطريقة التى تتصرف بها ، فيسمح لكل منها بتصرفات معينة بحدود معينة ، ويمنعها من تصرفات أخرى. القانون هو الذى يرسم لكل موجود كيف يتأثر وكيف يؤثر فيما حوله من موجودات ، فمثلا قانون الجاذبية يتيح للأرض أن تقترب من الشمس ، وتدور حولها ، لكنه يمنعها من التجول بحرية فى الفضاء السحيق. وبناء على ذلك فالموجود الوحيد الذى لا يحكمه أى قانون

---

18) **Miracles and Violations**. By Timothy Pritchard. *Religious Studies* 47(1), 2011, pp. 41–58. Published online by Cambridge University Press: 06 April 2010. DOI: https://doi.org/10.1017/S0034412510000132

هو الله عز وجل الذى له القدرة على عمل أى شيء دون أى قيد. الله تعالى ذو قدرة مطلقة ، أما بقية الموجودات فكل منها مقيد بقانون ما ، وبدرجة ما. وكل القوانين الموجودة فى الكون هى قيود وضعها الله تعالى لتنظيم العلاقات بين مختلف الموجودات ومختلف الأكوان.

وإذا كان الله عز وجل هو الذى خلق الموجودات ، وهو الذى أنشأ لكل موجود القانون الذى يحدد حركته ، فمن السهل على الله أن يوقف عمل أى قانون يشاء ، فمثلا من المعروف أن الكواركات القريبة من بعضها تتلاصق بواسطة القوة النووية القوية التى تنشأ من تبادل جسيمات الجلون بين الكواركات. ولكن من الممكن لله عز وجل أن يصيب الجلونات بالشلل ، ويمنعها من التحرك بين الكوراكات، فيسلب من الكواركات القدرة على الترابط لتكوين بروتونات ونيوترونات ، فتتناثر الذرات ، وتتبدد الجزيئات فى أرجاء الكون. وبالعكس يمكن أن يزيد الله عز وجل فجأة من مدى عمل القوة النووية القوية ، فتصبح قادرة على التغلب على قوة التنافر الكهربية بين أنوية الذرات، فيحدث الاندماج النووى بين ذرات العناصر المختلفة على الأرض ، وتتحول الأرض إلى كتلة جبارة من اللهب كما يحدث فى باطن الشمس ، وغيرها من النجوم.

إذن من حيث المبدأ يمكن لله عز وجل أن يوقف عمل قوانين الطبيعة ، لكن الله تعالى ليس فى حاجة إلى ذلك كما سبق أن فصلنا لأن الطبيعة مصممة بحيث تسمح بوقوع المعجزات. إن هناك طريقتين يمكن من خلالهما منع المجرم من أن يقتل طفلا:

أولا: أن نلبس الطفل قميصا واقيا من الرصاص.

ثانيا: أن نصيب المجرم بالشلل (من خلال أحد الغازات السامة مثلا).

وبالمثل نقول أن من الممكن لله تعالى أن يصنع المعجزات إما باستخدام قوى غير مألوفة تعارض قوى الطبيعة وقوانينها ، وإما بإيقاف عمل قوانين الطبيعة. وليس لنا أن نعرف أى الطريقتين استخدمهما الله ، لكن كلاهما جائز من حيث المبدأ.

وربما كان الأرجح أمر ثالث ، فنحن إن عدنا إلى مثال المجرم سنجد أن من الممكن منع موت الطفل إن أقنعنا المجرم بالعدول عن إطلاق النار (بإغرائه بمكافأة مالية أو تخويفه من الشرطة). وبنفس المنطق نقول أن الله تعالى ربما لم يكن فى حاجة لأن يوقف عمل قوانين الطبيعة ولا لأن يعارض تلك القوانين بقوى أخرى خارقة ، ولكن الطبيعة نفسها هى التى تخرق قوانينها ، أى

تتصرف طواعية من تلقاء نفسها بشكل غير مألوف إن تلقت من الله أمرا بصنع معجزة ، وذلك لأن كل ذرات الكون تطيع الله عز وجل باختيارها ، وفى هذا قال تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: 11]. وكل ما فى الكون يسبح بحمد الله ويخشاه ويتمنى رضاه. قال تعالى: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ} [الرعد: 13] ، وقال أيضا: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الرعد: 15] ، وقال: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: 44]

خلاصة القول أن هناك ثلاثة احتمالات فيما يتعلق بآلية صنع المعجزات:

أولا: إيقاف قوانين الطبيعة.

ثانيا: معارضة قوانين الطبيعة بقوى أخرى غير مألوفة دون أيقاف القوانين نفسها.

ثالثا: استجابة الطبيعة نفسها لأوامر الله تعالى طواعية.

الاحتمالات الثلاثة ممكنة ، وللمسلم أن يتقبل أيها شاء. ومن الممكن الآن أن نُطمئن أولئك العلماء والفلاسفة الذين لا يتصورون حدوث خرق لقوانين الطبيعة ، ونقول لهم أن من الممكن صنع المعجزات دون ضرورة خرق القوانين. والقول بأن المعجزات تمثل خرقا للعادة يريح الجميع.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

قوانين الطبيعة تزلزل قوانين الطبيعة

يُكَذب الملحد العصرى معجزات الأنبياء على أساس أنها تمثل خرقا لقوانين الطبيعة التى تسرى على الكون كله. لكن هذا المثقف الملحد سيترنح حتما إن ذكرناه بالعار الذى لحق بهذا العلم الحديث الذى يعبده ، ويعتبره إلهه الذى لا يجوز له أن يغيب عن الكون ولو للحظة واحدة.

لقد أدت النهضة العلمية الحديثة فى البداية إلى بروز تيار جارف يعتقد أن البشرية قد تخلصت للأبد من خرافات الدين ، وأنه لا توجد قوة فى الكون قادرة على خرق قوانين الطبيعة حتى لو كان الله نفسه. كان العلماء يظنون أن الكون منضبط تماما تحت حكم قوانين صارمة لا تتوقف ولو للحظة واحدة. ومع بدايات القرن العشرين بدأ العلماء السكارى بخمر العلم يفيقون شيئا فشيئا: لقد وجدوا أن الطاقة الكهرومغناطيسية ليست تيارا متصلا ، بل تُشع فقط على شكل كمات محددة ، ووجدوا أن عالم الجسيمات الذرية يتصرف بطريقة غريبة ، فالإلكترونات تدور حول نواة الذرة ، ولا تسقط فيها كما هو متوقع من القوانين الكلاسيكية ، والجسيم لا يتواجد فى مكان واحد ، ولا يتحرك بسرعة واحدة فى نفس اللحظة ، كما يمكن للجسيمات أن تخترق حواجز يبدو لأول وهلة أن من المستحيل اختراقها ، كما لو كانت أشباحا تلج عبر الأبواب المغلقة (ظاهرة النفق الكمومى)، كما بدأ العلماء يفكرون جديا فى وجود شىء اسمه الكتلة السالبة والطاقة السالبة! لقد قدمت لنا نظرية الكم منظومة من القوانين تختلف تماما عن قوانين الحس المشترك المألوفة التى تعودت عليها البشرية منذ ظهورها على الأرض، وجعلت العلماء يشعرون وكأنهم أمام مشاهد من السحر والخيال.

والدرس المستفاد من نظرية الكم هو أن ما يظنه الناس قانونا ضروريا شاملا قد يتبين فيما بعد أنه ليس كذلك ، وأن هناك حالات كثيرة تتصرف فيها الأشياء فى الكون بما يتناقض مع القوانين الطبيعية المعهودة. وهل المعجزة شىء آخر غير سلوك غير مألوف للأشياء؟

وبالتزامن مع ظهور ميكانيكا الكم سدد العالم آينشتين ضربة قاصمة لقوانين الفيزياء الكلاسيكية من خلال نظريته المعروفة بالنسبية الخاصة التى جعلت الفكر البشرى يترنح من غرابة الطبيعة ، ثم عاجلهم آينشتين بعدها بسنوات قليلة بنظرية النسبية العامة التى قضت

على كثير مما كان يعتبره الناس من المسلمات والبديهيات. على سبيل المثال أثبت آينشتين أن كتلة الجسم ليست ثابتة ولكنها تزيد كلما زادت السرعة التى يتحرك بها مقتربة من سرعة الضوء. هل تتصور هذا؟ هل تتخيل أنك إن أخذت معك فى سفينة فضاء ثلاث تفاحات من أحد الأسواق، وكانت كتلة كل تفاحة منها مائة جرام ، ثم انطلقت بك السفينة بسرعة لتقترب من سرعة الضوء فإن كتلة كل تفاحة ستزيد ، وقد تصل الواحدة إلى مائة كيلوجرام أو إلى عدة أطنان توازيا مع زيادة السرعة؟ نعم هذا الخيال يدخل ضمن الحقائق العلمية. وليست الكتلة وحدها هى التى تتغير بزيادة السرعة ، ولكن الطول أيضا ينكمش ، كما أن الزمان يتباطأ ، فمثلا إن كان لك أخ توأم ، فتركته على الأرض ، وركبت سفينة فضاء تسير بسرعة تقترب من سرعة الضوء ، فإنك ستعود إلى الأرض لتجد توأمك قد أصبح أكبر منك سنا مع أنكما ولدتما فى نفس اليوم!! هذه ليست خيالات بل حقائق أثبتها العلم الحديث ، فالزمان يتباطأ بالتوازى مع زيادة السرعة.

ولا يقتصر الأمر على خرق قوانين الطبيعة المألوفة فى كوننا ، فهناك فكرة رائجة بين العلماء الآن اسمها "تعدد الأكوان" (Multiverse) ، والتى تقول بأن كوننا هو مجرد كون واحد من أكوان كثيرة ، يبلغ عددها طبقا لنظرية الوتر حوالى 10^{500} ، وهو رقم رهيب كما ترى. ويعتقد كثير من العلماء أن كل كون من هذه الأكوان له قوانينه الخاصة التى يحددها شكل انحناء فضائه. وكل منها له ثوابته الخاصة مثل قوة الجاذبية ، والقوة الكهربية ، والقوى النووية ، وشحنة الإلكترون ، وكتلة البروتون والنيوترون. يقول ستيفن هوكنج:

(فى نظرية إم هذه الأبعاد الإضافية للفضاء لا يمكنها أن تلتوى بأى طريقة كانت. إن رياضيات النظرية تقيد الطريقة التى يمكن أن تلتوى بها أبعاد الفضاء الداخلى. والشكل المحدد للفضاء الداخلى يحدد كلا من قيم الثوابت الفيزيائية – مثل شحنة الإلكترون– وطبيعة التفاعلات بين الجسيمات الأولية. وبعبارة أخرى هو يحدد القوانين الظاهرية للطبيعة.[19])

[19]) **The Grand Design**. By Stephen Hawking and Leonard Malodinow. Chapter 5: The theory of everytning.

وهذا الكلام معناه أنه لا يوجد قانون واحد فقط يستحيل على الأشياء أن تنجو من أسر قيوده ، **فلو قدر لأحدنا أن يعيش فى أحد هذه الأكوان الكثيرة فسيجد الطبيعة حوله غريبة ، وسيشعر أنه فى عالم ألف ليلة وليلة ، أو فى عالم المعجزات**. ورغم أن فكرة تعدد العوالم لم تثبت بعد ، بل من المستحيل إثباتها،[20] إلا أنها تمثل نموذجا للتغير الجوهرى للعقل العلمى المعاصر الذى بات يقبل تماما بوجود ظواهر طبيعية غريبة تختلف عن كل ما عرفناه وألفناه ، وهذا سبب آخر يحتم على الإلحاد أن يكف عن غروره واتهامه للدين بالتخلف بسبب غرابة المعجزات.

لقد اتضح لنا الآن أن ما نظنه قانونا طبيعيا راسخا قد يتبين فى المستقبل أنه قانون خاطىء، أو أن له استثناءات ، أو أنه مجرد حالة خاصة من قانون أكثر شمولا ، وكل هذا يدفعنا دفعا إلى أن نتقبل بصدر رحب احتمال وقوع أحداث غريبة وغير مألوفة فى الكون ، ومنها بينها المعجزات.

ولا يزال العلماء يتوقعون المزيد من المفاجئات والغرائب لأن النظرية النهائية للكون التى تفسر كل شيء فى الطبيعة Theory of everything لم تُكتشف بعد ، وقد لا تُكتشف على الإطلاق.

وهكذا نجد أن العلم الحديث قد حطم كثيرا مما ألفته العقول ، **فى ظاهرة يمكن أن نسميها بالحرب الأهلية العلمية** ، حيث ظهرت منظومات من القوانين العلمية الجديدة أطاحت بالقوانين الكلاسيكية من على عرشها ، وانتزعت قسما كبيرا من مُلكها ، وتركتها قابعة داخل مناطق محدودة لا تستطيع تجاوزها. لقد أصبحنا نرى كونا مجنونا مليئا بالخيال والمعجزات. و**لطالما أشاع الفكر الإلحادى الجاهل بين الساذجين أن قوانين الطبيعة كتاب مقدس ، وأن العدو الوحيد الذى يتربص بقوانين الطبيعة ، ويزعم القدرة على إبطالها هو الدين** ، ولكن ها نحن أولاء قد ذكرناهم بأن من حطم قوانين الطبيعة الكلاسيكية فى القرن العشرين لم يكن الدين بل كان العلم المادى نفسه. **لقد خلا العصر الحديث من الأنبياء الذين كان يرفض الإلحاد أن يصدق بأنهم تمكنوا من خرق قوانين الطبيعة ، فكانت المفاجأة الصاعقة أن من زلزل الأرض تحت أقدام القوانين الكلاسيكية هو بلانك وآينشتين وبوهر وهايزنبرج وشرودنجر وفينمان.**

---

20) **The untestable multiverse**. By George Ellis. NATURE, VOL 469, 20 January, 2011. https://www.nature.com/articles/469294a.pdf

وربما لو عاد بنا الزمن إلى الوراء وعشنا فى النصف الأول من القرن العشرين لأحسسنا أننا نشاهد معجزات لا تقل غرابة عما جاء به الأنبياء ، فقد كانت الأجواء العلمية فى ذلك الوقت يسودها حالة من الجنون دون أدنى مبالغة. ويمكنك أن تفكر فى شىء واحد فقط كالطبيعة الموجية التى أظهرتها الجسيمات الأولية ، وفى اكتشاف آينشتين أن الزمان يتباطأ مع زيادة السرعة ومع مجالات الجاذبية القوية ، أليس هذا الكلام أشبه بالمعجزات؟

إن العلم الحديث قد لقننا درسا خطيرا هو أن قوانين الطبيعة ليست بتلك الصلابة التى نتخيلها، وأن من المحتمل جدا وجود منظومات أخرى من القوانين التى تؤثر فى الكون ولكننا لا نعرف عنها شيئا ، وقد نكتشفها فى يوم من الأيام ، وربما نبقى جاهلين بها إلى الأبد. وأيا ما كان الأمر فهذا يفتح الباب على مصراعيه للتصديق بإمكان حدوث ظواهر غريبة خارقة للعادة ، أو ما نسميه بالمعجزات ، **فالقوانين التى تحكم الكون ليست فقط هى ما نقرؤه فى كتب الفيزياء الموجودة حاليا بين أيدينا.** ولا يزال المستقبل العلمى يحمل لنا الكثير من الخيال والسحر والعجائب و.."المعجزات".

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

فيزياء الكَم تسمح بحدوث المعجزات

إذا ذهبنا إلى فيزياء الكَم Quantum physics لوجدنا أنها فتحت الباب على مصراعيه أمام المعجزات ، **فلا يوجد فى عالم الكم احتمال قدره صفر. كل شيء ممكن ، وما كان يعتقد قديما أنه مستحيل أصبح علينا أن ننظر إليه على أنه بعيد الاحتمال بدرجة كبيرة جدا** ، فقوانين الكون ذات طبيعة احتمالية أو إحصائية.

إن نظرية الكَم –التى تعد أنجح النظريات العلمية على الإطلاق– تؤكد أن الجسيمات الفائقة الدقة مثل الإلكترونات والبروتونات والذرات **ليس لها مكان محدد ولا سرعة محددة ، وكل جسيم من الجسيمات ليس فقط مجرد نقطة محددة بالضبط كما نظن لأول وهلة** ، ولكن له طبيعة موجية أيضا (تشبه موجات البحر) ، وبالتالى فالجسيم الواحد منتشر فى الفضاء بدرجة ما.[21]

إن من المثير حقا أن تقول لنا فيزياء الكم أن الجسيمات لا توجد فى مواضع محددة ، ولا تمتلك سرعات محددة ، ففى حياتنا اليومية كل شيء يوجد فى مكان محدد ، ويتحرك بسرعة محددة فى كل لحظة من اللحظات ، فمثلا أنا الآن أجلس على مائدة الطعام ، وأمامى عدة أطباق ، فى أحدها بيضة ، وفى الطبق الثانى أرز ، وفى الثالث خضار. وإذا تكلمت عن البيضة فسأقول أنها موجودة الآن بالتحديد فى طبق واحد بعينه على المنضدة دون غيره من الأطباق. حسن ، لا غرابة فى ذلك ، لكن إن كنت أتكلم عن أحد الجسيمات الدقيقة ، فلا يمكننى أن أتحدث بنفس الطريقة ، فمن المستحيل أن أقول مثلا أن أحد الإلكترونات موجود الآن فى الطبق مع البيضة ، والصحيح – طبقا لفيزياء الكم– أن أقول أن الإلكترون موجود فى كل من طبق البيضة ، وطبق الخضار ، وطبق الأرز فى نفس الوقت! بل إن الأصح أن أقول أن نفس الإلكترون موجود بالإضافة إلى ذلك على الكرسى ، وموجود أيضا فى الهواء الذى أتنفسه ، وموجود فى الغرفة المجاورة ، وموجد فى الشارع المجاور لبيتى ، وموجود على سطح القمر ، وكل هذا فى نفس اللحظة! ولست أقصد أن الإلكترون قد انتقل من طبق إلى طبق ، أو من البيت إلى الشارع ، بل أقصد أن الإلكترون موجود فى كل هذه الأماكن فى نفس الوقت! كيف؟

---

[21]) ومع ذلك لا أحد يدرى على وجه اليقين ما طبيعة هذه الموجات: هل هى موجات حقيقية أم مجرد موجات بالمعنى المجازى ، أى موجات من الاحتمالات؟

لا أحد يدرى ، لكن هذه هى الحقيقة التى يقوم عليها العلم الحديث: ليس من المسموح به أن نقول عن أحد الجسيمات الدقيقة أنه موجود فى موضع محدد بعينه فى إحدى اللحظات إلا إذا قمنا بعملية قياس لموضعه. **والمشكلة ليست فى عجز حواسنا وآلاتنا عن معرفة موضع الجسيم بدقة ، ولكنها تكمن فى طبيعة الجسيم نفسه ، فهو بحكم تكوينه لا يتواجد فى موضع واحد بعينه فى نفس اللحظة.** أليس هذ جنونا؟ نعم هو جنون ، لكنه جنون علمى!

على أى حال هناك اتفاق بين العلماء على أن موضع الجسيم وسرعته يمكن وصفهما من خلال معادلة وضعها العالم شرودنجر ، اسمها الدالة الموجية (Wave function). والدالة الموجية تعطينا سعة معينة Amplitude **لكل نتيجة** Outcome **من النتائج الكثيرة المحتملة التى يمكن أن تأتى بها عملية الملاحظة أو القياس أثناء التجربة** ، وهذه السعة لها قيمة موجبة أو سالبة ، ومربع قيمة السعة يعطينا **احتمال وقوع نتيجة ما أثناء عملية القياس،** فمثلا الدالة الموجية التى تصف موضع أحد الجسيمات داخل الغرفة قد تعطينا سعة قدرها (0.5) لتواجد الجسيم عند نقطة (ا) ، وسعة قدرها (0.8−) لتواجده عند نقطة (ب) ، وهذا يعنى أن احتمال رصد الجسيم عند نقطة (ا) يساوى 0.5 مضروبا فى 0.5 ، أى 25% ، وبالمثل سيكون احتمال رصد الجسيم عن موضع (ب) يساوى64%.[22]

ويقول العلماء أن الدالة الموجية الكاملة تتكون من السعات المختلفة **لكل النتائج المحتملة لعملية الرصد أو القياس** ، والجسيم قبل رصده يكون فى حالة تداخل لمختلف الاحتمالات Superposition of different possibilities ، بمعنى **أننا لا يمكن أن نقول أنه موجود فى موضع واحد فقط وغير موجود فى المواضع الأخرى**[23] **، ولا يمكن أن نجزم بنسبة 100% أى من هذه الاحتمالات الكثيرة سيتحقق دون غيره حين نشرع فى قياس موضع الإلكترون**[24]. وحين نقوم برصد موضع الجسيم سنجده فى مكان محدد بعينه Eigenstate ، ولكن قبل لحظة

[22]) **From eternity to here.** By Sean Carroll. Chapter 11: Quantum time. Page: 257-292. Oneworld publications, Oxford, England, 2010.

[23]) بل لا يمكن أيضا أن نقول أن الجسيم موجود فى كل المواضع فى نفس الوقت وذلك طبقا للتفسير الكلاسيكى لميكانيكا الكم!

[24]) يجب أن ننتبه إلى أنه أثناء لحظة القياس يكون الإلكترون ذا موضع محدد بنسبة 100% ، وهذا يسمى انهيار الدالة الموجية wave function collapse – طبقا لتفسير كوبنهاجن لميكانيكا الكم- حيث تعطى الدالة الموجية قيمة قدرها 100% لواحد من الاحتمالات ، وتعطى احتمالا قدره 0% لكل ما عداه من مواضع ، أما قبل لحظة القياس فالجسيم يكون موجودا فى حالة التداخل المذكورة حيث كل الاحتمالات ممكنة.

القياس وبعدها يستحيل أن يقال أن الجسيم موجود فى موضع معين ، **فكل شيء جائز ، وكل الاحتمالات الصغيرة والنادرة قابلة للحدوث**[25] ، **وليس من المستحيل أن نرصد أحد الجسيمات الآن على كوكب الأرض ، وبعد أقل من ثانية نرصده فى أقصى مكان فى الكون كما لو كان شبحا يخترق الفضاء.**

والقول بأن الجسيمات ليس لها مواضع محددة ولا سرعات محددة ليس من قبيل الشطحات العلمية ، ولكنها حقائق راسخة ، وبدونها لا يمكن تفسير ظاهرة مهمة مثل الاندماج النووى فى باطن الشمس والتى بدونها تتحول الشمس إلى كتلة غازية باردة مظلمة ، فلكى يتم الاندماج النووى بين نواتين من الهيدروجين فلا بد من أن تكون حرارة الشمس كبيرة جدا كى تكسب النواتين طاقة حركة كبيرة جدا تمكنهما من الاقتراب من بعضهما ، متغلبتين على قوة التنافر الكهربية الهائلة الناشئة عن كون كل منهما مشحونة بشحنة كهربية موجبة. ولكن حرارة قلب الشمس أقل من الحرارة المطلوبة ، ورغم ذلك يحدث الاندماج النووى ، فما السر الذى يجعله يحدث؟ هنا تقدم فيزياء الكم الإجابة ، **فطبقا لفيزياء الكم لا يوجد مكان محدد للجسيمات** ، وكل جسيم يمكن وصفه بدالة موجية ، والدالتان الموجيتان لنواتى الهيدروجين تتداخلان رغم قوة التنافر التى تدفع كل منهما بعيدا عن الأخرى بشدة ، **ولذا فهناك احتمال صغير جدا لأن تتواجد إحدى النواتين فى موضع قريب جدا من النواة الأخرى رغم أن طاقتها القليلة تجعل من شبه المستحيل عليها أن تصل إلى هذا الموضع.** وإذا تغلبت النواتان على حاجز الطاقة ، واقتربتا من بعضهما بدرجة كافية أمكن حدوث الاندماج بفعل القوة النووية القوية (وهى أقوى من القوة الكهربية على المدى القصير)، لتكوين نواة هيليوم جديدة ، وبث قدر من الحرارة[26]. وهذا الاحتمال صغير بدرجة خيالية ، ويقدر العلماء أن كل نواة هيدروجين لا يحدث لها اندماج نووى إلا بعد أكثر من بليون عام!![27] ، ومع ذلك فبفضل هذا الاحتمال النادر نستمتع بدفء الشمس ونورها. وأنا أنظر إلى هذه العملية الغريبة كما لو أن طفلا رضيعا ظل يضرب بجسده الضئيل

---

[25]) **From eternity to here.** Chapter 11: Quantum time.

[26]) **Fusion physics**. Chapter 1: The case for fusion: Fusion basics. Page 14. Edited by Mitsuru Kikuchi, Karl Lackner, and Minh Quang Tran. INTERNATIONAL ATOMIC ENERGY AGENCY, VIENNA, 2012

ويقول العلماء أن نواة الهيليوم الناتجة عن الاندماج النووى تكون كتلتها أقل من مجموع كتلتى نواتى الهيدروجين ، وهذا الفرق فى الكتلة يتحول إلى طاقة هائلة هى السبب فى حرارة الشمس.

[27]) **Nuclear fusion in stars**. https://www-zeuthen.desy.de/~pohlmadq/teach/346-s6/ch10.pdf; accessed on January 7, 2020.

سور الصين العظيم محاولا اختراقه ، وفجأة شوهد الطفل يظهر فجاة على الجهة الأخرى من السور ، ليلتقى بتوأمه ، ويلعب معه!

ولولا فيزياء الكم لكان من المستحيل على نواتى الهيدروجين أن تقتربا من بعضهما وتندمجا ، ولكن هذه هى ميكانيكا الكم التى تجعل المستحيل ممكنا. وهذه الظاهرة تعرف بظاهرة النفق الكمومى Quantum tunneling حيث تسمح ميكانيكا الكم للجسيمات باختراق حواجز ما كان لها أن تمر من خلالها طبقا للمنطق الكلاسيكى ، وكأن الجسيم قد عبر من خلال أحد الأنفاق إلى الناحية الأخرى. وطبعا الجسيم لا يمر من خلال نفق ، ولكنه تعبير مجازى عن هذه الظاهرة التى تشبه الخيال.

ومن الأمثلة الأخرى لظاهرة النفق الكمومى إشعاع جسيمات ألفا ، فنحن إذا نظرنا إلى جسيم ألفا ذى الشحنة الكهربية الموجبة لوجدنا أن من المتوقع أن يظل محبوسا دخل نواة الذرة لأنه إن حاول الخروج فسيرتد بفعل قوة التنافر الكهربية للنواة التى تمتلك نفس الشحنة الموجبة ، ومع ذلك تتمكن بعض جسيمات ألف من الهروب من أسر النواة **لأن فيزياء الكم لا تمنع أى جسيم من التواجد فى أى مكان فى الكون مهما كانت الصعاب ، ومهما كان حاجز الطاقة.** ويمكن تمثيل الدالة الموجية لجسيم ألفا الموجب – وهو محبوس داخل الحائط الكهربائى لنواة الذرة– كموجة مسافرة تنعكس جزئيا ، لكن هناك احتمال صغير لأن تخترق الموجة هذا الحاجز الناشىء عن قوة التنافر الكهربائى ، وتتمكن من الظهور عبر الجانب الآخر[28،29].

وقد وضع العالم هايزنبرج مبدأ "عدم اليقين" الشهير الذى يقضى بأن من المستحيل معرفة كل من مواضع الجسيمات وسرعاتها فى نفس الوقت بدقة ، فإن زاد عدم اليقين فى السرعة قل عدم اليقين فى الموضع ، والعكس صحيح. وعدم اليقين لا يتعلق فقط بالموضع والسرعة ، ولكنه يسرى كذلك على ظواهر أخرى مثل النشاط الإشعاعى للذرة واستقطاب الفوتونات. **ومن المهم جدا ألا نقع فى الخطأ التاريخى الذى وقع فيه الكثيرون حين ظنوا أن مبدأ عدم اليقين ينتج**

---

[28]) **The Quantum Mechanics of Alpha Decay**. Massachusetts Institute of Technology, MIT Department of Physics, February 6, 2012. Id: 45.alphadecay.tex,v 1.151 2012/02/06 14:33:51 rfoote Exp. http://web.mit.edu/8.13/www/JLExperiments/JLExp45.pdf

[29]) **Swinging in Imaginary Time**: More on the Not-So-Simple Pendulum. By Cihan Saclioglu. Resonance. February 2010. Volume 15, issue 2. pp 104-115.

عن نقص فى قدرة الإنسان على الإدراك ، وعن قصور فى دقة الآلات وكفاءة المعدات ، وأنه إن تقدمت التكنولوجيا فسيصبح الإنسان قادرا على معرفة كل شىء بشكل كامل. هذا التصور خاطىء تماما ، فقد تبين للعلماء أن **الطبيعة نفسها غير محددة ، وذلك بسبب الطبيعة الموجية للجسيمات ، وهذه الطبيعة ستبقى مهما تحسنت قدرات الأجهزة وكفاءة التكنولوجيا.**

وفى الكتاب المعروف "تاريخ موجز للزمان"[30] تكلم العالم ستيفن هوكنج عن اللاحتمية التى اجتاحت العلم الحديث على أنقاض الحتمية التى كانت فى يوم من الأيام ملء السمع والبصر :-

[كان من نجاح النظريات العلمية – وخاصة نظرية نيوتن عن الجاذبية –أن أدى ذلك بالعالم الفرنسى الماركيز لابلاس إلى أن يحاج فى بداية القرن التاسع عشر بأن الكون محتم بالكامل. واقترح لابلاس أنه **ينبغى أن يكون ثمة مجموعة من القوانين التى تسمح لنا بالتنبوء بأى شىء سيحدث فى الكون لو أننا فقط عرفنا الحالة الكاملة للكون عند وقت معين.** وكمثل ، فلو عرفنا مواضع وسرعات الشمس والكواكب عند وقت معين فسنتمكن إذن من استخدام قوانين نيوتن لحساب حالة النظام الشمسى فى أى وقت آخر.......وفرض الكم قد فسر المعدل الملاحظ لبث الإشعاع من الأجسام تفسيرا جيدا جدا ، على أنه لم يتم تبين دلالاته بالنسبة للحتمية العلمية حتى عام 1926 ، عندما قام عالم ألمانى آخر هو فرنر هايزنبرج بصياغة مبدأه الشهير لعدم اليقين. فحتى يتنبأ المرء بموضع جسيم وسرعته فى المستقبل ، يكون على المرء أن يتمكن من قياس موضعه وسرعته الحاليين بدقة ، والطريقة الواضحة لفعل ذلك هو بتسليط ضوء على الجسيم ، وسوف تتشتت بعض موجات الضوء بواسطة الجسيم ، وسيدل هذا على موضعه. على أن المرء لن يستطيع أن يحدد موضع الجسيم بما هو أدق من المسافة بين ذروات موجات الضوء ، وهكذا فإن المرء يحتاج إلى استخدام ضوء له طول موجة قصير حتى يقيس موضع الجسيم بدقة. والآن فإنه حسب فرض كم بلانك لا يستطيع المرء استخدام قدر من الضوء يكون صغيرا على نحو تعسفى ، فعلى المرء أن يستخدم على الأقل كما واحدا ، وهذا الكم سيجعل الجسيم يضطرب ويغير من سرعته بطريقة لا

[30]) **تاريخ موجز للزمان**. تأليف ستيفن هوكنج. صفحة 75.

يمكن التنبؤ بها. وفوق ذلك فكلما زادت الدقة التى يقيس بها المرء الموضع قصُر طول موجة الضوء التى يحتاجها المرء ، وبالتالى زادت طاقة الكم المفرد. وهكذا فإن سرعة الجسيم ستضطرب بقدر أكبر. وبكلمات أخرى **كلما زادت دقة محاولتك لقياس موضع الجسيم قلت الدقة التى تقيس بها سرعته ، والعكس بالعكس.** وبين هايزنبرج أن عدم اليقين فى موضع الجسيم مضروبا فى عدم اليقين فى سرعته مضروبا فى كتلته لا يمكن أن يكون أصغر من قدر معين يعرف باسم ثابت بلانك. وفوق ذلك **فإن هذا الحد لا يعتمد على الطريقة التى يحاول بها المرء قياس موضع أو سرعة الجسيم ، ولا على نوع الجسيم ؛ فمبدأ عدم اليقين عند هايزنبرج هو خاصية أساسية للعالم لا مفر منها.**

ومبدأ عدم اليقين له دلالات عميقة بالنسبة للطريقة التى نرى بها العالم ، وحتى بعد أكثر من خمسين عاما فإن الكثيرين من الفلاسفة لم يقدروا بعد هذه الدلالات حق تقديرها ، وهى ما زالت موضع الكثير من الخلاف ، وقد أعطى مبدأ عدم اليقين الإشارة لنهاية حلم لابلاس بنظرية علمية أو نموذج للكون يكون حتميا بالكلية ، **ومن المؤكد أن المرء لا يستطيع التنبؤ بأحداث المستقبل بالضبط ما دام لا يستطيع حتى أن يقيس بدقة الوضع الحالى للكون!** وقد أدى هذا التناول إلى أن قام هايزنبرج وإروين شرودنجر وبول ديراك فى العشرينات من هذا القرن بإعادة صياغة الميكانيكا فى نظرية جديدة سميت ميكانيكا الكم ، تتأسس على مبدأ عدم اليقين ، **والجسيمات فى هذه النظرية لم يعد لديها بعد مواضع وسرعات منفصلة واضحة التحدد** لا يمكن ملاحظتها ، وبدلا من ذلك فإن لديها حالة كم ، هى توليفة من الموضع والسرعة. **وعموما فإن ميكانيكا الكم لا تتنبأ بنتيجة وحيدة محددة لمشاهدة ما ، وبدلا من ذلك فإنها تتنبأ بعدد من النتائج الممكنة المختلفة ، وتخبرنا بمدى احتمال كل واحدة منها** ، بمعنى أنه إذا قام المرء بالقياس نفسه على عدد كبير من أنسقة متماثلة ، كل منها قد بدأ منطلقا بالطريقة نفسها ، فسيجد المرء أن نتيجة القياس تكون (أ) فى عدد معين من الحالات ، و(ب) فى عدد مختلف ، وهلم جرا. ويمكن للمرء أن يتنبأ بالعدد التقريبى للمرات التى تكون النتيجة فيها (أ) أو (ب) ، **ولكن لا يمكن للمرء أن يتنبأ بنتيجة محددة لقياس فردى. فميكانيكا الكم تدخل إذن فى العلم عنصرا لا يمكن تجنبه من العشوائية أو عدم إمكان التنبؤ.** وقد

عارض آينشتين هذا معارضة قوية جدا ، رغم الدور المهم الذى قام به فى نشأة هذه الأفكار. وقد منح آينشتين جائزة نوبل لمساهمته فى نظرية الكم ، ومع هذا فإن آينشتين لم يتقبل قط أن يكون الكون محكوما بالصدفة ، على أن معظم العلماء كانوا على استعداد لتقبل ميكانيكا الكم لأنها تتفق تماما مع التجربة ، **والحقيقة أنها نظرية ناجحة على نحو رائع ، وهى تدخل فى أساس كل العلم والتكنولوجيا الحديثة تقريبا.]**

وفى كتاب "التصميم العظيم"[31] يتكلم ستيفن هوكنج بدرجة أكثر وضوحا عن الطبيعة الاحتمالية التى تميز عالم الجسيمات الصغيرة ، فيقول:

أحد المبادىء الرئيسية الأخرى فى فيزياء الكم هو مبدأ "عدم اليقين" ، والذى صاغه فيرنر هايزنبرج فى عام 1926م. يخبرنا مبدأ عدم اليقين أن **هناك حدودا لقدرتنا على قياس بعض البيانات فى نفس الوقت مثل موضع أحد الجسيمات وسرعته**. وطبقا لمبدأ عدم اليقين على سبيل المثال فإنك إن ضربت عدم اليقين فى موضع أحد الجسيمات فى عدم اليقين فى زخمه (حاصل ضرب كتلته فى سرعته) فإن النتيجة لا يمكن أبدا أن تكون أقل من كمية معينة ثابتة تسمى ثابت بلانك. هذا كلام ملتو ، لكن بالإمكان قول جوهره بطريقة مبسطة: **كلما قست السرعة بدقة أكبر كلما استطعت أن تقيس الموضع بدقة أقل ، والعكس صحيح**. وعلى سبيل المثال فإنك إن خفضت عدم اليقين فى الموضع إلى النصف فسيكون عليك أن تضاعف عدم اليقين فى السرعة[32].

وطبقا لفيزياء الكم فإنه بصرف النظر عن مدى كمية المعلومات التى نحصل عليها ومدى قوة قدرات حواسيبنا فإن نتائج العمليات الفيزيائية لا يمكن التنبؤ بها بيقين لأنها ليست محددة بيقين. بدلا من ذلك إذا أخذنا فى الاعتبار الحالة المبدئية لنظام ما

---

[31]) **The grand design**. Chapter 4: Alternative histories.

[32]) يكمل ستيفن هوكنج توضيح هذه النقطة قائلا: ومن المهم أيضا أن نلاحظ أنه مقارنة بوحدات القياس اليومية مثل الأمتار والكيلوجرامات والثوانى فإن ثابت بلانك صغير جدا. وفى الحقيقة إن تم التعبير عنه بهذه الوحدات فسيكون له قيمة قدرها 6/10,000,000,000,000,000,000,000,000,000,000,000. ونتيجة لذلك فإنك إن حددت بدقة موضع شىء كبير مثل كرة قدم ذات كتلة قدرها ثلث كيلوجرام فى حدود ملليمتر واحد فى أى اتجاه فإنك ستبقى قادرا على قياس سرعتها بدقة أكبر بكثير من حتى جزء من بليون بليون بليون كيلو متر فى الساعة. وسبب ذلك أن كرة القدم - وهى مقاسة بهذه الوحدات- لديها كتلة 1/3 ، وعدم اليقين فى الموضع يساوى 1/1,000. وأى منهما ليس كافيا لتفسير كل هذه الأصفار فى ثابت بلانك ، ولذلك فهذا الدور يسقط إلى عدم اليقين فى السرعة. لكن فى نفس الوحدات فإن أحد الإلكترونات لديه كتلة مقدارها .0000000000000000000000000000001 ، ولذلك فإن الموقف بالنسبة للإلكترونات مختلف تماما. إن قسنا موضع الإلكترون بدقة تناظر تقريبا حجم الذرة فإن مبدأ عدم اليقين يملى علينا أننا لن نستطيع معرفة سرعة الإلكترون بدقة أكبر من ± 1000 كيلومتر فى الثانية ، وهذا ليس دقيقا جدا على الإطلاق.

فإن **الطبيعة تحدد حالتها المستقبلية من خلال عملية هى أساسا غير يقينية**. وبعبارة أخرى فإن الطبيعة لا تملى نتيجة أى عملية أو تجربة حتى فى أبسط المواقف. وبدلا من ذلك **فإنها تسمح بعدد من النتائج ، كل منها له احتمال معين أن يتحقق.**

ثم يضع هوكنج بعد قليل يده على واحدة من أكثر حقائق فيزياء الكم إثارة:

(تخبرنا فيزياء الكم أنه **لا يمكن أبدا لشىء أن يقع فى نقطة محددة** ، إذ لو حدث ذلك فسيكون عدم اليقين فى الزخم (كمية الحركة) لا نهائيا. **وفى الحقيقة طبقا لفيزياء الكم فإن كل جسيم لديه احتمال ما لأن يوجد فى أى مكان فى الكون. ولذا فحتى إن كانت فرص العثور على أحد الإلكترونات داخل جهاز الشق المزدوج عالية للغاية فسيكون هناك دائما فرصة ما لإمكان العثور عليه بدلا من ذلك على الجانب البعيد للنجم المسمى ألفا سنتورى أو فى فطيرة الراعى فى كافيتيريا مكتبك. وبناء على هذا فإنك إن قذفت بكرة كمية Quantum buckyball ، وتركتها تطير فلن يتيح لك أى قدر من المهارة أو المعرفة أن تقول مسبقا بالضبط أين ستحط**. لكنك إن أعدت التجربة مرات كثيرة فإن المعلومات التى تحصل عليها ستعكس احتمال العثور على الكرة فى مختلف المواضع ، وقد تأكد العلماء التجريبيين أن نتائج تلك التجارب تتفق مع تنبؤات النظرية).

هذه الفقرة الأخيرة من كلام هوكنج تبدو فى غاية الإثارة ، **فهى تقودنا يقينا إلى الإقرار بأن المعجزات ليست مستحيلة لأن كل التصرفات الشديدة الغرابة للجسيمات ممكنة ، ومسموح بها طبقا لنظرية الكم. ومهما بدا الأمر صعبا وبعيد الاحتمال بدرجة كبيرة فإنه لا يزال قابلا للحدوث. وبالله عليكم ما معنى أن جسيما ما يكون موجودا الآن فى المعمل حيث تجرى التجربة وبعد ثانية واحدة يكون موجودا على سطح نجم فى غاية البعد؟ أليست هذه هى المعجزة بعينها؟** أليس بالإمكان أن تؤدى الحركات الغريبة والمجنونة لعدد كبير من الجسيمات فى نفس الوقت إلى حدوث معجزات على مستوى الأشياء الكبيرة ، فيراها الناس بأعينهم؟

وطبعا من الصعب جدا على عدد كبير من الجسيمات أن تتحرك كلها معا بطريقة منظمة من تلقاء نفسها لتؤدى إلى حدوث معجزة كبيرة ، فهذه مصادفة بالغة ، لا يحتملها العقل ، ولكن النقطة المهمة أن أحد الموجودات (الله مثلا) إن تمكن من تحريك كل الجسيمات بالطريقة المطلوبة فلن تستعصى عليه المعجزة ، ولن تقف قوانين الفيزياء حائلا بينه وبين حدوثها.

ويكمل ستيفن هوكنج الكلام ، فيذكر كيف حاول العالم الشهير ريتشارد فينمان أن يفهم ظواهر فيزياء الكم العجيبة بطريقة مبتكرة ، ففيما يتعلق بالتجربة التى يتم فيها إطلاق جسيم من أحد المصادر ، ليمر من خلال شقين متجاورين ، ثم يسقط على شاشة كى يتم رصده ، فإن التفكير الكلاسيكى المعتاد يؤكد كما يقول هوكنج أن:

(كل جسيم يتبع مسارا وحيدا محددا بدقة من مصدره إلى الشاشة. ولا مجال فى هذه الصورة لالتفاف يقوم فيه أحد الجسيمات بزيارة المناطق المجاورة لكل شق عبر طريقه. ومع ذلك **فطبقا لنموذج الكم فإن الجسيم يقال أنه لا يمتلك موضعا محددا أثناء وجوده بين نقطة البداية ونقطة النهاية.** لقد أدرك فينمان أن المرء ليس عليه أن يفسر ذلك على أنه يعنى أن الجسيمات لا تتخذ أى مسار أثناء رحيلها بين المصدر والشاشة. ومن الممكن بدلا من ذلك أن **يعنى هذا أن الجسيمات تتخذ كل مسار ممكن يربط هاتين النقطتين.** وهذا –كما أكد فينمان– هو ما يجعل فيزياء الكم مختلفة عن فيزياء نيوتن. والموقف عند كلا الشقين يكتسب أهمية لأنه **بدلا من اتباع مسار وحيد محدد فإن الجسيمات تسلك كل مسار ، وتسلكهم جميعا فى نفس الوقت! وهذا يبدو شبيها بالخيال العلمى ، لكنه ليس كذلك.** وقد صاغ فينمان تعبيرا رياضيا – حاصل جمع التواريخ لفينمان– يعكس هذه الفكرة ، ويعيد إنتاج كل قوانين فيزياء الكم. ورياضيات نظرية فينمان وصورتها الفيزيائية تختلف عما فى الصياغة الأصلية لفيزياء الكم ، بيد أن التنبؤات واحدة.

وفى تجربة الشق المزدوج تعنى أفكار فينمان أن **الجسيمات تتخذ مسارات تمر عبر واحد فقط من الشقين أو عبر الآخر فقط ؛ ومسارات تتسلل من خلال الشق الأول ، لتعود إلى الخلف عبر الشق الثانى ، ثم عبر الشق الأول مرة أخرى ؛ مسارات تزور**

المطعم الذى يقدم الجمبرى بالكارى العظيم ثم تدور حول كوكب المشترى مرات قليلة قبل أن تتجه إلى الوطن ؛ وحتى مسارات تمضى عبر الكون ذهابا وإيابا....وعندما يكون كلا الشقين مفتوحا فإن المسارات التى يسافر فيها الجسيم عبر أحد الشقين يمكنها أن تتداخل مع المسارات التى يسافر فيها عبر الشق الآخر ، محدثا التداخل. قد يبدو هذا جنونا ، لكن لغرض الفيزياء الأكثر أساسية التى تمارس اليوم – ولغرض هذا الكتاب– فإن صياغة فينمان أثبتت أنها أكثر فائدة من الصياغة الأصلية[33]).

ولنأخذ مثالا آخر يظهر كيف تفرض علينا ميكانيكا الكم تقبل حدوث الغرائب:

طبقا لنظرية الكم فإن شعاعا من الضوء مكونا من ملايين الفوتونات إن سقط على مرآة فإن أغلب الفوتونات (99% فى بعض أنواع المرايا) ستنعكس ، لكن نسبة صغيرة من الفوتونات ستمتصها المرآة. لكن لا يمكن لأحد أن يتنبأ ما إذا كان فوتون واحد بعينه سينعكس أم سيمتص، فكل الفوتونات تتصرف بطريقة عشوائية ، دون سبب يجعل أحدها ينعكس ويجعل الآخر يُمتص ، فكل الفوتونات متشابهة تماما.[34] المهم أنه فى النهاية سينعكس 99% من مجموع الفوتونات ويمتص 1% ، لكن لا يمكن لأحد أن يجزم أن الأمور ستسير دائما على هذا النحو، ومن الممكن أن يستيقظ العلماء يوما ليفاجأوا بأن إحدى المرايا لم تعد تظهر الصور لأنها أصبحت تمتص أغلب الفوتونات الساقطة عليها ، ولا تعكس إلا عدد قليل جدا رغم أن المرآة لم يصبها أى تلف ، وبعد قليل تعود المرآة لسيرتها الأولى ، وتظهر الصور. ومن يشاهد ذلك فسيجزم بأنه أمام معجزة لأن قوانين الطبيعة تعطلت ، لكن طبقا لفيزياء الكم فلم تعد هذه معجزة على الإطلاق لأن سلوك كل فوتون من فوتونات الضوء غير حتمى ، فهو يتصرف بشكل عشوائى كما يحلو له ، ولا شىء فى الطبيعة يجبر هذا الفوتون أو ذاك على أن ينعكس أو يمتص. وليس هناك فى

---

[33]) **The grand design**. Chapter 4: Alternative histories.

يجب أن ننتبه إلى أن هوكنج يوضح كيف أن فوضى الطبيعة ليست كاملة ، ولكنها فوضى منظمة: (قد يبدو أن فيزياء الكم تقوض فكرة أن الطبيعة محكومة بالقوانين ، بيد أن الأمر ليس كذلك. بدلا من هذا فإنها تقودنا لقبول شكل جديد من أشكال الحتمية: إذا أخذنا فى الاعتبار حالة نظام فى وقت ما فإن **قوانين الطبيعة تحدد "احتمالات" مختلف أشكال المستقبل والماضى ولا تحدد المستقبل والماضى بيقين**. ورغم أن هذا لا يروق للبعض إلا أن من واجب العلماء أن يقبلوا النظريات التى تتفق مع التجربة وليس مع تصوراتهم الخاصة المسبقة. إن ما يتطلبه العلم من نظرية ما هو أن تكون قابلة للاختبار. إن **كانت الطبيعة الاحتمالية لتنبؤات فيزياء الكم تعنى أن من المستحيل التأكد من هذه التنبؤات** فإن نظريات الكم لن تكون مؤهلة لاعتبارها نظريات مشروعة. لكن **رغم الطبيعة الاحتمالية لتنبؤاتها** فإننا لا زلنا قادرين على اختبار نظريات الكم. على سبيل المثال يمكننا أن نكرر إحدى التجارب مرات كثيرة ، ونتأكد من أن معدل مختلف النتائج يتوافق مع الاحتمالات المتنبأ بها).

[34]) **How do mirrors reflect photons?** By David Biello; Scientific American; September 25, 2006.

قوانين الفيزياء ما يحتم على 99% من الفوتونات أن تنعكس فى كل الأحوال ، فهذا فقط هو الغالب والمألوف، لكن من الممكن أن تنخفض النسبة إلى 80% أو 20% أو حتى 1% وربما أقل. وبشكل عام فإن الظواهر الفيزيائية تحدث فى الغالب كما نتوقع إلا أن شذوذ بعض الجسيمات أمر ممكن. وكل ما تتطلبه المعجزة هى زيادة نسبة الجسيمات الشاذة أكثر من المعتاد ، وهذا شىء ممكن تماما من وجهة نظر العلم ، بل إن من الخطأ الشديد القول بأن احتمال الشذوذ صفر.

ويعبر "ريان لى" عن تلك الفكرة القائلة بأن المعجزات لا تتناقض مع قوانين الطبيعة قائلا:

> هل يعنى هذا أنه لكى يصنع الله معجزاته فإن من الضرورى أن ينتهك باستمرار قوانين الطبيعة التى خلقها بنفسه؟ لا أريد أن أدعى أننا نستطيع أن نفهم الله بشكل كامل ، لكن يبدو من المنطقى أنك إن علمت أنك ستصنع المعجزات فإنك ستبنى فيزياء الكون لتسمح بذلك. **إن كان عالَم الكم (وبالتالى الكون كله) قد ضُبط لكى يدور على قوانين الاحتمال فإن من الممكن للمعجزات أن تحدث بدون انتهاك قوانين الطبيعة**. وهذا لا يعنى أن المعجزات تقع بشكل عشوائى ، فإنها لا تزال بحاجة للتدخل الإلهى لأن الاحتمالات المصاحبة لهذه الأحداث تجعلها من قبيل الاستحالات بدون تدخل الله[35].

وبعد ، فإذا كان الكون الطبيعى يسوده عدم اليقين ، وتضرب أركانه اللاحتمية ، فهذا يعنى أن من الحماقة أن يجزم المرء بأن من المستحيل حدوث المعجزات.

وهكذا فتحت ميكانيكا الكم الباب واسعا أمام المعجزات ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

---

[35]) **On the Interpretation of Quantum Mechanics.** Ryan Lee, PHYS 517, Spring 2008

الفلاسفة يتنبأون بحدوث المعجزات

ينقسم أهل الفلسفة حول ماهية قوانين الطبيعة إلى فريقين[36]:

أولا: نظرية الضرورة Necessitarianism

ثانيا: نظرية الانتظام Regularity theory

وأتباع نظرية الضرورة يقولون أن قوانين الكون ضرورية ، فمثلا الأرض تجذب القمر ، ومن المستحيل فى يوم من الأيام أن تتوقف الأرض عن ممارسة قوة الجاذبية على القمر. وبالمثل تتنافر الشحنة الكهربية الموجبة مع الشحنة الموجبة ، لكنها تتجذب الشحنتان المختلفتان معا ، ومن المستحيل فى يوم من الأيام أن يتجاذب الموجب مع الموجب أو السالب مع السالب. أما أتباع نظرية الانتظام فيؤكدون أن من الممكن فى يوم من الأيام أن تختفى جاذبية الأرض ، أو تتنافر الشحنتان الكهربيتان المختلفتان ، أو ترتفع حرارة الماء إلى مائة درجة مئوية دون أن يغلى لأننا فى خبراتنا العملية والتجريبية لا نرى إلا اقتران الأشياء مع بعضها بطرق معينة ونظم معينة دون أن نجد شيئا اسمه "الضرورة" يُرى بالحواس أو يُرصد بالأجهزة. إن هذه "الضرورة" مجرد فكرة غير فيزيائية وغير واقعية وغير تجريبية. الضرورة ليست أكثر من "افتراض" أو "وهم" أنشأه العقل بسبب اعتياده على اقتران الأشياء ببعضها بطرق خاصة فى الطبيعة. وبعبارة موجزة نقول أن **أصحاب نظرية الانتظام يقولون أن قوانين الطبيعة "تصف" الطبيعة ليس إلا ، أما أصحاب نظرية الضرورة فيؤكدون أن قوانين الطبيعة "تحكم" الطبيعة.**

وفى البداية كان أصحاب نظرية الضرورة يقولون أن الضرورة فى قوانين الكون تنبع من الله ، فالإله هو الذى يجبر الأشياء على أن تتصرف بنظام معين ، ويمنعها من أن تحيد عنه. لكن فى القرن العشرين شعر الفلاسفة بأن فكرة "الله" قد صارت فكرة بالية ، ويجب التخلى عنها نهائيا، فأصبح عليهم أن يعزوا وجود الضروة فى قوانين الطبيعة إلى الطبيعة ذاتها!

---

[36]) **Laws of nature**. By Norman Swartz. Simon Fraser University, Canada. Internet Encyclopedia of Philosophy.

ولكل فريق أدلته الوجيهة. ولسنا هنا بصدد الترجيح بين النظريتين ، فكل ما يهمنا الآن أن يعرف القارىء **أن هناك تيارا فلسفيا غربيا (وإن كنا لا نتفق معه بالضرورة كما سنرى لاحقا) يؤكد أن خرق قوانين الطبيعة هو أمر من صميم الطبيعة لأن قوانين الطبيعة تفتقر للضرورة ، ومن الخطأ أن نتوقع بشكل يقينى أن تسير الأحداث فى المستقبل كما تسير اليوم ، وكما سارت فى الماضى** ، فليس هناك ما يمنع عقلا من حدوث ما لا يخطر على البال. وبعبارة صريحة نقول أن **نظرية الانتظام تقر– رغم أنفها – بإمكان وقوع المعجزات لأنها تؤكد إمكانية خرق نظام الطبيعة. وهل المعجزة إلا خرق للنظام والعادة والمألوف؟**

وأصحاب نظرية الانتظام يمثلون تيارا فلسفيا لم ينشأ خصيصا من أجل الدفاع عن الدين ، ولذلك فعلى أهل الإلحاد أن يكفوا عن اتهام كل من يؤمن بالمعجزات بالغباء والتخلف. من فضلكم تواضعوا قليلا ، وانزلوا إلى حلبة السباق وقارعوا الحجة بالحجة.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

استحالة منطقية أم استحالة عملية؟

يمكن للمرء أن يصنف الأمور المستحيلة إلى نوعين: مستحيلات عملية ومستحيلات منطقية. المستحيلات العملية هى أمور لا تحدث لأنها تتطلب تقنيات لا يتصور المرء توافرها مثل قدرة إنسان على حمل القمر بيديه ، أو قدرة الإنسان على التجول داخل قرص الشمس دون رداء واق، أو طلوع الشمس من المغرب ، أو تحول الصخرة لسائل من عصير التفاح.

أما المستحيلات المنطقية فهى أمور لا يمكن حدوثها لأنها تتصادم مع قوانين الفكر الأساسية. وقوانين الفكر الأساسية التى تُنسب لأرسطو هى: قانون الهوية، وقانون عدم التناقض ، وقانون الثالث المرفوع. ومن أمثلة المستحيلات المنطقية القول بأن شخصا ما وجهه شديد البياض وشديد السواد فى نفس الوقت. وكذلك من المستحيل أن يكون الإنسان ميتا وحيا فى نفس الوقت، ومن المستحيل أن تكون درجة حرارة الجو 40 و13 فى نفس الوقت فى نفس المكان. ومن المستحيل أن تلد البنت أمها ، ومن المستحيل أن تكون مساحة إحدى غرف البيت أكبر من مساحة البيت كله ، ومن المستحيل أن يعود الإنسان إلى الماضى ليقتل جده وهو طفل رضيع

قبل أن يتزوج وينجب. إن هذه القضايا تحمل فى جوفها تناقضات تجعلنا نجزم باستحالة حدوثها.[37]

وكما نرى فالاستحالات المنطقية لا يمكن تصديقها مهما كان السبب ، أم الاستحالات العملية فهى استحالات كاذبة ، والأدق أن توصف بأنها أمور بعيدة الاحتمال لا أن وقوعها ممتنع ، وذلك لأن صعوبتها تتوقف على توافر التقنية اللازمة ، ومن الممكن تصور أنه بالتطور التدريجى يمكن للبشرية أن تحقق كثيرا من المستحيلات ، وحتى إن عجزت البشرية عن ذلك فليس مما يجافى المنطق تصور وجود كائن أقوى من الإنسان يمتلك القوة اللازمة والمهارة المطلوبة لفعل الأمور الصعبة. **وعلى ذلك فالمستحيل الحقيقى هو فقط ما يتضمن تناقضا منطقيا. والمعجزات تدخل فى باب المستحيلات العملية ، ولذا فهى مستحيلات كاذبة ،** وبعبارة أكثر تحديدا نقول أن المعجزات أمور بعيدة الاحتمال لكن وقوعها غير ممتنع.

وقد فطن آخرون إلى هذه الفكرة العميقة من قبل ، ومنهم العالم المعروف ميشيل بيهى الذى يقول:

> **[لا يمكن لأى دليل علمى أن يظهر أن شيئا ما مستحيل منطقيا لأن الاستحالة المنطقية تتعلق فقط بالتصريحات المتناقضة ذاتيا (مثل: هو متزوج أعزب) وليس بالطبيعة** (مثل: الدى إن إيه DNA عادة حلزون مزدوج). **على سبيل المثال فإن مركزية الأرض للكون ليست مستحيلة منطقيا ، ولكنها فقط خطأ. ولم يكن أبدا من الواجب على أى نظرية علمية (ولا على نظرية التصميم الذكى) – ولا باستطاعتها– أن تستبعد التفسيرات المنافسة بإظهار أنها مستحيلة منطقيا.** إن النظريات العلمية تنجح ببساطة بتفسير المعلومات أفضل من النظريات المنافسة][38].

---

[37]) من الممكن الجمع بين المتناقضات بشكل مجازى مثل القول بأن (الرسول مات منذ 1400 عام ، لكنه لا يزال حيا بيننا) ، بمعنى أنه يحيا حياة مجازية لا حياة حقيقية ، أى أن الناس يتبعون أقواله وأفعاله وتعاليمه ، وكأنه لا يزال حيا بينهم. أما الكلام الحقيقى غير المجازى فيستحيل أن يتضمن تناقضات. وبالمثل يمكن الجمع بين المتناقضات فى الأحوال المتوسطة ، فمثلا من المقبول أن نقول أن طالبا ذكى وغبى فى نفس الوقت إذا كنا نقصد أنه ذكى فى اللغات وغبى فى الرياضيات ، أو أن ذكاءه متوسط بحيث يبدو غبيا بالنسبة للطلبة الشديدى الذكاء وذكيا بالنسبة للطلبة الشديدى الغباء. لكن من التناقض القول بأن الطالب شديد الذكاء وشديد الغباء فى نفس الوقت.

[38]) **Darwin's Black Box: The Biochemical Challenge to Evolution**. By Michael J. Behe. Page 258; 10th anniversary edition. FREEE PRESS. USA. 2006.

وبعد ، عليك أن تلاحظ عزيزى القارىء كيف رددنا فى هذا الفصل – وفيما سيعقبه من فصول– على أهل الإلحاد معتمدين على الظواهر الطبيعية والأفكار العلمية. وليس هذا بدعا من القول ، فالقرآن ينتهج نفس المنهج ، إذ تراه مثلا يدلل على بعض الغيبيات بواسطة دلائل من الكون ، ومن قبيل ذلك فكرة البعث ، حيث قال تعالى:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [الحج: 5]

والفكرة التى تدور حولها هذه الآية هى محاولة إثبات حدوث البعث بعد الموت لمن يكفر به. والقرآن يفعل ذلك من خلال عمل ثلاثة أشياء:

أولا: تذكير الإنسان بقدرة الله التى تجلت فى خلق الإنسان من تراب. ومن كان قادرا على خلق الإنسان فى المرة الأولى فإنه سيكون ولا شك قادرا على خلقه مرة ثانية يوم القيامة.

ثانيا: قد ينكر الإنسان الساعة على أساس أنها فكرة غيبية لا تمت للواقع بصلة ، ومجرد نظرية لا يمكننا التحقق من حدوثها. والقرآن لكى يرد على هذا فإنه يلفت نظر الإنسان إلى أنه إذا كان الناس مصيرهم التدهور والتلف والفناء بالإجهاض والموت وفقدان العقل فى الكبر ، فليس من العسير تصديق القول بأن للكون كله نهاية (ونقر فى الأرحام ما نشاء....ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) ؛ إن الكل يحمل خصائص أجزائه.

ثالثا: يمكن للإنسان أن يرى أدلة ملموسة على إمكانية حدوث البعث حين ينظر حوله فى الأرض ، إذ سيجد أن الأرض الميتة تحيا وتخضر وتزدهر بنزول المطر. وهذه الظاهرة تقرب إلى أذهاننا فكرة البعث وتجعله أقرب للظاهرة الطبيعية منه للغيبيات.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

هذيان مغرور

فى كتاب "التصميم العظيم"[39] طرح ستيفن هوكنج وليونارد مالودينو السؤال التالى: هل توجد أية استثناءات لقوانين الطبيعة؟ أى هل توجد معجزات؟

أجاب المؤلفان على هذا السؤال من خلال سرد تاريخى موجز ، فأوضحا أن أفلاطون وأرسطو أكدا على أنه لا يمكن وجود استثناءات لقوانين الطبيعة. لكن ينسب الفضل إلى العالم الفرنسى لابلاس باعتباره أول من تكلم بشكل واضح وصريح عن الحتمية العلمية. كان رأى لابلاس أننا إن علمنا حالة العالم فى وقت معين فإن حزمة كاملة من القوانين الطبيعية تحدد بشكل كامل المستقبل والماضى. وهذا يستبعد – كما يقول المؤلفان– احتمال المعجزات ، وينفى وجود دور نشيط لله. و"الحتمية العلمية" التى صاغها لابلاس هى الإجابة التى يتبناها العلماء فى العصر الحديث على السؤال السابق المتعلق بالمعجزات. إنها فى الواقع أساس كل العلم الحديث. إن القانون العلمى لا يمكن أن يكون قانونا علميا إن سرى فقط عندما يقرر موجود ميتافيزيقى ألا يتدخل. ويقال أن نابليون سأل ذات يوم العالم لابلاس عن الكيفية التى يتدخل بها الله فى الكون فى ظل عمل قوانين الطبيعة ، فأجاب لابلاس: "سيدى أنا لست فى حاجة لهذا الفرض" ، أى أن لابلاس لا يحتاج لافتراض وجود إله طالما أن الكون يسرى وفق قوانين طبيعية حتمية.

وبعد هذه النقطة يكاد المرء يجن حين يفاجأ أن ستيفن هوكنج ورفيقه ينتقلان بكل بساطة لمناقشة موضوع آخر ، وكأن هذا الكلام السطحى يكفى لنفى وجود المعجزات. حقا ربما كان هوكنج واحدا من أعظم العقول الفيزيائية التى شهدها القرن العشرين لكن علينا أن نفهم جيدا أن العلم لا يعتمد فقط على الذكاء ، العلم يتطلب أيضا حسن الخلق ، وأهم خلق يحتاجه العلم هو الصدق مع النفس ، أى الحياد التام ، ومناقشة الرأى الآخر ، والرد عليه ، وكم رأينا من عباقرة استغلوا ذكاءهم الخارق فى الدفاع عن رأى باطل ، وكثيرا ما رأيت بعينى أساتذة فى كلية الطب ، يعترض الواحد منهم على رأى صائب لطبيب صغير فى علاج بعض المرضى لمجرد أن هذا الأستاذ يكره أن يتلقى تصويبا ممن هو أصغر منه. وسنجد هنا أن كل ما فعله هوكنج هو أنه

---

[39]) **The Grand Design**. Chapter 2: The rule of law.

اكتفى بالتأكيد على أن قوانين الطبيعة لا يمكن خرقها ، ضاربا عرض الحائط بحقائق علمية ثابتة ومهمة تكلمنا عنها بما فيه الكفاية فى هذا الباب ، وكان من أهم ما استشهدنا به كلام طويل لستيفن هوكنج نفسه من كتابه "تاريخ موجز للزمان" ، ومن الفصل الرابع من كتاب "التصميم العظيم". ومن يقرأ الفصل الرابع من كتاب "التصميم العظيم" يخرج بقناعة راسخة قوامها أن العلم أغرب مما نتخيل ، وأن المعجزات أقرب إلينا مما نتصور ، لكن القارىء سيشعر فى نفس الوقت وكأن مؤلف الفصل الرابع يصحح أخطاء مؤلف الفصل الثانى من نفس الكتاب، أو أن هوكنج قد ابتلى بداء النسيان فى أخريات حياته ، فوقع فى تناقض مشين.

ويبدو أننا كنا مخطئين حين صدقنا ما ذكره هوكنج عن نفسه حين أخبرنا أنه مولع بالخيال العلمى ، فقد كتب فصلا فى كتابه "الكون فى قشرة جوز" ، وكان عنوان هذا الفصل: "مستقبلنا أهو فى ستار تريك أم لا"[40] ، وفيه يتكلم هوكنج عن المعجزات الباهرة التى يُنتظر أن يحققها العلماء فى المستقبل ، **وكأن من حق العلماء أن يصنعوا المعجزات ، بينما يُمنع إله الكون الذى خلق العلماء من نفس الحق!!** ولكن يبدو أن الرجل تعامى عن الحق الواضح لغرض فى نفسه ، وبدا وكأنه يوجه كتابه لمجموعة من الأطفال الصغار الذى يصدقون كل ما يقوله لهم الكبار دون مناقشة.

يؤسفنى أن أؤكد أن ستيفن هوكنج يهذى. على أى حال الرجل مات بعد سنوات معدودة من اختتام حياته بهذه الكتاب ، وهو الآن فى قبره بين أيدى الملائكة ، ويعلم يقينا أكثر منى ومنكم أن المعجزات حق ، وما يعنينا الآن أن نقدم لتلاميذه الهدية التالية:

---

[40]) **الكون فى قشرة جوز**. تأليف ستيفن هوكنج. سلسلة عالم المعرفة. مارس 2003م. صفحة 145.

هدية لمن لا يصدق بالمعجزات

إن رأيت من ملحد ما تكره فتمالك أعصابك ، وأعطه هدية ! وأفضل ما يمكن أن يأخذه منك الملحد كتاب فى غاية الروعة اسمه "فيزياء المستحيل" Physics of the impossible لعالم الفيزياء المشهور ميشيو كاكو. ومن قراءة اسم الكتاب نعرف مضمونه. إنه كتاب يقدم الأساس الفيزيائى للتصديق بالمعجزات. وميشيو كاكو ليس مسلما ولا متدينا ، وهذا يكسب شهادته عن المعجزات قيمة خاصة. كما أن ميشيو كاكو ليس شخصية عادية ، فهو يعد أحد أهم علماء الفيزياء فى العالم. إنه أستاذ الفيزياء النظرية فى مركز الخريجين التابع لجامعة المدينة بنيويورك[41]. وهو المؤسس المشارك لنظرية مجال الوتر String field theory. وقد ألف ميشيو كاكو عدة كتب علمية ذائعة الصيت ، ويعد بعضها من أكثر الكتب العلمية مبيعا طبقا لنيويورك تايمز ، كما أنه ضيف متكرر على التلفاز القومى ، وله برنامج يسمع فى 130 مدينة.

ويفتتح ميشيو كاكو كتابه المذكور بضربة ساحقة تحطم أنف الملحد المنكر للمعجزات حين يقول:

> **هل سيكون باستطاعتنا فى يوم من الأيام أن نمشى من خلال الحوائط؟ أن نبنى سفنا تتجه للنجوم؟ أو نقرأ عقول الآخرين؟ أن نصبح غير مرئيين؟ أن نحرك الأشياء بقوة عقولنا؟ أن ننقل أجسادنا فى لمح البصر عبر الفضاء الخارجى؟**

وكما ترى من طريقة صياغة الكلمات فالمؤلف يطرح هذه التساؤلات لا ليثبت أن هذه الأشياء من قبيل الخرافات ، ولكن ليقول للقارىء أنها من المحتمل جدا أن تتحقق فى يوم من الأيام.

وسنتعرض لبعض من محتويات هذا الكتاب فى أكثر من موضع فى كتابنا الحالى ، لكن من مجرد تصفح فهرس كتاب "فيزياء المستحيل" ندرك هول الصدمة التى سيتلقاها الملحد ، **فالكتاب كله مخصص لتتبع الوسائل والتقنيات التى يمكن أن يتبعها العلماء لتحقيق المعجزات والمستحيلات**. وميشيو كاكو يقسم المستحيلات إلى ثلاثة أصناف طبقا لمدى صعوبة تحققها:

---

[41]) Graduate Center of the City University of New York.

المستحيلات من الصنف الأول وتشمل: حقول القوة– الاختفاء Invisibility– المدافع الإشعاعية ونجوم الموت– النقل الفورى البعيد Teleportation– التخاطر عن بعد Telepathy– التحريك بتأثير العقل Psychokinesis – الروبوتات– الكائنات الفضائية والأجسام الغامضة– السفن النجمية– مضادات المادة ومضادات الأكوان.

المستحيلات من الصنف الثانى وتشمل: أسرع من الضوء– السفر عبر الزمان– الأكوان المتوازية.

المستحيلات من الصنف الثالث وتشمل: آلات الحركة الدائمة ومعرفة المستقبل Precognition

ومن هذا التقسيم تلحظ أن الاستحالة العملية لم تعد تمثل تناقضا مع العلم والمنطق ، بل باتت أقرب إلى **مجرد هدف صعب تسعى التقنيات (التكنولوجيا) الحالية إلى تحقيقه.**

ومن الأفكار الخطيرة التى يتكلم عنها ميشيو كاكو بوضوح شديد هى "**نسبية المستحيل**" حيث تراه يقول:

(بوصفى فيزيائيا فقد تعلمت أن "**المستحيل" هو فى الغالب مصطلح نسبى ..... فى خلال حياتى الخاصة القصيرة رأيت مرة بعد مرة ما كان يبدو مستحيلا وهو يصبح حقيقة علمية مؤكدة.** وعلى ذلك فهل من المستحيل أن نفكر أنه ربما يكون باستطاعتنا فى يوم من الأيام أن ننقل أنفسنا فوريا من مكان لآخر ، أو نبنى سفينة فضاء تأخذنا فى يوم من الأيام إلى النجوم على بعد سنين ضوئية؟ **ومن الطبيعى أن يعتبر الفيزيائيون اليوم أن هذه الإنجازات مستحيلة . لكن هل ستكون ممكنة فى خلال قرون قليلة؟ أو فى خلال عشرة آلاف سنة عندما تصبح تقنياتنا أكثر تقدما؟** أو فى خلال مليون سنة؟ وبعبارة أخرى **لو كان لنا أن نقابل بطريقة ما حضارة أكثر تقدما منا بمليون سنة فهل ستبدو لنا تقنياتهم اليومية أنها من قبيل السحر؟** إن هذا – فى صميمه– أهم الأسئلة المركزية التى تطرح فى هذا الكتاب: **هل لمجرد كون شيء ما مستحيل اليوم فإنه سيظل مستحيلا لقرون أو لملايين السنين فى المستقبل؟**[42]).

---

[42]) **Physics of the impossible**. By Michio Kaku. Page XII. Published in the United States by Doubleday 2008.

ويقول ميشيو كاكو فى مقدمة كتابه أن مما يؤسف له أن عددا من أعظم العلماء فى القرن التاسع عشر أعلنوا بكل ثقة أن من المستحيل اختراع عدد من الآلات. ومن أشهر هؤلاء اللورد كلفن – أكبر علماء عصره– الذى أكد استحالة اختراع آلة تطير ، كما أكد أن أشعة إكس مجرد خدعة ، وأن الراديو لا مستقبل له. ورغم ذلك كذبت كل تنبؤات كلفن حيث اخترع العلماء بعدها الطائرة والراديو واكتشفوا أشعة إكس. كما استبعد العالم الشهير رذرفورد (مكتشف نواة الذرة) احتمال صنع قنبلة نووية ، لكن العلماء نجحوا فى اختراعها. وفى القرن التاسع عشر أعلن العلماء بكل ثقة أن محاولات القدماء تحويل عنصر لعنصر آخر (مثل تحويل الرصاص لذهب) مقضى عليها بالفشل ، وهى من قبيل المستحيل. لكن هذا المستحيل تحقق ، حيث صار بإمكان العلماء اليوم – من حيث المبدأ– تحويل الرصاص لذهب من خلال مهشمات الذرة Atom smashers. وحتى آينشتين أعظم علماء البشرية أخطأ فى تنبؤاته حيث كتب بحثا فى عام 1929 يستبعد تماما وجود الثقوب السوداء ، ولكن الآن رصد العلماء وجود كثير من هذه الثقوب.

وهذه الأمثلة تبرز لنا كيف أن كثيرا مما يُعتقد أنه مستحيل من الممكن أن يتحقق فى يوم من الأيام. ومن المؤكد أن العلماء قد وعوا الدرس جيدا ، فلم يعودوا يتكلمون بصلف عن المستحيل ، ولكن يبدو أن الملحدين لم يتعلموا أى شىء ، فلا زلنا نسمع منهم نفس اللهجة المتعالية التى تنكر خرق قوانين الطبيعة بأى شكل من الأشكال. إنهم فى الحقيقة يشبهون أهل الكهف الذين لا يزالون يعيشون فى الماضى ، بينما تغير العالم من حولهم. الإلحاد فعلا فى غيبوبة ، فهل من صحوة؟

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله رب العالمين.

نعم للخيال العلمى. لا للمعجزات ؟!

العالم الحديث من حولنا يشاهد أفلام الخيال العلمى بكثافة شديدة ، وينظر إلى هذا النوع من الأدب على أنه وسيلة فعالة لخلق جيل من النشء يتمتع بثقافة علمية ترمى لتغيير وجه الأرض فى المستقبل.

وفى كتاب "فيزياء المستحيل" يقول العالم الكبير ميشيو كاكو متحدثا عن تأثير الخيال العلمى عليه وعلى غيره من كبار العلماء:

(السحر والخيال والخيال العلمى كانت كلها ملعبا كبيرا لخيالى. لقد تسببت فى بدء علاقتى الغرامية مع المستحيل والتى استمرت طوال عمرى........وقد تبين أننى لم أكن وحدى. إن كثيرا من العلماء الشديدى البراعة قد أصبحوا فى الأصل مهتمين بالعلم من خلال تعرضهم للخيال العلمى. لقد كان الفلكى الكبير إيدوين هابل منبهرا بأعمال جول فيرن. ونتيجة قراءة عمل فيرن قام هابل بالتخلى عن مستقبل واعد فى القانون وانطلق فى مسار العلم ضد رغبة أبيه ، وأصبح فى النهاية أعظم الفلكيين فى القرن العشرين. وكارل ساجان – الفلكى المرموق والمؤلف صاحب الكتب الأكثر مبيعا– وجد خياله يشتعل بقراءة قصص جون إدجار بوروز المسماة "جون كارتر التابع للمريخ". لقد حلم – مثل جون كارتر– بارتياد المريخ فى يوم من الأيام.

ويذكر ميشيو كاكو بعد ذلك كيف أنه عزم على دراسة الفيزياء والرياضيات لكونها السبيل الواحد لإشباع غرامه الشديد بالخيال العلمى.

وفى كتاب "الكون فى قشرة جوز" كتب ستيفن هوكنج فصلا عنوانه " مستقبلنا أهو فى ستار تريك أم لا؟" وفى بداية هذا الفصل يقول هوكنج[43]:

راجت رواية "ستار تريك" (رحلة النجوم) رواجا شعبيا بالغا لأن هذه الرواية هى رؤية آمنة ومريحة عن المستقبل. وأنا شخصيا مولع نوعا بستار تريك ، وهكذا كان من السهل

[43]) **الكون فى قشرة جوز**. تأليف ستيفن هوكنج. صفحة 145.

إقناعى بأن أسهم بالظهور فى حلقة منها لعبت فيها لعبة البوكر مع نيوتن وآينشتين والقومندان (داتا) ، وقد هزمتهم جميعا ، ولكن لسوء حظى ظهر إنذار بالخطر ، وبالتالى لم أجمع قط أرباحى.

فانظر كيف ينبهر كبار علماء الفيزياء بالخيال العلمى ، وكيف يظهرون الود الشديد تجاه أدبياته. وفى المقابل تجد تجهما وسخرية واستنكارا حين يثار موضوع المعجزات التى ذكرها الدين. لماذا ينظر هؤلاء بتوقير إلى الخيال العلمى باعتباره أدبا يروى أحداثا من المحتمل جدا أن تقع فى المستقبل ، بينما يرفضون أى كلام عن وقوع أحداث مماثلة –وربما أقل صعوبة– على أيدى الأنبياء؟ هل السبب هو أن المعجزات ضد قوانين الطبيعة بينما الخيال العلمى يتفق معها؟ قطعا لا ، فلا المعجزات ولا الخيال العلمى تتعارض بشكل عام مع أسس قوانين الطبيعة؟ هل السبب هو أن الخيال العلمى يمكنه أن يتحقق على أرض الواقع من خلال آليات وتقنيات علمية محددة بينما المعجزات تحدث دون آليات أو تقنيات علمية؟ هذا أيضا سبب غير وجيه لأن التقنيات ما هى إلا وسائل للتأثير على الموجودات الفيزيائية ، وسواء تم التأثير عليها بآلياتنا المعهودة أو بآليات غيبية غريبة لا نعرفها فالنتيجة واحدة ، **ثم من أدرانا أن تقنياتنا بعد ألف عام لن تكون شديدة الغرابة بالنسبة لتقنياتنا اليوم؟ ألا تُصنع القنبلة النووية بتقنية شديدة الغرابة بالنسبة لتقنية صنع النبال أو المنجنيق؟ أليست التقنية المستعملة لصنع الطائرة تبدو شديدة الغرابة بالنسبة للتقنية التى كان يستخدمها صانعو عربات الخيول؟** ألا نرى مدى غرابة التقنية المستعملة للكتابة على الحاسوب والهاتف مقارنة بالكتابة بالقلم على الأوراق؟

السبب الواضح فى رأينا هو العداء الذى يكنه كثير من العلماء للدين وللإله الذى يرون فيه منافسا لهم فى الذكاء والعبقرية. نعم إنهم يغارون من الله! تلك هى الحقيقة المؤسفة.

لقد كان المرء يتوقع أن ينظر علماء الفيزياء لمعجزات الدين بنفس الود الذى يبدونه تجاه الخيال العلمى. وإذا كان الخيال العلمى قد ألهم بعض العلماء ، وجعلهم ينتجون نظريات وبحوث فيزيائية جادة ، فلماذا لا يفعل العلماء نفس الشىء مع معجزات الدين ، فيُعملون عقولهم لمعرفة التقنيات التى يمكن أن يستعين بها البشر لتكرار هذه المعجزات ، لعل البشرية تنتفع بها فى يوم من الأيام؟ ولو فكر أحد العلماء فى معجزة الإسراء والمعراج على سبيل المثال ، وحاول أن يفهم

كيف يمكن أن تقع دون أن تتناقض مع قوانين الطبيعة لرأينا انفجارا لعبقريات علمية مذهلة ، وربما اكتشف العلماء تقنيات جديدة تساعدهم على السفر لأغوار الكون فى لمح البصر.

ولكن لا حياة لمن تنادى ، فغرور العلماء بلغ حدا خطيرا.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الباب الثالث: المعجزات والسببية

رأى بعض الفلاسفة منذ سنوات طويلة أنه لا حاجة بهم للقول بوجود السببية فى الطبيعة، فنحن نعرف على سبيل المثال أن اتصال النار بالخشب يؤدى إلى احتراق الخشب لكن **لا يوجد عقلا ما يمنع ألا يحترق الخشب عند اتصاله بالنار ، فكل ما فى الأمر أننا ألفنا رؤية الاحتراق عند التقاء الخشب بالنار ، فهذه مجرد عادة ، لكن من الناحية المنطقية المحضة ليس من المستحيل أن نرى يوما ما النار وهى تهب على الخشب فيبقى سليما دون أن يحترق**. وسنجد أيضا أن هبوب الريح يؤدى إلى اهتزاز الأشجار لكن هذا ليس أمرا محتوما ، فلا يوجد عقلا ما يمنع من أن تقف الأشجار فى ثبات كامل أمام أعتى الرياح دون أن تهتز منها ورقة واحدة. وعلى ذلك فالنار لا تؤدى بالضرورة إلى الاحتراق ، والرياح لا تؤدى بالضرورة إلى الاهتزاز ، وبالمثل بقية قوانين الكون التى لا ينبغى القول بصدق عمومها فى كل زمان ومكان.

وقد ظهرت هذه الأفكار لدى بعض فلاسفة الإسلام ، ومن أبرزهم **أبى حامد الغزالى –رحمه الله –الذى أنكر القول بأن السبب يؤدى بالضرورة لحدوث المسبَّب ، وأن المسبَّب يحدث فقط عند وجود أحد الأسباب، وعزا الاقتران بين السبب والمسبب إلى فعل الله عز وجل أو فعل ملائكته.** يقول الغزالى[44]:

> **الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبَّباً ليس ضرورياً عندنا** بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر ولا نفيه متضمن لنفي الآخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر مثل الري والشرب والشبع والأكل والاحتراق ولقاء النار والنور وطلوع الشمس والموت وجز الرقبة والشفاء وشرب الدواء وإسهال البطن واستعمال المسهل وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف، **وإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه يخلقها على التساوق لا لكونه ضرورياً في نفسه غير قابل للفرق بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل وخلق الموت دون جز الرقبة وإدامة الحيوة مع جز الرقبة وهلم جرا إلى جميع المقترنات.** وأنكر الفلاسفة

[44] **تهافت الفلاسفة. تأليف أبو حامد الغزالى.** تحقيق دكتور سليمان دنيا. صفحة: 237. دار المعارف- مصر. الطبعة السادسة.

إمكانه وادعوا استحالته....... والنظر في هذه الأمور الخارجة عن الحصر يطول، فلنعين مثالاً واحداً وهو **الاحتراق في القطن مثلاً مع ملاقاة النار، فإنا نجوز وقوع الملاقاة بينهما دون الاحتراق ونجوز حدوث انقلاب القطن رماداً محترقاً دون ملاقاة النار** وهم ينكرون جوازه......... وللكلام في المسألة ثلاثة مقامات: المقام الأول أن يدعي الخصم أن فاعل الاحتراق هو النار فقط وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار فلا يمكنه الكف عما هو طبعه بعد ملاقاته لمحل قابل له. وهذا مما ننكره بل نقول: **فاعل الاحتراق بخلق السواد في القطن والتفرق في أجزائه وجعله حراقاً أو رماداً هو الله إما بواسطة الملائكة أو بغير واسطة، فأما النار وهي جماد فلا فعل لها.**

ورأى الغزالى يمثل تعبيرا عن موقف أعم للمذهب الأشعرى ينكر الأسباب ، وطبائع الأشياء ، أى خواصها وصفاتها. ويعرض ابن حزم لهذا الرأى قائلا:

ذهبت الأشعرية إِلَى إِنْكَار الطبائع جملَة وَقَالُوا لَيْسَ فِي النَّار حر وَلَا فِي الثَّلج برد وَلَا فِي الْعَالم طبيعة أصلا وَقَالُوا إِنَّمَا حدث حر النَّار جملَة وَبرد الثَّلج عِنْد الْمُلَامسَة قَالُوا وَلَا فِي الْخمر طبيعة إسكار وَلَا فِي الْمَنِيّ قُوَّة يحدث بهَا حَيَوَان وَلَكِن الله عز وَجل يخلق مِنْهُ مَا شَاءَ وَقد كَانَ مُمكنا أَن يحدث من مني الرِّجَال جملا وَمن مني الْحمار إِنْسَانا وَمن زويعة الكزبر نخلا)[45].

لكن أشهر من ارتبطت به فكرة إنكار السببية حديثا هو الفيلسوف ديفيد هيوم الذى يعرض الأستاذ يوسف كرم لرأيه قائلا[46]:

أما العلوم الطبيعية فقيمتها تابعة لقيمة علاقة العلية، وهذه العلاقة هي التي تسمح لنا بالاستدلال بالمعلول الحاضر على العلة الماضية، وبالعلة الحاضرة على المعلول المستقبل. ولكنها عديمة القيمة؛ فإنها ليست غريزية وليست مكتسبة بالحس الظاهر، أو الحس الباطن، أو بالاستدلال. لقد بين لوك أن ليس في الذهن شيء غريزي، **والحواس تظهرنا على تعاقب الظواهر الخارجية، ولا تظهرنا على قوة في الشيء الذي يسمى**

---

[45]) **الفصل في الملل والأهواء والنحل** (5/ 11). تأليف ابن حزم الظاهرى الأندلسى. مكتبة الخانجى - القاهرة

[46]) **تاريخ الفلسفة الحديثة**. تأليف يوسف كرم. صفحة 165. دار المعارف- مصر- 1949م

علة يحدث بها الشيء الذي يسمى معلولا ، فأنا أرى كرة البلياردو تتحرك، فتصادف كرة أخرى، فتتحرك هذه، **وليس في حركة الأولى ما يظهرني على ضرورة تحرك الثانية**. والحس الباطن يدلني على أن حركة الأعضاء في تعقب أمر الإرادة، **ولكني لا أدرك به إدراكًا مباشرًا علاقة ضرورية بين الحركة والأمر، ولا أدري كيف يمكن لفعل ذهني أن يحرك عضوًا ماديًّا**. وأخيرًا ليس يمكن القول بأن رابطة العلية مكتسبة بالاستدلال. إن الفلاسفة الذين يدعون أن للشيء الذي يظهر للوجود علة بالضرورة وإلا كان علة نفسه أو كان معلولا للعدم، يفترضون المطلوب، أعني: استحالة استبعاد البحث عن العلة. يجب البرهنة على ضرورة العلة قبل الاحتجاج ببطلان وضع هذه العلة في الشيء الذي يظهر للوجود أو في العدم. وعلى هذا فمبدأ العلية لا يلزم من مبدأ عدم التناقض، ولا تناقض في تصور بداية شيء دون رده إلى علة. إن معنى العلة معنى البداية، وليس متضمنًا فيه، ومن الممكن للمخيلة أن تفصل بين معنى العلة ومعنى ابتداء الوجود. ثم إن معنى العلة ومعنى المعلول متغايران، ويستحيل علينا أن نعلم مبدئيا معنى المعلول من معنى العلة: "إن آدم، قبل الخطيئة، مهما افترضنا لعقله من كمال، ما كان يستطيع أبدًا أن يستنتج مبدئيا من ليونة الماء وشفافيته أنه يخنقه ويستحيل على العقل، مهما دقت ملاحظته، أن يجد المعلول في العلة المفترضة ، لأن المعلول مختلف بالكلية عن العلة، فلا يمكن استكشافه فيها". بل إن الاستدلال لا يخولنا الحق في توقع نفس المعلولات بعد نفس العلل، إذ **ليس في وسع العقل أن يبرهن على "أن الحالات غير الواقعة في تجربتنا يجب أن تشابه الحالات التي جربناها"** ، كما أنه **ليس في وسع التجربة أن تبرهن على وجوب التشابه بين المستقبل والماضي**، من حيث إن التجربة نفسها قائمة على هذا الافتراض. **وكل ما هنالك "أن العلة شيء كثر بعده تكرار شيء آخر، حتى إن حضور الأول يجعلنا دائمًا نفكر في الثاني". وعلى ذلك تعود علاقة العلية إلى علاقتي التشابه والتقارن، فهاتان العلاقتان هما الأصليتان، وعلاقة العلية مجرد عادة فكرية من نوعهما، وما يزعم لها من ضرورة ناشئ من أن العادة تجعل الفكر غير قادر على عدم تصور اللاحق وتوقعه إذا ما تصور السابق.**

والنتيجة أن ليس يوجد حقائق ضرورية ومبادئ بمعنى الكلمة ، **وأن العلوم الطبيعية نسبية ترجع إلى تصديقات ذاتية يولدها تكرار التجربة.**

وإذا عدنا إلى فيلسوف الإسلام الكبير أبى حامد الغزالى لوجدناه يحاول إثبات إمكان حدوث المعجزات بالاستناد إلى النظرية القائلة بأن المسببات لا تحدث بفعل الأسباب ، بل لأن الله تعالى هو الذى فعلها فى الحقيقة ، وما العلاقة بين الأسباب والمسببات إلا مجرد اقتران زمنى لا ضرورة فيه ، ومن الممكن جدا وجود السبب دون أن يترتب على ذلك وجود المسبب ، أو حدوث المسبب بلا سبب ، فالفاعل الحقيقى لكل شيء هو الله تعالى.

ونحن نتفق مع الغزالى فى القول بأن من الممكن وجود السبب دون المسبَّب أو العكس ، ولكن لسنا مضطرون للقول مثله بأن السببية وهْم. إننا لا ننكر وجود السببية نفسها ، بل **نؤكد أن الأشياء الطبيعية تؤثر على بعضها تأثيرا حقيقيا ، وهذا لا يمنع وقوع المعجزات لأن الله تعالى قادر على أن يتدخل ليعارض تأثير السبب على المسبب خلافا للعادة ، فالله تعالى هو السبب الأعظم الذى يمكنه أن يلغى تأثير كل الأسباب الأخرى.** انظر مثلا لحركة الكرة للأمام حين تُضرب بالقدم: إن حركة القدم سبب لحركة الكرة للأمام ، لكن من الممكن للكرة أن تتحرك للخلف رغم ضربها بالقدم باتجاه الأمام ، وذلك إن وُجد سبب آخر يتعارض مع السبب الأول مثل اصطدامها بشكل غير متوقع بقدم أحد اللاعبين. **وهذا المثال يبين كيف يمكن تصديق وقوع أحداث غريبة غير مألوفة دون الحاجة للقول بأن السببية فى الطبيعة وهم وخداع ، فيكفى جدا أن نعتقد فى وجود سبب أعظم يستطيع بمفرده أن يعارض تأثير كل الأسباب ويتغلب عليها مهما كانت ، بحيث يجعل الأمور تسير على غير العادة وغير المتوقع، وهو ما نسميه بالمعجزات.**

إن القول بأن الأحداث تجرى فى الكون دون أسباب يجعل المرء يتساءل: **ومن أين توصلنا إلى وجود الله؟ أليس لأن الكون يحتاج إلى سبب كى يوجَد؟ ومن أين عرفنا أنه لا بد من سبب كى يوجَد الكون كله؟ أليس لأن الظواهر التى تحدث أمامنا تحتاج لأسباب تفسرها؟ وإذا كنا نستدل على وجود الله من خلال مبدأ السببية ، فكيف نضحى بهذا المبدأ القيِّم بتلك السهولة الغريبة؟**

ثم إن القرآن يثبت أن الكون المنظور (السماوات والأرض) يطيع الله بإرادته وليس رغما عنه ، وهذا يدل على أن **الله تعالى أوكل للجمادات فى الكون التصرف طالما أن إرادتها تدخل فى حيز إرادته ، ولا تحيد عنها قيد أنملة.** انظر للقرآن وهو يعبر عن هذا المعنى فى عبارة لا تخطئها العين: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: 11]. **القرآن هنا يخبرنا بوضوح شديد أن السماوات والأرض تطيع الله باختيار وحب واقتناع ، فما الداعى لأن يفترض الغزالى أن تأثير الموجودات على بعضها مجرد تأثير وهمى؟ لماذا لا نقول مع القرآن أن الموجودات تؤثر على بعضها تأثيرا حقيقيا لكن كل هذه التأثيرات تلتزم بدقة مطلقة بإرادة الله؟**

إن اعتقال أحد تجار المخدرات يتم بفعل سببين: سبب مباشر هو قوة الشرطة التى اقتحمت منزله، وسبب غير مباشر هو وزير الداخلية الذى أصدر قرار الاعتقال ، ومن الخطأ الإصرار على أن وزير الداخلة هو وحده السبب ، وإنكار كون قوة الشرطة سببا فى الاعتقال ، والحقيقة أن الشرطى الذى وضع القيود فى يد المجرم سبب ، ووزير الداخلية هو الآخر سبب ، بيد أن وزير الداخلية يسيطر تماما على الموقف لأن الشرطى يستحيل أن يقبض على معارض سياسى إلا إذا تلقى أوامر عليا. وبنفس الطريقة نقول أن **الموجودات فى الكون تؤثر على بعضها البعض ، وهذا هو ما نسميه بالسببية ، وإثبات قدرة الكائنات على الفعل الحقيقى لا يعنى أبدا أن الله غائب عن المشهد ، وأنه لا يتدخل فى الكون ، وإلا لجاز لنا أن نقول أن وزير الداخلية إمعة ، وأن ضباط الشرطة يتصرفون من أنفسهم.** باختصار: الكون ملىء بالأسباب الصغرى ، لكن هناك سبب أعظم وحيد قادر على إبطال مفعول كل الأسباب الصغرى ، ألا وهو الله عز وجل ، و**الأشياء فى الكون مثل الجنود التى تطيع قائدها طاعة مطلقة.**

وهكذا فنحن نتفق مع الغزالى فى النتيجة القائلة بأن المعجزات ممكنة ، لكننا نختلف عنه فى المنهج المتبع ، فهو يثبت المعجزات من خلال إنكار وجود التأثير الحقيقى للأسباب على المسببات ، بينما نحن نثبت وجود تأثير حقيقى للأسباب على المسببات ، لكننا نثبت فى نفس الوقت وجود منظومة أخرى من الأسباب غير المرئية (الله تعالى وملائكته) التى تتدخل فى بعض الأحيان لإبطال مفعول الأسباب المادية المعتادة ، فتحدث المعجزات.

وفى هذه اللحظة عنَّ لى سؤال آخر: من أين أتى مبدأ السببية نفسه؟

إن بعض الفلاسفة – حتى ممن لا يؤمنون بدين– يقولون بأنه لا توجد سببية ، فكل ما يمكننا أن نقوله أن وجود شيء ما يعقبه وجود شيء آخر (مثل النار واحتراق الخشب– الأكل والشبع– الريح وحركة النبات...إلخ) ، فيقوم الذهن بحكم العادة باعتبار الأول سببا للثانى ، مع أننا لا نرى إلا شيئا أول أعقبه شيء ثان ، ولا تأتينا التجربة بشيء ثالث ملموس محسوس اسمه السببية. ولا يوجد مبدأ عقلى يقول أن وجود النار بجوار الخشب الجاف يؤدى بالضرورة لاحتراق الخشب. ومنطق هذه النظرية يقول أن هناك مبادىء عقلية ضرورية مثل القول بأن الاثنين أكبر من الواحد ، وأن النقيضين لا يجتمعان فى نفس الوقت (مثل قولك عن فتاة أنها مكروهة من أصحابها لأنها بدينة جدا ، وقولك فى نفس اليوم أنها مكروهة من أصحابها لأنها نحيفة جدا). وهذه القواعد العقلية تفرض نفسها علينا ، لكن السببية – فى رأيهم– ليست كذلك ، فلا يوجد ما يمنع عقلا من أن توجد النار ، ولا يحترق الخشب ، أو أن يحترق الخشب دون وجود النار ، فلا تناقض فى هذا على الإطلاق.

ولا أخفى أننى كنت شديد الإعجاب بهذه النظرية الجريئة لسنوات طويلة ، ولكن بمرور الوقت اكتشفت بها خللا خطيرا: إن مَن يعتبر الأسباب الطبيعية وَهْم ، وأن الله هو السبب الوحيد لكل شيء، فهو ينتحر دينيا كما قلنا لأنه لن يستطيع إثبات وجود الله باعتباره سببا للكون. وبالمثل من ينكرون السببية من أصحاب نظرية الانتظام الذين لا يعنيهم الله فى شيء ، فهم يقعون فى خطأ يقضى على الفكر كله لأن محور حياتنا العقلية يدور حول "التفسير" ، أى البحث عن الأسباب التى تشرح الظواهر فى شتى المجالات الطبيعية والنفسية والاجتماعية وغيرها. وبدون السببية تضرب الفوضى كل شيء ، وهذا ضد المشاهَد فى الواقع. **بدون السببية لن نقدر أبدا على النطق بكلمة (لماذا) ، وسيجد حتى الفلاسفة المنكرون للسببية أنفسهم فى مأزق خطير لأن كل الحجج الفلسفية التى يستندون إليها قائمة على السببية ، فمثلا هم يقولون أننا نعيش فى وهم السببية "بسبب" العادة ، أى أن تعود الإنسان على رؤية السبب مقترنا بالمسبب يرجع إلى "سبب" ذهنى هو "العادة" ، وهذا لعمرى تناقض مضحك ، فهم يَعزون**

اعتقادنا فى "السببية" إلى "سبب" آخر ، أى أنهم يستعينون بشىء ينكرون وجوده. إن إنكار السببية انتحار شامل لكل فكر.

إن الخطأ الذى وقع فيه منكرو السببية وأصحاب نظرية الانتظام خطأ خفيف لكنه قاتل: **لقد صَدَقوا حين قالوا أن وجود السبب لا يترتب عليه بالضرورة وجود المسبب ، وهذا صحيح، ليس لأنه لا يوجد شىء اسمه السببية ، ولكن لأن كل الأسباب المادية التى نعرفها تتسم بالضعف والقصور والعجز والنقص ، ولهذا فهناك – من الناحية النظرية– احتمال لوجود أسباب أخرى (ظاهرة أو خفية) أكثرة قوة ، تعارض الأسباب المادية المعتادة ، فتوقف أثرها.** إن النار سبب للإحراق ، لكن النار ليست كائنا كاملا فى قوته وتأثيره ، فمن الممكن لبعض الهواء أو الماء أو التراب أن يطفئها. وإذا كان من الممكن – من حيث المبدأ – أن توجد قوة توقف عمل النار ، فهذا يجعلنا نؤكد أن علاقة النار باحتراق الخشب لا تنطوى على ضرورة عقلية ، **ولكن غياب الضرورة العقلية – فى رأينا– نشأ من العجز البنيوى أو الخِلقى للنار الذى يجعلها قابلها للتأثر بأسباب أخرى قادرة على إبطال عملها فى الإحراق.** وبنفس الطريقة سنجد أن كل الأسباب المادية المعروفة لا تربطها بمسبباتها ضرورات عقلية لأن كل الأشياء المادية عاجزة وقاصرة ومعرضة لأسباب أخرى أقوى وأعظم تستطيع إيقاف عملها.

إننا نؤكد أن **<u>السببية تنبع من الكون نفسه ، ومن طبيعة الموجودات ذاتها</u>**. إن الكون ملىء بالموجودات ، وتجربتنا الحسية تخبرنا أن هذه الموجودات ليست منعزلة ، وأن سلوك بعض الأشياء يقترن دائما بوجود أشياء معينة دون غيرها ، فاحتراق الخشب يكون مصحوبا دوما باقتراب النار منه والتصاقها به. والنار بالذات هى التى تفعل ذلك وليس الماء ولا التراب ، وهنا يأتى دور العقل الذى يفهم هذه التجربة الحسية التى تتكرر أمامه كل يوم على أن النار "سبب" لاحتراق الخشب. **وهذا الاقتران المنتظم المتكرر يختلف تماما عن الاقتران العارض غير المتكرر بين الأشياء** ؛ مثلا هب أن طفلا دخل إلى حظيرة الدجاج ثم أغلق الباب وراءه بقوة فشاهد الدجاجة تقوم مفزوعة من على البيض ، وقد فقس ، وخرجت منه كتاكيت صغيرة ، فظن الطفل أن صوت الباب القوى كان السبب فى فقس البيض. وفى اليوم التالى عزم الطفل على أن يدفع الباب بقوة فجأة فى الصباح كى يفقس البيض الجديد ، ولكن البيض لم يفقس. وفى اليوم

التالى كرر الطفل التجربة فلم يفقس البيض. وظل الطفل يحاول لعدة شهور دون جدوى، فاستنتج أن صوت الباب لم يكن سببا فى فقس البيض. وفى علم الطب نقابل كثيرا من هذه الأسباب الزائفة التى نطلق عليها مصطلح "ظاهرة سطحية" أو "ظاهرة عارضة" Epiphenomenon ، والظاهرة العارضة هى ظاهرة تقترن بظاهرة أخرى ، لكنها ليست سببا لها. ومن أمثلة ذلك ما لاحظه العلماء من أن ارتفارع مستوى السكر بالدم لدى الأطفال المصابين بحالات حرجة يزيد من احتمال حدوث الوفاة ، فظنوا فى البداية أن ارتفاع السكر أحد أسباب الوفاة ، لكن لما عمل الأطباء على خفض مستوى السكر إلى المستوى الطبيعى لم يقلل هذا الإجراء من معدل حدوث الوفاة ، فاستنتجوا أن السكر ليس سببا حقيقيا للوفاة ، ولكنه سبب زائف ، أو مجرد ظاهرة سطحية ، لأنه كان من المفترض أن ينعكس غياب السبب على وجود المسبب[47].

وهذا المثالان يوضحان لنا أن **من الخطأ وضع كل أشكال اقتران الظواهر فى سلة واحدة** ، ومن الظلم أن نسوى بين اقتران الأكل والشبع (وهو اقتران مضطرد) وبين اقتران فتح الباب وفقس البيض (وهو اقتران عارض). إذن **إنكار وجود السببية فى الطبيعة على أساس أن الحواس لا تطلعنا على وجود شىء اسمه السببية هو موقف خاطىء تماما لأن الملاحظة أطلعتنا على وجود فرق واضح بين الاقتران المضطرد والاقتران العارض ، وهذه هى السببية. السببية ليست أكثر من اسم اخترعه الناس لوصف هذا الاقتران المضطرد بين شيئين** يساهم وجود أحدهما فى وجود الآخر ، ويساهم غيابه فى غيابه.

إن من الحماقة الاعتقاد بأن كل ما لا يمكن رؤيته بالحواس ليس من صميم الطبيعة ، وأنه لذلك محض عدم ، **<u>فكثير من محتويات الطبيعة تندرج تحت بند العلاقات التى لا تدرَك بالحواس ، ولكنها تُفهم</u>** ؛ على سبيل المثال حين أرى فى الشارع كائنا له أربعة أرجل ، وارتفاعه حوالى ثلاثة أرباع المتر ، وله شعر وذيل وأنياب ، ويصدر صوتا عاليا كلما مر أحد أمامه، حين أرى هذا الكائن فإننى أعرف على الفور أنه ينتمى إلى فصيلة الكلاب ، مع أننى لم أر أمامى فى تلك اللحظة كلابا كثيرة بل كلبا واحدا ، وما حدث هو أن المخ قام بالربط بين ما

---

47) نقدم هنا هذا المثال لمحاولة توضيح الفكرة فقط ، ولكن ربما تؤدى الأبحاث المستقبلية إلى اكتشاف علاقة حقيقية بين السكر المرتفع والوفاة. مرة أخرى نحن نشرح الفكرة فقط.

شاهده فى تلك اللجظة ، وما شاهده فى مرات كثيرة سابقة ، فاستنتج وجود "تشابه" بين صفات عدد من الكائنات ، مع أن الحواس لا تنقل لنا شيئا اسمه "التشابه" يمكن رؤيته أو سماعه أو لمسه. "التشابه" شيء يدركه الذهن من خلال المعلومات الكثيرة التى ترد إليه عبر الحواس ، ولكن هذا لا يعنى أن "التشابه" وهم وزيف ، وأنه لا يوجد فى الواقع فصيلة تسمى الكلاب. نحن هنا أمام **وجود موضوعى تماما، ولكنه يُدرك بآلة تختلف عن آلة الحس ، ألا وهى آلة الذهن.**

وحين نرى امرأة تسير مع فتاة صغيرة تشبهها كثيرا فى الشكل ، وتمسك بيدها ، وتحاول حمايتها أثناء السير من السيارات ، فنحن نستنتج أن الفتاة هى ابنة المرأة رغم أننا لم نر المرأة هى تلدها، ولكن **الذهن قام بتحليل المشاهدات التى جلبتها له الحواس ، ليستخرج منها قدرا أكبر من المعرفة، وهى معرفة حقيقية تماما** ، وليست وهما أو زيفا.

وبالمثل حين يجرى العدو مناورات عسكرية ، ويستدعى قوات الاحتياط ، ويلغى عطلات الضباط ، فإننا نستنتج أن العدو يستعد للحرب رغم أن حواسنا لم تر القادة وهم يخططون ويتخذون القرار بالحرب. **ودور الذهن هنا هو ربط مشاهدات الحواس ببعضها لاكتساب معرفة أكبر ، وهذه المعرفة موضوعية تماما** وحقيقية تماما وليست من قبيل الوهم.

ومن هذه الأمثلة ندرك أن **حواسنا ليست مؤهلة لإدراك الطبيعة بشكل كامل ، وأنه لا بد من دور للعقل** كى ينظم المعلومات التى ترد إليه من الحواس ، ويربط بينها ، ليدرك العالم الخارجى بشكل أفضل. **<u>وربط العقل بين الإحساسات والمشاهدات المختلفة لا يعنى أنه "يضفى" على الطبيعة شيئا ليس فيها ، ولكنه فقط "يكتشف" شيئا أكبر مما يمكن للحواس أن تأتى به</u>.** والحقيقة أن **ملكة الربط بين المشاهدات هى ما يميز الإنسان عن الحيوان ، ويميز الإنسان الذكى عن الإنسان الغبى.** ومناطق المخ التى تقوم بمهمة الربط بين الإحساسات المختلفة يسميها العلماء مناطق الربط Association areas. وبعض الأمراض التى تصيب هذه المناطق تؤدى إلى فقد الإنسان للقدرة على الربط بين المعلومات التى تأتيه من الحواس ، فيبقى قادرا على السماع والرؤية بشكل جيد لكنه لا يفهم ما يرى وما يسمع ، وهذا شكل من أشكال الجنون. ولو سرنا مع منطق أولئك الفلاسفة الذين يعتبرون الحواس هى المصدر الوحيد المشروع

للمعرفة فستكون هذه نكسة فكرية فادحة ، وتنازلا غريبا يقدمه الجنس البشرى عن وسام تفوقه على الكائنات الحية.

والآن يمكننا أن نضع أيدينا على نقطة فى غاية الخطورة ، وهى أن **العقل لم يخلق السببية ، ولكنه اكتشفها فى الكون**. **العقل (الفهم أو الذكاء) ليس ملكة مستقلة عن الكون ، العقل يتأثر بالكون ، العقل يستمد مبادئه من الكون ، العقل هو ربيب الكون**. إن مبدأ استحالة اجتماع النقيضين – على سبيل المثال– لم يخلقه العقل ولكنه استمده من التجربة التى لا تطلعنا على وجود الشىء ونقيضه فى نفس الوقت. ومبدأ مثل أن الكل أكبر من الجزء أو أن الاثنين أكبر من الواحد هو الآخر مستمد من التجربة ، فنحن نرى الشيئين ونرى الشىء الواحد أكثر من مرة ، فندرك أن الاثنين دائما أكبر من الواحد. وإذا نظرنا إلى الطفل فسنجد أنه لا يولد حكيما ، ولكن عقله يزداد نضجا سنة بعد سنة كلما مر بتجارب أكثر ، ولو كان العقل مستقلا عن الطبيعة بشكل كامل لرأيت الصبيان يحصلون على جائزة نوبل فى الأدب أو الفيزياء فى سن الثالثة أو الرابعة من العمر.

إن من الممكن للمرء أن يصف العقل قائلا أنه ملكة تقوم بتنظيم الخبرات الحسية ، وترتيب الظواهر الطبيعية الكثيرة على هيئة مبادىء وقوانين. وبعد أن تتكون المبادىء لدى العقل فإنه يقوم بإعادة استخدامها من أجل فهم ظواهر الطبيعية التى يقابلها فى المستقبل. والعقل لا ينشىء هذه المبادىء ، ولكنه يكتشفها فقط ، وذلك بأن يلاحظ تكرار حدوث ظاهرة ما ، فيستنتج من ذلك قانونا يتعلق بهذه الظاهرة. وبعبارة أخرى نقول أن العقل يقوم بعملية تشبه منهج الاستقراء العلمى المعروفة حيث يرصد العلماء ظاهرة معينة مثل تبخر الماء بالحرارة ، وبعد ذلك يلاحظون تكرار حدوث الظاهرة فى كل مرة يسخن فيها الماء ، فيستخلصون قانونا يقول بأن من الممكن للماء أن يتحول من الحالة السائلة إلى الحالة الغازية. وبعد أن يعرف العلماء هذا القانون يبدأون فى استخدامه فى المستقبل لتوقع سلوك الماء فى الطبيعة ، فكلما عرضوا الماء للحرارة توقعوا أن يتبخر ، فيصدق توقعهم ، فيستفيدون من ذلك مثلا فى صنع الآلات التى تدور بالبخار.

وفى حياتنا الاجتماعية قد نقابل رجلا تزوج وطلق خمس مرات. وفى أحد الأيام راجع الرجل تجربته فأيقن أن من أهم عوامل إخفاقه أنه لم يكن يكلم نساءه بطريقة رقيقة ، فيتوصل لقاعدة مفادها أن "الكلمة الحلوة من أهم أسباب نجاح الحياة الزوجية". وهذه القاعدة الاجتماعية التى توصل إليها العقل موجودة فى الطبيعة ، ولم يخلقها العقل ، ولكنه فقط اكتشفها ، وبعد أن يكتشف عقل الرجل هذا المبدأ فإنه يقوم باستخدامه فى الزيجة السادسة فينجح أخيرا ، ويعيش سعيدا. **إذن الحياة تؤثر على العقل وتُشكله ، وبعد ذلك يقوم العقل باستخدام المبادىء التى استمدها من الحياة لفهم أفضل للحياة.**

وهنا نضع أيدينا على نقطة شديدة الخطورة ، وهى أن **العقل يستورد بضاعته من الطبيعة ثم يصدرها مرة أخرى للطبيعة** ، بمعنى أن العقل يمر بمرحلتين:

أولا: اكتشاف قوانين الطبيعة (لا خلقها).

ثانيا: استخدام قوانين الطبيعة للتنبؤ بسلوك مظاهر الطبيعة فى المستقبل.

ولقد أخطأ البعض حين نظروا إلى المرحلة الثانية من هذه العلاقة الجدلية ، وغفلوا عن المرحلة الأولى ، فتوهموا أن العقل قوة طاغية تتحكم فى الكون وتتسلط عليه ، وتضفى عليه ما ليس فيه ، ومن قبيل ما يخلعه العقل على الطبيعة – فى نظرهم – مبدأ السببية الذى يقولون أننا لا نراه فى الطبيعة ، ولكن العقل يخلقه خلقا بطريقة غير مشروعة. ومن جانبنا فإننا نؤكد أن هذا خطأ كبير ، **فعلاقة العقل بالطبيعة علاقة جدلية** كما ذكرنا حيث تقوم الطبيعة بتشكيل العقل ، وبعد ذلك يستخدم العقل هذه القوانين فى فهم ما يستجد أمامه من مظاهر الطبيعة.

إن **السببية ليست وهما خلقه العقل دون أن يكون له وجود فى الكون. العقل لم يخلق مبدأ السببية ، ولكنه فهم أن هناك أشياء يستتبع وجودها وجود أشياء أخرى بعينها دون غيرها ، وهذا الارتباط سماه العقل علة أو سببا. ولو كان السبب مجرد عادة عقلية فما الذى يجعل السبب يرتبط تحديدا بالمسبب بهذا الشكل دائما** ؟ لماذا لا نرى الماء وهو يحرق الخشب؟ ولماذا لا نرى الخشب يبقى سليما بعد أن تحيط به النيران؟ ما سر الارتباط الوثيق بين السبب والمسبب؟

إننا مجبرون على القول بأن الكون الذى نعيش فيه يحتوى على أشياء كثيرة ، وأن هذه الأشياء ليست منعزلة ، وأن بعضها يؤثر على البعض الآخر بطرق معينة ، وهذه تسمى الأسباب. وعلى ذلك فالعقل لم يخترع السببية ، ولكنه اكتشفها.

ولكن ماذا عن نظرية الكم التى فاجأت العالم بغياب السببية والحتمية على مستوى الجسيمات الذرية؟ طبقا للتفسير الكلاسيكى لمدرسة كوبناهجن فإن شعاعا من الضوء مكونا من ملايين الفوتونات إن سقط على مرآة فإن أغلب الفوتونات (99% فى بعض أنواع المرايا) ستنعكس ، لكن نسبة صغيرة من الفوتونات ستمتصها المرآة كما سبق أن أوضحنا. لكن لا يمكن لأحد أن يتنبأ ما إذا كان الفوتون الواحد سينعكس أم سيمتص ، فكل الفوتونات تتصرف بطريقة عشوائية تماما دون سبب يجعل أحدها ينعكس ويجعل الآخر يُمتص. المهم أنه فى النهاية سينعكس 99% من مجموع الفوتونات ، وسيمتص 1% ، دون سبب يجعل بعض الفوتونات تنعكس وسبب آخر يجعل بعضها يمتص ، فخصائص كل الفوتونات متشابهة تماما. وهنا تنهار السببية تماما. وستجد كذلك أن نصف العمر المشع لذرات الراديوم يبلغ 1600 سنة ، وهو يعنى أنه بعد مرور 1600 سنة ستكون نصف الذرات قد تحللت ، ولن يتبقى إلا نصف كمية الراديوم ، لكن تصرف الذرة الواحدة لا يمكن التنبؤ به ، فالذرات المتشابهة تتصرف بشكل عشوائى تماما حيث يتحلل بعضها ، بينما يبقى البعض الآخر سليما دون سبب وجيه لذلك.

وللرد على ذلك لا بد أن نقول أولا أن ما شاع عن عشوائية وفوضى عالم الكم يرجع لتفسير كوبنهاجن الكلاسيكى ، وهو تفسير تخلى عنه كثير من كبار العلماء. ويوجد حاليا تفسيرات أخرى ، أحدها تفسير سببى Causal ناجح لنظرية الكم صاغه العالم بوهم Bohm رغم أنه حتى الآن لا يرتبط بالنسبية الخاصة. وبشكل عام فإن **وجود السببية فى نظرية الكم مقبول طبقا لمبرهنة العالم بيل Bell theorem** التى تمنع فقط أن تكون الأسباب فى عالم الكم محلية (أى أنها تتيح تأثير الجسيمات على بعضها بسرعة أعلى من سرعة الضوء). وإلى أن يتفق العلماء على تفسير واحد لنظرية الكم (وربما لا يحدث هذا على الإطلاق) فمن الخطأ حاليا أن نقول بثقة أن نظرية الكم تبطل فكرة السببية.

ولا شك أن عجز حواس الإنسان وعجز آلاته عن معرفة تفاصيل ما يجرى فى عالم الجسيمات الصغيرة يجعل كثيرا من الأمور تبدو لنا متناقضة وغير مفهومة. ومن المؤكد أننا لو منحنا القدرة على تصغير أجسادنا – كما فى قصة "عقلة الإصبع"– بحيث نتمكن من التجول بين الإلكترونات والبروتونات والكواركات فإننا سنصبح أكثر فهما ، وأقل حيرة فيما يتعلق بكثير من الأمور. ومن العلماء الذين يعتقدون بقوة أن ما فى نظرية الكم من عشوائية ولا حتمية يمكن التغلب عليه بمزيد من المعرفة العالم جيراردت هوفت Gerard‘t Hooft الحاصل على جائزة نوبل ، والذى يرى أن **العشوائية سيئة السمعة لميكانيكا الكم ليست أكثر من واجهة ، وتحت هذه الواجهة سنجد أن العالم يسير وفق قواعد عقلانية تماما** ، وهذه القواعد تحكم كتل بنائية أكثر أساسية حتى من الجسيمات ، **وهذه يمكن رؤيتها فقط إن تمكننا من تسليط عدساتنا بحيث تسبر أغوار نطاق بلانك Planck scale الذى يعد – طبقا لكثير من النظريات الحديثة– أصغر طول له معنى فى الطبيعة.** ولا يزال العالم هوفت يعمل بمثابرة وإصرار[48].

نظرية إسلامية لتفسير غياب السببية عن عالم الكم

بفرض أن الجسيمات فى فيزياء الكم تتصرف فعلا بشكل عشوائى دون سبب فيزيائى (طبقا لتفسير كوبنهاجن) ، فيمكننى أن أطرح نظرية قد تبدو غريبة لكنى أراها محكمة للغاية لتفسير غياب السببية: إن من الممكن القول بأن كل جسيم من الجسيمات الأولية الدقيقة له نفس تشبه نفوس الإنسان والحيوان ، وهذه النفوس هى التى تحرك الجسيمات مثلما تتسبب نفس الإنسان فى حركته وتتسبب نفس الحيوان فى حركته. إن كل واحد منا له نفس هى التى تملى عليه مثلا أن يسير فى الطريق للتنزه ، أو يقف مكانه للراحة ، أو يجرى خوفا من عدو. والحيوان أيضا يتحرك ويقف لأسباب مشابهة. وبالمثل فإن الجمادات أيضا لها نفوس واعية مؤمنة.

وهذه الفكرة التى تبدو غريبة هى فى الأصل فكرة إسلامية ، فالقرآن يؤكد فى آيات عديدة أن كل الأشياء فى الكون تؤمن بالله ، وتسبح له ، ولكن الإنسان لا يستطيع – بما له من حواس قاصرة– أن يفهم الكيفية التى تعبد بها الأشياء الله: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء:

48) **Does Some Deeper Level of Physics Underlie Quantum Mechanics? An Interview with Nobelist Gerard’t Hooft.** By George Musser. Scientific American. on October 7, 2013

44]. وقال أيضا: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحديد: 1]. وفى آية أخرى كلام صريح يؤكد أن الجمادات – بما فيها السماوات والأرض والجبال– لها نفوس واعية وعالمة بالله ، وأنها اختارت قبل خلق الكون أن يخلقها الله على هذه الهيئة الجامدة: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: 72]. وفى موضع آخر يذكر القرآن صراحة أن السماوات والأرض اختارت أن تخضع لله طواعية لا بالإكراه: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: 11]. ويخبرنا القرآن أيضا أن الجمادات تخاف من الله: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر: 21]. وقال تعالى عن الحجارة: {وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } [البقرة: 74]. وقال عن الرعد: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ } [الرعد: 13]

نصوص القرآن كما نرى تؤكد أن الجمادات لها نفوس واعية وعاقلة ومؤمنة[49]. إذن يمكننا القول أن الإلكترون والبروتون وبقية الجسيمات الذرية والأولية تتحرك بواسطة نفوس واعية عاقلة. وهذه الجسيمات تتحرك فى إطار خطة إلهية بحيث ينتج عن ذلك قوانين إحصائية على مستوى العالم الكلاسيكى الكبير الذى نعرفه. وعلى سبيل الله يأمر الله تعالى كل جسيم من الجسيمات المكونة لقطعة من الصخر أن يتحرك بطريقة خاصة به بحيث تكون المحصلة فى النهاية بقاء الصخرة كما هى جامدة أمامنا. ولو لم يضبط الله حركات هذه الجسيمات لأمكن لكل جسيم أن يتحرك كما يحلو له ، فتتفرق ذرات الصخرة فى جميع أرجاء الكون ، لتذهب كل منها إلى نجم مختلف فى مجرة مختلفة ، فلا يبقى للأشياء ثبات ، ولا تقوم للحياة قائمة. إن ميكانيكا الكم لا تمنع تواجد أى جسيم فى أى مكان فى الكون فى أى لحظة ، ولكن الله تعالى يضبط حركات كل جسيم بحيث تقود مجمل مواضعها وسرعاتها إلى كون منظم بالشكل الذى نراه الآن. وعلى سبيل المثال يصدر الله تعالى أوامره لكل ذرة من ذرات عنصر مشع بأن تتحلل فى وقت خاص بحيث يبدو للعلماء فى النهاية أن هذه العنصر المشع له عمر نصف خاص به يختلف عن غيره من

[49]) وهنا نسأل: هل الجبل مثلا له نفس واحدة أم أن لكل صخرة فى الجبل نفسا مستقلة؟ أم أن لكل ذرة من ذرات الجبل نفسا خاصة؟ أم أن لكل بروتون نفسا ولكل إلكترون نفسا؟ أم أن لكل كوارك ولكل جلون نفسا؟ هل تسكن النفوس الكيانات الكبرى بينما تعتبر الجسيمات الأولية المكونة لها بمثابة أعضاء أم أن لكل جسيم صغير نفسا خاصة به؟ لا ندرى على وجه اليقين ، وليس هذا مهما ، فالنتيجة واحدة ، وهى أن الجمادات تطيع الله طاعة تامة ، وإن كنت أنا شخصيا أرجح احتمال وجود نفس كبرى لكل كائن ، وبداخل الجسد الذى تسكنه هذه النفس توجد نفوس كثيرة تسكن كل جسيم أولى مكون له.

العناصر المشعة ، ولو ترك الله تعالى الأمر لفوضى عالم الكم لكان للراديوم اليوم عمر نصف قدره يوم ، وغدا يكون له عمر نصف قدره سنة ، وبعد غد يكون له عمر نصف قدره عشرون قرنا ، ولو كان الأمر كذلك لما كان هناك علم على الأرض. لكن الله تعالى يصدر أوامره لنصف عدد ذرات كمية من عنصر الراديوم بأن تتحلل واحدة بعد الأخرى بمعدل محسوب بحيث نجد أنه بعد مرور 1600 سنة يكون نصف الذرات قد تحللت ونصفها لا يزال سليما. إن الله تعالى يصدر الأمر لكل جسيم ، وكل جسيم ما عليه إلا الطاعة. والله تعالى يصدر أوامره بطريقة محسوبة بدقة بالغة بحيث تسير الطبيعة بوتيرة منتظمة مع أن الأمر يبدو كما لو أن كل جسيم يتحرك على هواه بشكل عشوائى.

لقد كان من الضرورى أن يتحكم الله تعالى فى كل شىء بحيث يكون للعناصر والأجسام خصائص شبه ثابتة فيتمكن الإنسان من العيش على الأرض وهو يتوقع ما سيحدث له فى اللحظات القادمة ، وإلا لبنى اليوم بيتا من الحجارة ، فيقوم فى الصباح ليجد جدران البيت قد تبخرت لأن كل ذرة ذهبت بشكل عشوائى إلى مكان مختلف فى الكون. ولو تركت الأمور للمصادفة لوجدت بيتك اليوم مضاء بالمصابيح ، فترى كل شىء فيه بالليل لأن فوتونات الضوء سقطت على الأثاث ، فانعكست إلى بصرك ، وفى اليوم التالى تجد البيت مظلما رغم أن نفس المصابيح تعمل بكفاءة وذلك لأن فوتونات الضوء غيرت من سلوكها فأصبح أغلبها يُمتص فى الأثاث بدلا من أن ينعكس إلى عينيك. إن فيزياء الكم تتميز – على ما يبدو– بالفوضى التامة ، لكن هذا لا يتجلى لنا على المنظور الكبير لأن هناك إله عالم قدير حكيم يحدد لكل جسيم الطريقة التى يتصرف بها فى تناسق تام مع بقية القطيع الضخم من الجسيمات. وهكذا جاءت محصلة سلوك الجسيمات فى النهاية محددة رغم أن كل واحد منها يتصرف بشكل يبدو عشوائيا، وذلك لأن هناك خطة وضعها الله ، ونفذتها الجسيمات طواعية ، فكل ما فى السماوات والأرض –كما قلنا– يطيع الله بإرادته مع أن الله تعالى قادر على إكراهه: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: 11][50]. هذه إذن هى

[50]) يفهم من هذه الآية أن الكون (السماء) مرت بمرحلتين: فى المرحلة الأولى أكره الله الكون على التصرف طبقا لإرادته. وهذه المرحلة تبدأ من الانفجار العظيم إلى المرحلة التى كان فيها الكون مكونا من غاز وغبار (مرحلة الدخان بتعبير القرآن) قبل أن يتكاثف لتكوين المجرات والنجوم. أما المرحلة الثانية فتبدأ من مرحلة الدخان حتى الآن ، وفى هذه المرحلة الثانية خير الله الكون فاختار أن ينفذ إرادة الله باختياره وليس رغما عنه.

فيزياء الكم ، فكل جسيم يتصرف بشكل عشوائى لكن فى النهاية مجموع الجسيمات تتصرف بشكل متوقع.

ومن كل ما سبق يتبين لنا أنه إن ثبت فى المستقبل أن السببية غير موجودة فى عالم الكم فسيكون تفسير ذلك أن الجسيمات لها نفوس واعية تمتثل لأمر الله الذى يحدد لكل منها السلوك الواجب عليها اتباعه دون وجود أسباب مادية أخرى تحدد لها حركاتها وسكناتها ، **وفى هذه الحالة ستكون هناك سببية ، ولكنها ليست "سببية آلية" ، بل "سببية نفسية"** ، أى أن النفس الموجودة فى كل جسيم ستكون هى السبب الأساسى الذى يحدد حركته. وما عليك عزيزى القارىء إلا أن تنظر إلى تمثالين متجاورين ستجد أنهما يبقيان ثابتين فى مكانيهما، ولا يتحركان إلا إذا جذبوا أو دفعوا أو حملوا بواسطة بعض القوى. ولكن إن استبدلنا التمثالين برجلين سنجد أنهما سيتحركان هنا وهناك كما يملى عليهما الفكر والهوى دون حاجة لسبب خارجى يحركهما. **ولئن رصد أحد الكائنات الفضائية (الذى لا يتصور وجود نفوس حية على كوكب الأرض) هذين الرجلين من بعيد فسيخالهما تمثالين ، وسيندهش بشدة من حركاتهما ، وسيظن أنها تحدث بلا سبب** ، وستجده يتساءل: لماذا جلس التمثال رغم أنه لا توجد قوة ضغطت على كتفه من أعلى؟ ولماذا جرى التمثال للأمام بسرعة رغم أنه لا يوجد جسم دفعه من الخلف؟ ولماذا تحركت يده لتوضع على كتف التمثال الآخر دون وجود جسم صلب يدفع اليد للتحرك إلى أعلى؟ سيظن هذا الكائن الفضائى أن السببية غائبة عن كوكب الأرض ، مع أن الحقيقة هى أن كلا من الرجلين يتحرك وفق ما يمليه عليه عقله. **إنها "سببية نفسية داخلية " ، وليست "سببية آلية خارجية ".**

وربما جاز لنا أن نتصور أن **حركات الجسيمات وأوضاعها وسرعاتها تتغير من لحظة لأخرى بسبب التفاوت فى درجة الخشوع والخوف من الله.** لقد ذكر القرآن فى بعض آياته أن خوف الجمادات من الله يؤدى إلى تحركها وتصدعها: {وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [البقرة: 74] ، {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر: 21]. وليس هذا غريبا ، فكثيرا ما ينتفض جسد المؤمن أثناء لحظات الخشوع فى الصلاة ، وبشكل عام فإن الإنسان فى حالة

الانفعال الشديد يتحرك حركات عشوائية ، فمثلا مشجعو الكرة يقفزون من مقاعدهم فجأة حين يتم إحراز هدف ، واللاعب الذى يحرز الهدف هو الآخر يجرى ويلف حول الملعب تعبيرا عن فرحته ، وهذه الحركات العشوائية إن فكرت فيها لوجدت أنها بلا سبب ، وأنها من قبيل الجنون ، فلا توجد فائدة يجنيها اللاعب من جريه ، ولا يوجد سبب معقول يدعو المشجعين إلى الوقوف. ويمكن قياسا على ذلك أن نقول أن نفوس الجسيمات تجعلها تتحرك حركات تبدو عشوائية ، لكنها فى الحقيقة تقابل درجات متفاوتة من الخشوع. وربما كان أحد أسباب هذا التفاوت فى الخشوع اطلاع الجسيمات من حين لآخر على شىء من نور الله عز وجل وبهائه ، فيترتب على ذلك الخوف حركات مفاجئة غير متوقعة.

ومن المحتمل أيضا أن حركات الجسيمات تمثل طقوسا للعبادة ؛ فكما يطوف المسلم حول الكعبة على سبيل العبادة ، وكما يؤدى المسلم حركات خاصة أثناء الصلاة ، فكذلك تتحرك الجسيمات بطرق خاصة على سبيل العبادة لله.

إذن ربما كانت حركة الجسيمات مجرد خطة رسمها الله تعالى بالكامل ، وامتثلت لها الجسيمات حرفيا كما لو كانت جنودا لا تفعل إلا ما تؤمر به. وربما ترك الله تعالى للجسيمات حرية الحركة للتعبير عن الخشوع والعبادة ، ولكنه تعالى يتدخل ليضبط هذه الحركات حتى تبقى قوانين الكون شبه ثابتة ، وضبط الله تعالى لهذه الحركات قد يكون بتوجيه أمر صريح للجسيمات بألا تخرج عن الحدود، وقد يكون من خلال التجلى للجسيمات بدرجات محسوبة تؤدى إلى حالات خاصة من الخشوع ، يترتب عليها حدوث الحركات بالشكل المطلوب.

أعرف مسبقا أن كثيرا من القراء سيندهشون من هذه النظرية ، وسينعتها بعضهم بالعلم الكاذب لأسباب منها أنها تفترض وجود كيانات غير مرئية هى "الله" و"النفوس" ، لكن يمكننا أن نؤكد أن العلم الحديث غارق لأذنيه فى الغيبيات التى يتعذر بشدة إدراكها. ولهذه الموضوع مبحث مستقل إن شاء الله ، لكن يمكننا أن نقول بثقة أننا لا نجد حجة وجيهة تسوغ للعقل العلمى المعاصر أن ينكر وجود شىء لمجرد أنه لا يقدر على رؤيته. على أى حال نحن نرى أن النظرية التى قدمناها الآن تساعد المرء – ولو بشكل جزئى–على فهم العشوائية التى تسرى فى أركان عالم الكم ، **أو على الأقل تُشعره بأن من الممكن فى يوم من الأيام العثور على تفسير معقول لهذه**

العشوائية. ولا داعى لأن أؤكد أنه من قبيل الحماقة أن يزعم شخص ضئيل مثلى بأنه نجح فى فك ألغاز نظرية الكم التى استعصت على عقول فطاحل علماء الفيزياء فى العالم ، ولا شك أن عقل الإنسان أصغر كثيرا من أن يعرف كُنه الأشياء وماهيتها ، ولو قدر لنا أن نغوص فى أعماق مسافة بلانك وزمن بلانك فربما استطعنا أن نفهم كل شىء.

ملحوظة: نلفت الانتباه أخيرا إلى أن هناك فرقا بيين "السببية" و"قوانين الطبيعة" رغم أن من الممكن دراستهما فى سياق واحد فى أغلب الأحيان. إن قوانين الطبيعة فكرة أعم من السببية ، فمثلا قانون نيوتن للجاذبية يقول أن الشمس تجذب الأرض بقوة تتناسب طرديا مع حاصل ضرب كتلتيهما ، وتتناسب عكسيا مع مربع المسافة بينهما. ومن خلال هذا القانون نقول أن الأرض تدور حول الشمس بفعل "سبب" هو جاذبية الشمس[51] ، لكن قانون الجاذبية يحمل جوانب أكثر فهو يصف مقدار قوة الجذب ويوضح أنها تعتمد على كتلة الأرض وكتلة الشمس والمسافة بينهما. إذن **السببية جانب من منظومة أكبر هى قوانين الطبيعة.** وبالمثل سنجد أن الإلكترون حين ينتقل من مستوى طاقة عال إلى مستوى طاقة أقل فإنه يشع كما من الطاقة (اسمه فوتون) ، وهنا نقول أن حركة الإلكترون كانت "سببا" لانطلاق الفوتون ، وهذا السبب يعمل فى إطار منظومة أكبر هو قانون ميكانيكا الكم الذى يحدد كيف تتوزع الإلكترونات حول النواة فى الذرة ، وكيف تنتقل من مستوى طاقة لمستوى طاقة آخر. بعبارة أخرى نقول أن **قانون الطبيعة يصف الطريقة التى تتفاعل بها الموجودات مع بعضها ، أى يحدد النظام الذى تؤثر به الأسباب على المسببات.** ومن المهم جدا أن نلاحظ أن **قوانين الطبيعة قابلة للتغير لكن السببية نفسها لا يمكن أن تختفى،** فمثلا يعتقد كثير من العلماء أن قوة الجاذبية تتغير عند المسافات الصغيرة جدا بحيث لا تعود متناسبة مع مربع المسافة بين الجسمين وذلك بسبب وجود أبعاد إضافية للفضاء[52]. وعلى ذلك **فالسببية نفسها لا يمكن أن تختفى ، أما درجة تأثر المسببات بالأسباب فهى قابلة للتغير.** الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

---

[51]) إن أردنا الدقة لقلنا أنه طبقا لنظرية النسبية فإن الشمس لا تجذب الأرض ، ولكن وجود الشمس يؤدى إلى حدوث تشوه فى الفضاء ، يجبر الأرض على أن تتخذ مسارا حول الشمس.

[52]) **A Search for deviations from the inverse square law of gravity at nm range using a pulsed neutron beam**. By Christopher C. Haddock, Noriko Oi, Katsuya Hirota, et al. Phys.Rev. D97 (2018) no.6, 062002; arXiv:1712.02984v2 [nucl-ex] 22 Feb 2018

الباب الرابع: نظرات علمية لبعض المعجزات

مقدمة: هل يستعمل الله الآلات؟

هل يصنع الله عز وجل المعجزات بأجهزة فائقة التطور وآلات فائقة البراعة لم تصل إليها العقول العلمية الحديثة؟

فى الحقيقة نحن أكثر تواضعا من أن نجزم بالكيفية التى صنع بها الله تعالى معجزاته. الله تعالى قادر على أن يفعل المعجزات مباشرة بمجرد قوله للشىء كن ، دون آلة ودون واسطة. ومع ذلك فلله تعالى جنود كثيرون لا نعلم عنهم شيئا ، قال تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر: 31]. والله تعالى فى كثير من الأحيان لا يتدخل فى الكون مباشرة بل يتدخل بواسطة جنوده ، فمثلا نجده قد أوكل مهمة حمل القرآن لجبريل ، ومهمة تعذيب الكفار لزبانية النار، كما أوكل لألف من الملائكة مهمة تأييد المؤمنين فى غزوة بدر. والله تعالى لا يلجأ لجنوده عن عجز، ولكنه تعالى يشبه الملوك والأباطرة الذين يجلسون على عروشهم ، ويفعلون كل ما يريدون بمجرد إشارة من أيديهم لرجالهم وخادميهم. إن تدخل الله فى الكون بشكل غير مباشر من خلال جنده ليس دليلا على الضعف بل دليلا على القوة والسطوة. والذى لا شك فيه أن ملكا يضطر لعمل كل شىء بنفسه لهو أقل قامة من ملك يفعل ما يريد بمجرد إشارة من إصبعه.

وكم من نجم سينما يلهث خلفه المعجبون ، ويتسابقون على حمل حقائبه ، وفتح باب السيارة له ، ولو طلب منهم لبن العصفور لما توانوا عن إحضاره له ، وكل هذا لمجرد الوله والحب الشديد. وقد يكون هذا شأن الله تعالى مع جنوده حيث يسمح لهم بالتعبير عن حبهم له من خلال تكليفهم بالمهام المختلفة كى يرضى شوقهم لخدمته. وكثيرا ما يكون توجيه الأمر لشخص تشريفا لهذا الشخص باعتبار ذلك دلالة على أنه أهل ثقة وأمانة ، وكم من رجل وجد على أخيه لأنه لم يطلب منه المساعدة وقت الحاجة. ومن المعتاد أن ترى الأطفال الصغار يتنافسون من أجل أن يحضروا لأبيهم حقيبته أو يفتحوا له الباب ، وكثيرا ما يتعمد الأب أن يطلب منهم المساعدة وهو غير محتاج إليها لمجرد أنه يريد أن يدخل السرور على قلوبهم. ولما كنت طبيبا مقيما كنت أتعمد أن أطلب مساعدة أطباء الامتياز الصغار فى متابعة المرضى وتنفيذ العلاج بالرغم من

أنى لم أكن أحتاج لعونهم ، وإنما كان هدفى أن أجعلهم يشعرون بأن لهم دورا وقيمة ومهمة جليلة فى مساعدة المرضى.

وقد أخبرنا القرآن فى آية صريحة أن السماوات والأرض تطيع الله برغبتها ورضاها وليس بالقسر والإكراه: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: 11].

إذن الله تعالى أخبرنا فى آيات قرآنية قاطعة أنه لا يتدخل دائما فى الكون بنفسه مباشرة ، وأنه يستعمل آليات ووسائل وجنود لا نعلم منهم إلا الملائكة. وهذا يدفعنا إلى التفكير وإعمال العقل بحثا عن آليات تفسر حدوث المعجزات أو تقربها إلى الأذهان ، وتثبت أنها ليست مستحيلة طبقا لمنطق العلم الحديث.

وسيرى القارىء فى هذا الكتاب أننا نقترح آليات عديدة لبعض المعجزات. وطبعا نحن لا نعلم كيف أجرى الله تعالى هذه المعجزات ، وهل فعلها مباشرة بكلمة "كن" أم ببعض الوسائل والوسائط ، **ولكن هدفنا بالتحديد هو أن نثبت أن العلم لا يتصادم مع المعجزات ، وأنه بقليل من الخيال يمكن تصور وجود آليات لتحقيق ما لا يصدقه العقل.** أما كيف حدثت المعجزات على أرض الواقع بالفعل فلا سبيل لنا إلى الإجابة ، ولا يعنينا أن نعرفها على وجه الدقة.

وسنقوم فى الفصول التالية بالتعرض لعدد من المعجزات التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، مبرهنين على أنها لا تتصادم مع العلم الحديث. وكنا نود أن نتناول كل المعجزات ، لكن المقام لا يتسع للجميع.

نقل عرش ملكة سبأ

يخبرنا القرآن أن الله تعالى منح سليمان عليه السلام القدرة على تسخير الجان. وفى أحد الأيام طلب سليمان من جنوده أن يأتوه بعرش ملكة سبأ قبل أن تصل إلى قصره مع موكبها ، فعرض عليه عفريت من الجن أن يأتيه بالعرش قبل أن يقوم من مقامه ، بينما عرض جنى آخر أن يأتيه بالعرش قبل أن يغمض عينيه.

وهنا يفغر الملحد فاه ويصيح: ما هذا الجنون؟!

ونحن نقول: ليس هذا جنونا ، فنظرية الكَم التى تعد أنجح النظريات العلمية على الإطلاق تؤكد أن الجسيمات فائقة الدقة مثل الإلكترونات والبروتونات والذرات والجزيئات ليس لها مكان محدد ولا سرعة محددة ، كما يمكن وصف مكان الجسيم أو وسرعته من خلال معادلة وضعها العالم شرودنجر تسمى الدالة الموجية (Wave function) التى تعطينا احتمالات تواجد الجسيم فى مختلف المواضع إن شرعنا فى رصده. والشيء المثير أنه لا يوجد احتمال قيمته 100% وكذلك لا يوجد احتمال قيمته صفر% ، بمعنى أنك لا يمكن أن تجزم أنه فى لحظة معينة سيتم رصد أحد الجسيمات بشكل مؤكد فى نقطة (ألف) ، وسيكون من المستحيل رصده فى نقطة (باء). هناك دائما احتمال صغير جدا جدا جدا (لكنه أكبر من الصفر) لتواجد أى جسيم فى مكان بعيد جدا جدا جدا عن المكان المتوقع تواجده فيه فى لحظة من اللحظات. هذا الكلام يبدو غريبا ، لكنه لا يقبل الشك ، وقد بات من أرسخ حقائق العلم على الإطلاق ، بل أرسخ حتى من النظرية النسبية لآينشتين.

لننظر الآن لعرش ملكة سبأ. هذا العرش قد يكون مصنوعا من الخشب والحديد والذهب والعاج والياقوت وغيرها ، لكن كل هذه المواد مصنوعة فى النهاية من جزيئات ، والجزيئات بدورها مصنوعة من ذرات ، والذرات مكونة من بروتونات ونيوترونات وإلكترونات. إذن عرش سليمان كان مكونا من بلايين الذرات التى ينطبق عليها جميعا نظرية الكم التى تحدثنا عنها ، وبالتالى ففى اللحظة التى سبقت مباشرة إغماض نبى الله سليمان لجفنه كان العرش موجودا فى قصر الملكة فى اليمن ، وفى اللحظة التالية مباشرة كان الاحتمال الأكبر أن تكون الذرات المكونة

للعرش موجودة فى نفس المكان الذى تعود الناس على رؤية العرش فيه كل يوم ، بيد أن هذا لا ينفى أن هناك احتمالا صغيرا جدا لأن يتغير مكان إحدى الذرات فى اللحظة التالية بحيث تتواجد فى الشام فى قصر سليمان بدلا من مكانها الأصلى فى اليمن ، وهناك احتمال أصغر لأن تتواجد كل ذرات العرش معا فى قصر سليمان بالشام فى نفس اللحظة وبنفس ترتيبها المكانى فى العرش. هذا الاحتمال بعيد جدا جدا، لكنه على أى حال أكبر من الصفر ، ولذا فهو ليس مستحيلا. هذا هو رأى العلم الذى لا يختلف عليه أحد. ومن المهم أن يعود القارىء فى هذه اللحظة إلى الفصل الذى سبق أن تكلمنا فيه عن علاقة فيزياء الكم بالمعجزات كى يزداد الأمر وضوحا. ونورد إضافة إلى ما سبق قولا لأحد الكتاب معبرا عن الطريقة التى يمكن أن تتحقق من خلالها المعجزات فى ظل فيزياء الكم:

إن الطرق الأكثر احتمالا ستستغل علاقات عدم اليقين لهايزنبرج: حقيقة أن مواضع الأشياء الكمية غير محددة كما نعتقد بالشكل المعتاد ، لكنها بدلا من ذلك منتشرة للخارج وبعيدة عن المركز قليلا. فبدلا من تثبيت موقع محدد لأى شىء فإن نظرية الكم تُعرف "سعة احتمال" Probability amplitude للموقع ، والذى رغم أنه قد يكون ذا قمة حادة للغاية فى نقطة معينة إلا أنه لا يساوى الصفر فى كل مكان. **وبلغة واضحة: إن كل شىء لديه فرصة متناهية فى الصغر – لكنها لا تساوى الصفر– للانتقال الفورى البعيد teleporting إلى أى موقع عشوائى**[53].

ومن المهم أن نتذكر هنا المقولة الخطيرة التى سبق أن أوردناها من كتاب التصميم العظيم لستيفن هوكنج، وهو يشرح كيف تسمح فيزياء الكم بوقوع كل ما لا يصدقه العقل من معجزات:

(تخبرنا فيزياء الكم أنه **لا يمكن أبدا لشىء أن يقع فى نقطة محددة** ، إذ لو حدث ذلك فسيكون عدم اليقين فى الزخم لا نهائيا. **وفى الحقيقة طبقا لفيزياء الكم فإن كل جسيم لديه احتمال ما لأن يوجد فى أى مكان فى الكون. ولذا فحتى إن كانت فرص العثور على أحد الإلكترونات داخل جهاز الشق المزدوج عالية للغاية فسيكون هناك دائما فرصة ما لإمكان العثور عليه بدلا من ذلك على الجانب البعيد للنجم المسمى ألفا**

[53]) **Miracles: metaphysics, physics, and physicalism.** By: Kirk McDermid.

كنتورى أو فى فطيرة الراعى فى كافيتيريا مكتبك. وبناء على هذا فإنك إن قذفت بكرة كمية Quantum buckyball **، وتركتها تطير فلن يتيح لك أى قدر من المهارة أو المعرفة أن تقول مسبقا بالضبط أين ستحط)**[54].

وعلى ذلك فتحرك العرش من اليمن للشام فى لمح البصر ليس مستحيلا من وجهة نظر العلم. ولكن رغم أن انتقال العرش ممكن إلا أنه لكى يحدث فى اللحظة المطلوبة فهو يتطلب قوة تتدخل لتغير من حركة ذرات العرش كلها فى نفس الوقت بتنسيق كامل ، بحيث تتجه جميعا إلى نفس المكان ، ولو ترك الأمر للطبيعة وحدها لتغير من حركات الذرات فإن هذا ممكن حقا ، لكن سيكون علينا أن ننتظر لبلايين السنين إلى يتصادف تحرك كل الذرات مرة واحدة بالتنسيق المطلوب إلى الجهة المحددة بشكل تلقائى دون تدخل إرادة قاصدة. إذن الطبيعة تسمح بحدوث المعجزات ، لكن الطبيعة وحدها لا تكفى لصنع المعجزات ، بل لا بد من إرادة قاصدة مدبرة هى إرادة الله عز وجل. وسنرى فيما بعيدا كيف أن العلم لا يسمح فقط بنقل عرش بلقيس من اليمن إلى الشام ، بل يسمح بما هو أكثر صعوبة ، وذلك حين نتكلم عن معجزة الإسراء والعراج.

أضافة: يرى أغلب المفسرين أن الشخص الذى أحضر العرش لسليمان عليه السلام قبل أن يرتد إليه طرفه هو رجل صالح من بنى إسرائيل ، ويرى آخرون أن من فعل ذلك هو جبريل عليه السلام ، بينما لوى بعضهم عنق الآية ، فقال أن من أحضر العرش هو سليمان نفسه. وهذه الآراء الثلاثة رغم ذيوعها إلا أنها لا تلزمنا لأنها لا تستند إلى قرآن ولا سنة ، ولا تتفق مع صياغة الآية. **وخلافا لهؤلاء فإننا نؤكد أن من أحضر العرش هو جنى آخر غير الجنى الأول** الذى عرض على سليمان أن يأتى بالعرش قبل أن يقوم من مقامه ، ومن البديهى أن الجن يتفاوتون فى القدرات مثلهم مثل البشر. هذا هو الفهم المباشر والمناسب لسياق الكلام.

أما عن الكتاب المشار إليه فى قوله: (قال الذى عنده علم من الكتاب) فيرى المفسرون أنه اللوح المحفوظ أو كتاب من كتب الأنبياء. والأرجح أنه اللوح المحفوظ ، فنحن نعلم من القرآن أن الجن كانوا يطيرون فى السماء ويتنصتون على الملأ الأعلى ، ويلتقطون بعض الأخبار والمعلومات قبل نزول الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ

[54]) **The grand design**. Chapter 4: Alternative histories.

حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا } [الجن: 8، 9]. وربما تمكن أحد الجن بهذه الطريقة من معرفة بعض ما يتلى فى السماء من محتويات اللوح المحفوظ ، فأصبح لديه علم جعله أكثر مهارة من بقية الجن ، فأحضر العرش لسليمان قبل أن يرتد إليه طرفه.

رفع الجبل

كنت طالبا فى السنة الرابعة من كلية الطب ، وذهبت فى رحلة لسيناء ، وهناك صعدنا على جبل موسى ، كان ذلك فى الفجر بصحبة عدد كبير من السائحين ، وظللنا نصعد حتى وصل بعضنا إلى القمة ، بينما خاف البعض الآخر وتوقف فى الطريق. كان الجبل ضخما عملاقا يبهرك برسوخه واستقراره. وهنا تذكرت ما رواه القرآن من أن الله تعالى رفع الجبل فوق بنى إسرائيل كأنه سحابة كى يهددهم ويجبرهم على السمع والطاعة: **{وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** [الأعراف: 171].

يا له من شيء عجيب! كيف للعقل الحديث أن يصدق أن الجبل الثقيل يمكن أن يرتفع فوق الرءوس متحديا قانون الجاذبية؟ وإن رُفع الجبل فكيف يمكنه أن يبقى معلقا فى الهواء لوقت كاف لمساومة بنى إسرائيل على قبول عهد الله والاختيار بينه وبين الموت؟

وبعد ذلك بعدة سنوات ركبت الطائرة لأول مرة فأدركت أن معجزة رفع الجبل ليست بالصعوبة التى كنت أتخيلها ، فالطائرة ليست خفيفة كالورق ، ولكنها ثقيلة جدا إذ يبلغ وزنها – بما عليها من مئات الركاب وما يحملون من بضائع وما بها من وقود– عشرات الأطنان. هل كان لأحد منذ مائة وخمسين سنة أن يتخيل أنه سيأتى اليوم الذى يتمكن فيه الناس من الفكاك من أسر الجاذبية الأرضية والتحليق فى الجو والبقاء فيه لساعات طويلة دون أن يسقطوا؟ بالتأكيد لا. ومن المشهور أن العالم اللورد كلفن – أشهر علماء عصره– أعلن فى أحد الأيام أن من المستحيل اختراع آلة أثقل من الهواء تطير فى الجو[55]، ومع ذلك خاب ظنه حيث تمكن العلماء من اختراع الطائرات التى تحمل أثقالا كبيرة مثلها مثل السفن.

ومع ذلك يبقى السؤال: بأية وسيلة يمكن رفع جبل أثقل من الطائرة إلى أعلى؟

هذا يتطلب ولا شك قوة خارقة. وقوى الطبيعة الأساسية المعروفة أربعة هى قوة الجاذبية والقوة الكهرومغناطيسية والقوة النووية القوية والقوة النووية الضعيفة. وبالنسبة لقوة الجاذبية فهى تمنع الجبل من أن يصعد إلى أعلى. أما القوة الكهرومغناطيسية فهى قادرة على تحريك الأشياء التى

[55]) **Physics of the impossible**. Page XIII.

تحمل شحنة كهربية فقط ، لكن الجبل لا يحمل شحنات كهربية. وبالنسبة للقوة النووية القوية والقوة الضعيفة فهما يعملان فى مدى قصير جدا داخل الذرات، ولا يمكن أن يؤثرا على الجبل كله.

ولئن آمن الإنسان بوجود الله فلن يكون هناك مشكلة فى تصور امتلاكه لأنواع أخرى من القوى التى لا نعلم عنها شيئا. ومن المعروف أن العلماء لم يكتشفوا هذه القوى الأربعة مرة واحدة ، فقد كانت البداية باكتشاف نيوتن لقوة الجاذبية عام 1687م، وأعقبها بسنوات طويلة اكتشاف ماكسويل للقوة الكهرومغناطيسية عام 1873م. ومع اكتشاف مكونات الذرة فى بداية القرن العشرين تبين للعلماء وجود شكلين آخرين من القوة هما القوة النووية القوية والقوة النووية الضعيفة. معنى هذا أنه جاء وقت على العلماء كانوا يجهلون فيه القوى الأربعة كلها أو بعضها. وهذا يجعل المرء يتساءل: لماذا لا توجد قوة خامسة وقوة سادسة وسابعة بخصائص مختلفة عن القوى الأربع المعروفة ، وهذه القوى نجهلها الآن لكننا سنعرفها فى المستقبل؟

وفعلا فى الثمانينات من القرن العشرين طرح العلماء فكرة وجود قوة خامسة تضاف إلى القوى الأساسية الأربعة المعروفة ، وهى مشابهة للجاذبية وموجودة معها. وهذه القوة الجديدة متوسطة المدى ، وتنشأ من تبادل جسيمات ناقلة للقوة (بوزونات) تتميز بخفتها الشديدة Ultralight bosons ، وهى تتفاعل مع المادة المعتادة بقوة مشابهة لقوة الجاذبية. وفى وجود هذه القوة الخامسة ينهار قانون التربيع العكسى المعروف (الجذب العام لنيوتن)، ولذلك حاول العلماء الكشف عن هذه القوة بالبحث عن وجود انحرافات عن قانون التربيع العكسى[56].

ومن أهم الأسباب التى دعت العلماء لافتراض وجود قوة خامسة هو اكتشافهم حديثا أن أغلب كتلة الكون مكونة من نوع غريب من المادة غير المرئية اسمها المادة المظلمة Dark matter ، وقد تكون هذه المادة المظلمة مكونة من أشكال مختلفة من مواد غريبة وجسيمات غريبة ناقلة للقوة مثل الفوتون المظلم Dark photon. والفوتون المظلم يُنظر إليه على أنه رسول يربط المادة المظلمة بالمادة المعتادة ، وهو يسمى رسولا لأن التفاعل بين هذين النوعين من المادة لا

[56]) **Ten years of the fifth force**. By Ephraim Fischbach and Carrick Talmadg. 1996. Source: arXiv. https://www.researchgate.net/publication/2032463_Ten_Years_of_the_Fifth_Force

يحدث فى غيابه. وفضلا عن ذلك **فالفوتون المظلم يمكن أن ينظر إليه على أنه يمثل نوعا جديدا من قوى الطبيعة هى القوة الخامسة**[57].

وفى تقرير نشرته مجلة نيتشر [58] أن فريقا من العلماء فى هنجارى بقيادة العالم أتيلا كرازناهوركاى Attila Krasznahorkay كان يبحث عن الفوتون المظلم فاكتشف وجود جسيم جديد من نوع البوزونات الخفيفية وهو أثقل بمقدار 34 مرة فقط من الإلكترون. لقد اكتشف هؤلاء العلماء وجود خلل فى التحلل الإشعاعى ، وكرروا التجربة مرات عديدة على مدى 3 سنوات ، وفسروا النتائج بأنها دليل على وجود جسيم جديد ، بيد أنهم لم يستطيعوا أن يجزموا ما إذا كان هذا الجسيم جسيما عاديا أم جسيما ناقلا للقوة. وبعد أشهر قليلة قام فريق آخر من العلماء بتحليل نتائج التجربة السابقة ، واستبعدوا بشدة أن يكون الجسيم الجديد من نوع الجسيمات العادية أو أن يكون هو الفوتون المظلم ، وأسموا هذا الجسيم "بوزون أكس" protophobic *X* boson ، وطرحوا نظرية مفادها أن **الجسيم الجديد دليل على وجود قوة خامسة فى الطبيعة**. وبوزون إكس ينقل قوة ذات مدى شديد القصر تعمل عبر مسافة لا تتجاوز مرات قليلة ضعف عرض نواة الذرة. وسواء تأكدت صحة هذا الكلام عن وجود القوة الخامسة أم لا، فالذى لا شك فيه أن وجود قوى أخرى فى الطبيعة لا نعلم عنها شيئا هو أمر غير مستحيل.

وحتى إن فكر الإنسان بالمنطق البسيط فلن يكون فى حاجة للبحث عن قوة خامسة أو سادسة من قوى الطبيعة كى ترفع الجبل لأن **قوى الطبيعة لا تقتصر على القوى الأربع السابق ذكرها** ، فهذه القوى الأربع تسمى القوى الأساسية، لكن هناك على الجانب الآخر ما يسمى بالقوى غير الأساسية التى ترتد فى الأصل إلى القوى الأساسية ، وهى تشمل القوة الطبيعية[59] ، وقوة الاحتكاك ، وقوة المرونة ، وقوة التوتر ، وقوة الطرد المركزى. على سبيل المثال حين أركل الكرة بقدمى أو أدفع الباب بيدى أو أحمل ثقلا على ظهرى فأنا لا أستعمل قوة الجاذبية ولا الكهرومغناطيسية ولا القوى النووية ولكن استعمل قوة جسدى. وبالمثل حين يقوم الونش برفع

---

57) **Fifth force of nature: The hunt for a hidden realm that could change our understanding of the universe is about to begin**. By Aristos Georgiou. Newsweek Magazine. ON 10/1/18.

58) **Has a Hungarian Physics Lab Found a Fifth Force of Nature**? By Edwin Cartlidge, Nature Magazine. 25 May 2016.

59) القوة الطبيعية Normal force تنشأ نتيجة تماس سطحين كلاهما صلب مثل حقيبة موضوعة على منضدة أو كرة تصطدم بحائط أو رجل يقف على الأرض. وعند حدوث هذا التماس تتزايد قوى فاندرفالز بشدة وهى القوة الموجودة بين الجزيئات ، فتمنع أن يخترق الجسمان بعضهما لبعض.

السيارة فهو لا يستعمل أيا من القوى الأربع بل يستخدم قوة المحرك (الموتور). وقوة الريح التى تقتلع الشجرة ليست من بين القوى الأربع الأساسية. وبنفس الطريقة يمكننا أن نفكر فى رفع الجبل ، إذ يمكن للجبل أن يرتفع بقوة الله تعالى أو بقوة بعض ملائكته دون حاجة لأى من القوى الأربع. إن عضلاتى الضعيفة تستطيع حمل ثقل وزنه 50 كيلو جراما ، بينما عضلات بطل رفع الأثقال تمكنه من رفع ثقل وزنه 300 أو 400 كيلوجراما ، وهذا بالنسبة لى شىء لا يصدق ، فما بالك بقوة الملاك أو القوة المباشرة لله عز وجل؟ لا شك أن رفع الجبل سيكون أمرا هينا للغاية.

إن أقصى ما يمكن للنملة أن تحمله هى قطعة من السكر لا يتجاوز وزنها عُشر جرام ، **وبالنسبة لهذه النملة المسكينة فإن الإنسان الذى يحمل ثقلا قدره مائة كيلوجراما لديه قدرة أكبر منها بمقدار مليون مرة ، وستنظر إليه النملة على أنه مارد جبار صانع للمعجزات**. وإن وجد بالمثل ملاك قدرته أكبر من قدرة الإنسان بمليون مرة فسيتمكن من حمل ثقل قدره مائة مليون كيلوجرام أى مائة ألف طن ، وهذه بالنسبة للإنسان معجزة. فما الذى يجعل رفع الجبل فوق رءوس بنى إسرائيل غريبا؟ **لماذا يتصور الإنسان أنه أقوى مخلوق فى الوجود؟**

وحين أنظر حولى إلى الكون أرى النجوم والكواكب معلقة فى الفضاء بطريقة غريبة دون أن يسقط بعضها على بعض. كما أجد العلماء يؤكدون أن المجرات تندفع متباعدة عن بعضها بسرعة خيالية تتجاوز أحيانا سرعة الضوء ، وذلك بسبب تمدد الفضاء. هل تتخيل ما معنى هذا؟ هل تعرف كم تبلغ كتلة الأرض؟ إن كتلتها تبلغ 5.9736×10^{24} أى 5,973,600,000,000,000,000,000,000 كيلوجرام. وتبلغ كتلة الشمس حوالى 333 ألف مرة مثل كتلة الأرض. والثقب الأسود العملاق الموجود فى مركز مجرة الطريق اللبنى كتلته تساوى كتلة 4 مليون شمس مثل شمسنا[60]. وإذا كان العلماء يرصدون بأعينهم تحرك ملايين المجرات – التى تحتوى كل منها على بلايين النجوم والكواكب مثل الأرض والشمس – بسرعة رهيبة تفوق سرعة الضوء، فكيف يندهشون من تحرك كيان صغير تافه مثل جبل الطور لأعلى

---

[60]) **What is solar mass**? By Marcus Woo; December 06, 2018 https://www.space.com/42649-solar-mass.html; accessed on January 25, 2020.

لمسافة عدة أمتار؟ **إن الإله الذى يدفع مجرة كاملة بسرعة خيالية لن يكون من الصعب عليه أبدا أن يحرك جبلا فوق رءوس الناس.**

والشيء الأكثر أهمية أن العلماء حاليا يجهلون طبيعة تلك القوة التى تتسبب فى تباعد المجرات ، فبعضهم يقول أنها مرادفة للثابت الكونى الذى طرحه آينشتين ، وبعضهم يسميها بالعنصر الخامس Quintessence (أو قوة الطبيعة الخامسة)، وهذا العنصر الخامس هو نوع من المجالات ذو سمة فى غاية الغرابة ، فهو يمتلك ضغطا سالبا ، وبالتالى فله جاذبية طاردة ، ولذا فوجوده يؤدى إلى تباعد المجرات عن بعضها[61]. **وإذا كان العلماء يجهلون حتى الآن طبيعة القوة التى تطيح بالمجرات بهذا الشكل ، فكيف يستنكرون وجود قوة طبيعية أخرى قادرة على رفع جبل يبدو كالريشة بالنسبة للمجرة؟** إن الملحد الذى ينكر قدرة الله على رفع جبل هو فى الحقيقة يفكر بشكل طفولى ساذج لأن العلم الحديث اكتشف تحرك أجسام ذات أوزان أكبر بلايين المرات من الجبل بسرعات خيالية كما لو كانت ريشا فى مهب ريح عاتية.

وإضافة إلى ما سبق فقد داعبت فكرة تسمى "ضد الجاذبية" (Anti–gravity) خيال العلماء ، وهى تعبير عن حلم خلق مكان أو أشياء لا تخضع للجاذبية ، وإن حدث هذا فلن يكون من الصعب رفع أثقال كالجبال. وقد بدأ التفكير الجدى فى تحقيق هذا الحلم بواسطة رجل أعمال اسمه روجر بابسون الذى أنشأ عام 1948 "مؤسسة بحوث الجاذبية" لدراسة سبل اكتشاف وسائل لإلغاء الجاذبية. وكانت جهودهم فى البداية غريبة الأطوار لكنهم استطاعوا عقد بعض المؤتمرات، ولكن بمرور الوقت حولت هذه المؤسسة اهتمامها من السعى للتحكم فى الجاذبية إلى محاولة فهمها بشكل أفضل. ولقد ترددت أقوال بأن القوات الجوية الأمريكية ومعظم شركات الطيران الأمريكية الكبرى أجرت دراسات فى الخمسينات والستينات من القرن العشرين حول مسألة التحكم فى الجاذبية. ولكن توقف الدعم العسكرى لهذه الدراسات عام 1973.

ولقد حاول البعض اللجوء لفكرة الأجسام ذات الكتلة السالبة ، والكتلة السالبة – على عكس الكتلة الموجبة التى نعرفها– لها قوة تنافر لا قوة تجاذب. ورغم أننا لا نشاهد فى الطبيعة الكتلة السالبة

---

[61]) **Quintessential universe**. By Jeremiah P. Ostriker and Paul J. Steinhardt. Scientific American; January 2001.

هذه إلا أن معادلات النظرية النسبية وقانون الجذب العام لنيوتن لا يستبعدان وجودها ، وقد ظهرت مؤخرا دلائل تشير لوجودها فى الطبيعة[62].

وفى نهايات القرن العشرين قامت وكالة ناسا للفضاء بتمويل برنامج اسمه Breakthrough Propulsion Physics Program ، وفى هذا البرنامج تم دراسة تصورات شبيهة بالجاذبية المضادة. ولقد أدت جهود بعض الباحثين إلى صنع عدد من الآلات التى تتغلب على الجاذبية لكنها جميعا أخفقت. وفى عام 1995 ادعى باحث روسى اسمه يوجين بودكليتنوى أنه اكتشف أن بإمكان موصلات فائقة سريعة الدوران أن تقلل من تأثير الجاذبية. لكن دراسات كثيرة حاولت التأكد من تجربته ولم تنجح.[63]

ولا شك أن بإمكاننا أيضا أن نتصور أنه **كما أتاحت ميكانيكا الكم للجسيمات المكونة لعرش ملكة سبأ أن تتواجد معا فى مكان بعيد جدا وغير متوقع لأقصى حد ، فإن من الممكن تصور قيام نفس الآلية بنقل ذرات الجبل بطريقة منسقة كى تتواجد معا فى نفس المكان غير المتوقع فوق سطح الأرض**. وطبعا من الصعب جدا أن تتفق كل ذرات الجبل فى التحرك لنفس المكان فى نفس الوقت بالمصادفة المحضة ، فهذا لن يتم إلا بتدخل إلهى مباشر. وما يهمنا أن العلم لا يعتبر ارتفاع الذرات أمرا مستحيلا ، وهذا ينقض دعاوى الملحدين المنكرين للمعجزات.

وهكذا تجد أن العلم الحديث قد قرب إلينا – من حيث لا يدرى– فكرة التغلب على الجاذبية الأرضية. صحيح أن العلم لم ينجح بعد فى مساعيه ، إلا أن من المؤكد أن الحاجز النفسى الذى كان يفصل الإنسان عن جاذبية الأرض قد كسر للأبد ، وما كان فى الماضى يعد من ضروب المستحيلات ها هو قد أصبح من الممكنات رغم أن الطريق لتحقيقه لا يزال طويلا.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله رب العالمين.

---

[62] **) Physicists create 'negative mass.** By Eric Sorensen, Washington State University, April 17, 2017.

[63]) انظر فى تفاصيل هذه الأخبار الأخيرة وغيرها موسوعة ويكيبيديا الحرة. موضوع: Anti-gravity. تم الدخول للموسوعة يوم 12 أكتوبر 2019.

شق البحر

حين فر موسى عليه السلام ومعه بنو إسرائيل تبعهم فرعون وجيشه ، ولما وصل بنو إسرائيل إلى البحر أيقنوا أنهم هالكون لا محالة ، فالبحر أمامهم والعدو خلفهم. ولكن الله تعالى أوحى إلى نبيه أن يضرب بعصاه البحر ، ففوجى الجميع بالبحر ينشق إلى نصفين ، وبينهما طريق بري عبر منه بنو إسرائيل إلى الناحية الأخرى. ولما مر جيش فرعون فى نفس الطريق عاد البحر لسيرته الأولى ، والتقى النصفان ، وغرق جيش فرعون عن آخره:

{فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ} [الشعراء: 61 – 66]

هذه المعجزة ليست مستحيلة من وجهة نظر العلم. إن جزيئات الماء فى الحالات الطبيعية تتحرك باستمرار حركات عشوائية ، وتتصادم مع الجزيئات الأخرى لترتد فى جميع الاتجاهات الممكنة ، فهناك جزيئات تتحرك لليمين فتتصادم معها جزيئات تتحرك لليسار ، كما توجد جزيئات تتحرك لأعلى فتتصادم معها جزيئات تتحرك لأسفل ، وتوجد أيضا جزيئات تتحرك للأمام فتتصادم معها جزيئات تتحرك للخلف. ومحصلة هذه الحركات العشوائية بقاء الماء مستقرا فى مكانه. لكن إن افترضنا أن الله تعالى أمر نصف جزيئات الماء أن تتحرك فجأة مع بعضها لليمين فى نفس اللحظة ، وأمر النصف الآخر من الجزيئات أن تتحرك جهة اليسار فى نفس اللحظة ، فإن النتيجة ستكون شق البحر إلى نصفين.

وهذه الآلية ليست من ابتكارى ، ولكنها وردت فى كتابات عدد من المفكرين[64] ، وهى تعتمد على الميكانيكا الإحصائية Statistical mechanics التى تفسر الحالة الماكروسكوبية (الظاهرة الكبيرة) للنظام بالرجوع إلى الحالة الإحصائية لمكوناته الميكروسكوبية (الصغيرة) ، ومن قبيل ذلك تفسير درجة حراة الغاز بمتوسط الطاقة الحركية للجزيئات المكونة له.

---

[64]) **Miracles: metaphysics, physics, and physicalism.** By: Kirk McDermid.

ويقدم "ريان لى" عرضا لآلية أخرى لشق البحر تعتمد على فيزياء الكم:

حدث أكثر من مرة أن شق الله البحر من أجل الإسرائيليين (أثناء عبورهم البحر الأحمر خارجين من مصر وأثناء عبورهم نهر الأردن إلى إسرائيل). **إن كنا نعتقد أن الجسيمات تُمثل بموجات من الاحتمالات فإن هذه الموجات تمتد مكانيا للخارج إلى ما لانهاية باحتمال متناهى فى الصغر لكنه لا يساوى الصفر.** على سبيل المثال فإن جسيما موجودا فى بئر (فى حالتنا جسيما من جسيمات الماء محصورا بين جسيمين آخرين للماء) سيكون لديه دالة موجية تقل أكثر وأكثر خارج البئر. **واحتمالات ظهور الجسيم بعيدا جدا عن البئر صغيرة جدا إلى درجة أنه فى كل الجسيمات الموجودة فى كل الآبار الموجودة فى الكون فى كل الأوقات ربما لا يوجد حدث تتم ملاحظته. لكن إن كان الله يستطيع أن يضطلع بالأمر متى شاء أو أن يقرر بشكل حتمى أن الجسيمات ستتصرف بطريقة مختلفة عن الاحتمال المعيارى الذى وضعه لها فإنه يستطيع أن يصنع معجزات بدون انتهاك قوانين العالم الطبيعى الذى خلقه**[65].

وفضلا عن ذلك فمن يعد للمنطق البسيط فلن يكون فى حاجة إلى مثل تلك الآليات العلمية الماهرة ، فقد سبق أن أوضحنا أن القوى الأساسية الأربع (الجاذبية –الكهرومغناطيسية– النووية القوية– النووية الضعيفة) ليست هى القوى الوحيدة فى الكون بل هناك أشكال كثيرة من القوى غير الأساسية ، ومن قبيل ذلك امتلاك الإنسان لقوة عضلية تمكنه من دفع حفنة من ماء البحر بيده اليسرى وحفنة أخرى بيديه اليمنى. وإذا كانت هذه هى قدرة الإنسان فإن قوة ملاك واحد من ملائكة الله أعظم ببلايين المرات ، وسيكون من أيسر الأشياء عليه أن يدفع نصف ماء البحر لليمين ونصفه الآخر لليسار ، فينشق البحر ، وتحدث المعجزة. يكفى أن تعتقد بوجود إله وملائكة ، وبعدها يصبح كل شىء سهلا. ولئن طلبت من أحد المخترعين الأذكياء أن يصنع لك آلة تزيح ماء البحر الأحمر على الجانبين لتفتح طريقا فى المنتصف فإن هذه المخترع الذكى سيتكلم بثقة مؤكدا أن الأمر ليس مستحيلا ، وكل ما هنالك أننا بحاجة لكمية كبيرة من الحديد لصنع لوح معدنى عريض وطويل وسميك بدرجة تمكنه من دفع الماء دون أن ينكسر ، كما

---

65) **On the Interpretation of Quantum Mechanics.** Ryan Lee, PHYS 517, Spring 2008

سنكون فى حاجة لمحركات (مواتير) شديدة القوة تكون قادرة على دفع اللوحين إلى الجانبين. المسألة ليست مستحيلة ، ولكنه مجرد عجز فى التقنيات الحالية ، ونقص فى التمويل ، وليس من المستبعد فى المستقبل أن يتم التغلب على تلك العوائق.

وعلينا أن نلاحظ أن معجزة شق البحر ليست بهذه البساطة لأن مجرد إزاحة المياه إلى الجانبين وإخلاء المنتصف لن يجعل عبور بنى إسرائيل سهلا لأن أقدامهم ستغوص فى الرمال المبللة أو الطين الموجود فى القاع ، ولهذا نجد لمحة عبقرية فى القرآن تتمثل فى استخدام كلمة (يبسا) التى تعنى (جافا): {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} [طه: 77]. وجفاف أرض البحر لا يمكن أن يحدث بهذه السرعة الخاطفة إلا إذا تحركت كل ذرات الماء المختلطة بالطين فى الاتجاهين فى نفس اللحظة مع بقية الماء ، وهو أمر تسمح به ميكانيكا الكم كما قلنا فى مواضع سابقة.

ولا يتوقف الأمر عند ذلك ، فالأمور إن تركت لنفسها لكان على بنى إسرائيل أن يسيروا فى قاع البحر الخالى من الماء ، وهذا ليس طريقا ممهدا ، فقاع البحر وعر إذ أنه يحتوى على كثير من الصخور والتعاريج والشعاب المرجانية والأعشاب، وهذه تجعل الحركة السريعة لليهود الفارين صعبة. ولهذا قال القرآن: (فاضرب لهم طريقا) ، وذلك لأن مجرد شق البحر لا يحل المشكلة ، ولا بد من وجود "طريق". وكلمة "طريق" لا تطلق إلا على أرض تصلح للسير ، وهذا يتيح للضعفاء والنساء والأطفال الفرار السريع.

إن كلمة (طريق) مشتقة من فعل (طرق) الذى يعنى فى الأصل (ضرب) ، يقال: (طَرَقَ النجَّاد الصوفَ) ، إذا ضرَبه. والقضيبُ الذي يضربه به يسمّى (مِطْرَقَةً) ، ومن قبيل ذلك مِطْرَقَةُ الحداد[66]. والطرق فى اللغة يعنى أيضا وجود شىء فوق شىء آخر ، يقال: (طارَقَ الرجلُ بين الثَّوبين) ، إذا لبس أحدهما على الآخر. و(طارَقَ بين نعلين)، أي خصف إحداهما فوقَ الأخرى. ويبدو لنا أن الطريق سمى كذلك لأن أرجل الناس تضربه ، أو لأنهم يسيرون فوقه ، ولذا فلا يجوز إطلاق اسم الطريق مثلا على صحراء خالية وعرة نادرا ما يمشى فيها أحد. باختصار

66) وطَرَقَ الفحلُ الناقة يطْرُقُ طُروقاً، أي قَعا عليها. وطَروقَةُ الفحلِ: أنثاه. يقال: ناقةٌ طَروقَةُ الفحلِ، للتي بلغت أن يضرِبَها الفحلُ. ويقال: أطْرِقْني فَحْلَكَ، أي أعِرني فَحلك ليضرب في إبلي. واسْتَطْرَقْتُهُ فحلاً، إذا طلبتَه منه ليضربَ في إبلك (انظر: الصحاح فى اللغة للجوهرى).

الطريق فى اللغة هى أرض ممهدة تصلح للسير ، وتمهيد قاع البحر فى ذاته معجزة أشار إليها القرآن بعبقرية فى كلمة واحدة.

وخلق الطريق الممهد ليس مستحيلا من وجهة نظر العلم ، فمن الممكن لذرات أرض البحر أن تتحرك – طبقا لقوانين فيزياء الكم– بطريقة متناسقة بحيث يتم خلق طريق ممهد يصلح للسير. ثم إن تقدم علوم الهندسة فى عصرنا جعل بالإمكان تمهيد ورصف الطرق بسرعة كبيرة. ومن المتصور أنه ببعض التكنولوجيا المتطورة فى المستقبل يمكن للبشر الإسراع من العملية كى تتم فى دقائق ، وكأننا أمام معجزة ، فكيف ينجح البشر فى صنع المعجزات ، ويعجز عنها الله؟

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله رب العالمين.

معرفة ما يجرى خلف الأسوار

حين دخل يوسف عليه السلام السجن التقى بسجينين ، فحاول دعوتهما لدين الله ، وكان من بين الأدلة التى استند إليه لإثبات نبوته القدرة على معرفة أمور غيبية من قبيل إخبارهم بالطعام الذى سيأتيهم كل يوم فى السجن بالرغم من أن أبواب السجن مغلقة عليهم ، ولا اطلاع لهم بما يحدث فى الخارج ، ولا ما يحدث فى مطبخ السجن ، ولا ما يدور فى رءوس قادة السجن من رغبة فى التضييق على المسجونين أو التوسعة عليهم. قال تعالى على لسان يوسف:**{قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ}** [يوسف: 37].

وعيسى عليه السلام جرت على يديه معجزة مماثلة ، فقد كان يخبر بنى إسرائيل بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم: **{وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** [آل عمران: 49]. وبشكل عام سنجد أن الله تعالى يعلم كل أفعال الناس مهما حرصوا على كتمانها. والله تعالى يعلم كل ذلك مباشرة ، كما أنه يرسل رسله من الملائكة التى تحصى على العباد أفعالهم.

ومنذ مائة عام فقط كان هذا الكلام ضربا من الخيال تأباه العقول ، بيد أن السنوات الأخيرة شهدت تقدما مذهلا فى الاختراعات الإلكترونية بشكل حقق المعجزة على أرض الواقع. إننا نعيش فى عصر المعلومات ، بل يحلو لى أن أسميه عصر الجاسوسية ، فقد أصبح العالم كتابا مفتوحا ، وبات من الممكن لكل إنسان أن يعرف ما يجرى فى أى مكان فى العالم. ومن يدخل اليوم إلى أحد المحال التجارية فغالبا سيجد لافتة مكتوب عليها: "المحل مراقب بالكاميرات" ، حيث يجلس مدير المحل فى مكتبه المغلق ويراقب من بعيد كل ما يحدث فى أركان المحل. وحاليا انتشرت كاميرات المراقبة فى كل مكان ، وأصبح بإمكان الأم أن تعرف ما الذى يفعله أولادها فى البيت أثناء غيابها. وأصبح بمقدور الآباء أن يراقبوا عن بُعد اليوم الدراسى لأبنائهم فى رياض الأطفال. كما أدى اختراع الأقمار الصناعية إلى سهولة رصد تحركات الجيوش وتجهيزاتها بدقة كبيرة. بل أصبح من وسائل اللهو المتاحة للصبية استخدام برنامج جوجل إيرث Google Earth الذى يتيح للواحد منهم أن يشاهد – وهو جالس فى بيته– أى مكان فى العالم. يالها من عجائب تفوق الخيال!

وهكذا تجد عزيزى القارىء أن ما كان يعتبر معجزة فى عهد يوسف عليه السلام بات اليوم شيئا طبيعيا جدا ، بل أقل من الطبيعى ، فكيف ينفر الملحدون من معجزات القرآن؟ يا له من جهل!

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله رب العالمين.

الإسراء والمعراج

مساكين أولئك الملحدون! إنهم يظنون أنفسهم أهل العلم مع أنهم أبعد شيء عنه. ومن أكثر الأمور التى يسخرون منها قصة الإسراء والمعراج ، فتراهم يقولون أن الرسول لو سار حتى بسرعة الضوء (وهذا مستحيل طبقا لنظرية النسبية الخاصة) لعدة ساعات ليلا فلن يستطيع النفاذ حتى من مجرتنا التى يبلغ قطرها مائة ألف سنة ضوئية[67] ، فما بالك بالوصول للمجرات الأخرى التى يبعد بعضها عنا 13 بليون سنة ضوئية ، أى تحتاج إلى 13 بليون سنة كى يصل إليها الإنسان بفرض أنه تمكن من السير بسرعة الضوء؟ وهذا يثبت فى رأيهم أن الإسراء والمعراج أكذوبة.

وإن كنت عزيزى القارىء ممن لا يهوون الجدال فما عليك إلا أن تقول لمثل هذا الملحد: افتح كتاب "فيزياء المستحيل" للعالم الشهير ميشيو كاكو ، وستجد فصلا مثيرا[68] كفيلا بجعلك تصمت إلى الأبد. هذا الفصل عنوانه "أسرع من الضوء" ، وفيه يؤكد المؤلف أن السفر بسرعة أكبر من سرعة الضوء ليس مستحيلا من وجهة نظر العلم ، وكل ما فى الأمر أن التقنيات التى نمتلكها حاليا لا تمكننا من تحقيق هذا الحلم. إن هذا الكلام ينهى النقاش على الفور لصالح الإسلام ، أما من يريد معرفة المزيد فليقرأ ما يلى:

حين طرح آينشتين نظرية النسبية الخاصة التى تؤكد أن أقصى سرعة فى الكون هى سرعة الضوء حاول العلماء البحث عن ثغرة فى هذه القاعدة ، ولكنهم أخفقوا إلى أن قدم لهم آينشتين نفسه أول ثغرة حقيقية من خلال نظرية النسبية العامة عام 1915م التى أكدت أن هناك شيئا أسرع من الضوء. وطبقا للنسبية العامة فإن الفضاء الخالى (وهو ما يسمى بالمكان–الزمان أو الزمكان) أشبه بالنسيج الذى يمكنه أن يتمدد أو ينكمش. وحين أتكلم الآن عن الفضاء فأنا أقصد الفضاء الخالى من كل شيء ، فلا يوجد فيه ذرة واحدة من هواء ولا غاز ولا غبار. وفى حالات معينة يمكن للفضاء أن يتمدد بسرعة أكبر من الضوء ، فعلى سبيل المثال عقب حدوث الانفجار

---

67) **The Milky Way**. NASA.
https://imagine.gsfc.nasa.gov/features/cosmic/milkyway_info.html; accessed on December 1, 2019.

68) **Physics of the impossible**. Page 197

العظيم منذ حوالى 13.7 بليون سنة تمدد الكون بسرعة رهيبة تفوق سرعة الضوء. وليس فى هذا انتهاك للنسبية الخاصة لأن الفضاء الخالى نفسه هو الذى يتمدد وليس الأجرام الموجودة فيه ، والفضاء المتمدد لا يحمل أى معلومات. ويجب أن يكون واضحا لنا أن النسبية الخاصة تنطبق فقط محليا ، أى فى المناطق المجاورة لنا مثل نظامنا الشمسى. ولكن على مستوى الكون كله يجب أن نستخدم النسبية العامة. وفى النسبية العامة فإن الفضاء (الزمكان على وجه الدقة) نفسه يصبح قادرا على التمدد بسرعة أكبر من سرعة الضوء رغم أن الأجسام داخل الفضاء ستظل غير قادرة على تجاوز تلك السرعة[69].

وهناك قانون فيزيائى معروف اسمه قانون هابل Hubble’s law الذى يفيد أن سرعة تباعد المجرات عنا تتناسب مع بعدها عنا بحيث تكون (السرعة= المسافة x ثابت هابل). ويتنبأ قانون هابل بأنه بعد مسافة معينة (تعرف بمسافة هابل) تبلغ 14 بليون سنة ضوئية تبدأ المجرات فى التباعد بسرعة أكبر من سرعة الضوء. ومنذ عدة سنوات بلغ عدد المجرات التى رصد العلماء تباعدها بسرعة تفوق سرعة الضوء حوالى ألف مجرة[70].

وعلى ذلك فإن أراد المرء السفر بسرعة أعلى من سرعة الضوء فعليه أن يستجدى نظرية النسبية العامة التى يمكن أن تحقق هدفه بإحدى طريقتين:

الطريقة الأولى: تمدد الفضاء:

إن تمكنت بطريقة ما من أن تجعل الفضاء من خلفك يتمدد فإنك ستندفع للأمام ، وستنتقل إلى المجرات البعيدة فى لمح البصر بسرعة أكبر من سرعة الضوء ، وأنت جالس مكانك ، فالفضاء المتمدد سيدفعك بعيدا ، وكأنه ريح عاتية ، مع ملاحظة أن الفضاء المتمدد هنا هو الفضاء الخالى من كل شىء والذى لا يحتوى حتى على ذرة هواء أو ذرة غبار.

---

69) **Physics of the impossible**. Page 202-203

70) **Misconceptions about the big bang**. By Charles H. Lineweaver and Tamara M. Davis. Scientific American. March 2005. Page 36-45.

ومن أفضل الأمثلة على الحركة الفائقة السرعة من خلال تمدد الفضاء هى ما يسمى ب "محرك ألكوبيير" Alcubierre drive أو محرك الالتواء Warp drive التى اقترحها الفيزيائى ألكوبيير عام 1994م استنادا إلى حل لمعادلات النسبية العامة[71].

افترض ألكوبيير أن بإمكاننا إحداث تحريك سريع جدا لفقاعة من الفضاء بواسطة تمدد الفضاء خلفها وانكماشه أمامها. وافترض ألكوبيير أن قائد سفينة الفضاء سيجلس فى فقاعة (Warp bubble) ، وداخل هذه الفقاعة لن يكون هناك شيىء غير طبيعى على الإطلاق بالنسبة له ، وأى شىء داخلها سيتحرك بسرعة أقل من سرعة الضوء ، لكن الفقاعة نفسها ستسبق أى شعاع ضوء يتحرك خارجها [72].

فى هذه الرحلة سيكون هناك سفينة فضاء على شكل كرة قدم يجلس بداخها القائد والركاب ، وستكون السفينة محاطة وموصلة بحلقة مصنوعة من مادة غريبة (مادة سالبة أو طاقة سالبة)، **وهذه المادة الغريبة ستتسبب فى حدوث تشوه كبير للفضاء حولها حيث سيتمدد الفضاء خلفها وينكمش أو ينضغط أمامها ، فتندفع السفينة بسرعة قد تصل لعشرة أمثال سرعة الضوء ، ليس لأنها تحركت بواسطة محركات ولكن لأن الفضاء دفعها للأمام.** أما السفينة نفسها فستكون موجودة داخل فقاعة من الفضاء المسطح غير المنحنى على الإطلاق.

وقد اعترف ألكوبيير فى مقدمة بحثه بأنه استلهم هذه الفكرة من حلقات مسلسل الخيال العلمى الشهير المعروفة بستار تريك. وقد اعتمد ألكوبيير على معادلات النسبية التى تقول أن من الممكن للمرء ليس فقط أن يحسب درجة تشوه الفضاء التى تحدثها كتلة (أو طاقة) معينة ، ولكن من الممكن له أيضا أن يجرى المعادلات بطريقة عكسية حيث يبدأ بفضاء له درجة معينة من التشوه ، ومن خلالها يمكنه حساب المادة اللازمة لإحداثه. وقد وجد العلماء أن المادة اللازمة لتمدد الفضاء بالشكل اللازم لتجاوز سرعة الضوء ضخمة للغاية بما يعادل كتلة كوكب المشترى[73]. ولا شك أن الإله الذى خلق كونا يتضمن تريليونات النجوم والكواكب فلن يكون

[71]) **The warp drive: hyper-fast travel within general relativity**. Miguel Alcubierre . Class. Quantum Grav. 11-5, L73-L77 (1994).
[72]) **Physics of the impossible**. Page 202-203.

[73]) **Physics of the impossible**. Page 204- 208

عسيرا عليه أن يخلق مادة سالبة كتلتها (وليس حجمها) تساوى كتلة كوكب المشترى كى تنقل رسوله محمد عليه السلام بسرعة كبيرة.

الطريقة الثانية: الثقوب الدودية Wormholes:

الثقوب الدودية هى طرق مختصرة تشبه الكبارى أو الأنفاق التى تربط بين مناطق بعيدة فى الكون الذى نحيا فيه أو بين كونين مختلفين. وهذه الثقوب تنبأ بها آينشتين ورفيقه روزن فى عام 1935م من حلول لمعادلات النسبية العامة. والنسبية العامة لا تتطلب وجود الأنفاق الدودية ، ولكنها تسمح بوجودها. وفى البداية كانت تسمى أنفاق آينشتين–روزن Einstein–Rosen bridges ، وقد تحول هذا الاسم الجاف فيما بعد إلى اسم الأنفاق الدودية. ولم يتم اكتشاف هذه الثقوب حتى الآن إلا أن كبار علماء الفيزياء فى العالم يأخذون هذه الفكرة بكل جدية ، ويؤكدون أن من يتمكن من المرور خلالها فقد يقدر على الوصول إلى أماكن فى غاية البعد فى الكون فى وقت قصير جدا[74]. يقول ستيفن هوكنج:

إذا كان للثقوب الدودية وجود فسيكون فيها الحل لمشكلة حد السرعة فى المكان: سيستغرق الأمر عشرات الآلاف من السنين حتى نعبر المجرة فى سفينة فضاء تسافر بسرعة أقل من سرعة الضوء كما يلزم حسب النسبية. **ولكننا قد نذهب من خلال ثقب دودى إلى الجانب الآخر من المجرة ثم نعود فى الوقت المناسب لتناول الغذاء**[75].

وفى كتاب فيزياء المستحيل يتكلم ميشيو كاكو بإسهاب عن إمكانية السفر لأماكن شديدة البعد من خلال عبور الثقوب الدودية[76]. ونحن هنا نلخص كلامه – مع إضافات طفيفة– فنقول أن الثقوب الدودية ترتبط بفكرة الثقوب السوداء ، فكلاهما يمثل حلولا مشروعة لمعادلات النسبية العامة لآينشتين. والثقوب السوداء تنشأ من نجوم نفذ وقودها النووى فانهارت على نفسها ، وتقلصت بفعل جاذبيتها لتصبح نقطة صغيرة جدا (تسمى المفردة) تحتوى على كل كتلة النجم ، ولها كثافة لا نهائية. وحول هذه المفردة توجد منطقة من الفضاء لا يمكن لأى شىء يدخلها أن

---

[74]) **Are Wormholes Real?** By Sabrina Stierwalt, Everyday Einstein. Scientific American, May 29, 2019.

[75]) **الكون فى قشرة جوز.** تأليف ستيفن هوكنج. صفحة 127

[76]) **Physics of the impossible**. Page 208-215.

يعود مرة أخرى للفضاء خارجها ، ولا بد فى النهاية أن يسقط سريعا فى الثقب الأسود ذى الجاذبية الرهيبة التى ستحطم جسده تحطيما وستبتلعه إلى الأبد. ولكن فى عام 1963م وجد العالم روى كير أن النجم المنهار لا بد أنه سيدور spin بسرعة أكبر من سرعة انكماشه على نفسه ، ولهذا فالثقب الأسود سيدور بسرعات خيالية ، وبالتالى فهو لن يتخذ شكل نقطة كما كان يُفترض فى البداية بل سيكون على شكل حلقة دوراة. ولئن سقط أحد رواد الفضاء فى ثقب أسود واصطدم بالحلقة فإنه سيتحطم فى الحال ، والفرصة الوحيدة للنجاة هى أن يدخل من مركز الثقب الأسود أى يمر من وسط الحلقة (حلقة كير Kerr ring) ، وهنا يمكنه العبور بسلام (وهذا يسمى النفق الدودى) لكنه سيجد نفسه قد خرج من منطقة بعيدة من الكون أو من عالم آخر أو من زمن آخر !

وفى الأحوال الطبيعية فإن الجاذبية ستسحق حلق الثقب الدودى محطمة رائد الفضاء الذى يحاول العبور. لكننا إن استخدمنا مادة سالبة أو طاقة سالبة فإنها – بما لها من جاذبية طاردة– ستحافظ على حلق الثقب مفتوحا لفترة تكفى لعبور رائد الفضاء بسلام. ويقدر العلماء أنك لكى تفتح ثقبا أسود بحجم متر فسيكون على أن تستخدم مادة سالبة بحجم كوكب المشترى. وإضافة إلى ذلك فنحن لا ندرى هل سيكون الثقب الدودى مستقرا أم لا ، أى هل سينهار على نفسه وينغلق بمجرد دخول الفرد داخله أم لا؟

ومن المشاكل الأساسية التى تواجه العلماء هى كيف يتم تخليق ثقب أسود فى نسيج الفضاء؟ إن هذا يتطلب ضغطا شديدا ، فمن حيث المبدأ يمكن لأى شىء أن يتحول إلى ثقب أسود ، فالشمس إن ضُغطت بحيث يصبح قطرها ميلين ستتحول إلى ثقب أسود ، وحتى جسد الإنسان إن ضغط لحجم أصغر من الذرة فإنه سيتحول لثقب أسود. وللحصول على طاقة كبيرة كافية لخلق ثقب أسود يمكن للعلماء من حيث المبدأ تعجيل شعاعين كى يصطدما معا فتنتج طاقة خرافية كافية لتكوين ثقب فى نسيج الفضاء. ويقدر العلماء أن الطاقة المطلوبة يجب أن تكون فى مدى طاقة بلانك ، أى 10^{19} بليون إلكترون فولت ، وهى أكبر بملايين المرات من الطاقة التى يمكن الحصول عليها بتقنياتنا الحالية.

ويقول العلماء أنه فى المسافات الشديدة الصغر ، أى عند مسافة بلانك التى تبلغ 10^{-33} سنتيمتر فإن الفضاء لن يبدو خاليا بل سيكون ذا شكل مثل الرغوة Foamy حيث توجد فقاقيع كثيرة تقفز باستمرار للوجود لتصطدم بفقاقيع أخرى ثم تختفى ، وهكذا دواليك. وتسمى هذه الفقاقيع الأكوان الافتراضية Virtual universes، وهى تشبه الجسيمات الافتراضية المعروفة Virtual particles. وتلك الفقاقيع لا يمكن لنا رؤيتها لكن نظرية الكم تتنبأ بها. وتخبرنا نظرية الكم إننا إن استطعنا أن نركز طاقة بلانك فى نقطة صغيرة جدا فإن هذه الفقاقيع يمكنها أن تكبر ، وحينئذ ستكون كل فقاعة ثقبا دوديا يصل بين عالمنا وعالم صغير Baby universe. وفى الماضى كان العلماء ينظرون إلى فكرة الأكوان الصغيرة على أنها أفكار رياضية غريبة ، لكنهم الآن ينظرون إليها بجدية ، ويقولون بأن كوننا ربما نشأ فى يوم من الأيام ككون طفولى ، وهذا بالطبع تكهن محض لم تثبته التجربة[77].

وهكذا ترى عزيزى القارىء كيف يخطط العلماء للسفر لأماكن بعيدة فى الكون من خلال تمدد الفضاء أو عبور الثقوب الدودية. ورغم أن هذا لا يزال حلما بعيد المنال إلا أن ما يكفينا هو تأكيد العلماء بأنه ليس مستحيلا على الإطلاق. وإذا كان كبار العلماء يتوقعون أن يصبح الإنسان بعد عدة قرون قادرا على السفر إلى أماكن سحقية فى الكون ، فما بالك بالإله الذى خلق الإنسان وخلق الفضاء وخلق القوانين التى تحكم الكون؟ أليس المعراج للسماوات أمر فى غاية السهولة بالنسبة له؟

وإضافة إلى ما سبق فإن علينا أن نعلم أن السفر لأماكن بعيدة جدا أمر ممكن طبقا لنظرية الكم. يقول ميشيو كاكو فى كتابه فيزياء المستحيل:

> لكى أجعل طلبتى للدكتوراة يندهشون من مدى غرابة نظرية الكم فإننى أطلب منهم أن يحسبوا احتمال أن تذوب ذراتهم فجأة لتعاود الظهور على الجانب الآخر من حائط من الطوب. إن هذا الانتقال اللحظى Teleportation event مستحيل فى ظل فيزياء نيوتن لكنه فى الواقع مسموح به فى ظل ميكانيكا الكم. ورغم ذلك فالإجابة أنه سيكون على المرء أن ينتظر لفترة أطول من عمر الكون كى يحدث ذلك (وإن استخدمت حاسوبا

[77]) **Physics of the impossible**. Page 208- 215

كى ترسم موجة شرودنجر لجسدك فإنك ستجد أنها تشبه بشدة كل ملامح جسدك باستثناء أن الشكل سيكون مجعدا قليلا ، وستسيح بعض موجاتك فى كل الاتجاهات. بعض موجاتك **ستمتد حتى إلى النجوم البعيدة ، لذا فإن هناك احتمالا صغيرا جدا أنه فى يوم من الأيام ربما تستيقظ لتجد نفسك على كوكب بعيد**[78].

ويقول ميشيو كاكو بعدها بقليل:

إن هذه الخاصية الغريبة والعميقة فى نفس الوقت لنظرية الكم والتى تقرر أن هناك احتمالا محددا أنه حتى الوقائع الأكثر غرابة يمكن أن تحدث ، هذه الخاصية استغلها دوجلاس آدامز فى قصته الشيقة "مرشد المسافر المجانى للمجرة". لقد احتاج إلى طريقة ملائمة للمرور كالعاصفة عبر المجرة لذا فإنه اخترع آلة اسمها "محرك الاستحالة اللانهائية" ، وهى طريقة عجيبة جديدة لعبور مساحات شاسعة بين النجوم فى لمح البصر.... إن آلته تمكنك من تغيير احتمال أى حدث كمى كما تشاء ، بحيث تصبح حتى الأحداث البعيدة الاحتمال جدا شائعة الحدوث. **وعلى ذلك فإنك إن أردت أن تنطلق إلى أقرب منظومة نجمية فسيكون عليك بكل بساطة أن تغير احتمال إعادة تواجدك المادى على هذا النجم ، ويا للعجب ستجد نفسك قد انتقلت إلى هناك فى لمح البصر.** وفى الحقيقة فإن القفزات الكمية الشديدة الشيوع داخل الذرات لا يمكن بسهولة تعميمها إلى الأشياء الكبيرة مثل البشر الذين تحتوى أجسادهم على تريليونات التريليونات من الذرات. وحتى إن كانت الإلكترونات فى أجسادنا تتراقص وتقفز فى رحلتها العجيبة حول النواة **فإن هناك الكثير جدا منها إلى حد أن حركتها تتلاشى فى المتوسط ، وهذا بشكل تقريبى السبب فى أن المواد فى مستوانا تبدو صلبة ودائمة. وعلى ذلك فبينما النقل اللحظى مسموح به على المستوى الذرى فإن على المرء أن ينتظر لفترة أطول من عمر الكون كى يشهد هذه الآثار الغريبة على أرض الواقع على المستوى الكبير.** لكن **هل بإمكان المرء أن يستخدم قوانين نظرية الكم لصنع آلة للنقل اللحظى لشىء ما حسب الحاجة كما فى قصص الخيال العلمى؟ المفاجأة أن الإجابة نعم بكل تأكيد.**[79]

---

[78]) **Physics of the impossible**. page 58

[79]) **Physics of the impossible**. page 59.

ومن يتأمل مقولة ميشيو كاكو التى ذكرناها منذ قليل: (فإن هناك احتمالا صغيرا جدا أنه فى يوم من الأيام ربما تستيقظ لتجد نفسك على كوكب بعيد) ، من يتأمل هذه المقولة يشعر وكأن ميشيو كاكو عالم مسلم يدافع عن قصة الإسراء والمعراج التى حدثت ليلا للرسول عليه السلام.

إننى لا أخفى ذهولى الشديد حين أقرأ كلام ميشيو كاكو وستيفن هوكنج وغيرهما من العلماء ، وأشعر وكأن الله تعالى قد سخر هؤلاء الكفار وجعلهم يفكرون ويتأملون ويبدعون ويخططون كى يرسموا لنا فى النهاية الوسائل التى يمكن بواسطتها اختراق السماوات بسرعات خيالية ، وكأن الله تعالى قد وكلهم للدفاع عن الإسلام الذى عرج رسوله إلى السماء ثم عاد فى ساعة من ليل. إن المسلمين الآن يعيشون فى حال استعمار سياسى وعسكرى فرض عليهم البقاء فى قاع الجهل وحرمهم من نور العلوم الطبيعية. ولكن الله تعالى لم يترك الإسلام ، وقرر أن ينصره نصرا تتحاكى به الأجيال: نصرا يأتى من الأعداء لا من الأصدقاء.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله رب العالمين.

تشكل الملائكة

كلنا نعرف قصة الملائكة الذين جاءوا إلى نبى الله إبراهيم على هيئة أشخاص من بلد غريب. لقد دخل الزوار على إبراهيم ملقين التحية ، فاستضافهم ، وأكرمهم بعجل مشوى ، ولكنه فوجىء بأنهم لا يأكلون خلافا لما هو متوقع من مسافرين لا زاد معهم ، فشك فى أمرهم ، فأخبروه أنهم ملائكة مرسلون من الله إلى قوم لوط: **{وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ }** [هود: 69، 70]

وفى إحدى المرات جاء جبريل للنبى على هيئة رجل يسأله بعض الأسئلة كى يعلم المسلمين أمور دينهم: (عن أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ

كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ...... قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ») رواه مسلم.

وهنا يعتدل الملحد من جلسته ، ويبتسم ساخرا: ما هذا الهراء؟ هل لا يزال بيننا من يصدق أن هناك أشخاصا لهم هيئات البشر وأصوات البشر وثياب البشر وأعضاء البشر وجلود البشر ، ولكنهم ليسوا بشرا بل ملائكة؟ هل لا زلتم تصدقون حكايات الجن والعفاريت الذين يتشكلون على صورة الإنسان كما كانوا يقولون لنا فى سن الطفولة؟

ولهؤلاء المتحذلقين نقول:

إننا فى الإسلام نعتقد أن الإنسان له روح وجسد ، والملائكة أيضا لها أرواح وأجساد وليست أرواحا خالصة. ومن الأدلة على أن للملائكة أجسادا هو أن القرآن يخبرنا أن لها أجنحة ، والجناح من مكونات الجسد: {جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فاطر: 1]. وفضلا عن ذلك فإنه إذا كانت الملائكة تتخذ أشكالا متعددة ، فإن هذا يدل على أن الملائكة لها أرواح لأنها حين اتخذت شكلا غير شكلا الأصلى بقيت متمتعة بنفس الروح ونفس الصفات الإيمانية والخلقية.

الملاك إذن له روح وجسد. وروح الملاك لا نعرف عنها شيئا ، مثلما لا نعرف شيئا عن روح الإنسان: {**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**} [الإسراء: 85]. أما أجساد الملائكة فيمكن أن نقول عنها بعض الأشياء.

إن تحول جسد الملاك من حالة غير مرئية وغير محسوسة إلى حالة مرئية ومحسوسة يمكن أن يحدث فى حالة من اثنتين ، فإنما أن يكتسب الإنسان قدرة فائقة على الإدراك تمكنه من رؤية ما هو خاف فى العادة عن الحواس الخمس ، وإما أن يتغير جسد الملاك فيتحول من حالة لا تقدر حواس الإنسان على إدراكها إلى حالة تستطيع الحواس أن تدركها بقدراتها المعتادة. وبعبارة أخرى نقول أنه **إما أن تسمو الحواس لتدرك ما هو خفى ، وإما أن يتواضع الخفى كى تقدر الحواس على إدراكه.**

والاحتمال الأول – أى احتمال تغير الحواس لتصبح أكثر قدرة على الإدراك – حدث لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى رأى جبريل مرتين بشكله الحقيقى كما ورد فى سورة النجم ، وكانت المرة الأولى عندما هبط عليه فى غار حراء لأول مرة: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} [النجم: 5 – 9] ، أما المرة الثانية فكانت عند سدرة المنتهى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} [النجم: 13 – 15]

ونحن نؤكد أن من المقبول تماما اكتساب الإنسان لقدرة جديدة على إدراك ما هو خفى ، فجوهر مسيرة التقدم العلمى هو اكتشاف مزيد مما كان مجهولا بأدوات أكثر تقدما ، وهذا الكلام بديهى ، لكن يبدو أن الكثيرون يحتاجون لإعادة تذكره ، فعلى سبيل المثال تستطيع الجيوش الآن الحرب فى الظلام دون أن تستخدم الأنوار وذلك من خلال الاستعانة بالأشعة تحت الحمراء ، وقبل ذلك كان من المستحيل على الإنسان أن يرى فى الظلام بغير الضوء. وبالمثل ظل الإنسان طوال مئات الآلاف من السنين يعيش وسط غابة كثيفة من الميكروبات ، ولكنه لم يتمكن من رؤيتها إلا فى القرن العشرين بعد اختراع الميكروسكوب الضوئى. كما ظل الإنسان يجهل الكثير عن مكونات خلايا جسده إلى أن اخترع الميكروسكوب الإلكترونى الذى كشف كثيرا من التفاصيل الخفية. وبمزيد من تقنيات الكيمياء والفسيولوجيا تمكن العلماء من معرفة تفاصيل مذهلة عن التركيب الدقيق للخلايا وطريقة عملها. كما أصبح بإمكان الأطباء أن يعرفوا الأمراض التى تؤثر على جسم الإنسان من الداخل باستخدام الأنواع المختلفة من الأشعة مثل أشعة إكس والأشعة المقطعية والرنين المغناطيسى والموجات فوق الصوتية ، إضافة إلى استخدام المناظير التى تدخل مباشرة لمكان المرض لتكشف طبيعته. وقبل اختراع التلسكوبات لم يكن الإنسان يعلم أن ما يشاهده من النجوم ليس إلا جزءا يسيرا من الأعداد الحقيقية للنجوم التى يبلغ تعدادها بلايين البلايين. وبعد اختراع التلسكوب الفضائى زادت الرؤية وضوحا. وفى السنوات الأخيرة تمكن العلماء من اختراع المجهر الماسح النفقى Scanning tunneling microscope الذى مكنهم من رؤية مكونات الذرة التى لم يكن أحد يحلم برؤيتها فى يوم من الأيام.

ولن نواصل الكلام فى هذه النقطة التى لا خلاف عليها. وخلاصة القول أنه **إذا كان الإنسان فى العصر الحديث قد استعان بأدوات ساعدت حواسه على رؤية الأشياء الخفية فلماذا يتعجب الملحد حين نقول له أن من الممكن لحواسه أن تتمكن فى يوم من الأيام من رؤية الملائكة بل من رؤية الله تعالى إن كتبت لنا الجنة؟** ما الغريب فى القول بأن حواسنا العاجزة سيأتيها عون خارجى ليجعلها ترى ما لا ترى فى العادة؟

أما الاحتمال الثانى وهو أن جسد الملاك نفسه قد تغير من صورة لصورة أخرى حتى صار من الممكن للحواس أن تراه بقدراتها المعتادة ، هذا الاحتمال ليس أيضا غريبا من وجهة نظر العلم الذى يقدم لنا كثيرا من **الأمثلة على أشياء تتحول من حالة غير مرئية إلى حالة مرئية.**

ألم نتعلم فى المدارس الابتدائية ونحن أطفال أن المادة قد تتغير من شكل إلى شكل ، ومن حالة إلى حالة؟ ألم نتعلم أن الملح الذائب فى كوب من الماء قد يعاود الظهور مرة أخرى إن تبخر الماء الموجود فى الكوب بالتسخين؟ أليس هذا تحولا لشىء غير مرئى إلى شىء مرئى؟

ألا يعرف طلبة المدارس أن الجو الموجود حولنا مملوء ببخار الماء الذى لا تراه العين ، وأننا يمكن أن نكتشف وجوده إن وضعنا زجاجة ماء باردة فى الغرفة ، فحينئذ سيتحول البخار غير المرئى إلى قطرات ماء تراها العين على جدار الزجاجة البارد؟ أليس هذا تحولا للشىء من حالة غير مرئية إلى حالة مرئية؟

أليس بإمكان العلماء تحويل موجات الصوت – وهى موجات ميكانيكية طولية – تسمعها الأذن إلى موجات كهرومغناطيسية لا تسمعها الأذن ولا تراها العين ، وذلك من خلال أجهزة البث الإذاعى والتلفزيونى ، فيلتقطها جهاز المذياع أو التلفاز ، ثم يخرجها لنا بعد ذلك على شكل موجات طولية ميكانيكية مرة أخرى فتسمعها الأذن؟ أليس هذا تحولا من موجات لا تدركها الأذن إلى موجات من نوع آخر تدركها الأذن؟

ألم تثبت نظرية النسبية لآينشتين أن الطاقة تتحول إلى مادة وأن المادة تتحول إلى طاقة؟ ألم يرصد العلماء تحول أحد الفوتونات –وهو كم من الطاقة بلا كتلة– إلى جسيمين من المادة

(إلكترون وبوزيترون)[80]؟ ألا تمثل هذه العملية ظهورا للمادة من الطاقة؟ أليس هذا تحولا لجسيم لطيف بلا كتلة إلى جسيم مادى ذى كتلة؟

بل أليس بإمكان العلماء إنتاج جسيمات ثقيلة جدا مثل كوارك القمة Top quark باستخدام جسيمين خفيفين (بروتون وبروتون مضاد) يتم تسريعهما إلى ما يقرب من سرعة الضوء بحيث يكتسبان طاقة حركية كبيرة للغاية ، فيؤدى التصادم إلى تحويل الطاقة الحركية إلى جسيمات ثقيلة[81] (بالتحديد يؤدى التصادم إلى إنتاج "جلون" ذى طاقة كبيرة سرعان ما يتحول إلى كوارك قمة وكوارك قمة مضاد[82])؟ أليس فى هذا ظهور للمادة من الطاقة ، بل من مجرد طاقة الحركة؟ تصور: مجرد الجرى السريع يتحول إلى مادة!! ألا يعنى هذا أن من الممكن للطاقة غير المرئية أن تتحول إلى مادة مرئية؟

وهناك أيضا مجال هيجز Higgs field ، وهذا المجال يقترن مع الجسيمات الأولية ، فيؤدى هذا الاقتران إلى إكسابها كتلة تتفاوت حسب قوة الاقتران[83]. ولولا مجال هيجز لكانت كل الجسيمات الأولية مجرد طاقة بلا كتلة ، ولظلت تتحرك بسرعة الضوء ، فلا تتكون نجوم ولا كواكب ولا مجرات ولا إنسان ولا حيوان. وعلى ذلك فمجال هيجز هو الذى حول الأشباح إلى أجساد ، أو كما قال البعض فإن الجسيمات تلتهم جسيم هيجز لتكتسب وزنها![84، 85]

هل لا تزال هناك غرابة فى القول بأن من الممكن للمادة التى تتكون منها أجساد الملائكة غير المرئية أن تتحول إلى شكل آخر من المادة المرئية تشبه مادة الجسم البشرى؟ أنا لا أرى أية

---

80) تعرف هذه الظاهرة بإنتاج الأزواج Pair production

81) **The discovery of the top quark**. By Tony M. Liss and Paul L. Tipton. Scientific American September 1997

82) يمكن أيضا أن يؤدى التصادم إلى إنتاج فوتون أو بوزون زد Z-boson سرعان ما يتحول كل منهما إلى زوج من الكوارك القمة والكوارك القمة المضاد ، ولكن هذه العملية أكثر ندرة من تحول الجلون إلى كوار قمة وكوارك قمة مضاد..

83) لا يعرف العلماء لماذا يقترن مجال هيجز مع بعض الجسيمات بقوة أكبر من قوة اقترانه بالجسيمات الأخرى. وكذلك لا يعرف العلماء من أين أتت كتلة جسيم هيجز نفسه ، ولكن يعتقد أن كتلته نشأت من اقتران ذاتى للجسيم مع مجال هيجز.

84 **) The higgs boson.** By Martinus J. G. Veltman. Scientific American. November, 1986. Page: 76-84.
85) **The particle at the end of the universe**. By Sean Carroll. Page 5. Oneworld Publications 2012

غرابة فى ذلك ، وعلى الأقل المسألة ممكنة من حيث المبدأ ، وليست مستحيلة على الإطلاق من وجهة نظر العلم الحديث.

ولعل القارىء قد انتبه إلى أن تشكل الملائكة ليس معجزة من المعجزات المعتادة لأن طبيعة الملائكة نفسها أمر معجز ، ولكنى أحببت أن أضيف هذا الفصل فى هذا الكتاب مجاراة لبعض الملحدين الذى نظروا لتشكل الملائكة على أنه أمر خارق للعادة ومستحيل الحدوث. وفى أحد الأيام سقت لملحد كبير منهم ردودى السابقة فابتسم ، وسكت ، ومضى فى سبيل إلحاده ، وكأننى لم ألقمه حجرا ، وهذا الاستكبار عرفناه دوما عند الملحدين الذين تمثل الحقيقة بالنسبة لهم مجرد شىء ثانوى يمكن التضحية به من أجل المصالح والشهوات.

إحياء الطير

فى أحد الأيام خامر نبى الله إبراهيم عليه السلام بعض الشك فى إمكان وقوع البعث ، فتساءل: كيف يمكن أن تعود الحياة لجثة هامدة؟ السؤال فعلا محير ، والإجابة عليه ليست سهلة بالنسبة لإنسان لا يعرف إلا الطبيعة وقوانينها المادية ووسائلها القاصرة ، ولهذا لم يغضب الله تعالى من إبراهيم بل احترم شكوكه[86] ، وقدم له برهانا عمليا على إمكان حدوث البعث. لقد أمره الله تعالى أن يأخذ أربعة من الطير ، فيقربهن إليه ، ويتأمل فى شكل كل واحد منهن جيدا ، ثم يذبح الطيور الأربعة ، ويقطع كل طائر إلى أجزاء عديدة ، ثم يضع على كل جبل جزءا واحدا. فمثلا إن قطع إبراهيم كل طائر إلى خمسة أجزاء ، فسيكون لديه عشرون جزءا، وسيوضع كل جزء من

86) نحذر من أن يؤخذ كلامنا هنا على أنه يدل على قبولنا بإلغاء حد الردة. إننا نؤكد بكل قوة أن الدولة الإسلامية يجب أن تعاقب المرتد بالقتل. والأمر يختلف تماما بالنسبة للشكوك التى تعترى المسلم من حين لآخر – خاصة فى مطلع شبابه- فى بعض أمور العقيدة. إن التصرف الأمثل حيال هذه الشكوك هو أن يحاول المسلم الاطلاع والبحث فى الكتب والمراجع كى يجد الإجابة عن تساؤله ، وسيجده حتما إن أخلص النية. كما يمكن للمسلم أن يفصح عن شكوكه لأهل الاختصاص من الشيوخ والعلماء ليساعدوه على الخروج من أزمته ، فإن اقتنع المرء ، وهدأت وساوسه ، فالحمد لله ، أما إن ظل كما هو فعليه أن يكتم شكوكه ، ولا يفصح بها لأحد ، وليعش كما هو كافرا دون أن يعلم به أحد ، أو ليهاجر إلى بلد غير مسلم لأن الدولة الإسلامية تقوم على الدين ، ومن المستحيل تصور دولة مسلمة فى وجود الإلحاد. أما إن حاول الشاك أن ينشر أفكاره أو يناقشها بين عامة المسلمين من غير أهل الاختصاص فليعلم أن عقوبة الموت تنتظره. أقول هذا وأنا لا أخجل من الاعتراف بأننى قد مررت بتجربة الشك فى عقيدتى منذ أن كان عمرى 15 عاما ، ولكنى كنت أبحث بجدية عن الحقيقة ، فغرقت فى الكتب لمدة أربعة أعوام إلى أن أنعم الله علىَّ باليقين الكامل ، لكننا نرى اليوم الشاب بمجرد ما يقرأ مقالا أو منشورا على الفيسبوك يسارع إلى الإلحاد حبا فى التمرد والظهور ، وعشقا للحرية والانفلات. وتقريبا كل الشباب الملحد هذه الأيام – إلا ما ندر- لم يقرأ كتابا واحد كاملا ، ولم يبحث عن ردود المفكرين الإسلاميين عن الشبهات التى تملأ آلاف الكتب. إنها سطحية مخيفة ، وفوضى فكرية عارمة ، وستكون عاقبتها وخيمة لأبعد حد ، وسيظهر بيننا كل يوم مدع للنبوة ، وستنتشر عبادة الشيطان ، وسيغزونا الأعداء ثقافيا وسياسيا وعسكريا من خلال عملاء تم تجنيدهم مجانا بواسطة عقائد مناوئة للإسلام ، مثلما نرى اليوم من ملحدين يجاهرون بحبهم لإسرائيل ويرحبون بالغزو الأمريكى ، ويحقرون من كل ما هو مسلم.

الأجزاء العشرين على أحد الجبال. وبعد ذلك طلب الله من إبراهيم أن ينادى على هذه الطيور ، ليفاجأ بأن أجزاء كل طائر تتحرك وتلتحم معا دون أن يختلط جزء من طائر بجزء من طائر آخر ، وبعد ذلك يعود كل طائر من الطيور الأربعة إلى إبراهيم ساعيا ، أى ماشيا بسرعة ، وهو ما يعنى تمتعه بكامل الصحة والحيوية. قال تعالى فى ذلك:

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: 260]

وليس مما يخالف المنطق أن يصدق المرء بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، فمن السهل على من خلق الطير مرة أن يعيد خلقها مرة أخرى بعد موتها ، بل إن الخلق فى المرة الثانية أسهل من المرة الأولى. أما الملحد الذى لا يزال يكذب بالقصة فليكمل هذا الفصل إلى آخره.

فى أحد الأيام كنت أقرأ موضوعا فيزيائيا عن مشكلة الزمان من وجهة نظر علم الفيزياء، فقلت فى نفسى: لماذا لا نستخدم فكرة "سهم الزمان" Arrow of time لإثبات أن معجزة إحياء الطير التى شاهدها إبراهيم عليه السلام غير مستحيلة ؟

لقد لاحظ العلماء أن الكون يتحرك دائما من النظام إلى الفوضى ، وليس العكس ، فمثلا إن وقع على الأرض كوب زجاجى مملوء بالماء كان موضوعا على المنضدة فإن الكوب ينكسر والماء ينسكب ، لكننا لم نر أبدا زجاجا مكسورا متناثرا على الأرض يتحرك من نفسه ، ويلتئم ليكون كوبا سليما ، كما لم نر ماء مسكوبا على الأرض يتجمع بنفسه ليدخل فى كوب على المنضدة. وبالمثل تقع البيضة على الأرض فتتكسر ، لكن لا يمكن لأجزاء البيضة المكسورة على الأرض أن تلتئم وتكون بيضة سليمة مرة أخرى من تلقاء نفسها. وإذا وضعنا كمية من القهوة على نصف كوب من اللبن فسيمتزجان تماما ، ويصبح لدينا كوب من القهوة باللبن ، لكن لم يحدث أبدا أن وجدنا القهوة الممزوجة باللبن تتخذ شكلا منتظما ، فتنفصل من تلقاء نفسها إلى طبقة عليا من اللبن الخالص فوق طبق سفلى من القهوة الخالصة ، كما لم يحدث أن قفز اللبن وطارت القهوة إلى خارج الكوب ليعود كل منهما إلى الإناء الأصلى الذى كان موجودا فيه فى البداية. وكذلك ستجد أن أسطوانة الغاز فى المنزل إن حدث بها خلل فإن الغاز يتسرب منها إلى جميع جهات

المنزل ، لكننا لم نر من قبل منزلا تملؤه رائحة الغاز ، وفجأة تتجمع كل ذرات الغاز مع بعضها لتدخل مرة أخرى إلى أسطوانة الغاز وتملأها بعد أن فرغت. وبالمثل سنجد أن الحرارة – فى فصل الشتاء– تنتقل من المدفئة لكل الأماكن المحيطة بها ، فتقوم بتدفئة الغرفة كلها ، لكن لم يحدث أبدا أن تجمعت الحرارة من جميع أرجاء الغرفة الحارة فى فصل الصيف لتتركز كلها فى المدفئة غير المتصلة بالكهرباء ، فيشعر السكان بأن الغرفة قد بردت.

والشىء المشترك بين كل هذه الأمثلة هو أن الأشياء تميل إلى الانتقال من حالة النظام إلى حالة الفوضى ، فالكوب الزجاجى السليم يمثل حالة نظام ، أما الكوب المكسور فيمثل حالة الفوضى. وكذلك الغاز المحبوس داخل الأسطوانة يمثل حالة نظام لأنه تجميع لكل جزيئات الغاز فى مكان واحد ، لكن تسرب الغاز يمثل حالة فوضى لأن الجزيئات تتشتت بشكل عشوائى فى كل مكان.

وهذه الملاحظة صاغها العلماء فى واحد من أشهر قوانين العلم ألا وهو "القانون الثانى للديناميكا الحرارية" والذى ينص على أن الفوضى تتزايد مع مرور الزمن أو تبقى ثابتة ، لكنها لا يمكن أن تقل فى النظام المغلق[87]. والمصطلح العلمى الدقيق الذى يناظر كلمة "الفوضى" هو "الإنتروبيا" Entropy. والإنتروبيا تعَرف على أنها مقياس للفوضى والاضطراب فى نظام ما من الأنظمة[88].

ويعتقد كثير من العلماء أن تزايد الإنتروبيا هو ما يفسر سهم الزمان ، ويقصد بسهم الزمان ما نلاحظه من حركة الزمان فى اتجاه واحد من الماضى إلى المستقبل (وليس العكس) مع أن قوانين الطبيعة الأساسية التى تحكم حركات الجسيمات الدقيقة لا تفرق بين الماضى والمستقبل ، بمعنى أن هذه القوانين تعمل بشكل متساوى للأمام وللخلف فى الزمان ، أى أنها متماثلة فى الزمان. وليس هذا فقط ، فقوانين نيوتن للحركة ، وقوانين النسبية هى الأخرى متماثلة بالنسبة للزمن. ويمكن القول أن كل القوانين فى الكون متماثلة بالنسبة للزمان باستثناء القانون الثانى للديناميكا الحرارية.

[87]) النظام System هو مجموعة من الوحدات التى تتفاعل معا لتحقيق غرض واحد. والنظام المغلق Closed system هو نظام لا يسمح بانتقال المادة منه أو إليه ، لكنه قد يسمح بتبادل الطاقة مع ما حوله. ومن أمثلة الأنظمة المغلقة طبق الشوربة المغطى ، فهذ الطبق يمنع خروج بخار الماء لكنه يسمح بخروج الطاقة (الحرارة). أما النظام المفتوح فهو يسمح بدخول الطاقة والمادة منه وإليه.

[88]) تعرف الإنتروبيا بشكل أكثر تحديدا على أنها عدد الحالات الصغرى Microstates المختلفة التى تقابل نفس الحالة الكبرى Macrostate (وبطريقة فنية أكثر: هى لوغاريتم هذا العدد)

وإذا نظرنا لطائر معين تم ذبحه وتقطيعه إلى خمسة أجزاء كل جزء منها على جبل مختلف لوجدنا أن هذا يعبر عن القانون الثانى للديناميكا الحرارية لأن الطائر السليم كان فى حالة أكثر نظاما ثم أصبح بعد تقطيعه فى حالة أكثر فوضى ، فالتجمع أو التكتل يمثل النظام ، أما التناثر أو التبعثر فيمثل الفوضى. ولم يحدث أبدا أن رأى أحد العكس ، أى أننا لم نرى أعضاء طائر مذبوح تتحرك وتقترب من بعضها وتلتحم معا لتعيد تكوين طائر حى سليم. وهنا يقول العلماء أن سهم الزمان لا يتجه من المستقبل إلى الماضى (أى أن الزمان لا يرجع للخلف) لأن القانون الثانى للديناميكا الحرارية يمنع تحول الفوضى إلى النظام.

ولكن هل معنى ذلك إذن أن القانون الثانى للديناميكا الحرارية يجعل من المستحيل أن تلتئم أعضاء الطائر مرة أخرى بعد ذبحه وتفريقه؟ طبعا سيندفع الملحد الجاهل قائلا: هذا مستحيل.

ونحن نرجو من هذا الملحد المسكين أن يتمهل قليلا لأن موقفه ينم عن سطحية شديدة فى فهم القانون الثانى للديناميكا الحرارية ، لكن كبار علماء الفيزياء لما تساءلوا: هل من المستحيل أن تتحرك قطع الزجاج المكسور وحدها ، وتلتحم لتعيد إنتاج كوب سليم؟ هل من المستحيل أم يتحول الأومليت إلى بيضة سليمة؟ **كانت إجابتهم أن هذا ليس مستحيلا ، ولكنه بعيد الاحتمال بدرجة كبيرة جدا**. نكرر: هذا الكلام لا خلاف عليه. والعلماء يؤكدون أنه فيما يتعلق باختلاط القهوة باللبن على سبيل المثال فليس من المستحيل أن تتحرك كل جزئيات اللبن فى نفس الوقت إلى الجانب العلوى من الكوب بينما تتحرك كل جزيئات القهوة معا إلى الجانب السفلى منه بشكل تلقائى. يقول العالم المشهور سين كارول Sean M. Carroll عن ذلك:

> (بالرغم من أنه <u>**من الممكن فيزيائيا**</u> **لكل جزيئات اللبن أن تتآمر تلقائيا كى ترتب نفسها واحدا بجوار الآخر** إلا أن هذا غير محتمل بشكل كبير جدا ، فإن أنت انتظرت لكى يحدث هذا من تلقاء نفسه من خلال التحول العشوائى للجزيئات فسيكون عليك أن تنتظر أطول كثيرا من العمر الحالى للكون المنظور.[89])

وفى موضع آخر يقول سين كارول:

---

[89]) **The cosmic origins of time’s arrow**. By Sean M. Carroll. Scientific American, June 2008. Page 48.

(تخيل أنك تسير فى الشارع ، وفى جانب الطريق لاحظت بيضة مكسورة منذ وقت قليل..... إن من غير المحتمل أنها ستعيد تجميع نفسها تلقائيا لتكوين بيضة سليمة ، **ولكن – إن شئنا الدقة– فإن هذا من ضمن الاحتمالات.)**[90]

ويكمل سين كارول بعد قليل:

فكر فى الغواص الذى يقفز فى حوض السباحة محدث صوتا عند الارتطام بالماء: إن صوت الارتطام بالماء يأتى دائما بعد الغوص. **ومع ذلك فطبقا لقوانين الفيزياء الميكروسكوبية** **من الممكن** **ترتيب كل الجزيئات فى الماء (وفى الهواء المحيط بحوض السابحة الذى من خلاله ينتقل صوت الارتطام بالماء) لكى تقوم بدقة بعكس صوت الارتطام بالماء unsplash ، والقذف بالغواص من حوض السباحة**. ولكن يحدث هذا فإنه يتطلب اختيارا دقيقا بشكل لا يمكن تخيله لموضع وسرعة كل ذرة من هذه الذرات. إن التقطت شكلا عشوائيا للارتطام بالماء فإنه **تقريبا** (لاحظ أنه يقول: "تقريبا" وليس "مطلقا") لا توجد فرصة لأن تقوم القوى الميكروسكوبية العاملة بالتآمر بشكل صحيح للفظ الغواص إلى خارج الماء[91].

وإذا ذهبنا للعالم الشهير روجر بنروز لوجدناه يَنْفذ كعادته إلى قلب المشكلة:[92]:

[تخيل كوبا من الماء موضوعا على حافة منضدة. إن دُفع الكوب فمن المحتمل أن يسقط على الأرض ليتهشم بلا شك لقطع كثيرة ، وتتناثر المياه على مساحة كبيرة ، وربما تمتص فى السجادة أو تسقط بين الشقوق فى الأرض. وهنا نجد أن كوب الماء كان يتبع بدقة معادلات الفيزياء ليس إلا. توصيفات نيوتن ستفعل ذلك. إن الذرات فى الكوب الزجاجى وفى الماء يخضع كل منها لقوانين نيوتن. **والآن دعنا نجرى هذه الصورة فى الاتجاه المعاكس: بواسطة انعكاس الزمان فى هذه القوانين فإن من الممكن للمياه بشكل متساوى أن تتدفق خارجة من السجادة ومن الشقوق فى الأرضية**

---

[90]) **From eternity to here.** By Sean Carroll. Chapter 2: The heavy hand of entropy. Page: 28-48. Oneworld publications, Oxford, England, 2010.

[91]) **From eternity to here.** By Sean Carroll. Chapter 2: The heavy hand of entropy. Page: 28-48.

[92]) **The emperor's new mind**. By Roger Penrose. The inexorable increase of entropy: Page 394.

لتدخل كوبا منشغلا ببناء نفسه من قطع كثيرة مهشمة ، ثم يقوم الكوب المتجمع بالقفز من الأرض بالضبط لارتفاع المنضدة ، ليستقر متزنا على حافتها ، وكل هذا أيضا وفقا لقوانين نيوتن ، تماما مثلما كان الكوب الساقط المتهشم. وربما يتساءل القارىء من أين أتت الطاقة التى رفعت الزجاج من الأرض للمنضدة؟ ليست هذه مشكلة. لا يمكن وجود مشكلة بخصوص الطاقة لأنه فى الموقف الذى يسقط فيه الكوب من المنضدة فإن الطاقة التى يكتسبها من السقوط يجب أن تذهب إلى مكان ما. وفى الحقيقة فإن طاقة الكوب الساقط تتحول لحرارة. والذرات فى شظايا الزجاج وفى الماء وفى السجادة والأرضية ستكون متحركة هنا وهناك بطريقة عشوائية أسرع قليلا مما كانت فى لحظة ارتطام الكوب بالأرض أى أن شظايا الكوب والماء والسجادة والأرضية ستكون فقط أسخن قليلا من ذى قبل. وبواسطة حفظ الطاقة فإن هذه الطاقة الحرارية مساوية بالضبط للطاقة التى فقدها كوب الماء أثناء سقوطه من المنضدة. وعلى ذلك فإن قدرا قليلا من الطاقة الحرارية سيكون كافيا بالضبط لرفع الكوب الزجاجى من الأرض مرة أخرى للمنضدة. ومن المهم أن ندرك أن الطاقة الحرارية يجب أن تُضمن حين نأخذ فى الاعتبار حفظ الطاقة. إن قانون حفظ الطاقة – حين تؤخذ الطاقة الحرارية فى الاعتبار –يسمى القانون الأول للديناميكا الحرارية. والقانون الأول للديناميكا الحرارية– بوصفة استنتاجا من ميكانيكا نيوتن– يعد متماثلا بالنسبة للزمن. **إن القانون الأول لا يقيد الكوب ولا الماء بأي طريقة تحول دون أن تجمع نفسها وتمتلىء بالماء وتقفز للخلف بطريقة معجزة على المنضدة.** والسبب فى أننا لا نرى مثل هذه الأشياء تحدث أن الحركة الحرارية للذرات فى قطع الزجاج والماء والأرضية والسجادة ستكون كلها فوضوية ، ولذلك ستكون أغلب الذرات متحركة فى كل الاتجاهات الخاطئة. وسيكون هناك حاجة لتنسيق دقيق بشكل عبثى فى تحركاتهم من أجل إعادة تجميع الكوب – بكل الماء المسكوب متجمعا مرة أخرى داخله – وقذفه بلطف على المنضدة. إن من قبيل اليقين الفعال أن مثل هذه الحركة المتناسقة لن تكون موجودة**!]**

ويقول جاكوب آرون:

[لقد بين العالم بوانكاريه Poincar´e من قبل أن "أى نظام ميكانيكى محدود يخضع لقوانين الميكانيكا الكلاسيكية سيعود بشكل عشوائى قريبا من حالته الأولى....**بشرط أن ننتظر طويلا بما فيه الكفاية". وهذا يعنى أنه بفرض وجود وقت كاف جدا جدا فإن من الممكن لكل جزيئات الغاز أن تعود فقط لجانب واحد من الصندوق**....... ومع ذلك فإننا لا نلاحظ هذا السلوك أبدا على أرض الواقع. والسبب فى هذا أن "وقت التكرار" (الوقت الذى يستغرقه النظام للعودة لحالته الأول) حتى لكمية قليلة من الغاز ، هذا الوقت كبير للغاية إلى درجة أنه أطول من عمر الكون][93]

ومن أشد ما أدهشنى أن أقرأ كلاما للملحد الشهير فيكتور جى. ستينجر يقول فيه بالنص أن قوانين الفيزياء لا تحول دون إحياء الميت. فلنقرأ هذا الاعتراف المثير :

لا شيء فى الفيزياء الأساسية يحول دون انتهاك القانون الثانى للديناميكا الحرارية. لا يوجد مبدأ ميكانيكى يمنع تفريغ الهواء من حجرة حين تفتح الباب ، فيموت كل شخص فى الداخل. **الفيزياء لا تمنع الإنسان من أن ينمو لسن أصغر** أو **تمنع الميت من أن يقوم حيا!** كل ما يجب أن يحدث من أجل هذه الأحداث المعجزة هو أن تتحرك الجزيئات بالمصادفة فى الاتجاه الصحيح واللحظة الصحيحة. طبعا هذه المعجزات لا يلاحَظ حدوثها إلا فى الخيال لكن **فقط لأنها بعيدة الاحتمال بشكل كبير جدا**. إننا ندخل القانون الثانى لتقنين كل ما تشهد به تجربتنا البشرية من أن الهواء لا يُفرَّغ من الغرفة ، وأن الناس لا تنمو لسن أصغر ، **وأن الموتى لا يقومون. بيد أن هذه الأحداث ليست مستحيلة ، هى فقط بعيدة الاحتمال بدرجة كبيرة**[94].

وهكذا تجد أنه ليس مستحيلا من وجهة نظر العلم أن تنقلب الأحداث ، وكأننا ندير شريط فيلم سينيمائى للوراء. وكل ما فى الأمر أن هذا شيء بعيد الاحتمال بدرجة كبيرة جدا. وعلينا أن

---

[93]) **The arrow of time**. By Jacob Aron, January 29, 2007, https://pdfs.semanticscholar.org/b557/0523667f54fa91b5176804a8334a64fae041.pdf

[94]) **Intelligent Design: Humans, Cockroaches, and the Laws of Physics**. By Victor J. Stenger. Preprint of a paper submitted to Creation/Evolution. 1997. http://www.talkorigins.org/faqs/cosmo.html
وهذا الكلام يقوله رجل ملحد للرد على فكرة إثبات الألوهية استنادا لوجود قوانين الطبيعة. هذا الرجل أحمق. إنه يقول لنا أن قوانين الكون لا تثبت وجود إله لأنها ليست قوانين بمعنى أنها قابلة لأن تتعطل فى بعض الأحيان. بيد أنه لا يقدم لنا تفسيرا لكون الأحداث فى الكون فى الغالبية العظمى من الحالات تسير وفق نظام معين. إنه يصمت تماما. بفرض أنه لا يوجد انتظام بنسبة مائة فى المائة فى الكون ولكن فقط بنسبة 99.99999999% فما تفسير هذا الانتظام شبه الكامل الذى يخالف قوانين المصادفة؟ لا أقول أن ستينجر ينظر للنصف الفارغ من الكوب ولكنه ينظر إلى "الواحد على بليون" الفارغ من الكوب !

نلاحظ شيئا فى غاية الأهمية ، وهو أن بعد الاحتمال المشار إليه سببه أن الأشياء إن تركت لنفسها فإن من النادر أن تتغير تلقائيا إلى حالة أكثر نظاما. لكن إن تدخلت إرادة لتحدث التغيير فسينشأ النظام من الفوضى. فمثلا من الممكن خلط برادة الحديد بالتراب ، ومن الصعب جدا أن ينفصل الاثنان وحدهما ، لكن من السهل جدا أن نفصلهما باستخدام مغناطيس لأن المغناطيس يجذب برادة الحديد.

إن الدرس الأعظم الذى لم يتعلمه كبار علماء الفيزياء فى العالم من القانون الثانى للديناميكا الحرارية هو أن النظام لا ينشأ بالمصادفة من خلال التكرار العشوائى للمحاولات ، وأن الترتيب والأناقة لا بد لها من قوة مدبرة ، وأن الأمور إن تركت لخصائصها الذاتية لما وُجد هذا الكون البديع. إن القانون الثانى للديناميكا الحرارية دليل صارخ على وجود الله. وليس هذا مضوعنا الآن.

إن القانون الثانى للديناميكا الحرارية ذو طبيعة إحصائية ، ولذا فهو لا يحول بين المرء وبين الإيمان بمعجزة إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام. كل ما يقوله القانون الثانى أن هذا شىء بعيد الاحتمال بدرجة كبيرة جدا ، لكنه غير مستحيل. والتئام الأشياء المكسورة أمر شديد الصعوبة فقط إن تركنا الأشياء لتتغير من تلقاء نفسها ، لكن إن وجدت قوة ما تؤثر على مثل هذه الأنظمة المغلقة فإن من السهل عليها أن تغير الأشياء ، وتحقق الأمور بعيدة المنال. والآن من السهل جدا أن نقول أن قوة الله تعالى أمرت الجزيئات والذرات المكونة لأجساد الطيور أن تتحرك فى الاتجاه المطلوب والوقت المطلوب ، لتتجمع معا لتعيد تكوين أجساد الطيور مرة أخرى بشكل سليم تماما.

لقد كان الملحد المغرور ينفجر ضاحكا بمجرد سماعه لقصة إبراهيم ، ويقول: "هذا مستحيل". ولكن ها نحن أولاء قد رأينا كيف أن هذه المعجزة لا تدخل فى باب المستحيل من وجهة نظر العلم. كل ما عليك أن تؤمن بأن الذرات تحركت بتنسيق شديد فى اتجاه محدد بأمر قوة ما ، وهذه القوة هى قوة الله. ولن أتطرق الآن لمسألة وجود الله ، فهدفنا هنا فقط هو إثبات أنه ليس من المستحيل علميا إحياء الطير. هل أدركتم حجم الجهل الذى يعيش فيه الملحد.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

عصا موسى

من أكثر المعجزات التى ذكرت فى القرآن معجزة تحول عصا موسى عليه السلام إلى ثعبان ، قال تعالى: {فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ } [الشعراء: 32]. وهنا يضحك الملحد ، ويتساءل: كيف تتحول العصا إلى ثعبان؟ هذه القصص الساذجة لا تصلح إلا للأطفال ، ولا مكان لها فى عصر العلم.

ونحن نقول أن تحول العصا إلى ثعبان يتطلب ما يلى:

أولا: إفناء العصا.

ثانيا خلق جسد الثعبان.

ثالثا: نفخ الروح فى الثعبان.

وفناء العصا أمر غير مستحيل ، فالعصا تتكون من الخشب ، والخشب مكون من جزيئات وذرات ، والذرات كما قلنا من قبل – طبقا لنظرية الكم– ليس لها موضع محدد ، وهناك دائما احتمال لأن تتواجد فى أى مكان فى الكون فى لمح البصر. ولذا فمن الممكن أن تختفى العصا فى لمح البصر ، وذلك بأن تتشتت ذراتها وتتبعثر فى جميع الاتجاهات وتذهب بعيدا فى نفس اللحظة فى شتى أرجاء الكون، فلا تعود العين قادرة على أن ترى العصا.

هذا عن إفناء العصا ، ولكن كيف يتكون جسد الثعبان؟

الخلق من أخص خصائص الله ، ومن الممكن للإله الذى سبق أن خلق الكون – بما يتضمنه من تريليونات الذرات– والكائنات الحية من العدم أن يخلق جزيئات وذرات جديدة لتكون جسد الثعبان الصغير. ومن الممكن أيضا أن يأتى الله تعالى بالذرات المكونة لجسد الثعبان من مختلف أنحاء الأرض ، فجسد الثعبان – وأجساد الكائنات الحية عموما– تتكون من نفس ذرات العناصر الموجودة فى الأرض مثل الكربون والهيدروجين والأكسجين والفوسفور والصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنيسيوم والنيتروجين والحديد والنحاس والزنك وغيرها. وليس من المستحيل– طبقا لنظرية الكم– أن تنتقل هذه الذرات إلى نفس الموضع بالترتيب اللازم لتكوين جسد الثعبان.

وحتى بدون نظرية الكم فمن الممكن لله تعالى أن يجعل الهواء يحمل الجزيئات والذرات المكونة لجسم الثعبان من أماكن متفرقة فى الأرض لتجتمع فى مكان واحد بطريقة خاصة[95] تكون جسد الثعبان ، فمثلا يمكن لجزيئات الماء أن تأتى من النهر ، ويمكن لذرات الكربون أن تأتى من الفحم ، ويمكن للصوديوم أن يتطاير من أطباق الملح فى البيوت ، ويمكن للبوتاسيوم أن يأتى من ثمرات الفاكهة ، أما ذرات الأكسجين والهيدروجين والنيتروجين (التى تكون 76% من كتلة الجسم) فموجودة بالفعل فى الجو. وطبعا الهواء لا يستطيع حمل هذه الجزيئات بهذه الطريقة المنظمة الدقيقة من تلقاء نفسه بل لا بد من تدخل قوة خارجية هى قوة الله. وهذا يوضح أن قوانين الطبيعة لا تمنع حدوث المعجزات طالما وجدت قوة توجه وتخطط. المعجزات تصبح مستحيلة فقط إن غابت قوة مريدة مخططة قادرة عالمة.

وبعد تكون الجسد فمن السهل أن ينفخ فيه الله الروح. وإذا كان الملحد لا يعترف بوجود الروح فما قلناه يكفى ، فقد أثبتنا له أن من الممكن علميا تكون جسد الثعبان فى لمح البصر ، وبهذا نكون قد أنهينا مهمتنا بنجاح والحمد لله.

يقول كيرك مكديرميد عن معجزة مسيحية مشابهة (وإن كانت أقل إبهارا من معجزة عصا موسى) هى تحويل المسيح الماء لخمر:

> "من الممكن أن نستغل علاقات عدم اليقين لهايزنبرج لكى نقوم بالنقل الفورى الكمى البعيد لكوب كامل من الخمر فى كوب الماء ، ونقل الماء فوريا للخارج".

والكاتب يقصد أن ذرات الخمر الموجودة فى أى بيت بعيد يمكن أن تنتقل فورا للمكان الذى يتواجد فيه المسيح وتدخل فى الكوب فى نفس الوقت الذى تتحرك فيه ذرات الماء تاركة الكوب ، فتكون النتيجة التى يراها الناس هى تحول الماء للخمر. وبصرف النظر عن صحة هذه المعجزة التى تنسب لعيسى عليه السلام فى الأناجيل إلا أن التشابه بينها وبين تحويل العصا لثعبان واضح ، والعلم يسمح بحدوث الاثنين.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنتهدى لولا أن هدانا الله.

---

[95]) استلهمنا الفكرة العامة لهذه الآلية من مقال:

Miracles: metaphysics, physics, and physicalism. By: Kirk McDermid**.**

عيون موسى

تاه بنو إسرائيل فى الصحراء ، وكادوا يهلكون من العطش ، فأمر الله تعالى نبيه موسى بأن يضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرةِ عينا فى الحال ، واحدة لكل بطن من بطون بنى إسرائيل: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [البقرة: 60]

ونبى الله أيوب حدث له شىء مماثل ، فقد ابتلى بمرض مزمن ، ولما سأل الله الشفاء ، أمره ربه أن يضرب الأرض برجله ، فنبع الماء من تحتها ، فاغتسل منه أيوب وشفى من دائه: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} [ص: 41، 42]

وهذان الحدثان الخارقان أقرب إلى الكرامات منهما إلى المعجزات (الآيات المادية) لأنهما لم يقصد بهما التحدى ، بل كانا منة من الله تعالى وفضلا على بعض خلقه. وهذان الحدثان لهما طابع خاص آخر مختلف ، فكل منهما لا يمثل ظاهرة عجيبة لم يُر مثلها من قبل كشق البحر أو رفع الجبل أو الإسراء والمعراج ، ولكن نحن هنا أمام نبع للماء من باطن الأرض ، وهذه ظاهرة طبيعية معروفة ، فكلنا نعرف عيون الماء Springs التى تتدفق منها المياه الجوفية دون أن يحفر الناس فى الأرض ، وهى موجودة فى جميع أنحاء العالم. وهناك نوع من الآبار يسمى الآبار الارتوازية Artesian wells ، وهى آبار يتدفق منها الماء من تحت الأرض تلقائيا دون حاجة لرفعها من البئر، وذلك لأن الماء يكون مخزنا فى باطن الأرض بين صخور غير منفذة ، بما يجعله تحت ضغط عال جدا ، فتضطر المياة للاندفاع إلى الخارج تلقائيا بمجرد وجود فتحة على سطح الأرض[96]. وعلى ذلك **فالعجيب فى أمر هاتين المعجزتين ليس خروج الماء من الأرض بل خروجه بواسطة سبب غير متوقع هو ضربة خفيفة بالقدم أو العصا.**

---

[96]) **Artesian wells**. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/topic/artesian-well; accessed on 25/8/2019

ولكى ينبع الماء فى حالة موسى وأيوب عليهما السلام فيجب حدوث أمرين: أن يزداد ضغط المياه الجوفية تحت الأرض ، وأن تحدث تشققات فى الأرض ، وذلك كما يلى:

أولا: من الممكن لضغط الماء تحت الأرض أن يزداد نتيجة تحرك مفاجىء للمياه الجوفية من خلال أنهار أو كهوف تحت الأرض ، أو – وهذا هو الغالب– من خلال الصخور المنفذة ذات المسام (مثل الحجر الجيرى والحجر الرملى) التى تشبه الإسفنج المشبع بالماء ، لتتراكم المياه فى تجمعات محاطة بصخور غير منفذة فيرتفع الضغط وتنفجر الينابيع. ومن الممكن لله تعالى بسهولة أن يأمر الماء فيتحرك من جميع الجهات من مناطق بعيدة ليتراكم فى المنطقة التى يتواجد فيها بنو إسرائيل ، ليخرج إليهم على شكل عيون. **وحركة الماء يمكن أن تحدث بنفس الآلية التى شرحنا بها انشقاق البحر لبنى إسرائيل حيث يمكن لجزيئات الماء أن تتحرك كلها فى نفس الاتجاه فى نفس الوقت بطريقة متناسقة** ، كما أن فيزياء الكم لا تمنع تواجد ذرات الماء فى أى مكان فى أى لحظة.

ثانيا: حدوث التشققات: ليس من المستحيل علميا أن تتشقق الحجارة وحدها بشكل طبيعى دون حفر أو ضربة من فأس. فى الموسوعة البريطانية مقال[97] عن الصدوع Fault ، يخبرنا أنها كسور مستوية أو منحنية فى صخور القشرة الأرضية بسبب قوى الضغط والتوتر التى تسبب إزاحة نسبية للصخور على الجانبين المتقابلين للكسر. وهذه الصدوع يتراوح طولها من سنتيمترات عديدة إلى مئات الكيلومترات ، ويبلغ عرضها نفس المدى أيضا. وقد تكون الصدوع أفقية أو رأسية أو مائلة. وحركة الصخور عبر الصدع قد تتم بشكل زحف تدريجى متصل أو تتخذ شكل قفزات أو تقلصات مفاجأة لأمتار قليلة خلال ثوان معدودة. **وعلى ذلك فمن الشائع للصدوع أن تحدث فى القشرة الأرضية تلقائيا دون حاجة لأن نحفر الأرض أو نشقها بقوة الفئوس والآلات.**

لكن كيف يمكن لضربة من عصا أن تحدث شقا فى الأرض؟ ونحن نقول: ربما أحدث الله تغيرا فى قوى الضغط والتوتر فى الصخور فانشقت الأرض تزامنا مع ضربة العصا ، فبدا للناس وكأن العصا هى التى أحدثت الشق.

---

97) **Fault.** Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/science/fault-geology; accessed on 25/8/2019

إن من الممكن لله عز وجل أن يُحدث تصدعات فى الأرض بسهولة ، فمن المتصور أن الإله يمتلك قوى غير تلك التى نألفها ، وقد سبق أن تكلمنا فى موضع آخر من هذا الكتاب عن طرح كثير من العلماء لاحتمال وجود قوة خامسة غير القوى الطبيعية الأساسية الأربع المعروفة ، إضافة إلى الأشكال المختلفة للقوى الطبيعية غير الأساسية. كما يمكن للصخور أن تتشقق بأن يحدث الله تعالى فى نصف جزيئات منطقة منها حركة مفاجئة فى اتجاه اليمين مثلا ، ويحدث فى نفس الوقت حركة مفاجئة للنصف الآخر من الجزيئات فى اتجاه اليسار ، فينشأ عن ذلك شق فى الصخر ينبع منه الماء. وتحرك جزيئات الصخر ليس أمرا مستحيلا من وجهة نظر العلم ، فالمواد الصلبة تتكون من جزيئات وذرات مثلها مثل المواد السائلة والغازية ، وهذه الجزيئات تتحرك ، والفرق بين الصخرة الصلبة والسائل هو أن جزيئات الماء تتحرك بدرجة أكبر منتقلة من مكان لمكان ، بينما جزيئات الصخرة تهتز وتتذبذب وهى فى مكانها ، ولكن إن حدث أن زادت حركة الجزيئات فى المادة الصلبة (من خلال ارتفاع درجة الحراة مثلا) ، فستتغلب هذه الحركة على قوى الجذب بينها Intermolecular force ، فتتحول المادة الصلبة لمادة سائلة أو غازية. وزيادة حركة جزيئات الجسم الصلب تتم –كما قلنا– بواسطة التسخين إلى درجة تسمى درجة الانصهار ، وهذا هو ما يحدث مثلا للثلج حين يتعرض للشمس ، كما يحدث للحديد وغيره من المعادن بالتسخين الشديد. والصخور أيضا تتعرض للانصهار إن ارتفعت حرارتها. ومن العوامل التى تساعد على انصهار الصخور انخفاض الضغط Decompression ، ووجود بعض المواد مثل الماء وثانى أكسيد الكربون. وعلى ذلك **فليس من المستحيل علميا أن ينصهر جزء من الصخر فى منطقة ما من الأرض ، فيتدفق الماء.**

وحتى بصرف النظر عن حركة جزيئات الصخرة **فيمكن لفيزياء الكم** أن تفسر لنا الظاهرة السابقة ، حيث يمكن للذرات أن تتواجد كما قلنا فى أى مكان فى الكون فى أى لحظة ، ولو شاء الله لجعل بعضها يتواجد فى اليمين وبعضها الآخر يتواجد فى اليسار فى نفس اللحظة ، فيحدث الشق.

****

وبعد ، فنحن ندعو من يسخر من قدرة عصا موسى أو قدم أيوب على "**تفجير**" الماء أن يتروى قليلا ، فمن الممكن الآن لرئيس دولة عظمى أن "**يفجر**" نصف الكرة الأرضية **بمجرد الضغط على زر واحد بأصبعه الصغير** ، فتنطلق آلاف من الرءوس النووية التى تنسف كل شيء. وقد نقلت لنا الصحف يوما أن حربا كلامية دارت بين الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، ونظيره الكوري الشمالي كيم جونج أون، حول "الزر النووي" الذى يستخدمه الرؤساء لإعطاء الأوامر بشن هجوم نووى. وكان كيم جونج أون قد قال في خطاب شعبي أن بلاده "لا يمكنها التخلي عن برنامجها النووي والصاروخي، وأن الزر النووي موجود دائما على طاولة مكتبه." **و**هذا القول دفع ترامب إلى الرد عبر حسابه على "تويتر" بالتساؤل "هل بلّغه أحد ممن في نظامه المتهالك والمتضور جوعا بأن لديَّ أيضا زرا نوويا أكبر بكثير وأكثر قوة.[98]" وفى صحيفة واشنطون بوست ورد مقال مطول عن مخاوف الساسة الأمريكيين من احتمال تهور الرئيس ترامب ، وإقدامه على شن هجوم نووى وهو جالس فى مكتبه دون الرجوع حتى لوزير دفاعه[99].

أنت ترى إذن أن رئيسا مجنونا يمكن أن يمحو بلادا كاملة من على الخريطة بضغطة صغيرة من أصبعه على أحد الأزرار؟ لقد كان الزر فى هذه الحالة هو الخطوة الأولى التى بدأت سلسلة من الخطوات التى أدت لحدث فى غاية الضخامة ، **وكثيرا ما يقال أن معظم النار من مستصغر الشرر**. وبالمثل من السهل تصديق أن عصا موسى الصغيرة أحدثت عملا غير متوقع مثل تصدع الحجر ، وتفجر الماء. وهل الله عز وجل أقل شأنا من الرئيس الأمريكى؟

ومن الممكن أن نقول بشكل عام **أننا نعيش اليوم فى عصر "الأزرار"** ، **فقد نجح العلم الحديث فى خلق منظومات صناعية ضخمة يديرها الإنسان بمجرد الضغط على الأزرار** ، فعلى سبيل المثال أصبح من الممكن رفع عشرات الأطنان من البضائع بمجرد الضغط على أحد أزرار آلة الرفع (الونش) ، بينما كان الأمر فى الماضى يتطلب مئات العمال لرفع نفس الأثقال. وأصبح

---

[98]) **بعد الحرب الكلامية.. هكذا يتمكن الرئيس الأمريكي من إطلاق الصواريخ النووية**. جريدة الوطن. الأحد 7 يناير 2018. https://www.elwatannews.com/news/details/2930606.

[99]) **Trump can launch nuclear weapons whenever he wants, with or without Mattis.** No defense secretary can stop an impulsive president. By Bruce Blair and Jon Wolfsthal. *The Washington post.* Dec. 23, 2018;

من الممكن لمئات البشر الذى يحملون أطنانا من الأمتعة والبضائع أن يطيروا فى الهواء عبر آلاف الأميال بمجرد ضغط قائد الطائرة على بعض الأزرار.

ولا أتصور أن أحدا بيننا الآن يمكن أن يندهش من قدرة الأزرار على تنفيذ مثل تلك المهام الجسام إلا إذا كان هذا الشخص رجلا قد بعث من قبره ليخر مغشيا عليه من هول ما يرى ، وهنا **سنموت كلنا من الضحك على هذا الرجل البدائى الساذج الذى لا يصدق أن بإمكان الأزرار أن تنجز هذه المهام الضخمة**. فلماذا يصر الملحد على السخرية من قدرة النبى على تفجير الماء بضربة عصا أو قدم؟ يؤسفنى أن أؤكد لكم أن الإلحاد يمثل طفولة فكرية ، وغيبوبة علمية. لقد هبط الإلحاد علينا من الكهوف.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله رب العالمين.

كشف لغز "السِّجيل"

يخبرنا القرآن أن الله تعالى أرسل طيرا أبابيل (أبابيل= جماعات) على جيش أبرهة ، فألقت عليهم حجارة ، فأهلكتهم عن آخرهم. وهنا يفغر الملحد فاه مستنكرا تصديق المسلم لهذه الأكاذيب والخرافات. وحتى بعض المسلمين حاولوا تأويل المعجزة ، قائلين أن الحجارة كانت تؤدى إلى الإصابة بمرض الجُدرى[100]. وهو كلام لا يستند لقرآن ، ولا لسُنة ، ولا لتاريخ.

ولا أدرى ما الداعى لإنكار هذه الواقعة؟

هل من العجيب أن يرى الناس طيرا غريبة تحلق فى السماء؟ لا ، لأن الإله الذى خلق ملايين الأنواع الحية لن يكون من الصعب عليه أن يخلق طيورا من نوع جديد. والعلماء أصبحوا فى هذا العصر يتلاعبون فى جينات النباتات والحيوانات بحيث يكسبونها خصائص جديدة لم تكن موجودة فى أسلافها، ومن قبيل ذلك إنتاج نوع من القمح ، يقوم بإنتاج بروتين قاتل للحشرات ، وكذلك إنتاج نوع من الأرز غنى بفيتامين أ. فهل يعجز الله تعالى عن صنع شىء شبيه بما يفعله العلماء هذه الأيام؟ إذن الطير الأبابيل لا تمثل قط مأزقا علميا للمؤمن. وربما كانت الطير الأبابيل مجرد طيور قديمة ، لكنها أتت من جزيرة نائية أو غابة استوائية لم يصل إليها العرب من قبل.

وما المشكلة فى أن تحمل الطيور الحجارة؟ ألا تحمل الطيور المفترسة – كالصقر– فريستها بمخالبها، وتطير بها فى الهواء؟

وما المشكلة فى أن تلقى هذه الطيور الحجارة فى المكان الذى يحدده لها الله تعالى بالضبط؟ ألا ترون أن الحمام الزاجل يدرَّب على حمل الرسائل من بلد إلى بلد بكل دقة؟ أوليس من المشاهَد أن كثيرا من الحيوانات الأخرى لها قدر غير قليل من الذكاء الذى يستغله الإنسان لمنفعته ، كما فى حالة الكلاب والصقور التى تُدرَّب على الصيد؟

---

[100]) رَوَى عِكْرِمَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا أَرْسَلَ اللَّهُ الْحِجَارَةَ عَلَى أَصْحَابِ الْفِيلِ لَمْ يَقَعْ حَجَرٌ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا نَفِطَ جِلْدُهُ وَثَارَ بِهِ الْجُدَرِيُّ، وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. انظر: **تفسير مفاتيح الغيب** (32/ 292). تأليف فخر الدين الرازي. دار إحياء التراث العربي– بيروت. الطبعة: الثالثة - 1420 هـ.

وإذا عدنا إلى القرآن لوجدناه يسمى هذه الحجارة "حجارة من سجيل". ونفس هذه الحجارة سبق أن ألقاها الله تعالى على قوم لوط: {فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ} [الحجر: 74].

والآن نتسائل: ما هذا السجيل؟

من يقرأ كتب التفسير لا يجد قولا شافيا ، حتى أن بعض المفسرين أراحوا أنفسهم ، وتقبلوا الرأى القائل بأنها كلمة فارسية مُعَربة[101]. ولكن فى رأينا الخاص أن **(سجيل) كلمة عربية خالصة** ، وكل ما فى الأمر أنها تمثل مصطلحا جديدا نحته القرآن من أصول عربية كغيره من المصطلحات التى ابتكرها مثل "الزكاة" و"سجين" و"عليين" و"الآزفة" و"يوم التلاق" و"يوم القيامة" و"برزخ" و"النجم الثاقب"... إلخ.

وفى رأينا أن كلمة **(سجيل) تمثل صيغة مبالغة** على وزن (فِعِّيل). ونحن نقول ذلك قياسا على كلمة (صِدِّيق) التى تمثل مبالغة في الصدق أو التصديق. ومثلها أيضا كلمة (سِكّيت) ، وهى مبالغة في السكوت، وكذلك (سِكِّيرٌ)، و(شِرِّيبٌ) و(طِبِّيخٌ) مِنْ سَكِرَ وَشَرِبَ وَطَبَخَ[102]. وبالمثل كلمة (سِجِّين) –التى وردت فى سورة المطففين– وهى تشير إلى كتاب دونت فيه أعمال الفجار ، والكلمة مشتقة من السجن لأن هذا الكتاب هو سبب الحبس والتضييق على الفجار[103].

ولكن ما معنى مادة (سَجَل)؟

فى معجم لسان العرب أن السَّجْلُ هو الدَّلْو الضَّخْمَة المملوءةُ ماءً. وقيل أن السَّجْلُ يشير إلى الامتلاء نفسه. والسَّجْلُ ليس هو الدول الفارغة بل الدلو المملوأة فقط. وأَسْجَلْتُ الحوضَ أى مَلَأْتُهُ. ويقال للضَرع الطويل الواسع المتدلى الذى يضرب رجل الشاة من الخلف "ضَرع سَجيل".

---

101) اعتبر السُّبْكِيُّ كلمة سجيل من المُعَرَّب الواقع فى القرآن. وفى تفسير ابن كثير أن ابن هشام قال: وَأَمَّا السِّجِّيلُ فَأَخْبَرَنِي يُونُسُ النَّحْوِيُّ وَأَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّهُ عِنْدَ الْعَرَبِ الشَّدِيدُ الصُّلْبُ. قَالَ: وَذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُمَا كَلِمَتَانِ بِالْفَارِسِيَّةِ جَعَلَتْهُمَا الْعَرَبُ كَلِمَةً وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا هُوَ سَنْجُ وَجِلُّ يَعْنِي بِالسَّنْجِ الْحَجَرَ وَالْجِلِّ الطِّينُ. يَقُولُ الْحِجَارَةُ مِنْ هَذَيْنَ الْجِنْسَيْنِ الْحَجَرِ وَالطِّينِ. (**تفسير ابن كثير** (8/ 462)

102) ورد فى البحر المحيط فى التفسير عن كلمة "صِديق": (وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ هَذَا الْبِنَاءُ مِنْ أَبْنِيَةِ الْمُبَالَغَةِ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ مِنَ الثُّلَاثِيِّ الْمُجَرَّدِ، إِذْ بِنَاءُ هَذَا التَّرْكِيبِ مِنْهُ سِكِّيتٌ وَسِكِّيرٌ، وَشِرِّيبٌ وَطِبِّيخٌ، مِنْ سَكَتَ وَسَكِرَ، وَشَرِبَ وَطَبَخَ..... وَالْمَعْنَى: الْإِخْبَارُ عَنْهَا بِكَثْرَةِ الصِّدْقِ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ:ويحتمل أن يكون من التَّصْدِيقِ، وَبِهِ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقَ. وَلَمْ يَذْكُرِ الزَّمَخْشَرِيُّ غَيْرَ أَنَّهُ مِنَ التَّصْدِيقِ.) انظر: **البحر المحيط في التفسير** (4/ 332). تأليف أبو حيان أثير الدين الأندلسى. تحقيق: صدقى محمد جميل. دار الفكر- بيروت- 1420 هجرية.

103) **تفسير الزمخشرى ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل** (4/ 721).

وَنَاقَةٌ سَجْلاء: عَظيمة الضَّرْع. ويقال للخصية مُسْترخِيَة الصَّفَن الواسعةٌ: خُصْيَةٌ سَجِيلَة. ويبدو لنا أن كلا من الضرع والخصية سميا كذلك تشبيها لهما بالدلو الثقيل المملوء بالماء المتدلى فى البئر [104].

إذن **مادة (سجل) تحمل معنى (الامتلاء). وكلمة (سجيل)** – فى رأينا– **صيغة مبالغة** غير قياسية[105] من فعل (سجل) أو (أسجل) **للدلالة على شدة الامتلاء.**[106] ويحتوى القرآن على كثير من صيغ المبالغة غير القياسية مثل (قديس–صديق–حطمة–همزة– لمزة– كبارا– عجاب – قسيس– مسكين– قيوم).

ونحن نرى أن (سجيل) هى المادة الخام التى صنعت منها الحجارة التى عذب بها الله الناس لأن القرآن يقول: (تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ) وليس (ترميهم بسجيل) ، وذلك كقولنا: (سيف من حديد) ، و(باب من خشب) و(ثوب من قماش). وقد سميت المادة الخام بهذا الاسم لأن لها علاقة بمعنى الامتلاء، وذلك لأنها ذات كثافة كبيرة جدا ، أى **أن الحجم المعين منها مملوء للغاية بالمادة** التى حشرت وضغطت بشدة ، ولو قللنا من انضغاطها بعض الشىء ، فستشغل نفس الكمية حيزا كبيرا جدا. إن هذا يشبه ما تفعله ربة البيت حين تأخذ حفنتين من الدقيق ، وتضعهما داخل إناء ، فيمتلىء إلى حافته ، فتقوم السيدة بحمل حفنة ثالثة من الدقيق ، وتضعها فى الإناء مع الضغط ، فيدخل الدقيق كله فى نفس الحيز ، ثم تنجح فى وضع حفة رابعة فى نفس الإناء بواسطة مزيد من الضغط. ونفس الشىء نفعله مع الأشياء الخفيفة الأخرى كالملابس التى نضغطها كى تدخل فى حقيقة ضيقة. وفكرة الامتلاء التى تعبر عنها كلمة (سجيل) نقصد

---

104) والسَّجْل أيضا هو الصَّبّ. يقال: سَجَلْت الماءَ فانْسَجَلَ أَي صَبَبْته فانْصَبَّ. وسَجَلْت الماءَ سَجْلًا إِذا صَبَبْتُهُ صَبًّا متَّصلًا ، ومن قبيل هذا المعنى ما روى من أن ابن مسعود افتتح سورة النساء ، فسجلها ، أى قرأها قراءة متصلة ، فكأن تلاوته تشبه ماء قد صُب صبا. ولا خلاف جوهرى بين المعنيين فى رأينا ؛ فالعلاقة بين الملأ والصب وثيقة ، إذ أن الصب هو نزول الماء كتيار متصل ، وهذا يكون من شىء ممتلىء. إن الإناء إن كان مملوءا بالماء ، ثم ألقينا منه هذا الماء فإن الماء ينزل كتيار متصل أو ككتلة متماسكة ، أما إن كان الماء فى الدلو قليلا ، ثم ألقيناه ، فإن الماء ينزل على شكل أجزاء متقطعة ، وليس على شكل تيار متصل أو كتلة متماسكة. وفعل أسجل يأتى أيضا بمعنى أطلق ، و المُسْجَلَ هو المطلق (ضد المقيد) ، وقيل "وَلَا تُسْجِلُوا أَنعامَكم" ، أَي لَا تُطْلِقوها فِي زُروع النَّاسِ ، فهذا على ما يبدو تشبيه للانتشار العشوائى للأعداد الكثيرة للأنعام بين الزروع بسيلان الماء وتدفقه فى كافة الاتجاهات. والسِّجِلَّ هو الصَّحِيفَةُ الَّتِي فِيهَا الْكِتَابُ ، قال تعالى: (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب). وربما سميت الصحيفة التى يُكتب فيها (سجلا) لأن الحبر يسيل عليها ، فقد كان الناس فيما مضى يغمسون القلم فى الحبر ثم يكتبون به على الألواح ، وربما كان السبب أن الصحيفة تكون فى العادة مكدسة ، ومملوءة بالكلمات والأفكار المتراصة بجوار بعضها.

105) صيغ المبالغة القياسية على وزن (فَعول) و (مِفْعال) و (فَعِيل) و(فعَّال) و (فَعِل). لكن هناك صيغ مبالغة غير قياسية من الفعل غير الثلاثى مثل (مغوار) من (أغار).

106) نحن نرى أن كلمة (سجيل) يمكن أن تكون صيغة مبالغة من الفعل الثلاثى (سجل) قياسا على كون كلمة (صِدِّيق) مبالغة من الثلاثى (صدق). وقال بعض أهل اللغة أن: سِجِّيل مِن (أَسْجَل) ، ولكنهم يعتبرون أَسْجَلْ بمعنى أَرسل ، فكأَن الحجارة مُرْسَلَة عَلَيْهِمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ سِجِّيل مِنْ أَسْجَلْت إِذا أَعطيت (انظر لسان العرب).

بها امتلاء الحجم المعين من السجيل بكمية كبيرة جدا من المادة (أى بعدد كبير من الذرات) ، كما يشير الامتلاء أيضا إلى أن مادة السجيل الموجودة فى حجم معين يمكنها أن تملأ حجما أكبر إن أزليت الظروف التى سببت انضغاطها الشديد ، تماما كما يمكن للدقيق المضغوط داخل إناء صغير أن يفرغ فى إناء كبير، فيملأه هو الآخر تماما. وعلى ذلك فالسجيل مملوء بالمادة ، كما أنه يمكن أن يملأ أحجاما أكبر من المتوقع.

باختصار **الحجارة مصنوعة من مادة شديدة الكثافة ، وهذا يجعل الحجر الصغير منها شديد الثقل.**

وما يؤكد كلامنا السابق أن الحجارة التي أطلقها الله تعالى على الكفار أدت إلى هلاكهم عن آخرهم بشكل مريع ، وهذا يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الحجارة كانت من طبيعة غريبة ، فالحجارة المعروفة لا تقتل فى التو ، وإن قتلت من خلال إحداث الجراح ، فسيكون القتل بطيئا بعد فترة طويلة من النزيف والألم ، وستكون هناك فرصة للفرار والاختباء داخل البيوت. ومما يؤكد الطبيعة الغريبة لحجارة السجيل وصفُ القرآن لها فى موضع آخر بأنها "مُسَومة": {مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [هود: 82]، **وكلمة (مُسومة) تعنى (مُعلمة) أو ذات علامة معينة أو سمة مميزة ، وهذا يؤكد أنها من طبيعة غير مألوفة.** وهذه الطبيعة الغريبة تتمثل فى الامتلاء الشديد بالمادة الذى يجعل الحجر الصغير منها ذا وزن هائل.

إننا نرى أن الحجارة التي ألقتها الطير الأبابيل على الكفار تتميز بأنها **صغيرة لكنها ثقيلة جدا.** وما دعانا إلى القول بأن الحجارة كانت صغيرة هو أن الطير الأبابيل كانت تحملها ، والطيور أجسادها صغيرة، وبالتالي فما تحمله يتوقع أن يكون صغيرا. ويؤكد هذا ما رواه الطبرى من أن حجم الحجارة كان أصغر من الحمصة ، وأكبر من العدسة[107].

والحجر الصغير يمكن أن يؤذى الجسم بطريقة من اثنتين: إما أن يكون ثقيلا جدا ، وإما أن يكون ذا سرعة كبيرة جدا ، وذلك لأن درجة إيذاء الحجر للجسم تعتمد على طاقة الحركة التى يمتلكها ، فطاقة الحركة تتحول إلى طاقة حرارية حين تصطدم بجسم الإنسان ، فتدمر أنسجته.

[107]) **تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آى القرآن** (24/ 633). تأليف أبو جعفر الطبري. تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م.

وطاقة الحركة تعتمد بدورها على كتلة الجسم وسرعته[108] ، فزيادة أى من الكتلة (أو الوزن) أو السرعة تجعل الحجر أكثر ضررا للإنسان. لكن زيادة السرعة أمر مستبعد لأن الناس شاهدوا الحجارة بأعينهم وهى تسقط على الأرض، وهذا يعنى أنها نزلت بالسرعة المعتادة تحت تأثير عجلة الجاذبية الأرضية[109] ، ولو كانت الحجارة تتحرك مثلا بالسرعة الكبيرة التى تنطلق بها رصاصة من مسدس لما تمكنت العين من متابعتها، ولما شاهدها العرب وهى تسقط على جيش أبرهة تماما مثلما لا يرى أحد طلقة الرصاص وهى تتحرك فى الهواء من المسدس فى اتجاه القتيل ، وذلك بسبب سرعتها الشديدة. ومن المهم أن يشاهد الناس الحجارة بوضوح وهى تسقط وتدمر حتى يعتبروا مما حدث ، وحتى يصدقوا أن الحجارة كانت هى السبب فى الموت وليس سبب آخر خفى مثل الجن. **وعلى ذلك فالسبب الرئيسى لإهلاك هذه الحجارة للكفار ليس أنها** كانت **كبيرة الحجم ولا أنها شديدة السرعة ، ولكن لأنها كانت ثقيلة للغاية.**

ومما يؤكد ثقل الحجارة أن القرآن أخبرنا أنها جعلت جنود أبرهة كعصف مأكول ، أى كورق الشجر الأخضر الذى أكلته الماشية ، ومزقته بأسنانها ، وداسته بأقدامها[110] ، وهو كما يقول الفلاحون: "هرسته البهائم". وهذا لا يحدث إلا إذا كانت **الحجارة تخترق الجسم وتترك فيه عددا من الثقوب والحفر كما تفعل أسنان البهائم فى ورق الشجر**. ويؤكد ذلك ما روى عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ فى شأن الحجارة ، قَالَ: **مَا يَقَعُ حَجَرٌ عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ إِلَّا خَرَجَ مِنْ دُبُرِهِ، وَلَا يَقَعُ عَلَى شَيْءٍ من جسده إلا خرج مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ**[111]. والحجارة المعروفة لا تفعل ذلك ، فأقصى ما تقدر عليه أن تجرح الجلد ، أو تكسر العظم ، فتجعل الدماء تسيل من الجسد ، لكنها لا يمكن أن تخترقه أو تترك به نقرة. إن ثقل الحجارة الشديد أكسبها طاقة حركة هائلة ، مكنتها من

---

108) طاقة الحركة تساوى نصف الكتلة مضروبة فى مربع السرعة ($KE= ½ mv^2$)

109) أى جسم يسقط من أعلى باتجاه الأرض ستتزايد سرعته بمعدل منتظم ، وتسمى هذه بعجلة الجاذبية التى يبلغ قدرها عند سطح الأرض 9.8 متر/الثانية^2 (وهى تعنى أن سرعة الجسم ستزيد كل ثانية بمعدل 9.8 متر/الثانية). وهذه العجلة ثابتة مهما كانت طبيعة الجسم الساقط ، ولهذا فكتلة من الحديد وزنها 100 كيلوجرام تسقط على الأرض بنفس سرعة كتلة من الحديد وزنها 5 كيوجرام فقط ، فالوزن لا يؤثر على السرعة، وإنما مقاومة الهواء هى التى تجعل ورقة الكتاب تسقط ببطء ، مع أننا لو ضغطنا الورقة على شكل كرة ، سنقلل من مقاومة الهواء لها ، وستسقط بالتالى بسرعة مساوية لكرة من الحديد لها نفس الحجم. ولكى يصل الجسم إلى الأرض بسرعة كبيرة فأمامنا طريقتان: أولا: أن نسقطه من مكان أكثر ارتفاعا ، بحيث يصل إلى الأرض ، وقد اكتسب سرعة كبيرة جدا لأن السرعة تتزايد كما قلنا بمعدل 9.8 مترا كل ثانية. ثانيا: أن ندفع الجسم بقوة نحو الأرض ، كمن يطلق رصاصة على الأرض من مسدس وهو على جبل ، فتتحرك الرصاصة تحت تاثير قوة الجاذبية الأرضية وقوة دفع المسدس.

110) قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْعَصْفُ وَرَقُ الزَّرْعِ وَوَرَقُ الْبَقْلِ إِذَا أَكَلَتْهُ الْبَهَائِمُ فَرَاثَتْهُ فَصَارَ دَرِينًا (انظر **تفسير ابن كثير** 464/8). ويقول ابن عاشور: الْعَصْفُ: وَرَقُ الزَّرْعِ وَهُوَ جَمْعُ عَصْفَةٍ. وَالْعَصْفُ إِذَا دَخَلَتْهُ الْبَهَائِمُ فَأَكَلَتْهُ دَاسَتْهُ بِأَرْجُلِهَا وَأَكَلَتْ أَطْرَافَهُ وَطَرَحَتْهُ عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَخْضَرَ يَانِعًا. وَهَذَا تَمْثِيلٌ لِحَالِ أَصْحَابِ الْفِيلِ بَعْدَ تِلْكَ النَّضْرَةِ وَالْقُوَّةِ كَيْفَ صَارُوا مُتَسَاقِطِينَ عَلَى الْأَرْضِ هَالِكِينَ [انظر: **تفسير التحرير والتنوير** (30/ 551). تأليف: محمد الطاهر بن عاشور التونسي. الدار التونسية للنشر – تونس.1984 هـ.]

111) **تفسير ابن كثير** (8/ 463)

اختراق الجسد مثلما تفعل الرصاصة ، مع وجود فارق هو أن الرصاصة لها طاقة حركة كبيرة بسبب سرعتها الشديدة (رغم صغر وزنها) ، بينما الحجارة المصنوعة من السجيل لها طاقة حركة كبيرة بسبب وزنها الهائل (رغم سرعتها المعتادة).

خلاصة القول أن سبب ثقل الحجارة يرجع إلى أنها كانت مصنوعة من مادة ذات كثافة كبيرة لم نر لها مثيلا على الأرض.

ولكن كيف يمكن الحصول على هذه المادة الغريبة الثقيلة؟

هذه المادة تم اكتشافها بالفعل فى الطبيعة: إنها تنشأ من النجوم[112].

إن النجم حين ينفد وقوده النووى – إثر تحول كل الهيدروجين إلى هيليوم– فإنه يفقد الحرارة التى كانت تعمل على تمدده للخارج ، فينهار تحت تأثير جاذبيته ، فيسخن مرة أخرى[113] ، وتؤدى السخونة لاستئناف عملية الاندماج النووى ، لكن هذه المرة يتحول الهيليوم إلى كربون ، فينشأ عن ذلك حرارة تنتقل للطبقات الخارجية للنجم ، فتتمدد وتبرد ، فيصبح النجم أكثر ضخامة (أكبر حجما من الشمس بألف مرة أحيانا) ، ويسمى العملاق الأحمر Red giant الذى يمر بدورات من التضخم والانكماش لحوالى مليون سنة إلى أن يفقد جزءا كبيرا من المادة الخارجية المكونة له فى الفضاء. وإذا كانت كتلة النجم أكبر من 5 اضعاف كتلة الشمس فإنه ينهار بشكل كارثى مفاجىء حيث تهوى كتلة قدرها مليون مرة قدر كتلة الأرض على نفسها فى خلال 15 ثانية فقط ، فيؤدى هذا إلى خلق موجات تصادمية Shock waves تؤدى لأن تتطاير الطبقة الخارجية للنجم فى الفضاء على شكل انفجار مروع يسمى سوبرنوفا، مع بقاء لب النجم[114].

---

112) انظر المصادر التالية:

"تاريخ موجز للزمان". تأليف ستيفن هوكنج. ترجمة مصطفى إبراهيم فهمى. صفحة 79 وما بعدها.

Chandrasekhar limit. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/science/Chandrasekhar-limit; https://www.britannica.com/science/Chandrasekhar-limit **;** accessed on January 15, 2020.

Neutron star. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/science/neutron-star; accessed on January 15, 2020.

What Is a Supernova? NASA science: Space place. https://spaceplace.nasa.gov/supernova/en/; accessed on January 15, 2020.

White dwarf stars? NASA, https://imagine.gsfc.nasa.gov/science/objects/dwarfs2.html; accessed on January 15, 2020.

113) تنشأ السخونة نتيجة ازدياد تصادمات ذرات الغاز بسبب انكماش النجم للداخل. وهذه السخونة تجعل أنوية الذرات تندمج مع بعضها لتكون أنوية جديدة لذرات أكبر.

114) مادة النجم المفقودة تحتوى على العناصر الثقيلة مثل الحديد.

والآن ماذا يحدث للمادة المتبقية من العملاق الأحمر؟

ما يحدث يتوقف على كتلة المادة المتبقية من النجم التى تنكمش ، وهذا يؤدى لحالات ثلاثة:

1- إن كانت المادة المتبقية من النجم أقل من 1.4 مثل كتلة الشمس (وهو ما يعرف بحد تشاندراسيخار[115]) **فإن النجم سينكمش ليصبح قزما أبيض White dwarf**. وهذا الانكماش سيتوقف عند حد معين يحدث فيه توازن بين الجاذبية (التى تؤدى لانكماش النجم) وقوة التنافر بين الإلكترونات الناشئة عن مبدأ الاستبعاد لبولى Pauli exclusion principle. والقزم الأبيض كتلته تساوى تقريبا كتلة الشمس ، لكن قطره يساوى قطر الأرض ، وتبلغ كثافته مئات الأطنان لكل بوصة مكعبة. والأقزام البيضاء بعد فترة طويلة يتوقف إشعاعها للحرارة فتتحول إلى أجسام باردة تسمى الأقزام السوداء.

2- إن كانت الكتلة المتبقية من النجم أكبر من حد تشاندراسيخار لكن أقل من ثلاثة أمثال كتلة الشمس ، فإن النجم سينكمش بدرجة أكبر من الأقزام البيضاء ليتحول إلى نجم نيوترونى Neutron star ، لكن الانكماش سيتوقف عند حد معين ، يحدث فيه توازن بين قوة الجاذبية (التى تؤدى للانكماش) وقوة التمدد الناشئة عن مبدأ الاستبعاد لبولى (ولكن الآن يحدث تنافر بين البروتونات والنيوترونات وليس بين الإلكترونات). والنجوم النيوترونية سميت كذلك لأنها تتكون من نيوترونات تكونت نتيجة اتحاد البروتونات مع الإلكترونات. وتلك النجوم تكون أصغر حجما من الأقزام البيضاء، لكن كثافتها أكبر بكثير إذ تبلغ ملايين الأطنان لكل بوصة مكعبة. ويقدر البعض أن حجما قدره 5 ملليلتر من هذه المادة يبلغ وزنه 900 هرم في حجم الهرم الأكبر! ويمكن لكتلة أكبر من حجم الشمس أن تنضغط لتحتل حيزا صغيرا لا يتجاوز قطره عشرين كيلومترا فقط.

3- إن كانت الكتلة المتبقية فى لب النجم أكبر من ثلاثة أمثال كتلة الشمس فإنه يتحول إلى ثقب أسود. ومعظم الثقوب السوداء تنشأ من لب النجم الذى يتبقى بعد تطاير المادة الخارجية له

[115]) حد تشاندراسيخار Chandrasekhar limit صاغه فيزيائى هندى عام 1930م ، مستخدما مبادىء النسبية الخاصة وميكانيكا الكم. وهذا المبدأ يؤكد أن من المستحيل على القزم الأبيض أن يبقى مستقرا بفعل قوة التنافر بين الإلكترونات إن كانت كتلته (الكتلة المتبقية من النجم بعد نفاد وقوده النووى) أكبر من 1.44 مرة مثل كتلة الشمس. والنجم الذى ينهى حياته بكتلة أكبر من 1.44 ضعف كتلة الشمس فإنه سيستمر فى الانكماش متحولا إلى نجم نيوترونى أو ثقب أسود.

فى انفجار السوبرنوفا المروع. وهذا اللب المتبقى يستمر فى الانكماش ، ولا تمنعه قوة التنافر الناشئة من مبدأ الاستبعاد من الاستمرار فى التقلص ، فيتحول إلى نقطة ذات كثافة لا نهائية ، تسمى الثقب الأسود الذى يبتلع أى شىء يقترب منه حتى لو كان كوكبا أو نجما ضخما، وحتى أشعة الضوء لا تقدر على الفرار من الجاذبية الخرافية للثقب الأسود.

أمامنا الآن ثلاثة أشكال للمادة الثقيلة فى الكون: الأقزام البيضاء والنجوم النيوترونية والثقوب السوداء.

ومادة الثقوب السوداء ثقيلة بشكل خرافى ، وكذلك مادة النجوم النيوترونية. وسقوط حجارة من هذه المواد على جيش أبرهة مستبعد لأنها ستؤدى لما يشبه الزلزال ، وهو ما لم ينقله لنا من عاصروا ذلك الحدث ، إذن كثافة مادة السجيل تقترب من كثافة الأقزام البيضاء أو تقل عنها بعض الشىء. وطبعا نحن لسنا على يقين بالضبط من درجة كثافة السجيل ، والمهم أن كل شىء ممكن لدى الله ، ومن الممكن من حيث المبدأ أن توجد فى الطبيعة – بدرجات متفاوتة– مواد ذات كثافة أكبر من الكثافة المعتادة على الأرض.

والآن يمكننا أن نفهم معنى كلمة (سجيل): إنها تدل على أن المادة الخام التى صنعت منها الحجارة **ذات كثافة هائلة ، أى مملوءة بقدر كبير من المادة ، لا يتناسب مع الحجم الصغير للحجارة.** ويقول العلماء أن ملعقة شاى من مادة الأقزام البيضاء تبلغ نفس وزن الفيل ، فإن سقط محتوى هذه الملعقة على إنسان قتله فى الحال.

ومادة السجيل قد تكون موجودة فى مخازن فى مكان ما فى السماء ، ولكن ربما لا توجد حاجة لوضعها فى مخازن خاصة ، وذلك لأنها تملأ الكون الفسيح ، ومن السهل أن تحصل الملائكة على أى كمية منها فى أى وقت إذا ما أمرها الله تعالى بأن تصب العذاب على الكفار.

****

وعلينا أن نلاحظ أن القرآن قال عن الحجارة المصنوعة من سجيل التى سقطت على قوم لوط أنها من "طين": {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ} [الذاريات: 33]. **ووصف القرآن للحجارة بالطين**

وصف مدهش حقا. إن هذا الوصف يتفق مع ما يقوله العلماء عن طبيعة الأقزام البيضاء. كيف؟

إن الأقزام البيضاء تتكون من مادة تعرف بالبلازما (الحالة المتأينة للمادة) ، وهى عبارة عن سائل متجانس يحتوى على إلكترونات إضافة إلى أنوية ذرات الأكسجين والكربون. وقد تنبأ العلماء فى الستينات من القرن العشرين بأن هذه المادة حين تمر بمرحلة البرودة فإنها ستتبلور Crystallize وتتحول من الحالة السائلة إلى الحالة الصلبة ، وهذا يحدث حين تنخفض درجة حرارة سطح القزم الأبيض إلى 6000–8000 كلفن ، فهنا يبدأ مركزه أو لبه فى التبلور ، والتجمد. وقد حظيت هذه النظرية بقبول عام من العلماء ، لكن الدلائل التجريبية بدأت تتضح فى عام 2004م حيث أظهرت المشاهدات أن أحد الأقزام البيضاء المسمى BPM 37093 قد تبلورت 90% من كتلته.[116،117] ، وقد تأكدت ظاهرة تبلور الأقزام البيضاء عام 2019م بعد دراسة العلماء ل 15 ألف قزم أبيض فى منطقة واسعة من السماء المحيطة بنا[118]. وعملية التبلور تستغرق فترة طويلة جدا ، ويقدر العلماء أن الشمس ستتحول إلى قزم أبيض متبلور (يشبه الجوهرة الصلبة) بعد حوالى عشرة بلايين سنة من الآن[119].

والشيء المهم أن العلماء يصفون هذا اللب السائل بأنه شديد الكثافة High density core أو فائق الكثافة Ultra–dense ، أى أن مادة الأقزام البيضاء لا تشبه فى سيولتها سيولة الماء– لأن الماء سائل رقيق قليل الكثافة – بل تشبه سائلا شديد الكثافة ، ومثل هذا السائل الشديد

[116]) **Testing White Dwarf Crystallization Theory with Asteroseismology of the Massive Pulsating DA Star BPM 37093** (2004). By Metcalfe, T. S.; Montgomery, M. H.; Kanaan, A. *The Astrophysical Journal*. 605 (2): L133. arXiv:astro-ph/0402046. doi:10.1086/420884

[117]) **Whole Earth Telescope observations of BPM 37093: A seismological test of crystallization theory in white dwarfs** (2005). By Kanaan, A.; Nitta, A.; Winget, D. E.; Kepler, S. O.; Montgomery, M. H.; Metcalfe, T. S.; Oliveira, H.; Fraga, L.; et al. *Astronomy and Astrophysics*. 432 (1): 219–224. arXiv:astro-ph/0411199. doi:10.1051/0004-6361:20041125

[118]) **Core crystallization and pile-up in the cooling sequence of evolving white dwarfs** (2019). By Tremblay, P.-E.; Fontaine, G.; Fusillo, N. P. G.; Dunlap, B. H.; Gänsicke, B. T.; Hollands, M. H.; Hermes, J. J.; Marsh, T. R.; Cukanovaite, E.; Cunningham, T. *Nature*. 565 (7738): 202–205. arXiv:1908.00370. doi:10.1038/s41586-018-0791-x.

[119]) فى عملية التبلور يترسب الأكسجين أولا لأن شحنته الكهربية أعلى من الكربون ، وأيضا بما أن كثافة الأكسجين أعلى فإنه يترسب فى اتجاه اللب ، بينما يتحرك الكربون فى الوسط السائل إلى الخارج ، فيصبح لدينا طبقتان: لب مكون من الأكسجين المتبلور، يحيط به وشاح سائل يسوده الكربون ، وذلك بعد أن كان السائل قبل التبلور محتويا على خليط متجانس من الكربون والأكسجين. وحدوث التبلور يصاحبه إطلاق طاقة تقوم بتبطيء عملية التبلور ، كما يؤدى ترسب الأكسجين فى اللب إلى دفع الكربون إلى الخارج ، فيترتب على ذلك تحرير طاقة جاذبية أو طاقة وضع ، تؤخر بدرجة أكبر عملية برودة القزم الأبيض ، فيبدو لنا أن عمره أقل من العمر الحقيقى (المرجع السابق). انظر أيضا:

White dwarfs crystallize as they cool. By R. Mark Wilso. Physics Today 72, 3, 14 (2019); doi: 10.1063/PT.3.4156

الكثافة لا يختلف عن الطين ، فالطين عبارة عن سائل (ماء) اختلط بالتراب ، فأدى التراب إلى زيادة كثافته. إذن لب القزم الأبيض سائل ، ولكنه سائل شديد الكثافة ، وواقع تحت ضغط هائل ، وهذا يجعل قوامه مشابها لقوام الطين تماما.

إذن الحجارة التى ألقيت على الكفار صُنعت من السجيل ، والسجيل صُنع من أحد أشكال الطين ، ولذا صح قول القرآن أن الحجارة صنعت من الطين: {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِين} [الذاريات: 33]. **وإذا تحركنا من الاتجاه الآخر لقلنا أن الطين تبلور وتجمد فأصبح سجيلا ، ثم أخذت بعض القطع من السجيل ، لتستخدم كحجارة يباد بها جيش أبرهة.**

لقد اختار القرآن بعبقرية مدهشة كلمة الطين ، وهى الكلمة الوحيدة فى لغة العرب التى تعبر عن حالة مادة القزم الأبيض الشديد الكثافة ، وقد كان من المستحيل على العرب وقت نزول القرآن أن يستوعبوا المصطلحات العلمية الحديثة التى نعرفها الآن. وهكذا أثبت لنا القرآن مرارا أنه كتاب صالح لكل زمان ومكان ، وأن عبقريته لا تكمن فقط فى التعبير عن الحقائق العلمية قبل معرفة البشر لها ، ولكن العبقرية تتمثل أيضا فى اختيار كلمات تناسب كل العصور ، ولا يرى فيها أحد تناقضا مع حقائق عصره. إن معجزة القرآن مركبة.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

****

ومن الملاحظات المهمة أن القرآن وصف السجيل بأنه "منضود": {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ } [هود: 82].

فما مغزى كلمة "منضود"؟

إن كلمة "منضود" تحمل فى الأصل **معنى التراكم ، أى وضع الأشياء فوق بعضها** ؛ يقال: نَضَدَ متاعَه ، أي وضع بعضه على بعض أو ضم بَعْضَه إلى بَعْضٍ. والنَضَدُ: متاع البيت المَنْضود بعضُه فوق بعض. وأَنْضادُ الجبالِ: مَا تراصَفَ مِن حِجارتها بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ.

والنَّضَدُ هو السَّحابُ الْمُتَرَاكِمُ. وأَنْضادُ السحابِ: ما تراكَبَ منه. وفى القرآن: "طَلْعٌ نَضِيدٌ" و "طلح منضود" ، أى بعضُه فَوْقَ بَعْضٍ ، أو رَكِبَ بعضُه بَعْضًا[120].

ولاحظ أن كلمة (منضود) وصف بها السجيل وليس الحجارة ، فالقرآن يقول: (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود) وليس: (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضودة) ، أى أن التراكم صفة للمادة الخام التى صنعت منها الحجارة ، وليس للحجارة نفسها. وفى رأينا أن القرآن قد وصف المادة الخام (السجيل) التى صنعت منها الحجارة ب(المنضود) لأن هذا الوصف يدل على كثرة السجيل الموجود عند الله وتراكمه ، فهو لا يوجد على شكل قطع متناثرة هنا أو هناك، بل على هيئة أكوام بعضها فوق بعض ، وهذا يعمل على إرهاب الكفار والمجرمين حين يعلمون أن هذا السلاح الفتاك متوافر لدى الله تعالى بكثرة ، وأن من السهل استخدامه فى المستقبل (فى الدنيا أو الآخرة) مع أى عدد من المجرمين حتى لو بلغوا بلايين البلايين.

والسجيل الذى نعرفه فى الطبيعة لا يوجد هو الآخر على شكل قطع متناثرة يمكن العثور على قطعة أو اثنتين منها على هذا الكوكب أو ذاك ، ويتحتم على من يبغى جمع كمية كبيرة منها أن يبحث لفترة طويلة فى آلاف الكواكب المنتشرة عبر مساحات شاسعة من الفضاء. السجيل ليس كذلك ، فهو يوجد على شكل كتل ضخمة ، وقد رأينا أن القزم الأبيض الواحد يساوى حجمه حجم كوكب الأرض. السجيل ليس مادة خام نادرة فى الطبيعة مثل المواد الخام الثمينة التى توجد بكميات قليلة كالذهب واليورانيوم. وقد وصف أحد العلماء القزم الأبيض بعد تحوله من الحالة السائلة إلى الحالة الصلبة بأنه يشبه الجوهرة الضخمة. لقد اعتاد الناس على أن تكون الجواهر صغيرة الحجم ، وذلك لندرتها وغلو ثمنها ، ولكن لك أن تتخيل وجود كوكب كامل مصنوع من الذهب أو اللؤلؤ! لقد أضافت كلمة "منضود" دورا مهما. القرآن لا يذكر الكلمات اعتباطا.

****

وعلينا أيضا أن نلاحظ قول القرآن عن تلك الحجارة: {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [هود: 83]. إن القرآن هنا ينفى أن تكون هذه المادة بعيدة عن الظالمين. لماذا؟ لأن الأقزام البيضاء موجودة

[120]) انظر الصحاح للجوهرى ، ولسان العرب لابن منظور.

بعيدا عن كوكب الأرض ، وأقربها إلينا هو سيريوس–بى (Sirius B) ، وهو الرفيق الأصغر لنجم الشعرى اليمانية المعروف ، وهو يبعد عن الأرض بمقدار 8.6 سنة ضوئية [121]، ولو تحركت أسرع سفينة فضاء اخترعها الإنسان بسرعة 153 ألف ميل فى الساعة فستصل إلى هذا القزم الأبيض – طبقا لحساباتى التقريبية– بعد 37 ألف سنة ، وستعود إلى الأرض فى فترة مماثلة. ولذا فإن أردا إنسان أن يحمل بعضا من مادة الأقزام البيضاء إلى كوكب الأرض فسيعود ليجد أن الأشخاص الذين أراد عقابهم قد ماتوا منذ 74 ألف سنة ميتة طبيعية دون أن ينالوا جزاءهم. ولهذا أراد الله تعالى أن يقول لنا من خلال قوله: (وما هى من الظالمين ببعيد): "لا تظنوا أن الحجارة بعيدة عنكم وعن أى ظالم ، فلو شاء الله لأتاكم بها فى الحال". إن من السهل على الله أن ينقل الحجارة إلى الأرض نقلا فوريا بسرعة أكبر من سرعة الضوء ، وهو شىء لا تحول دونه فيزياء الكم كما أوضحنا فى فصل آخر من هذا الكتاب.

ملحوظة: من السهل على الله تعالى أيضا أن يخلق حجارة ثقيلة من العدم فى لمح البصر ، ويلقيها على الكفار دون حاجة للنقل من مكان بعيد ، ولكن القرآن يخبرنا أن هذه الحجارة موجود فى مكان ما عند الله ، وهذا يوحى بأنها نقلت من مخازنها إلى الأرض ، ولم يخلقها الله تعالى من العدم لحظة سقوطها على الكفار رغم قدرته عز وجل على ذلك.

****

إذن **الأرجح أن الحجارة التى حملتها الطير الأبابيل تتكون من مادة قريبة من مادة الأقزام البيضاء** التى يبلغ وزن البوصة المكعبة منها مئات الأطنان. **ونحن لا نجزم أن الحجارة التى أهلك الله بها الكفار أتت بالتحديد من مادة الأقزام البيضاء ، فربما جاءت من مادة أخف ، وكل ما نبغى التأكيد عليه هو أن العلم الحديث يقر بوجود أشكال من المادة فى غاية الثقل ، وذات قدرة كبيرة على التدمير.** وبعد أداء هذه الحجارة لمهمتها فى إهلاك الكفار ، فيمكن لكل حجر منها أن يتفكك ببعض الطرق الكيميائية أو العوامل البيئية ، فتتبعثر مادته ، وتذهب فى الأرض.

[121]) سرعة الضوء حوالى 300 ألف كيلومتر فى الثانية أو 186 ألف ميل فى الثانية ، أى حوالى 671 مليون ميل فى الساعة ، أى أن الضوء أسرع من سفينة الفضاء بمقدار 4385 مرة تقريبا ، وعلى ذلك فالمسافة التى يقطعها الضوء فى 8.6 سنة ستقطعتها سفينة الفضاء فى أكثر من 37 ألف سنة.

وفضلا عن ذلك فلو أراد الله لهذه الحجارة أن تختفى بمجرد سقوطها فلن تحول فيزياء الكم دون ذلك لأنها تسمح بتناثر الذرات وتشتتها فى أى مكان فى الكون.

****

ويحق لنا أيضا أن نتساءل: **وكيف تقوى الطير الأبابيل على حمل هذه الحجارة الثقيلة؟**

الإجابة هى أنك لا تعرف طبيعة هذه الطيور ، ولا المواد التى تدخل فى تكوين أنسجة أجسادها وعضلاتها وعظامها وأجنحتها كى تنفى إمكان حملها لحجارة ثقيلة. وليس من الغريب أن يقدر الكائن الضعيف على ما يعجز عنه الكائن القوى ، فالبرغوث يستطيع القفز لمسافة تبلغ 150 ضعف طوله ، ولو كان للإنسان قدرة مماثلة لقفز لمسافة 200 متر. وكثيرا ما رأيت نملتين تجران نحلة ميتة أكبر منهما حجما بعشرين مرة على الأقل. والنحلة لها أيضا قدرة هندسية تفوق قدرات الإنسان الذى يتصور نفسه أكثر المخلوقات ذكاء ، فهى تصنع شمعا سداسى الشكل بكل دقة دون الاستعانة بأدوات هندسية ، ولو أراد طالب يدرس الرياضيات فى المرحلة الإعدادية أو الثانوية أن يرسم شكلا سداسيا بالمسطرة والفرجار لوجد صعوبة غير قليلة. والجراد يستطيع الطيران لمسافة 53 ميلا دون راحة ، بينما يتعب الإنسان إن سار على قدميه مسافة لا تتجاوز ثلاثة أميال. ومن السهل على الطفل الصغير أن يقود جملا كبير ، فترى الجمل يسير كالخادم المطيع ، مع أنه أقوى عشرات المرات من هذا الصغير ، ولو شاء لتمرد عليه ، وفتك به. وبعض الحيوانات مثل الولفيرين Wolverine يستطيع افتراس حيوانات حجمها أضعاف حجمه. والذبابة والبعوضة كلاهما أصغر حجما من الأرنب ، لكن الأرنب شديد الجبن ، بينما تمتلك كلا من الذبابة والبعوضة الجرأة على مهاجمة الإنسان ومضايقته طوال الوقت. وهكذا فليس من المستبعد أن يتمكن طائر صغير من حمل حجارة ثقيلة، فعجائب مخلوقات الله لا تنتهى. كما يمكننا أن نرجع إلى ما سبق أن قلناه عن معجزة رفع الله للجبل فوق رءوس بنى إسرائيل ، إذ يمكن لفيزياء الكَم أن تسمح لذرات الحجارة الثقيلة بأن تتواجد فى أى مكان فى الكون، فتبقى معلقة فى أرجل الطيور إلى أن تسقط على جيش أبرهة.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

خلق عيسى بلا أب

ولد عيسى عليه السلام من أم دون أب. وهنا يصرخ الملحد: "كيف حدث هذا؟ مستحيل". ونحن نقول بكل ثقة: لا ليس مستحيلا ، بل ليس صعبا ، بل تحقق بالفعل أمام أعيننا.

يرد القرآن بحجة بسيطة لكنها لا تقاوم: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: 59]. إن من خلق كائنا حيا من تراب بلا أم ولا أب سيكون من السهل عليه تكرار التجربة ، بل سيكون من الأسهل خلق إنسان من أم بلا أب.

إننى فعلا لا أرى داع للاسترسال فى إثبات ولادة عيسى العجيبة ، لكن سأفعل ذلك كى أقطع الطريق على أى محاولة يائسة للجدال بالباطل.

يخبرنا العلم أنه لكى يتكون الجنين فى الرحم فلا بد من التقاء بويضة الأم بحيوان منوى من الأب ، فيحدث التلقيح ، ويتكون الزيجوت (الخلية الأولى للجنين) الذى يظل ينقسم مرات كثيرة ، فيزداد عدد الخلايا ، ويكبر الجنين ، وتظهر الأعضاء المختلفة. والحيوان المنوى الذى يأتى من الأب دوره أساسى فى هذه العملية ، بيد أن العلم لا يرى هذا شيئا حتميا كما سنرى الآن.

الحمل العذرى

هناك عملية تسمى "الحمل العذري أو النشأة العذرية[122] Parthenogenesis ، وهو نوع من التكاثر اللاجنسى ، حيث **يتكون الجنين وينمو من خلية من خلايا الأم فقط دون الحاجة للتلقيح من الأب**. والولادة العذرية تحدث فى أكثر من 2000 نوع من النباتات وفى بعض اللافقاريات (مثل النمل والنحل والدبابير وديدان النيماتود) ، وتحدث بشكل نادر فى الفقاريات العليا[123].

[122]) كلمة Parthenogenesis مشتقة من كلمتين يونانيتين: كلمة Parthenos - وتعنى عذراء- وكلمة genesis وتعنى تكوين أو خلق أو نشأة.

[123]) **Parthenogenesis**. Encyclopedia Britannica.

والحمل العذرى لا يحدث فى الحالات الطبيعية فى الثدييات (ومنها الإنسان) بسبب ظاهرة تعرف بالختم الجينومى[124] Genomic imprinting.

لكن فى السنوات الأخيرة نجح العلماء فى تغيير تلك الصورة ، ففى الظروف الطبيعية لا يحدث الحمل العذرى بسبب وجود مادة تسمى إم بى إف MPF [125] التى تسبب توقف الانقسام الميوزى الثانى للبويضة عند الطور الاستوائى[126]. لكن حين يقوم الحيوان المنوى بإخصاب البويضة تزيد نسبة الكالسيوم داخل البويضة مما يؤدى إلى توقف نشاط ال MPF ، فيسمح هذا باستكمال الانقسام الميوزى للبويضة ، وتكون الجنين. ولكى يقوم العلماء بإحداث الحمل العذرى فى إناث بعض الثدييات (مثل الفأر والخنزير والقرد) فإنهم يستخدمون طرقا عديدة لخداع البويضة وإيهامها بأن الحيوان المنوى قد اخترقها فتندفع للانقسام وتكوين الجنين. ومن هذه الطرق الحقن المجهرى للكالسيوم أو استخدام الحث الكهربائى. كما يمكن استخدام مادة السيكلوهيكسيمايد التى توقف نشاط مادة MPF. وهكذا تستمر البويضة فى الانقسام الميوزى الثانى ليتضاعف عدد الكروموزومات بها من 23 إلى 46 ، لكن هذا ينشأ عنه طرد البويضة لما يسمى بالجسم القطبى الذى يحتوى على 23 كروموزوم ، ولو تم ذلك لما تحولت البويضة إلى جنين ينمو بشكل طبيعى (لأن الجنين لا بد أن يكون لديه 46 كروموزم). ولهذا كان لا بد أن يعمل العلماء على أن تحتفظ البويضة بهذا الجسم القطبى الثمين. ومن الوسائل التى استعانوا بها لهذا الغرض استخدام مادة سيتوكالاسين–بى Cytochalasin B. وهكذا أصبح لدينا فى النهاية بويضة تحتوى على ضعف عدد الكروموزومات الموجود فى البويضة العادية مما يمكنها من الانقسام والنمو كما لو كانت زيجوت ينشأ منه جنين دون حيوان منوى. وبعد ذلك يتم نقل البويضة إلى

---

[124]) الختم الجينومى ظاهرة تتعلق بمجموعة محدودة من الجينات. من المعروف أنه فى الحالة العادية يرث الجنين نسختين من كل جين: نسخة من الأم ونسخة من الأب. وكل نسخة من الاثنين تكون نشيطة ومنتجة للبروتين فى جسم الجنين ، لكن بالنسبة لعدد معين من الجينات تسير الأمور بطريقة استثنائية حيث يواصل أحد الجينين نشاطه ، بينما يتم إخماد الجين الآخر (الذى ورثه الجنين من الأم أو ذلك الذى ورثه من الأب طبقا لنوع الجين) ، فيفقد هذا الجين الخامد قدرته على إنتاج البروتين. ولو كان الجنين فى الثدييات ينشأ فقط من خلايا الأم لأصبح لدى الخلية بعض الجينات التى يوجد من كل منها نسختان نشطتان ، فيكون لدى الجنين ضعف كمية البروتينات الطبيعية ، كما سيوجد لدينا فى نفس الوقت مجموعة أخرى من الجينات يوجد من كل منها نسختان كلتاهما خاملة لا تنتج أى بروتينات للخلية. وهكذا سينشأ لدينا جنين غير طبيعى فى الحالتين. وستكون محصلة هذا أن تضطرب وظائف الخلية بشكل واضح. انظر

Thompson & Thompson: Genetics in medicine. Robert L. Nussbaum, Roderick R. McInnes, Huntington F. Willard. 8th edition. Chapter 3. Elsevier Inc, 2016.

[125]) MPF = Metaphase Promoting Factor

[126]) انظر فى تفاصيل هذه النقطة وما يليها البحث التالى:

Effects of cycloheximide on parthenogenetic development of pig oocytes activated by ultrasound treatment. By Mori H, Mizobe Y, Inoue S, Uenohara A, Takeda M, Yoshida M, Miyoshi K. J Reprod Dev. 2008;54(5):364-9.

الرحم لإكمال الحمل. ولكن على الرغم من ذلك تكون مشيمة الجنين أصغر حجما وأفقر فى الأوعية الدموية من المشيمة الطبيعية ، فيؤدى هذا إلى وفاة الجنين بعد حوالى 30 يوما من الحمل. وفى عام 2004 نجح فريق من العلماء فى التغلب على مشكلة الختم الجينومى عن طريق إزالة موقعين جينيين فى بويضة أنثى الفأر[127]. وقد أدى هذا التدخل إلى الحصول على أجنة استمرت فى الحياة لفترات طويلة[128].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فلقد **امتدت التجارب لمحاولة تكوين جنين بشرى من الأم فقط دون الأب. والهدف الحالى للعلماء ليس أن يحصلوا على إنسان كامل** (وذلك لاعتبارات أخلاقية ولأن الجنين المتكون بطريقة الحمل العذرى يموت فى العادة بسبب العيوب الخلقية وفقر المشيمة) **ولكن هدفهم الحصول على خلايا جذعية** من هذا الجنين مطابقة تماما من الناحية الوراثية لخلايا الأم ، فيفيدها هذا فى علاج بعض الأمراض التحللية[129]. وفى عام 2007 نجح العلماء فى الحصول على خلايا جذعية بشرية من بويضات بشرية بطريقة الحمل العذرى[130].

وهكذا نجد أن فكرة ولادة طفل بلا أب ليست مستحيلة علميا ، بل إنها تمثل ظاهرة طبيعية معروفة فى كثير من الكائنات الحية ، كما نجح العلماء فى إحداثها بقدر ما من النجاح لدى بعض أنواع الثدييات.

الاستنساخ

فى عام 1996م أصيب العالم بالذهول حين أعلن العلماء عن نجاحهم فى استنساخ نعجة بلا أب ، اسموها "النعجة دوللى". وقد حقق العلماء هذه المعجزة عن طريق أخذ خلية من ضرع نعجة كبيرة ، ثم قاموا بنقل نواة هذه الخلية إلى بويضة سبق نزع نواتها ، فأدى ذلك إلى اكتساب

---

[127]) الموقعان هما: DLK1/MEG3 و H19/IGF2

[128]) **High-frequency generation of viable mice from engineered bi-maternal embryos.** By Kawahara M, Wu Q, Takahashi N, Morita S, Yamada K, Ito M, Ferguson-Smith AC, Kono T. Nat Biotechnol. 2007;25(9):1045-50. Epub 2007 Aug 19.

[129]) يمكن مثلا حث هذه الخلايا الجذعية للتحول لخلايا القلب العضلية التى يتم إنمائها فى المختبرات لتعطينا نسيجا قلبيا يستخدم لمساعدة قلب الأم المريض.

[130]) **Patient-specific stem cell lines derived from human parthenogenetic blastocysts**. By Revazova ES, Turovets NA, Kochetkova OD, Kindarova LB, Kuzmichev LN, Janus JD, Pryzhkova MV. Cloning Stem Cells. 2007; 9(3):432-49

البويضة القدرة على الانقسام لتكوين جنين ، كما لو كانت زيجوت نشأ من تلاقى بويضة بحيوان منوى[131]. وبهذه الطريقة جاءت إلى الحياة نعجة من أم دون أب. والطريف أن من الممكن اعتبار أن دوللى لها ثلاث أمهات[132]: أولا: أم أعطتها المادة الوراثية الموجودة فى النواة ، وهذه هى الأم الحقيقة. ثانيا: أم أعطتها البويضة المنزوعة النواة. ثالثا: أم تم زرع الجنين فى رحمها.

ولم يقتصر الأمر على استنساخ النعجة ، فقد نجح العلماء من استنساخ أنواع أخرى من الحيوانات مثل الحصان والقط والبقرة والدجاجة والخنزير والفأر[133].

ولا زلت أذكر تلك الأيام المثيرة حيث ظلت وسائل الإعلام تتناول بالتحليل أخبار النعجة دوللى لشهور طويلة. فى هذا الوقت فكر الناس فى كل شىء إلا شىء واحد هو أن النعجة دوللى تجعل من السهل على المؤمن أن يصدق معجزة ولادة عيسى عليه السلام ، فقد رأى العالم بعينيه كيف أن من الممكن ولادة كائن حى دون أب ، فما الغريب فى أن يخلق الله تعالى عيسى هو الآخر بلا أب؟

لكن يثور هنا سؤال مهم:

من أين أتى كروموزم واى Y-chromosome؟

تبقى مشكلة بالنسبة لعيسى عليه السلام ، فنحن نعرف أن كل خلايا الإناث تحتوى على كروموزومين من نوع X ، بينما خلايا الذكور تحتوى على اثنين من الكروموزومات أحدهما من النوع X والآخر من النوع Y. وعلى ذلك فمن الممكن لمريم – من خلال آلية الحمل العذرى أو الاستنساخ- أن تلد أنثى لأن الأنثى لا تحتاج إلا لكروموزومي X ، وهما موجودان لدى خلايا الأم. لكن مريم أنجبت ذكرا ، فمن أين جاء كروموزم Y الذى لا تملكه أيا من خلايا مريم؟

قرأت إجابات لكتاب مسيحيين أجانب عن هذا السؤال ، لكنها كانت خاطئة تماما من الناحية العلمية ، ونحن الآن نقدم إجابة مقنعة تماما بإذن الله تعالى.

131) **Viable offspring derived from fetal and adult mammalian cells.** By Wilmut I, Schnieke AE, McWhir J, Kind AJ, Campbell KH. Nature. 1997; 385 (6619):810-3.

132) **Death of Dolly marks cloning milestone.** By Williams N. Curr Biol. 2003 Mar 18;13(6):R209-10.

133) **Ethical issues in animal cloning.** By Fiester A. Perspect Biol Med. 2005 Summer;48(3):328-43.

إن العلم يخبرنا أن الجنين وهو فى بطن أمه فى الأسابيع الأولى من الحمل لا يكون عضوه التناسلى على شكل خصية أو مبيض ، ولكنه يكون عضوا تناسليا غير متميز ، وقابل لأن يتحول فيما بعد إلى كلا الاحتمالين (خصية أو مبيض). ومع مرور الحمل إن كان الجنين يحمل كروموزوم Y فإن عضوه التناسلى يتحول إلى خصية ، فيصبح الجنين ذكرا ، أما إن كان الجنين لا يحمل كروموزوم Y فإن العضو التناسلى يتحول إلى مبيض ، فيصير الجنين أنثى. بيد أن العلماء أصيبوا بالدهشة حين اكتشفوا أن بعض الذكور يكون لدى الواحد منهم اثنان من كروموزومات X ، ومع ذلك يكونون ذكورا كاملين. كيف حدث هذا؟

بمزيد من البحث استطاع العلماء أن يعرفوا أن كروموزوم Y ليس كله مسئولا عن تكوين الخصية لدى الجنين وإنما هناك جين محدد محمول على كروموزومY اسمه SRY هو الذى يقوم بهذا الدور ، واكتشفوا أن الجنين إن كان تركيبه XX (أى لديه اثنان من كروموزومات X) فإن من الممكن أن يصبح ذكرا إن كان جين SRY وحده قد انتقل بطريق الخطا ليلتصق ويتعلق بواحد من كروموزومى X ، ففى هذه الحالة يكفى جين SRY وحده لتحويل الجنين الأنثى إلى ذكر.

ولكن الأسئلة لم تنته بعد إذ أن العلماء اكتشفوا حالات كثيرة من الذكور تركيبهم XX ولكن SRY جين غير موجود مطلقا. فكيف تحول هؤلاء إلى ذكور فى بطون أمهاتهم؟

جاءت الإجابة كالتالى:

إن جين SRY ليس هو اللاعب الوحيد ؛ فهناك جينات أخرى مثل SOX9 تقوم بدور مهم بعد SRY ، بمعنى أن كل دور SRY هو أن يقوم بتنشيط SOX9 ، ثم يقوم الأخير بالتدخل بدوره لتكوين الخصية فيصبح الجنين ذكرا. **وإن حدث فى بعض الأحيان أن قل نشاط جين SOX9 فإن الجنين يصبح أنثى بدرجات متفاوتة (جزئية أو كاملة) بالرغم من وجود كروموزوم Y ووجود جين SRY عليه. وبالعكس إن زاد نشاط جين SOX9 فإن الجنين الأنثى سيتحول إلى ذكر بالرغم من غياب كروموزوم Y وجين SRY.**[134] وعلى سبيل المثال فى عام 2011 اكتشف العالم كوكس وفريقه[135] أسرة ذكورها تركيبهم XX وكان السبب هو وجود تضاعف فى

134) **Mammalian sex determination—insights from humans and mice**. Stefanie Eggers & Andrew Sinclair. Chromosome Res (2012) 20:215–238.
135) **A SOX9 duplication and familial 46,XX developmental testicular disorder. (Letter).** By Cox, J. J., Willatt, L., Homfray, T., Woods, C. G. New Eng. J. Med. 364: 91-93, 2011.

المنطقة المنظمة لنشاط جين SOX9 ، وهذا التضاعف يزيد من نشاط SOX9 فيجعله ينتج خصية فى جنين لا يحتوى على كروموزم Y. وفى نفس العام اكتشف علماء آخرون حالات مشابهة[136،137].

وهكذا بات من المعروف علميا أنك يمكن أن تقابل – فى حالات نادرة– إنسانا له هيئة الذكر ، ولكنك حين تفحص كروموزومات خلاياه تجدها مثل كروموزومات خلايا الأنثى (XX) باستثناء النشاط الزائد لجين SOX9.

وبناء على ذلك يمكننا القول أن من المحتمل جدا أن يكون الله تعالى قد أحدث تغييرا فى المادة الوراثية للبويضة التى خلق منها عيسى بحيث ينشأ تضاعف فى المنطقة المنظمة لجين SOX9 ، فيزيد نشاط هذا الجين ، وحين تتحول البويضة لجنين فإن الجنين ينشأ ذكرا دونما حاجة لوجود كروموزوم Y.

وليس حدوث تغيير فى جين SOX9 هو الوسيلة الوحيدة لتحويل الجنين إلى ذكر دون حاجة لكروموزوم Y ؛ فقد تبين أن هناك طرقا أخرى: **أحد هذه الطرق هو حدوث تغيرات فى جين آخر اسمه SOX3** الموجود على كروموزوم X فى كل من الذكر والأنثى. وجين SOX3 يشبه كثيرا فى تركيبه جين الذكورة SRY. وفى الأحوال الطبيعية لا يكون له أى دور فى تحديد جنس الجنين ، ويكون دوره منصبا على تخليق المخ. ولكن العالم ساتون وفريقه[138] فى عام 2011 أجروا تجارب على فئران تم تعديل مادتها الوراثية بما يؤدى إلى زيادة نشاط SOX3 فى العضو التناسلى ، فأدى هذا إلى تحويل العضو التناسلى الأوَّلى لجنين الفأر الأنثى إلى خصية بدلا من مبيض ، وجاءت الأجنة ذكورا بدلا من أن تكون إناثا. وبعد ذلك حاول نفس هذا الفريق العلمى تأكيد نتائجه فقام بعمل مسح على مجموعة من ذكور البشر الذين لهم تركيب XX ولا تحتوى خلاياهم على جين الذكورة SRY ، فاكتشفوا أن ثلاثة منهم لديهم تضاعف فى المادة الوراثية داخل جين SOX3 أو بالقرب منه بما يؤدى إلى زيادة نشاطه.

---

136) **XX males SRY negative: a confirmed cause of infertility.** By Vetro A, Ciccone R, Giorda R et al. J Med Genet 2011; 48:710–712

137) **Disruption of a long distance regulatory region upstream of SOX9 in isolated disorders of sex development.** By Benko S, Gordon CT, Mallet D et al. J Med Genet 2011; 48:825–830.

138) **Identification of SOX3 as an XX male sex reversal gene in mice and humans.** By Sutton E, Hughes J, White S et al. J Clin Invest 2011; 121:328–341

يالها من نتائج مذهلة تثبت أن بالإمكان تحويل الجنين الأنثى إلى ذكر ، فقط من خلال تعديل جينات أنثوية ودون حاجة لوجود كروموزوم Y.

ليس هذا فقط ، فقد وجد العلماء أن **حدوث تغير فى المادة الوراثية للذراع الطويل لكروموزوم 22 – سواء بالحذف أو الإضافة – قد يؤدى إلى تحويل الأنثى إلى ذكر دون حاجة لوجود كروموزوم Y.** والجينات المسببة لهذا التحول فى هذه المنطقة من الجينوم ليست معروفة بالتحديد ، ولكن العلماء رشحوا بعضها مثل جين SOX10[139] وجين MAPK1[140].

وحتى وقت قريب كان العلماء يظنون أن تكون المبيض فى الجنين عملية سلبية تحدث تلقائيا إن غاب كروموزوم Y. بيد أن هذه النظرة تغيرت فى السنوات الأخيرة. فقد اتضح أنه لكى يتكون المبيض فى الأنثى فلا يكفى غياب جين SRY بل لا بد من وجود مجموعة من الجينات التى تقلل نشاط جين SOX9 الموجود فى الأنثى والذى يعمل على تكوين الخصية. وهذه الجينات تشمل RSPO1 و WNT4 و FOXL2. **ووجد العلماء أن الجنين الأنثى ذو التركيب الكروموزومى XX يمكنه أن يتحول إلى ذكر فى حالة نقص نشاط الجينات التى تمنع تكون الخصية** ؛ ففى عام 2006 اكتشف العالم بارما وفريقه[141] لأول مرة أن بعض الأجنة ذات التركيب XX قد تكَوَّن لها خصية ، ونشأت كذكور بسبب حدوث تغيرات فى تركيب جين RSPO1. كما اكتشف العالم بياسون لوبر[142] عام 2004 أيضا أن بعض الأجنة البشرية ذوات التركيب XX والتى تحمل طفرات تؤدى إلى تلف جين WNT4 قد تكون لها خصية ، وتحولت إلى ذكور.

وهناك إضافة لما سبق جينات أخرى ثبت أن لها دورا فى تكوين الخصية فى الجنين[143]. وهذه الجينات يحق لنا أن نتصور أنها إن زاد نشاطها فستكون قادرة على المساهمة فى تحويل الجنين الأنثى إلى ذكر فى الإنسان بدرجات متفاوتة. بيد أن مثل هذه الحالات لم يقابلها العلماء حتى

---

139) **46, XX sex reversal with partial duplication of chromosome arm 22q.** By Seeherunvong T, Perera EM, Bao Y et al. Am J Med Genet A 2004; 127A (2):149–151

140) **Mammalian sex determination—insights from humans and mice**. Stefanie Eggers & Andrew Sinclair. Chromosome Res (2012) 20:215–238.

141) **R-spondin1 is essential in sex determination, skin differentiation and malignancy.** By Parma P, Radi O, Vidal Vet al. Nat Genet 2006; 38:1304–1309

142) **A WNT4 mutation associated with Mullerian-duct regression and virilization in a 46, XX woman**. By Biason-Lauber A, Konrad D, Navratil F, Schoenle EJ. N Engl J Med 2004; 351:792–798

143) **Mammalian sex determination—insights from humans and mice**. Stefanie Eggers & Andrew Sinclair. Chromosome Res (2012) 20:215–238.

الآن عمليا. ومن هذه الجينات GATA4 و SOX8 و SOX10 و Desert hedgehog (DHH) و DMRT1 و FGF9 و FGFR2 و MAP3K1

والأبحاث فى هذا المجال لا تنتهى ، وكل يوم يشهد نتائج جديدة ومثيرة. والنتيجة الواضحة التى نخرج بها من كل هذا هى أن خلايا الذكور ليست مختلفة تماما عن خلايا الإناث بل بالعكس فما بينهما من تشابه أكبر بكثير جدا مما بينهما من خلاف. والحقيقة الناصعة التى اكتشفها العلم أن كل بذور الأنوثة موجودة داخل الذكور ، كما أن أغلب بذور الذكورة موجودة داخل الإناث. **ومن الممكن لخلايا مبيض السيدة مريم التى لا تحتوى على كروموزوم Y أن ينشأ منها جنين ذكر هو عيسى. هذا الأمر لم يعد من قبيل الخيال كما كان فى الماضى ، إنه أمر فى غاية السهولة.** إن المسألة تشبه شركة تقوم بتصنيع نوع معين من الثياب من خلال سلسلة من الخطوات أولها زراعة القطن. هذه الشركة يمكنها أن تصنع نفس الثياب دون الحاجة إلى تلك الخطوة الأولى وذلك بأن تستورد القطن جاهزا من الخارج ، وبعد ذلك تكمل الصناعة ابتداء من الخطوة الثانية وهى الحلج ثم النسج ثم الخياطة إلى آخر هذه الخطوات. ونفس الشىء من الممكن حدوثه فى الجنين بما يؤدى لتكوين خصية ونمو ذكر دون الحاجة لوجود الخطوة الأولى المتمثلة فى كروموزم Y.

وعلينا أن نعرف أن الجينات كيانات غير ثابتة ، والعلماء اليوم يستطيعون بكل سهولة إحداث التغيرات (الطفرات) فى أى جين يريدون دراسته. كما يمكنهم إدخال جينات للنباتات أو الحيوانات بما يكسبها صفات جديدة لم تكن موجودة فيها من قبل ، كأن يدخلوا جينا يكسب ثمرة الطماطم القدرة على البقاء لفترات طويلة دون أن تفسد ، كما يمكن للعلماء إدخال جينات فى النباتات تكسبها صفة مقاومة الآفات. والتطبيقات فى هذا المجال كثيرة. **وإذا كان الله تعالى قد خلق العلماء الذين يتلاعبون اليوم بالجينات ، فهل تظنه عز وجل عاجزا عن أن يؤثر مثلهم على الجينات؟** ألن يكون من السهل عليه أن يغير من تركيب بعض الجينات فى إحدى بويضات السيدة مريم بما يؤدى إلى تكوين جنين ذكر دون الحاجة إلى كروموزوم Y؟

ولا بد أن نشير إلى أن الذكور الذين اكتشف العلماء أن تركيبهم الوراثى هو XX ليسوا ذكورا كاملين ، وذلك لأن الخصية لديهم يكون حجمها أصغر من خصية الذكور العاديين ، كما أن

إنتاجها من هرمون الذكورة يكون أقل. وإضافة إلى ذلك فإن هؤلاء الذكور لا ينجبون إذا تزوجوا بالرغم من قدرتهم على الجماع ، وذلك لأن الخصية لا تنتج أيا من الحيوانات المنوية لغياب منطقة موجودة على كروموزوم Y اسمها Azoospermia factor[144] ، وهذه المنطقة تحتوى على عدد من الجينات المسئولة عن عملية تخليق الحيوانات المنوية فى الخصية. وعلى ذلك فالمتوقع – إن تركت الأمور لطبيعتها دون مزيد من التدخل من جانب الله – أن يكون نبى الله عيسى عليه السلام عقيما ، وأن تكون نسبة هرمون الذكورة لديه أقل.

وبالنسبة لنقص نسبة هرمون الذكورة فى الرجال الذين لا تحتوى خلاياهم على كروموزوم Y فإن بإمكاننا القول أن هرمون الذكورة لا يكون معدوما لديهم ، وكل ما فى الأمر أن نسبته أقل من الطبيعى ، وهذا أمر شائع لدى كثير من الذكور. وليس من العسير على الله أن يزيد من نشاط الآلية الخلوية المسئولة عن إنتاج هرمون الذكورة لدى عيسى ، والأطباء اليوم يستطيعون زيادة نسبة هرمون الذكورة فى الجسم باستخدام العقاقير. كما أن من الممكن أن يزيد الله فى نفس الوقت من نشاط أكثر من واحد من الجينات المسئولة عن تكوين الخصية مثل SOX9 و SOX3 و Desert hedgehog و GATA4 و DMRT1 و FGF9 و FGFR2. كما يمكن بدلا من ذلك – أو فى نفس الوقت– أن يقوم الله بتقليل نشاط الجينات المضادة المسئولة عن تكوين المبيض مثل WNT4 و R–spondin1 و FOXL2. وفى الحالات المرضية التى نقابلها يكون الرجل XX به بعض النقص فى الذكورة لأن التغير يكون فى جين واحد فقط ، لكن حين يتدخل الله ليغير من نشاط أكثر من جين نفس الوقت فسيكون للذكر خصية ذات حجم طبيعى ، وقادرة على إنتاج هرمون الذكورة بنسب طبيعية جدا.

وبالنسبة لمسألة العقم الذى يصيب الذكور XX لغياب كروموزوم Y ، فإننا فى البداية نقول أنه ليس مما يعيب الرجل العادى أن يكون عقيما ، فكثير من الذكور الذين يعيشون حياتهم الزوجية بشكل طبيعى مصابون بالعقم. وكذلك ليس العقم مما يعيب الأنبياء ، فكلا من إبراهيم وزكريا عليهما السلام عاشا أغلب حياتهما دون أولاد لولا رحمة الله. والله تعالى يقَيم الإنسان بعمله وخلقه وتقواه لا بقدرته على الإنجاب. وفضلا عن ذلك فالله عز وجل كما قلنا ليس أقل قدرة من

---

[144]) **XX males without SRY gene and with infertility**. By N. Abusheikha, A. Lass, and B. Brinsden. *Human Reproduction.* Volume 16. No. 4, Pp 716-717. 2001

العلماء الذين خلقهم. **الله تعالى يستطيع إدخال الجينات المسئولة عن تكوين الحيوانات المنوية لخلايا عيسى كما يفعل العلماء مع النباتات والحيوانات اليوم** كى يكسبوها صفات وراثية لم تكن فى الأصل موجودة فيها ، كأن يكسبوا الأغنام القدرة على تصنيع وإفراز كميات كبيرة من بروتين يسمى "ألفا وان أنتيتريبسن" الذى يستخدم لعلاج بعض مرضى الكبد.

وهكذا تجد عزيزى القارىء أننا نعيش اليوم فى ثورة علمية مكنت العلماء من التلاعب بالجينات ، إما بإدخال جينات جديدة للكائنات الحية أو إزالة جينات غير مرغوب فيها أو باستخدام العقاقير. فهل بعد هذا يمكن أن نندهش حين يقال لنا أن الله تعالى أدخل الجينات المسئولة عن تكوين الحيوانات المنوية (AZF) إلى خلايا عيسى عليه السلام؟ ليس هذا فقط **بل إن الله عز وجل قادر على خلق كروموزوم Y كله فى خلايا عيسى** عليه السلام. فمن السهل تصور أن عيسى نشأ كجنين يحمل كروموزوم واحد X (وهذه حالة شائعة فى الطب) ، ثم **يشاء الله تعالى أن يخلق فى الخلية الأولى كروموزوم Y فيصبح ذكرا طبيعيا جدا XY. وليس هذا عجيبا ، فالله عز وجل ليس أقل شأنا من العلماء الذين باتوا قادرين على تصنيع جينات كاملة (Artificial gene synthesis) بكل سهولة بل تمكنوا فى السنوات الأخيرة من صنع كروموزوم كامل لبعض الكائنات مثل الميكوبلازما** (الكروموزوم يتكون من عدد من الجينات) دون استخدام نسخة جاهزة سابقة. وهذه الخطوة مجرد بداية حيث يطمح العلماء إلى ما هو أبعد: إلى خلق كائنات حية فى المعمل!!

أرأيت عزيزى القارىء كيف أن المسألة ليست مستحيلة؟ أرأيت كيف أن هناك طرقا كثيرة لخلق ذكر من أنثى دون حاجة لأب؟ ها هو العلم الحديث قد فتح كثيرا من المغاليق ، وطرح آليات عديدة لم يكن أحد يتخيلها من قبل. وأنا على يقين أن كل يوم سيحمل لنا تقدما جديدا يحرزه العلم ، **ومن يقرأ كتابى هذا بعد خمسين سنة فقد يجد فيه معلومات قديمة ، لكن المؤكد أن الفكرة العامة ستبقى صحيحة بل ستزداد رسوخا ، وهى أن ولادة عيسى ليست مستحيلة على الإطلاق ، فكل يوم يحقق العلماء على أرض الواقع فكرة كانت يوما ما خيالية.**

فليصمت الملحدون ، وليتركوا العلم يتكلم. الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

كلام عيسى فى المهد

لا غرابة فى اعتقاد المسلم بأن عيسى عليه السلام قد تكلم وهو فى المهد صبيا ، فقد **تمكن العلماء اليوم من إنطاق الحديد** ؛ الإنسان الآلى (الروبوت) يتكلم ، وألعاب الأطفال تتكلم ، والمصعد يتكلم ، والسيارة تتكلم. أصبح من الممكن للمرء أن يكتب أى كلام يريده على الحاسوب، فيقوم الحاسوب بالقراءة ، وكأنه إنسان ذو عين وعقل. أفتستكثرون على الله أن يفعل نفس الشيء مع عيسى؟ أليس إنطاق الإنسان أيسر من إنطاق الجمادات؟ إن كل ما يحتاجه العلماء لجعل الجماد يتكلم هو برنامج حاسوبى معين يتسبب فى صدور أصوات الحروف بنظام معين وتتابع معين ، وهذا شيء بسيط فى عصرنا الحديث.

وإذا ذهبنا إلى كلام الإنسان لوجدنا أنه ينشأ بسبب حدوث نشاط كهربى فى مراكز عصبية خاصة فى المخ هى "منطقة فيرنيك" و"منطقة بروكا"[145]، وهذا النشاط الكهربى ينتقل فى قنوات عصبية خاصة ليصل فى النهاية إلى عضلات الكلام ، وهى عضلات الحنجرة والحلق والطبق واللهاة واللسان والشفتين ، فتقوم هذه العضلات بالانقباض والانبساط بطرق محددة ، فتصدر أصوات الحروف والكلمات. وعلى سبيل المثال لكى ننطق حرف الباء فإن هذا يتطلب تحرك الوترين الصوتيين فى الحنجرة ثم حدوث التصاق للشفتين يعقبه تباعدهما. وحرف الميم يتطلب حركة الوترين الصوتيين ، ثم حركة أقصى الحنك لإخراج الهواء من الأنف. وبالمثل تصدر بقية أصوات الحروف بفعل الحركات المختلفة لعضلات الكلام.

وعلى ذلك فلكى يتكلم عيسى فى المهد فلا بد أن تنقبض عضلات الكلام عنده ، ولكى تنقبض هذه العضلات فلا بد أن تصل إليها من مراكز المخ نبضات كهربية عبر قنوات عصبية خاصة.

ومن السهل اليوم على العلماء إحداث نبضات كهربية فى المخ والأعصاب والعضلات ، وقد كنا نفعل شيئا من هذا بأنفسنا منذ سنين بعيدة ونحن طلبة فى السنة الأولى لكلية الطب بوسائل بسيطة. كما يمكن للعلماء إثارة أو تثبيط مراكز المخ المختلفة من خلال العقاقير ؛ فمثلا عقار الثيوفللين ينبه المخ ويزيد الوعى ، وعقار الميدازولام يصيبه بالخمود والنوم ، وعقار المورفين

[145]) منطقة فيرنيك Wernicke's area مهمتها فهم الكلام المنطوق والمكتوب ، ومنطقة بروكا Broca's area مهمتها إنتاج الكلام.

يقلل الإحساس بالألم. وهناك عقاقير تؤدى إلى انبساط العضلات مثل بانكيورونيوم ، وأخرى تسبب انقباضها مثل نيوستيجمين. ويمكن للعلماء أن يحدثوا انقباضات فى عضلات الكلام إما بإثارة العضلات نفسها ، أو إثارة مراكز الكلام فى المخ ، أو إثارة القنوات العصبية الواصلة بين الاثنين ، والنتيجة واحدة. **ولا أظن أن من العسير على الإله الذى خلق هذا الجسد البديع وهذا المخ العجيب أن يقوم بإحداث نبضات كهربية متتابعة بنظام خاص فى عضلات الكلام لدى عيسى عليه السلام** ، فتنقبض وتنبسط ، ويصدر منها كلمات ذات معان خاصة.

وتوليد التيار الكهربى فى الأعصاب أو العضلات يتم من خلال حركات منظمة للذرات ، حيث تدخل أيونات الصوديوم من خارج الخلية إلى داخلها ، فيحدث انعكاس للاستقطاب الكهربى ، لا يلبث أن ينتقل إلى المنطقة المجاورة ، ثم المنطقة التى تليها ، وهكذا ينتقل التيار الكهربى. ولما يصل هذا التيار إلى العضلة يتدفق الكالسيوم إلى داخل سيتوبلازم الخلايا العضلية ، فيحدث تداخل بين بعض البروتينات ، وتنقبض العضلة.

وفيزياء الكم – كما رأينا فى الفصول السابقة– تسمح بتواجد الذرات فى أى مكان فى أى وقت، وهذا يجعل من الممكن حدوث انقباض لعضلات الكلام متى أراد الله ذلك. باختصار: كلام عيسى فى المهد ليس مستحيلا.

ملحوظة أخيرة: معجزة كلام عيسى فى المهد تعرضت للسرقة ، فقد تم إخفاء هذه المعجزة من الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى النصارى ، وفى المقابل تم إلصاق معجزات مشابهة بتلاميذ عيسى الذين يذكر سفر أعمال الرسل أن الروح القدس حل فيهم بعد صعود المسيح إلى السماء ، فاكتسبوا القدرة على التكلم بلغات أجنبية كثيرة لم يكونوا قد تعلموها من قبل. ومع ذلك فمعجزة كلام عيسى فى المهد مذكورة فى أحد كتب الأبوكريفا (الكتب التى يعتبرها النصارى مزيفة) المسمى بإنجيل الطفولة العربى الذى ورد فيه أن (يسوع تكلَّم حين كان موضوعاً في مزوده وقال لأُمه السيدة مريم: أنا الذي ولدته، أنا يسوع، ابن الله، الكلمة، كما أعلن لك الملاك جبرائيل، وأن أبي أرسلني لخلاص العالم).

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

المعجزات الطبية

يخبرنا القرآن أن موسى عليه السلام أدخل يده فى جيبه فخرجت بيضاء من غير سوء: {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ } [النمل: 12]. كما تمكن إبراهيم عليه السلام من إنجاب إسحاق ، وهو شيخ هرم ، وامرأته عجوز عقيم: {قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} [هود: 72]. وحدثت معجزة مماثلة لزكريا عليه السلام الذى رزقه الله بيحيى بعد أن كبر سنه ، ووهن عظمه: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا} [مريم: 4 – 5]. كما ورد أن عيسى عليه السلام كان يشفى الأكمه (المولود أعمى) والأبرص: {وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ} [آل عمران: 49]

وهذه المعجزات كلها يمكن أن نسميها بالمعجزات الطبية. وقد برهن مرور الزمان على أنها ليست مستحيلة ؛ فقد تمكن الأطباء فى العصر الحديث من علاج كثير من الأمراض المستعصية. لقد نجحوا فى القضاء على مرض الطاعون والجدرى والدفتريا وشلل الأطفال. وصار من الممكن علاج بعض أنواع السرطان ، وأمراض الدم ، وفشل النخاع ، ونقص المناعة ، وكثير من العيوب الخلقية

ومن كان يصدق أن من الممكن نقل كلية أو كبد أو قلب أو رئة من إنسان لإنسان؟ ومن كان يتخيل أن من الممكن إزالة جلطات القلب والمخ؟ ومن كان يصدق أن من الممكن لطفل ولد فى الشهر السادس من الحمل أن يكمل الحياة بعد خروجه من الرحم؟ ومن كان يظن أن من الممكن إعطاء حقن تحول القزم لرجل طويل؟ ومن كان يتخيل أن من الممكن إجراء جراحات تعيد الشباب لامرأة فى الستين وتجعلها تبدو فى الثلاثين؟ ومن كان يتصور وجود دواء يمنع الحمل؟ ومن كان يتصور أن من الممكن شق بطن الأم واستخراج الجنين لإنقاذه من الموت ثم إغلاق بطنها مرة أخرى لتقوم من الفراش بعد ساعات قليلة ، وكأن شيئا لم يكن؟ من كان يصدق أن من الممكن معالجة الجنين بالأدوية قبل أن يولد من بطن أمه؟

ومن كان يحسب أن من الممكن علاج العجز الجنسى؟ لقد كان يُنظر إلى هذا الداء على أنه مرض مستعص ، ومصير محتوم. ولما اخترع دواء الفياجرا كانت ضجة كبرى ، حتى أن كثيرا من الصحفيين والمسئولين لم يصدقوا ما حدث ، وطالبوا بمنع استيراد الفياجرا ظنا منهم أنه دواء ضار ، وفعلا كانت الفياجرا تصل إلى مصر مهربة من الخلاج.

أما عن العقم ، فحدث ولا حرج ؛ لقد أصبح بالإمكان استخراج الحيوان المنوى من الرجل ، وحقنه داخل بويضة المرأة بعد استخراجها ، ثم زراعة الزيجوت داخل الرحم كى ينمو جنينا. بل أصبح من السهل زراعة الجنين داخل رحم امرأة غريبة إن كانت الأم الأصلية لديها مرض يمنعها من الحمل. وصار من الممكن للأم والأب أن يختارا نوع الجنين الذى يريدان أن ينجباه. كما أصبح من الممكن للأطباء أن يجروا التلقيح الصناعى لعدد من بويضات المرأة ، ثم يقوموا بعمل التحاليل الجينية للأجنة فى الأيام الأولى من الحياة ، فيستبعدوا الأجنة المصابة بأمراض وراثية ، ويبقوا على الأجنة السليمة ، ليزرعوها فى الرحم.

ولا يزال العلماء يواصلون أبحاثهم بجد ومثابرة ، وكل يوم نسمع عن اختراع دواء جديد يتفوق على الأدوية القديمة فى الفاعلية ويتلافى الآثار الجانبية. وسيحمل لنا الطب بإذن الله مفاجآت لا حصر لها فى المائة سنة القادمة. ولو بقيت الحياة على الأرض لألف سنة أخرى فسنشهد ما لا يخطر على البال. وما نراه بأعيننا من تقدم مذهل للطب يجبر المرء على تصديق المعجزات التى رواها القرآن بخصوص شفاء بعض الأمراض المستعصية ، فها هى علوم الطب تحقق الأعاجيب ، ولم يعد المستحيل شيء بعيد. وهل تظن أن خالق الأطباء أقل مهارة من الأطباء؟

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الباب الخامس: معجزات نبى الإسلام

الرسول لم يأت بمعجزات مادية

أكد القرآن بكل وضوح أن الله تعالى لم يعط لرسوله عليه الصلاة والسلام معجزات مادية تبرهن على صدق نبوته بل آتاه معجزات عقلية وعلمية وقلبية ، وهاكم الآيات:

1. {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} [الإسراء: 59]
2. {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ} [القصص: 48]
3. { وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [العنكبوت: 50 – 51]
4. {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [الرعد: 7]
5. {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} [الرعد: 27]
6. {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (37) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)} [الأنعام: 37 – 38]
7. {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا} [الفرقان: 7، 8]
8. {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان: 21، 22]
9. {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [البقرة: 118]
10. {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: 203]

11. {وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (133) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى} [طه: 133، 134]

12.{وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ } [الرعد: 31]

13.{وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ } [الأنعام: 111]

14. {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الأنعام: 7]

15. {وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} [يونس: 20]

16. {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ} [فصلت: 53، 54]

17. {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [هود: 12]

وكما ترى فالقرآن يؤكد بشكل قاطع أن محمدا عليه الصلاة والسلام يختلف عن الأنبياء السابقين فى أن برهان نبوته لا يقوم على المعجزات المادية المعتادة. وفى رأينا أن تغير الخطة الإلهية[146] المتبعة لهداية الناس تم لأسباب عديدة من أهمها إخفاق المعجزات المادية كما سنرى فى فصل آخر.

[146] الله تعالى لا يغير خططه بسبب التعلم من التجربة والخطأ ، ولكنه عز وجل يعد خطة مختلفة لكل عصر.

معجزات الرسول فى السُّنة

خلافا للقرآن تؤكد كتب السنة النبوية حدوث عدد من المعجزات المادية للرسول عليه الصلاة والسلام. وسنقوم الآن بعرض هذه المعجزات ، وسيكون أغلبها من صحيح البخارى الذى يُعد أصح الكتب بعد القرآن:

شق القمر

تكلم القرآن عن انشقاق القمر ، فقال: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر : 1]. وقد فهم عامة المفسرين الآية على أنها تشير إلى وقوع انشقاق حقيقى للقمر على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وذلك استنادا لروايات كثيرة وردت فى السنة ، ويلاحظ أن هذه الروايات وصلتنا عن طريق أكثر من صحابى ، وهذا يزيدها قوة ؛ يقول ابن كثير فى معرض تفسيره لانشقاق القمر: "قَدْ كَانَ هَذَا فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَمَا ورد ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ بِالْأَسَانِيدِ الصَّحِيحَةِ".

وأهم هذه الروايات ما يلى:

روى البخارى ومسلم عن **ابن عباس** «أَنَّ القَمَرَ انْشَقَّ عَلَى زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». وروى الشيخان أيضا **عَنْ أَنَسٍ**، قَالَ: «انْشَقَّ الْقَمَرُ فِرْقَتَيْنِ».

وروى البخارى عن **عبد الله بن مسعود** ، قَالَ: انْشَقَّ القَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِقَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشْهَدُوا». وروى البخارى ومسلم عَنِ **ابْنِ مَسْعُودٍ**، قَالَ: انْشَقَّ القَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِرْقَتَيْنِ، فِرْقَةً فَوْقَ الجَبَلِ، وَفِرْقَةً دُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشْهَدُوا» (ولفظ مسلم: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِلْقَتَيْنِ، فَسَتَرَ الْجَبَلُ فِلْقَةً، وَكَانَتْ فِلْقَةٌ فَوْقَ الْجَبَلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُمَّ اشْهَدْ»). وفى رواية أخرى بالبخارى عن **عبد الله بن مسعود** أن هذا الانشقاق كان بمكة: (انْشَقَّ القَمَرُ وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِنًى، فَقَالَ: «اشْهَدُوا».

وروى البخارى **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ:** أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً «فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ القَمَرِ» ، ولفظ مسلم أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً «فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ مَرَّتَيْنِ». وروى البخارى ومسلم **عن أَنَسٍ** أيضا«أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ القَمَرَ شِقَّتَيْنِ، حَتَّى رَأَوْا حِرَاءً بَيْنَهُمَا».

وأخرج ابن حبان عَنْ **عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود** ، قَالَ: (انشقَّ الْقَمَرُ . وَكُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِنًى . حَتَّى ذَهَبَتْ فِلْقَةٌ خَلْفَ الْجَبَلِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم: (اشْهَدُوا) صححه الألبانى. وأخرج ابن حبان أيضا عن **ابن عمر** ، قَالَ: (انشقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم فِرْقَتَيْنِ) ، صححه الألبانى.

وروى الحاكم فى المستدرك عن **عبد الله بن مسعود** قال: (رأيت القمر منشقا بشقتين مرتين بمكة قبل مخرج النبي صلى الله عليه و سلم شقة على أبي قبيس وشقة على السويداء فقالوا : سحر القمر فنزلت: {اقتربت الساعة وانشق القمر} يقول: كما رأيتم القمر منشقا فإن الذي أخبرتكم عن اقتراب الساعة حق) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى.

وروى الحاكم عن **عبد الله بن عمرو** رضي الله عنه في قوله عز وجل: {اقتربت الساعة وانشق القمر} قال: كان ذلك على عهد النبي صلى الله عليه وسلم انشق القمر فلقتين: فلقة من دون الجبل وفلقة خلف الجبل ، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: اللهم اشهد. صححه الذهبى.

وروى الحاكم أيضا عن **جبير بن مطعم** في قوله عز وجل: {اقتربت الساعة وانشق القمر} قال: (انشق القمر ونحن بمكة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم). قال الحاكم: هذه الشواهد لحديث عبد الله بن مسعود كلها صحيحة على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

الماء ينبع من بين أصابع الرسول

روى البخارى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَانَتْ صَلاَةُ العَصْرِ، فَالْتُمِسَ الوَضُوءُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوَضُوءٍ، فَوَضَعَ رَسُولُ

اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ فِي ذَلِكَ الإِنَاءِ، فَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّئُوا مِنْهُ، «فَرَأَيْتُ المَاءَ يَنْبُعُ مِنْ تَحْتِ أَصَابِعِهِ، فَتَوَضَّأَ النَّاسُ حَتَّى تَوَضَّئُوا مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ»[147]

وفى البخارى أيضا عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ: (عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ رِكْوَةٌ فَتَوَضَّأَ، فَجَهِشَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ: «مَا لَكُمْ؟» قَالُوا: لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ وَلاَ نَشْرَبُ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الرِّكْوَةِ، فَجَعَلَ المَاءُ يَثُورُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، كَأَمْثَالِ العُيُونِ، فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا قُلْتُ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً)

و(الركوة) إناء صغير. و(جهش الناس) يعنى سارعوا إلى أخذ الماء. و(يثور) تعنى يفور[148].

وروى البخارى عَنِ البَرَاءِ قَالَ: كُنَّا يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً وَالحُدَيْبِيَةُ بِئْرٌ ، فَنَزَحْنَاهَا، حَتَّى لَمْ نَتْرُكْ فِيهَا قَطْرَةً، فَجَلَسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى شَفِيرِ البِئْرِ «فَدَعَا بِمَاءٍ فَمَضْمَضَ وَمَجَّ فِي البِئْرِ» فَمَكَثْنَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ اسْتَقَيْنَا حَتَّى رَوِينَا، وَرَوَتْ، أَوْ صَدَرَتْ رَكَائِبُنَا

(شفير البئر) يعنى طرفه. و(مج) تعنى ألقى ما في فمه من الماء. و(صدرت ركائبنا) تعنى رجعت إبلنا.

البركة فى الطعام القليل

روى البخارى أن طعاما قليلا أعدته أم سليم للرسول عليه السلام قد أكل منه ثمانون رجلا من الصحابة حتى شبعوا جميعا:

قال أنس بن مالك: (قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لِأُمِّ سُلَيْمٍ لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَعِيفًا، أَعْرِفُ فِيهِ الجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ أَخْرَجَتْ خِمَارًا لَهَا، فَلَفَّتِ الخُبْزَ بِبَعْضِهِ، ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ يَدِي وَلاَثَتْنِي بِبَعْضِهِ، ثُمَّ أَرْسَلَتْنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَذَهَبْتُ بِهِ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي

---

147) روى البخارى أيضا عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: (أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِنَاءٍ، وَهُوَ بِالزَّوْرَاءِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ، «فَجَعَلَ المَاءُ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، فَتَوَضَّأَ القَوْمُ» قَالَ قَتَادَةُ: قُلْتُ لِأَنَسٍ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: ثَلاَثَ مِائَةٍ، أَوْ زُهَاءَ ثَلاَثِ مِائَةٍ). وفى البخارى ايضا عن أنس ، قَالَ: " خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ مَخَارِجِهِ، وَمَعَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَانْطَلَقُوا يَسِيرُونَ، فَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً يَتَوَضَّئُونَ، فَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ، فَجَاءَ بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ يَسِيرٍ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ مَدَّ أَصَابِعَهُ الأَرْبَعَ عَلَى القَدَحِ ثُمَّ قَالَ: «قُومُوا فَتَوَضَّئُوا» فَتَوَضَّأَ القَوْمُ حَتَّى بَلَغُوا فِيمَا يُرِيدُونَ مِنَ الوَضُوءِ، وَكَانُوا سَبْعِينَ أَوْ نَحْوَهُ "

148) معانى كلمات أحاديث البخارى فى هذا الفصل منقولة من تعليق مصطفى البغا على صحيح البخارى ومن كتاب: **التوضيح لشرح الجامع الصحيح** لابن الملقن.

المَسْجِدِ، وَمَعَهُ النَّاسُ، فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ» فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «بِطَعَامٍ» فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ مَعَهُ: «قُومُوا» فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نُطْعِمُهُمْ؟ فَقَالَتْ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَانْطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو طَلْحَةَ مَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلُمِّي يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، مَا عِنْدَكِ» فَأَتَتْ بِذَلِكَ الخُبْزِ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَفُتَّ، وَعَصَرَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ عُكَّةً فَأَدَمَتْهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ» فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ» فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ» فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ» فَأَكَلَ القَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا، وَالقَوْمُ سَبْعُونَ أَوْ ثَمَانُونَ رَجُلًا "

كلمة **(دسته)** تعنى أدخلته بقوة. و**(لاثتني)** تعنى لفت عليّ بعضه، وأدارته عليه يعني: خمارها ، واللوث: الطي، يقال: لاث عمامتة على رأسه يلوثها لوثا: عصبها. و**(عكة)** إناء من جلد يجعل فيه السمن والعسل. **(فأدمته)** جعلته إداما للمفتوت.

البركة تكفى لسداد الدين

روى أن أحد الصحابة جاء يشكو للنبى عليه الصلاة والسلام أن أباه قد مات ، وعليه دَين ، ولم يترك له إلا تمرا فى الأجران أو المخازن ، وهو لا يكفى لسداد الدين ، فدعا له رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فلما جاء الدائنون فوجىء الابن أن التمر فى المخازن يكفى لسداد الديون:

روى البخارى عن جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ أَبَاهُ تُوُفِّيَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: إِنَّ أَبِي تَرَكَ عَلَيْهِ دَيْنًا، وَلَيْسَ عِنْدِي إِلَّا مَا يُخْرِجُ نَخْلُهُ، وَلاَ يَبْلُغُ مَا يُخْرِجُ سِنِينَ مَا عَلَيْهِ، فَانْطَلِقْ مَعِي لِكَيْ لاَ يُفْحِشَ عَلَيَّ الغُرَمَاءُ، فَمَشَى حَوْلَ بَيْدَرٍ مِنْ بَيَادِرِ التَّمْرِ فَدَعَا، ثَمَّ آخَرَ، ثُمَّ جَلَسَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «انْزِعُوهُ» فَأَوْفَاهُمُ الَّذِي لَهُمْ وَبَقِيَ مِثْلُ مَا أَعْطَاهُمْ

(يفحش) من الإفحاش وهو تجاوز الحد في الشيء من الكلام أو غيره. (انزعوه) أخرجوه من البيدر وخذوا منه حقكم]

الرسول يدعو فينزل المطر

روى البخارى عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَصَابَ أَهْلَ المَدِينَةِ قَحْطٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَيْنَا هُوَ يَخْطُبُ يَوْمَ جُمُعَةٍ، إِذْ قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكَتِ الكُرَاعُ، هَلَكَتِ الشَّاءُ، فَادْعُ اللَّهَ يَسْقِينَا، «فَمَدَّ يَدَيْهِ وَدَعَا»، قَالَ أَنَسٌ: وَإِنَّ السَّمَاءَ لَمِثْلُ الزُّجَاجَةِ، فَهَاجَتْ رِيحٌ أَنْشَأَتْ سَحَابًا، ثُمَّ اجْتَمَعَ ثُمَّ أَرْسَلَتِ السَّمَاءُ عَزَالِيَهَا، فَخَرَجْنَا نَخُوضُ المَاءَ حَتَّى أَتَيْنَا مَنَازِلَنَا، فَلَمْ نَزَلْ نُمْطَرُ إِلَى الجُمُعَةِ الأُخْرَى، فَقَامَ إِلَيْهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَوْ غَيْرُهُ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: تَهَدَّمَتِ البُيُوتُ فَادْعُ اللَّهَ يَحْبِسْهُ، فَتَبَسَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا» فَنَظَرْتُ إِلَى السَّحَابِ تَصَدَّعَ حَوْلَ المَدِينَةِ كَأَنَّهُ إِكْلِيلٌ

(لمثل الزجاجة) أي في شدة الصفاء ، أي ليس فيها شيء من السحاب. (عزاليها) جمع عزلاء وهي فم القربة من أسفلها. (يحبسه) يمنع المطر. (تصدع) تشقق.

جذع النخلة يبكى لفراق الرسول

روى أن الرسول عليه السلام كان يخطب فى المسجد على جذع نخلة ، فلما صنع له المسلمون منبرا ترك الجذع ، فسمع المسلمون الجذع وهو يبكى لفراق الرسول له.

روى البخارى عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، أَوْ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلاَ نَجْعَلُ لَكَ مِنْبَرًا؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتُمْ»، فَجَعَلُوا لَهُ مِنْبَرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى المِنْبَرِ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّنُ. قَالَ: «كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا»[149]

[149]) روى البخارى أيضا عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ: «كَانَ المَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ، فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ المِنْبَرُ وَكَانَ عَلَيْهِ، فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ العِشَارِ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ»

الرسول يعلم مقدما بنبأ مقتل أصحابه

فى غزوة مؤتة استشهد جعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة ، فعلم الرسول بالخبر قبل وصوله. روى البخارى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَعَى جَعْفَرًا، وَزَيْدًا قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ خَبَرُهُمْ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ "

سراقة بن مالك يتعثر

أثناء هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام وأبى بكر من مكة إلى المدينة طاردهما سراقة بن مالك فدعا عليه الرسول ، فسقط فرسه ، فرجاه سراقة أن يدعو الله تعالى كى ينجيه مقابل أن يضلل الكفار ، ويصرفهم عن ملاحقته ، ففعل الرسول ، ووفى سراقة بعهده:

روى البخارى عن البراء بن عازب أن أبا بكر قال: (....وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ، فَقُلْتُ: أُتِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» فَدَعَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَارْتَطَمَتْ بِهِ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا – أُرَى – فِي جَلَدٍ مِنَ الأَرْضِ، – شَكَّ زُهَيْرٌ – فَقَالَ: إِنِّي أُرَاكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ، فَادْعُوَا لِي، فَاللَّهُ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ، فَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَجَا، فَجَعَلَ لاَ يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا قَالَ: قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هُنَا، فَلاَ يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا رَدَّهُ، قَالَ: وَوَفَى لَنَا)

أيهما نصدق: القرآن أم السنة؟

بدا لى ذات يوم أن هناك تعارضا صارخا بين القرآن والسنة فيما يتعلق بالمعجزات المادية لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، فالقرآن ينفى نفيا متكررا قاطعا وجود معجزات مادية ، بينما تفيض كتب السنة بهذه المعجزات.

كان الحل الأسهل بالنسبة لى أن أطرح السنة جانبا ، وأنحاز إلى القرآن باعتباره المرجع الأول للمسلمين. ولكن ما جعلنى أتردد هو أن الأحاديث التى تثبت معجزات الرسول المادية وردت فى أصح كتب الحديث أى فى البخارى ومسلم ، وهو ما يجعل المرء يفكر ألف مرة قبل أن يُقدم على هذه الخطوة. وبسبب انشغالى فى كثير من القضايا الإسلامية الأكثر أهمية أرجأت التفكير

فى هذه المسألة لسنوات عديدة. ولما شاء الله تعالى بدأت أعيد فحص المشكلة بشكل عميق فهدانى الله عز وجل للحل.

كان أول خيط قادنى لحل اللغز هو أن **القرآن لا يتعارض مع السنة فقط فيما يخص المعجزات المادية ، ولكن القرآن يتعارض ظاهريا مع نفسه أيضا** ، والموضع الذى يظهر فيه هذا التعارض الظاهرى هى تلك الآية الرائعة من سورة الإسراء التى هى أعمق ما ورد فى القرآن بشأن معجزات الرسول. قال تعالى:

{وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا } [الإسراء: 59، 60]

إن الآية 59 من سورة الإسراء تخبرنا أن الله تعالى لم يرسل لنبيه محمد عليه السلام آيات مادية تقليدية ، أما الآية التالية فتؤكد العكس حيث تثبت وقوع الإسراء والمعراج ، وهو حدث خارق للعادة. إذن **من الخطأ القول بأن القرآن ينفى وقوع أحداث خارقة للعادة للرسول بينما السنة تثبتها ، والصحيح أن القرآن – مثله مثل السنة– يثبت للرسول أمورا مادية خارقة للعادة.**

وبمواصلة التأمل فى نص آيات سورة الإسراء نلاحظ أن الهدف من تنظيم الله تعالى لرحلة الإسراء والمعراج لم يكن تحدى الكفار ولا البرهنة لهم على صدق الرسول ، ولكن الهدف كان فتنة الناس ، أى اختبار قدرة كل منهم على التصديق بالغيب. وقد رأينا كيف أدى سماع خبر الإسراء والمعراج بالكفار إلى مزيد من التكذيب ، كما أدى لارتداد بعض المؤمنين ، وتسبب فى المقابل فى مزيد من الثبات لمؤمنين آخرين على الحق مثلما كان من أبى بكر الصديق[150].

[150]) روى عَنْ عَائِشَةَ أنها قالت: " لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة. فلذلك سمي أبو بكر الصديق ". أخرجه الحاكم (3 / 62) من طريق محمد بن كثير الصنعاني ، وقال: "صحيح الإسناد ". ووافقه الذهبي. والصنعانى "صدوق كثير الغلط "، لكنه قد توبع ، فحديثه لذلك صحيح. انظر: **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها** (1/ 615) للألبانى.

ومن هنا يمكننا أن نستخلص نتيجة فى غاية الأهمية وهى أن **القرآن حين نفى مرارا إرسال آيات للناس على يد محمد عليه الصلاة والسلام فإنه كان يقصد بالآيات "تلك الأمور الخارقة للعادة التى ترمى إلى تحدى الكفار ، والبرهنة لهم على صدق الرسول" ، لكن هذا لا يمنع أن يجرى الله تعالى أمورا خارقة للعادة على يد الرسول لأهداف أخرى.**

والرسول هنا يشبه رجل أعمال ثرى ترشح للبرلمان ، فقرر أن يؤسس حملته الانتخابية على مكافحة الفساد وسن تشريعات تيسر الحياة على المواطنين ، وفى نفس الوقت قرر أن ينحى جانبا بشكل كامل إمكانياته المالية ، خلافا لأغلب رجال الأعمال الذين يعتمدون على التبرعات والهبات كوسيلة أساسية للنجاح فى الانتخابات ، فتراهم يغدقون الأموال على المدارس والمستشفيات كى يكتسبوا شعبية بين الناخبين. ومن هذا القبيل أيضا طبيبة جميلة تقدمت للعمل بإحدى المستشفيات ، فذهبت إلى مقابلة شخصية مع المدير وهى ترتدى النقاب ، فهذه الطبيبة تمتلك مؤهل الجمال ، لكنها نحَّت هذا المؤهل جانبا ، وتقدمت بكل ثقة للوظيفة معتمدة أولا وأخيرا على خبرتها الطبية. **إذن من الممكن للمرء أن يكون صاحب مؤهلات كبيرة وقدرات عظيمة ، لكنه لا يستخدمها لتحقيق أهدافه ، ويستخدم بدلا منها وسائل أخرى. وبالمثل كان الله تعالى يصنع أمورا خارقة للعادة للرسول عليه الصلاة والسلام ، لكنه لم يتخذ من هذه الأمور الخارقة وسائل يبرهن بها للكفار على صدق نبوته.**

وإذا واصلنا التماس الشواهد على هذه النتيجة المهمة لوجدنا أن القرآن أورد مثالا مشابها ، **ففى غزوة بدر وقع أمر آخر خارق للعادة دون أن يكون الهدف من ورائه تحدى الكفار وإثبات نبوة محمد عليه السلام لهم:** لقد تلاعب الله عز وجل بأعين الفريقين فجعل الكفار يرون أن عدد المسلمين أقل من عددهم الحقيقى كى يزدادوا غرورا وتكاسلا ، كما جعل المؤمنين يرون الكفار أقل من عددهم الحقيقى حتى لا تأخذهم الرهبة والهلع:

{إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [الأنفال: 43، 44]

وهناك مثال ثالث نجده فى سورة التحريم التى ورد فيها أن النبى عليه الصلاة والسلام علم أن إحدى زوجاته أفشت حديثا خاصا له رغم أنه لم يكن حاضرا وقت الإفشاء ، وهذا أمر خارق للعادة ، لكنه لا يعتبر معجزة لأن المقصود به لم يكن التحدى والبرهنة على صدق الدين: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} [التحريم: 3]

وعلى ذلك فالتعريف الصحيح للمعجزة المادية (أو الآية باصطلاح القرآن) فى الإسلام ليست فقط أنها حدث خارق للعادة ولكنه حدث خارق للعادة على سبيل التحدى والبرهنة على صدق قضايا الدين ، ولهذا فكل ما ورد فى السنة من أمور خارقة جرت على يد الرسول لا ينطبق عليها مصطلح "معجزة" أو "آية" لأنها لم تحدث بغرض تحدى الكفار وتأييد الدين ، فقد وقعت كلها أمام أعين المسلمين. وعلى هذا فلا يوجد تناقض بين القرآن والسنة فى هذا الصدد ، فالقرآن ينفى مجىء الرسول بالآيات (المعجزات المادية) ، وكل ما تثبته السنة هو وجود حوادث خارقة للطبيعة لكنها لا تستوفى شروط المعجزة لأنها لم تكن بغرض التحدى وإثبات النبوة.

ولكن يثور هنا سؤال مهم: ألم يكن شق القمر شكلا من أشكال تحدى الكفار لما رواه الشيخان عن أنس بن مالك أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً «فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ مَرَّتَيْنِ»؟

ونحن نرد على ذلك قائلين أن حادثة انشقاق القمر رويت عن جمع من الصحابة هم عبد الله بن مسعود وأنس بن مالك وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وجبير بن مطعم. **ومن بين كل هؤلاء الرواة انفرد أنس بن مالك وحده بالقول بأن شق القمر تم كرد على كفار مكة الذين طلبوا آية من الرسول** ، أما بقية الرواة فلا يذكر أى منهم أى شىء عن طلب الكفار لآية من الرسول ، وكل ما يقولونه أن انشقاق القمر وقع فى زمان إقامة الرسول بمكة ، وواضح من كلامهم أن الرسول استغل هذا الحادث للبرهنة على قيام الساعة على اعتبار أنه طالما جاز أن ينشق القمر فليس ببعيد أن يطول الدمار كل شىء آخر فى الكون يوم تقوم الساعة. **وقواعد علم الحديث توجب علينا أن نترك رواية الراوى الثقة إن خالف عددا أكبر من**

الرواة الثقات ، ولذا فنحن نأخذ برواية الأغلبية ، ونرفض رواية أنس بن مالك عن انشقاق القمر التى تذكر أن الله شق القمر لما طلب المشركون آية من الرسول.

ثم إن أنس بن مالك كان من صغار الصحابة ، ولم يعايش واقعة شق القمر بنفسه ، بل سمعها من غيره لأن شق القمر حدث فى مكة قبل الهجرة ، ومن المعروف أن أنس بن مالك كان عمره ثمان سنوات حين قدم الرسول عليه السلام إلى المدينة فأهدته له أمه ليخدمه.[151] وعلى ذلك **فأولى الروايات بالتصديق هى رواية عبد الله بن مسعود لأنه من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وكان موجودا فى مكة قبل الهجرة ، وكان بالتالى شاهدا أقرب للمعجزة من غيره من الرواة.**

إن انشقاق القمر يجب أن يُنظر إليه على أنه كارثة طبيعية مثلها مثل الزلازل والبراكين والصواعق والأعاصير. ولما انشق القمر شاهده الرسول وأهل مكة ، فاستغل الرسول هذه الظاهرة الكونية ليثبت للكفار أنه إذا كان من الممكن للقمر أن ينشق ويتحطم فما الذى يمنع من تدمير كل ما فى السماء وما على الأرض يوم القيامة؟ الرسول هنا يستغل الأحداث الكونية فى إثبات صدق قضايا الدين.

ومن المهم جدا أن نلاحظ أن نبينا محمدا لم يكن مثل موسى عليهما السلام ، فهو لم يمسك بعصا مشيرا بها إلى القمر كى ينشق ، ولم يشر إلى القمر حتى بيده أو إصبعه ، كما لم يرفع الرسول يديه إلى السماء قائلا: (اللهم شق القمر كى يصدقوك) أسوة بعيسى الذى دعا الله أن ينزل عليه آية المائدة ، وكل هذا يدل على أن محمدا عليه الصلاة والسلام لم يكن يريد أن يثبت أنه هو الذى أحدث انشقاق القمر ، ولم يكن يبغى أن يقول للكفار: (أنا أتحداكم بمعجزة تدل على صدق الإسلام).

خلاصة القول: لا يوجد تعارض بين القرآن والسنة فى هذه المسألة.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

---

[151]) **"تهذيب الكمال في أسماء الرجال"** للمزى.

الباب السادس: المعجزة والكرامة

ورد فى التراث الإسلامى أخبار عن وقوع حوادث خارقة للعادة على أيدى كثير من المؤمنين الصالحين ، اتفق على تسميتها بالكرامات. ولا شك أن كثيرا من هذه الأخبار ليست أكثر من مبالغات وإشاعات ، راجت بشكل خاص فى الفترة التى انتشرت فيها عبادة الأولياء وتقديس القبور[152]. وقد حكى لنا آباؤنا فى سن الطفولة عن قصة رجل صاحب جرار زراعى تجرأ يوما ، وقال عن أحد الأولياء الذين يقدس الناس قبرهم فى قريتنا: (لو كان هذا وليا بحق فليوقف هذا الجرار عن العمل). وبمجرد ما أنهى صاحب الجرار الجملة توقف الجرار على فجأة ، وفشلت محاولات إصلاحه تماما ، وتعطلت عملية درس القمح ، وخسر الرجل ، فصارت قصة يتحاكى بها الناس كدليل على كرامات هذا الولى صاحب المقام المقدس. ويبدو أن هذه القصة كانت من وحى الخيال ، فقد مرت السنوات ، فتصدع المسجد المجاور للمقام ، وشرع الناس فى إعادة بنائه ، فهجم بعضهم على المقام وحطموه ، ولم يتركوا له أثرا حتى اليوم ، ولم يحدث لأى منهم مكروه.

وقد مررت شخصيا بتجربة من هذا النوع ، ففى أحد الأيام أبدى أحد أقاربى لأبنائه تعجبا شديدا من أن هذا العام سيأتى فيه تاريخ غريب هو 2009/9/9 ، أى التاسع من سبتمبر عام 2009م. وكانت هذه بالنسبة له مصادفة غريبة جدا. وطبعا لم يكترث أحد من أولاده بهذا الكلام، ولكن ظل الرجل يكرر هذا التاريخ 2009/9/9 إلى أن جاء يوم 9 سبتمبر فمات الرجل. وهنا ذهل الأولاد مما حدث ، فكأن الرجل كان يتكلم بكلام ألقى إليه من السماء ، وهو لا يدرى. ولما فكرت فى الواقعة اندهشت أكثر لأن هناك تواريخ مشابهة لكن هذا الرجل الصالح لم ينتبه إليها مثل 2006/6/6 أو يوم 2007/7/7 أو 2008/8/8 ، ولكن الغريب أن ذهن الرجل اتجه فقط إلى اليوم الذى سيتوفى فيه رغم أنه لم يكن يدرى ما الذى ينتظره.

وإذا كان من الصعب علينا أن نحكم على مئات القصص التى يتناقلها الناس عن كرامات الصوفية والصالحين ، فإننا سنعود إلى السنة النبوية كى نلتمس الأخبار الصحيحة التى تثبت

---

[152]) من يطلب من الميت أن يرزقه ويشفيه ويزوجه ويحفظه هو فى الحقيقة يعبد هذا الميت من دون الله حتى لو نطق بالشهادتين. والحمد لله الذى نجى المسلمين من هذا البلاء.

وجود الكرامات. **ولاحظ جيدا عزيزى القارىء كيف أن الكرامات التى سنوردها الآن تمثل انحرافا خفيفا عن المألوف ، وخرقا غير صارخ للعادة ، وهذا يجعلها أكثر ضآلة من معجزات الأنبياء المعروفة.** والآن نورد ما جمعناه من هذه الكرامات:

1–روى البخارى فى صحيحه عَنْ أَنَسٍ: «أَنَّ رَجُلَيْنِ، خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ **وَإِذَا نُورٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا، حَتَّى تَفَرَّقَا، فَتَفَرَّقَ النُّورُ مَعَهُمَا»**. وهذان الرجلان هما أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ كما روى البخارى من طريق آخر عن أنس.

2–رُوى أيضا أن **أحد الصحابة لما قرأ القرآن رأى سحابة فى السماء بها أنوار ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها الملائكة جاءت تستمع لتلاوته:** روى البخارى عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ، قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، **فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ المَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لاَ أَرَاهَا، قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟»، قَالَ: لاَ، قَالَ: «تِلْكَ المَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ**، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لاَ تَتَوَارَى مِنْهُمْ». وفى رواية مسلم يقول أسيد بن حضير: **(فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا).**

(جالت): اضطربت بشدة. (اجتره): جره ، أى أن أسيد بن حضير جر ابنه من المكان الذى كان فيه حتى لا يطأه الفرس. (اقرأ يا ابن حضير) أي كان ينبغي لك أن تستمر في القراءة ، وتغتنم مَا حصل لَك من نزُول السكينَة وَالْمَلَائِكَة. (فانصرفت إليه) إلى ابنه يحيى. (الظلة) السحابة. (المصابيح) جمع مصباح وهو الضوء. (دنت) اقتربت. (ولو قرأت) استمررت بالقراءة. (تتوارى) تختفى[153].

3–روى كذلك أن **أحد الصحابة أحس بأنه سيكون أول من يقتل من المسلمين فى غزوة أحد ، فتحقق بالفعل ما أحس به. وبعد ستة أشهر استخرج ابن هذا الصحابى جثة أبيه ، ففوجىء بأن الجثة سليمة لم تتحلل باستثناء أثر بسيط فى أذنه:**

---

[153]) **عمدة القاري شرح صحيح البخاري** (20/ 36). تأليف بدر الدين العينى.

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا حَضَرَ أُحُدٌ دَعَانِي أَبِي مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: مَا أُرَانِي إِلَّا مَقْتُولًا فِي أَوَّلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنِّي لاَ أَتْرُكُ بَعْدِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ، غَيْرَ نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ عَلَيَّ دَيْنًا فَاقْضِ، وَاسْتَوْصِ بِأَخَوَاتِكَ خَيْرًا، «فَأَصْبَحْنَا، فَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ وَدُفِنَ مَعَهُ آخَرُ فِي قَبْرٍ، ثُمَّ لَمْ تَطِبْ نَفْسِي أَنْ أَتْرُكَهُ مَعَ الآخَرِ، فَاسْتَخْرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَإِذَا هُوَ كَيَوْمِ وَضَعْتُهُ هُنَيَّةً غَيْرَ أُذُنِهِ». رواه البخارى.

(لم تطب نفسى): لم تكن نفسى تشعر بالراحة. (هنية): تصغير (هنا)، أي: قريبًا من وقت وضعته ، والمعنى: كهيئته يوم وضعته. وقوله: (كيوم وضعته هنيَّة غَيْرَ أُذُنِهِ) معناه: غير أثر يسير غيرته الأرض من أذنه[154].

4–حدث ذات مرة أن استضاف أبو بكر الصديق فى بيته ثلاثة من فقراء المسلمين من أهل الصفة، فأكلوا وشبعوا من الطعام هم وآل بيت أبى بكر، لكن الطعام لم ينقص بل زاد ، فذهب أبو بكر بالطعام المتبقى للرسول عليه الصلاة والسلام ، فكان كافيا لأن يأكل منه عدد أكبر من ضيوف الرسول.

روى البخارى ومسلم – واللفظ للبخارى– عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ، كَانُوا أُنَاسًا فُقَرَاءَ وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَإِنْ أَرْبَعٌ فَخَامِسٌ أَوْ سَادِسٌ» وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلاَثَةٍ، فَانْطَلَقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَشَرَةٍ، قَالَ: فَهُوَ أَنَا وَأَبِي وَأُمِّي – فَلاَ أَدْرِي قَالَ: وَامْرَأَتِي وَخَادِمٌ – بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ لَبِثَ حَيْثُ صُلِّيَتِ العِشَاءُ، ثُمَّ رَجَعَ، فَلَبِثَ حَتَّى تَعَشَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَ بَعْدَ مَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: وَمَا حَبَسَكَ عَنْ أَضْيَافِكَ – أَوْ قَالَتْ: ضَيْفِكَ – قَالَ: أَوَمَا عَشَّيْتِيهِمْ؟ قَالَتْ: أَبَوْا حَتَّى تَجِيءَ، قَدْ عُرِضُوا فَأَبَوْا، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنَا فَاخْتَبَأْتُ، فَقَالَ يَا غُنْثَرُ فَجَدَّعَ وَسَبَّ، وَقَالَ: كُلُوا لاَ هَنِيئًا، فَقَالَ: وَاللَّهِ لاَ أَطْعَمُهُ أَبَدًا، وَايْمُ اللَّهِ، مَا كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إِلَّا رَبَا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا – قَالَ: يَعْنِي حَتَّى شَبِعُوا – وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ فَإِذَا هِيَ كَمَا هِيَ أَوْ أَكْثَرُ مِنْهَا، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: يَا أُخْتَ بَنِي فِرَاسٍ مَا هَذَا؟ قَالَتْ: لاَ وَقُرَّةِ عَيْنِي، لَهِيَ الآنَ أَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ بِثَلاَثِ مَرَّاتٍ، فَأَكَلَ مِنْهَا أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ – يَعْنِي يَمِينَهُ – ثُمَّ أَكَلَ

---

[154]) **التوضيح لشرح الجامع الصحيح** (10/ 72). تأليف ابن الملقن سراج الدين أبو حفص الشافعي المصري.

مِنْهَا لُقْمَةً، ثُمَّ حَمَلَهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ، وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمٍ عَقْدٌ، فَمَضَى الأَجَلُ، فَفَرَّقَنَا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُنَاسٌ، اللَّهُ أَعْلَمُ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ، فَأَكَلُوا مِنْهَا أَجْمَعُونَ، أَوْ كَمَا قَالَ.

(الصفة) هي مكان مقتطع من المسجد ومظلل عليه كان يأوي إليه الغرباء والفقراء من الصحابة رضي الله عنهم ويبيتون فيه وكانوا يقلون ويكثرون ويسمون أصحاب الصفة. (فليذهب بثالث) يأخذ معه واحدا من أهل الصفة فيصبحون ثلاثة. (وإن أربع) أي عنده طعام أربع. (عرضوا) عرض عليهم الطعام. (يا غنثر) يا ثقيل أو يا جاهل. (فجدع) أي دعا على ولده بالجدع وهو قطع الأنف أو الأذن أو الشفة ظنا منه أنه قصر في حق الأضياف. (وأيم الله) يمين الله. (ربا) زاد الطعام وكثر. (يا أخت بني فراس) يا من هي من بني فراس واسمها زينب بنت دهمان. (وقرة عيني) يعبر بها عن المسرة ورؤية ما يحبه الإنسان. (عقد) عهد مهادنة. (فمضى الأجل) أي وجاؤوا إلى المدينة. (ففرقنا) عند مسلم (فعرفنا) أي جعلنا عرفاء ونقباء على قومهم. (أو كما قال) عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه والشك من أبي عثمان أحد الرواة[155].

5- روى أن **الصحابة كانوا على عهد رسول الله يسمعون الطعام وهو يسبح لله عز وجل**. روى البخارى عن علقمة عن عبد الله: (وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ).

6- **روى أن أحد الصحابة دعا على امرأة - خاصمته ظلما - فدعا عليها بأن تفقد البصر وأن يكون قبرها فى بيتها فاستجاب الله له:** روى مسلم عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، أَنَّ أَرْوَى خَاصَمَتْهُ فِي بَعْضِ دَارِهِ، فَقَالَ: دَعُوهَا وَإِيَّاهَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ، طُوِّقَهُ فِي سَبْعِ أَرَضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، اللهُمَّ، إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَأَعْمِ بَصَرَهَا، وَاجْعَلْ قَبْرَهَا فِي دَارِهَا، قَالَ: " فَرَأَيْتُهَا عَمْيَاءَ تَلْتَمِسُ الْجُدُرَ تَقُولُ: أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، فَبَيْنَمَا هِيَ تَمْشِي فِي الدَّارِ مَرَّتْ عَلَى بِئْرٍ فِي الدَّارِ، فَوَقَعَتْ فِيهَا، فَكَانَتْ قَبْرَهَا "

7- روى أن مولى لرسول الله عليه الصلاة والسلام اسمه سفينة تخلف عن جيش المسلمين فى بلاد الروم ، وبينما هو يبحث عن الجيش قابله أسد ، **فكلم الصحابى الأسد ، وعرفه أنه مولى رسول الله ، فرضخ الأسد ولم يصبه بسوء** ، بل مشى بجانبه ، وكأنه يحميه إلى أن عثر على جيش المسلمين ، ثم رجع الأسد.

---

[155]) انظر تعليق مصطفى البغا على صحيح البخارى (1/ 124).

عَنِ ابْنِ الْمُنْكَدِرِ ، أَنَّ سَفِينَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْطَأَ الْجَيْشَ بِأَرْضِ الرُّومِ ، أَوْ أُسِرَ فِي أَرْضِ الرُّومِ ، فَانْطَلَقَ هَارِبًا يَلْتَمِسُ الْجَيْشَ ، فَإِذَا هُوَ بِالأَسَدِ ، فَقَالَ لَهُ : أَبَا الْحَارِثِ، إِنِّي مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مِنْ أَمْرِي كَيْتَ وَكَيْتَ ، فَأَقْبَلَ الأَسَدُ لَهُ بَصْبَصَةٌ حَتَّى قَامَ إِلَى جَنْبِهِ كُلَّمَا سَمِعَ صَوْتًا ، أَهْوَى إِلَيْهِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى بَلَغَ الْجَيْشَ ، ثُمَّ رَجَعَ الأَسَدُ ". رواه البغوى فى شرح السنة ، وصححه الألبانى[156].

(أَخْطَأَ الْجَيْشَ) ، أَيْ: أَضَلَّ طَرِيقَهُ بِحَيْثُ لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِمْ سَبِيلًا (فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَارِثِ) وَهُوَ كُنْيَةُ الْأَسَدِ (فَأَقْبَلَ الْأَسَدُ، لَهُ بَصْبَصَةٌ) ، أَيْ: تَحْرِيكُ ذَنَبٍ كَفِعْلِ الْكَلْبِ تَمَلُّقًا إِلَى مَالِكِهِ، وَتَذَلُّلًا لِصَاحِبِهِ. وَفِي النِّهَايَةِ: بَصْبَصَ الْكَلْبُ بِذَنَبِهِ إِذَا حَرَّكَهُ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِطَمَعٍ أَوْ خَوْفٍ (إِلَى جَنْبِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ) ، أَيِ: الْأَسَدُ (صَوْتًا أَهْوَى إِلَيْهِ) ، أَيْ: قَصَدَهُ لِيَدْفَعَهُ إِنْ كَانَ صَوْتَ أَذًى (ثُمَّ أَقْبَلَ! يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ) ، أَيْ: إِلَى جَانِبِ سَفِينَةَ[157].

8–حدث ذات مرة أن **عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وهو يخطب فى الناس تكلم فجأة بكلام خارج السياق حيث نادى على أحد قادته العسكريين الذين يبعدون عنه آلاف الأميال ، ورغم هذا البعد الكبير وصل كلام عمر إلى قائده ، فاستفاد منه عسكريا:**

روى أن عمر بن الخطاب وجه جيشا ورأس عليهم رجلا يقال له : (سارية) قال : فبينما عمر يخطب فجعل ينادي : يا سارية الجبل يا سارية الجبل (ثلاثا) ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر؟ فقال: يا أمير المؤمنين هزمنا فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مناديا : يا سارية الجبل (ثلاثا) فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله . قال : فقيل لعمر : إنك كنت تصيح بذلك . وهذا إسناد جيد حسن كما قال ابن كثير في " البداية " ومن هذا الوجه رواه البيهقي في " الدلائل "[158].

9–**روى أن الأسود العنسى – الذى ادعى النبوة باليمن – أمر بإحراق أحد المسلمين فى النار، لكن المسلم خرج منها سالما دون أن يمسسه سوء**. ورغم أن هذا المسلم الذى جرت له الكرامة لم يكن من الصحابة إلا أن الواقعة حدثت فى زمن أبى بكر وعمر اللذين علما بها وفرحا.

---

156) **مشكاة المصابيح** (1676/3). تأليف محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي.

157) **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح** (9/ 3838).

158) وكل ما يروى عن عمر في هذه القصة سوى هذا فلا يثبت مثل ما جاء في " روض الرياحين " (ص 25) أنه كشف لعمر عن حال سارية وأصحابه من المسلمين وحال العدو فإنه لا أصل له وإنما هو من ترهات الصوفية لدعم كشوفاتهم المزعومة . انظر :**"الآيات البينات في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات"**. تحقيق محمد ناصر الألبانى. صفحة 112.

ورد فى تاريخ دمشق أن الأسود بن قيس بن ذي الحمار تنبأ باليمن ، فبعث إلى أبي مسلم الخولاني فأتاه فقال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال ما أسمع. قال أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال نعم. قال فأمر بنار عظيمة ، ثم ألقى أبا مسلم فيها ، فلم تضره ، فقيل للأسود بن قيس: إن تنف هذا عنك أفسد عليك من اتبعك. فأمره بالرحيل ، فقدم المدينة وقد قبض النبي (صلى الله عليه وسلم) واستخلف أبو بكر ، فأناخ راحلته بباب المسجد ، ودخل المسجد فقام يصلي إلى ساريه فبصر به عمر بن الخطاب فقام إليه فقال: ممن الرجل؟ فقال: من أهل اليمن. فقال: ما فعل الذي حرقه الكذاب بالنار؟ قال ذاك عبد الله بن ثوب. قال: فنشدتك بالله أنت هو؟ قال: اللهم نعم. قال: فاعتنقه عمر وبكى ، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر الصديق فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) من صنع به كما صنع بإبراهيم خليل الرحمن. قال ابن عياش: فأنا أدركت رجالا من الأمداد الذين مدوا من اليمن من عنس وخولان ، فكان الخولانيون يقولون للعنسيين: صاحبكم الكذاب الذي أحرق صاحبنا بالنار فلم تضره[159].

وهذه القصة لم ترو فى كتب السنة الرئيسية ، وإنما وردت فقط – على حد علمنا– فى "تاريخ دمشق" لابن عساكر وفى كتاب "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" وكتاب "الاستيعاب فى معرفة الأصحاب" لابن عبد البر. والأسانيد عند الثلاثة تلتقى عند عبد الوهاب بن نجدة الحوطى عن إسماعيل بن عياش عن شرحبيل بن مسلم الخولانى. وشرحبيل بن مسلم الخولانى اختلف فيه ، فضعفه يحيى بن معين ، ووثقه أحمد وغيره مثل ابن نمير.[160] ولا يمكننا أن نثق بقوة فى هذه الواقعة.

وبعد ، فلعلك لاحظت عزيزى القارىء أن هذه الكرامات التى حدثت للصحابة رضوان الله تعالى عليهم تدخل فى باب الخوارق اللطيفة غير الفجة للعادة.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

---

[159]) **تاريخ دمشق** لابن عساكر (27/ 200).

[160]) انظر: **ميزان الاعتدال فى نقد الرجال** (2/ 267) لشمس الدين الذهبى . انظر كذلك: **إكمال تهذيب الكمال** (6/ 232) تأليف علاء الدين مغلطاي.

الباب السابع: المعجزة والسحر

أعمال السحر يقوم بها إنسان على اتصال بالجان. والجن بطبيعتهم يتمتعون بقدرات أفضل من تلك التى يتمتع بها الناس ، فهم يرون الإنسان ولا يراهم الإنسان: {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ} [الأعراف: 27]. وهم يستطيعون النفاذ إلى عقله والوسوسة له ، وهم قادرون على الطيران فى السماء: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا} [الجن: 8]. وهذا القدرات الذاتية كافية وحدها لتأهيل الجن للقيام بأعمال خارقة.

وإضافة إلى هذه المهارات فإن الجن يسعون إلى الاستزادة من العلوم التى تمنحهم القدرة على عمل الخوارق ، فقد أخبرنا الله تعالى أن الشياطين أخذوا من الكتاب الذى أنزله الله تعالى على الملكين هاروت وماروت: {وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ} [البقرة: 102]. وفى إحدى الآيات يخبرنا القرآن أن بعض الجن كان لديه "علم من الكتاب" مكنه من أن يحضر عرش ملكة سبأ فى لمح البصر لنبى الله سليمان فى الشام: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} [النمل: 40]. والشياطين تطير فى السماء فى محاولة للتنصت ومعرفة ما يدور فى الملأ الأعلى ، ولكن الله تعالى سخر لها الشهب لتمنعها من تحقيق مبتغاها إلا قليلا: {لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} [الصافات: 8 – 10]. كما عمل الجن لسليمان عليه السلام أعمالا عجيبة ، قال تعالى: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ } [سبأ: 13]. وقال: {وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ} [الأنبياء: 82]

وإذا كان الجن يتمتعون بقدرات هائلة فهذا لا يعنى بالضرورة أنهم قادرون على التدخل فى عالمنا الطبيعى بطريقة خارقة للعادة. والحقيقة أن الله تعالى بشكل عام يمنع الجن من أن يؤثروا بقدر ملحوظ فى حياة البشر لأن الله عز وجل أراد لهذه الحياة أن تسودها المادية والسببية ، وهذا هو الاختبار الوجودى الأعظم الذى وضع فيه الإنسان ، فقد أراد الله تعالى أن يرى هل يغتر الإنسان بما لديه من علم وتحكم فى الحياة على الأرض أم يشكر ربه ويخضع لخالقه. ولو ترك الله تعالى الجن يحققون رغباتهم ويتصرفون حسب أهوائهم فى الدنيا لامتلأت حياة الناس

بالخوارق والأعاجيب ، ولزال الطابع المادى للحياة ، ولما كان هناك اختبار كونى يميز الخبيث من الطيب. كما أن الجن لو تركوا بحريتهم لآذوا بنى آدم أشد الإيذاء بسبب ما يكنه إبليس وذريته من عداء قديم لآدم وبنيه ، ولهذا يخبرنا القرآن فى عبارة صريحة أن أعمال الجن واقعة تحت سيطرة الله عز وجل: { وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: 102]. وفى آية أخرى يخبرنا الله تعالى أن الملائكة تتعقب الإنسان لتحفظه من أمر الله ، وأحد معانى ذلك حفظه لهم من الجن: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [الرعد: 11].

وعلى ذلك **فقدرات الجن العجيبة لا تعنى بالضرورة قدرتهم على خرق العادة فى دنيانا** ، ولهذا وجدنا المعتزلة على سبيل المثال ينكرون السحر. **والقرآن الكريم لا يخبرنا بدقة ما حدود السحر ، وما مدى قدرات السحرة.** وقد قمت بجولة طويلة فى مواقع الإنترنت لمعرفة تأثير السحر على حياة الناس ، وذلك من خلال كتابات سحرة أو أناس تعاملوا معهم ، فوجدت أن **الغالبية الساحقة من أعمال السحرة تتخذ شكل ظواهر نفسية** مثل التفريق بين زوجين أو إيقاع رجل فى هوى امرأة ، أو التحقير من شأن ابن نابغ فى عين أبويه وفى عيون الناس ، وكذلك إصابة الإنسان بالخوف ، أو الرعب ، أو القلق ، أو الاكتئاب ، أو فقدان الشهية ، أو الأحلام المفزعة، أو الرغبة فى الموت ، أو الآلام المبرحة ، أو التشنجات ، أو سماع أصوات صراخ أو بكاء أو ضحك دون سبب ، وكذلك رؤية أشياء غير واقعية ، أو الإحساس بهواء بجوار الأذن ، أو تحريك الأبواب المفتوحة. ورغم اعترافنا بوجود السحر إلا أن كثيرا من هذه الحالات تتضمن مبالغات ، وبعضها لا يمثل سحرا بل مجرد مرض نفسى له تفسير طبى محض ويتحسن بالعقاقير.

على أى حال فكما ترى **فإن تأثير الجن على تصرفات الإنسان ومزاجه وعقله لا يشبه المعجزات ، ولا يثير اللبس فى هذه الناحية ، ولهذا بحثت عن الآثار الموضوعية للسحر – أى تلك الظواهر السحرية غير النفسية التى يمكن أن تشبه معجزات الأنبياء** – فلم أجد إلا قدرة الساحر على إشعال نار بشكل متكرر فى بعض أرجاء المنزل أثناء وجود أصحابه داخله ، أو تلف المصابيح ، أو إطفاء الأجهزة الكهربية ، أو تكسير الأوانى والأطباق. وهذه الظواهر أيضا رغم أنها موضوعية وغير نفسية إلا أنها **لا تمثل خرقا فجا للعادة ، وهى أقرب للأحداث**

اليومية المعتادة ولا تشبه المعجزات إلا قليلا. حقا تلقى السحر عقب بعثة نبينا محمد عليه السلام وحتى يومنا هذا ضربة موجعة ، وفقد كثيرا من قوته – كما سنرى لاحقا– إلا أن كل معجزات الأنبياء وقعت قبل بعثة محمد عليه السلام فى وقت كان فيه السحر أشد قوة ، **ولهذا فربما كان السحر قديما أقدر على إثارة الشبهات حول المعجزات مقارنة بما نراه اليوم.** والقرآن يخبرنا أنه فى إحدى المرات تجرأ السحرة ، وتحدوا معجزة نبى الله موسى ، واستطاعوا إيهام الناس أنهم فعلوا معجزة بتحويل العصى والحبال إلى ثعابين. وهنا لا بد أن نلاحظ تأكيد القرآن على أن السحرة لم يحولوا العصى لثعابين بشكل حقيقى بل خدعوا أعين الناس ، وبثوا فى قلوبهم الخوف بشكل جعلهم مهيئين نفسيا لتصديق الخيال: {فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [الأعراف: 116]. وقال تعالى: {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} [طه: 66]. ولا شك أن من المحال أن يخلق ساحر أو شيطان روحا لكائن حى حقيقى ، فهذا أمر لا يقدر عليه إلا الله ، ولهذا خر السحرة سجدا على الفور لأنهم أدركوا أكثر من كل الحاضرين أنهم أمام إله قادر على فعل شىء يستحيل أن تقدر عليه الشياطين.

ورغم انتصار موسى على السحرة إلا أن هذه الواقعة تثبت أن **من الممكن للسحر فى بعض الأحيان أن يبدو على أنه قادر على خرق العادة بما يثير البلبلة بين الناس ، ويتركهم غير قادرين على التفرقة بينه وبين المعجزة. ومن هنا جاء السؤال: كيف نفرق بين المعجزة والسحر**؟ هاكم الإجابة:

أولا: <u>المعجزة تحدث على يد رجل صالح حسن الخلق</u> ، أما السحر فيحدث على يد رجل شرير كاذب فاسق فاجر حاقد. الأنبياء تفيض من أفواههم الحكمة ، ولا ينطقون إلا بكلام كله خير وعقل وبر وإحسان ، ولا ينشدون المال من وراء معجزاتهم ، أما الساحر فهو شخص ذو وجه قبيح مخيف ، وكلامه ينضح تكبرا ، ويفيض غرورا ، ولا ترى منه تسامحا ولا أدبا ولا رقة ولا خجلا ، كما أنك تجد قلبه مملوءا بالحقد والطمع ، وتراه يستجدى من الناس مالا مقابل سحره. حقا قد يوجد رجل مسلم صالح يعالج الأضرار التى يلحقها السحرة بالناس إلا أن هذا المعالج

الطيب لا يمكن أن يثير البلبلة لأنه لا يدعى لنفسه القدرة على الإتيان بمثل ما أوتى النبيون من معجزات.

ثانيا: المعجزة أعظم من السحر: المعجزة تتسم بالضخامة ، أما السحر فضئيل ، وله حدود لا يتجاوزها. حقا قد تكون المعجزة لطيفة خفيفة (مثل معرفة عيسى لما يخفيه الناس فى بيوتهم) لكن يستحيل أن تكون المعجزة أقل من السحر فى أى وقت من الأوقات. وقد سبق أن قلنا أن الغالبية العظمى من أعمال السحر تدخل فى باب الأمور النفسية كالكره والحب والغضب والحزن والاكتئاب والخوف والوساوس والهلاوس وآلام الجسد والضعف الجنسى. ولهذا **نجد القرآن لما تكلم عن قدرة السحر على الإيذاء ذكر شيئا واحدا فقط هو التفريق بين المرء وزوجه:** {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} [البقرة: 102]. وإذا تمكن السحرة من عمل أشياء غير نفسية مثل إشعال النار فى المنزل أو كسر الأطباق فهذه أشياء هزيلة جدا مقارنة بالمعجزات التى جاء بها الأنبياء مثل شق البحر ورفع الجبل. إذن كل من المعجزة والسحر شكل من أشكال خرق العادة ، لكن المعجزة تتميز فى الغالب بالضخامة ، بينما يتميز السحر فى الغالب بالضآلة والصغار ، وإن تبارى السحر مع المعجزة فالنصر دوما للمعجزة.

ثالثا: سحر الساحر يَبطُل إن تحدى الله: هذا الرأى تبناه الأشاعرة الذين أكدوا أنه على الرغم من كون السحر من نفس جنس المعجزة –لأن كليهما خارق للعادة– إلا أن الساحر إن تجرأ وتحدى معجزات الأنبياء أو ادعى النبوة أو الألوهية فإن الله تعالى يسلب منه قدرته على عمل السحر. وقد عبر الباقلانى عن هذا الرأى قائلا:

(غير أن الساحر إذا احتج بالسحر وادعى به النبوة أبطله الله تعالى عليه بوجهين: أحدهما أنه إذا علم ذلك فى حال الساحر وأنه سيدعى به النبوة أنساه عمل السحر جملة أو لم يفعل سبحانه عند قوله وما يفعله فى نفسه من الأفعال شيئا فى المسحور من موت أو سقم أو بغض ولم يخلق فيه الصعود إلى جهة السماء والقدرة على الدخول فى بقرة. فإذا منعه هذه الأسباب بطل سحره وبان الفرق بين النبى صلى الله عليه وسلم وبينه. وكذلك إذا علم سبحانه أن ساحرا يدعى بعض ذلك بعد موت النبى وانقراض عصره منعه ذلك كما يمنعه منه إذا كان معاديا للرسول وقاصدا معارضته..... والوجه

الآخر أن أبواب السحر معلومة عند السحرة وعند أهل بابل وهى أمور معروفة. فإذا تحدى ساحر من السحرة بشىء يفعل عند سحره ويقع من مقدورات الله عز وجل من جنس بعض آيات الرسل وتحدى به ، لم يلبث أو ينجُد خلق من السحرة يفعلون مثل فعله ويعارضونه بأدق وأبلغ مما أورده فينتقض بذلك ما ادعاه ويبطل)[161].

وهذا الرأى الأخير توصل إليه الأشاعرة –على ما يبدو – استنادا إلى قصة موسى والسحرة حيث وقف السحر وجها لوجه أمام المعجزة فكان النصر لله تعالى ومعجزاته. ومما يؤكد ذلك ما رُوى من أن مسيلمة الكذاب –الذى ادعى النبوة– كان معه شيطان[162]، وقد حاول الناس التبرك به فكانت الخيبة من نصيبه دائما ، وفى هذا يقول الطبرى:

(فدعا مسيلمة بدلو من ماء فدعا لهم فيه، ثم تمضمض منه، ثم مج فيه فنقلوه فأفرغوه في آبارهم **فغارت مياه تلك الآبار، وخوى نخلهم**، وإنما استبان ذلك بعد مهلكه. وقال له نهار: برك على مولودي بني حنيفة، فقال له: وما التبريك؟ قال: كان أهل الحجاز إذا ولد فيهم المولود أتوا به محمدا ص فحنكه ومسح رأسه، **فلم يؤت مسيلمة بصبي فحنكه ومسح رأسه إلا قرع ولثغ** واستبان ذلك بعد مهلكه....... وأتاه رجل فقال: ادع الله لأرضي فإنها مسبخه، كما دعا محمد ص لسلمي على أرضه فقال: ما يقول يا نهار؟ فقال: قدم عليه سلمي، وكانت أرضه سبخة فدعا له، وأعطاه سجلا من ماء، ومج له فيه، فأفرغه في بئره، ثم نزع، فطابت وعذبت، ففعل مثل ذلك فانطلق الرجل، ففعل بالسجل كما فعل سلمي، **فغرقت أرضه، فما جف ثراها، ولا أدرك ثمرها)**[163].

ويروى الطبرى أيضا أن الأسود العنسى كان معه شيطان تابع له يكلمه ويرشده ، لكن شاء الله أن يكبته فلم يحمه السحر من الموت ، وكانت نهايته مخزية أشد الخزى لأنه قتل وقُطعت رأسه بخطة دبرها له أربعة من المسلمين بإيعاز من النبى صلى الله عليه وسلم ، فنجحوا فى التسلل إلى بيته بمعاونة زوجته التى كانت تكرهه لأنه اغتصب مُلك اليمن من أبيها. فأثبتت هذه القِتلة

---

[161]) **"كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات"** للباقلانى. صفحة 94-95

[162]) قال الطبرى: [وكان رسول الله ص قَالَ: إِنْ مَعَ مُسَيْلِمَةَ شَيْطَانًا لا يَعْصِيهِ، فَإِذَا اعْتَرَاهُ أَزْبَدَ كَأَنَّ شِدْقَيْهِ زَبِيبَتَانِ لا يَهِمُّ بِخَيْرٍ أَبَدًا إلا صَرَفَهُ عَنْهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُ عَوْرَةً، فَلا تُقِيلُوهُ الْعَثْرَةَ]. انظر: **تاريخ الطبري وصلة تاريخ الطبري** (3/ 293)

[163]) **تاريخ الطبري** (3/ 285)

أن هذا النبى الكذاب ليس فقط ضعيفا بل جاهلا وغافلا أيضا. ويروى الطبرى لحظة مقتل الأسود العنسى على لسان قاتله كما يلى:

(فَوَضَعْتُ سَيْفِي عِنْدَ الْقَوْمِ، وَدَخَلْتُ لأَنْظُرَ أَيْنَ رَأْسُ الرَّجُلِ! فَإِذَا السِّرَاجُ يُزْهِرُ، وَإِذَا هُوَ رَاقِدٌ عَلَى فُرُشٍ قَدْ غَابَ فِيهَا لا أَدْرِي أَيْنَ رَأْسُهُ مِنْ رِجْلَيْهِ! وَإِذَا الْمَرْأَةُ جَالِسَةٌ عِنْدَهُ كَانَتْ تُطْعِمُهُ رُمَّانًا حَتَّى رَقَدَ، فَأَشَرْتُ إِلَيْهَا: أَيْنَ رَأْسُهُ؟ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ، فَأَقْبَلْتُ أَمْشِي حَتَّى قُمْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ لأَنْظُرَ، فَمَا أَدْرِي أَنَظَرْتُ فِي وَجْهِهِ أَمْ لا! فَإِذَا هُوَ قَدْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ، فَنَظَرَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: إِنْ رَجَعْتُ إِلَى سَيْفِي خِفْتُ أَنْ يَفُوتَنِي وَيَأْخُذَ عُدَّةً يَمْتَنِعُ بِهَا مِنِّي، وَإِذَا شَيْطَانُهُ قَدْ أَنْذَرَهُ بِمَكَانِي وَقَدْ أَيْقَظَهُ، فَلَمَّا أَبْطَأَ كَلَّمَنِي عَلَى لِسَانِهِ، وَإِنَّهُ لَيَنْظُرُ وَيَغُطُّ، فَأَضْرِبُ بِيَدِي إِلَى رَأْسِهِ، فَأَخَذْتُ رَأْسَهُ بِيَدٍ وَلِحْيَتَهُ بِيَدٍ، ثُمَّ أَلْوِي عُنُقَهُ فَدَقَقْتُهَا، ثُمَّ أَقْبَلْتُ إِلَى أَصْحَابِي، فَأَخَذَتِ الْمَرْأَةُ بِثَوْبِي، فَقَالَتْ: أُخْتُكُمْ نَصِيحَتُكُمْ! قُلْتُ: قَدْ وَاللَّهِ قَتَلْتُهُ وَأَرَحْتُكِ مِنْهُ قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى صَاحِبَيَّ فأخبرتهما، قالا: فارجع فاحتز رأسه وائتنا بِهِ، فَدَخَلْتُ فَبَرْبَرَ فَأَلْجَمْتُهُ فَحَزَزْتُ رَأْسَهُ، فَأَتَيْتُهُمَا بِهِ، ثُمَّ خَرَجْنَا حَتَّى أَتَيْنَا مَنْزِلَنَا، وَعِنْدَنَا وَبَرُ بْنُ يُحَنِّسَ الأَزْدِيُّ، فَقَامَ مَعَنَا حَتَّى ارْتَقَيْنَا عَلَى حِصْنٍ مُرْتَفِعٍ مِنْ تِلْكَ الْحُصُونِ، فَأَذَّنَ وَبَرُ بْنُ يُحَنِّسَ بِالصَّلاةِ، ثُمَّ قُلْنَا: أَلا إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَتَلَ الأَسْوَدَ الْكَذَّابَ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْنَا فَرَمَيْنَا بِرَأْسِهِ)[164]

لكن رأى الأشاعرة قوبل باستنكار من ابن تيمية – رحمه الله – الذى رأى أن القول بأن السحر من نفس جنس المعجزة (باعتبار أن كليهما خارق للعادة) يفضى إلى الشك فى الدين إذ كيف يعرف المرء أن ما جاء به الرسول حقا معجزة وليس سحرا؟ يقول ابن تيميه:

(وهذا قول قبيح ، فإنّه لو جعل شيء من معجزات الأنبياء وآياتهم من جنس ما يأتي به ساحر أو كاهن أو مطلسم أو مخدوم من الجن لاستوى الجنسان، ولم يكن فرق بين الأنبياء وبين هؤلاء، ولم يتميّز بذلك النبيّ من غيره. وهذا مما عظم غلط هؤلاء فيه فلم يعرفوا خصائص النبيّ، وخصائص آياته)[165].

[164]) **تاريخ الطبري** (3/ 238)

[165]) **النبوات** (504/1): تأليف تقى الدين بن تيمية.

ونحسب أن رأى ابن تيمية ينبع من غيرته المتوقدة على الدين ، **لكن فات شيخ الإسلام أن اتفاق أمرين فى الجنس والنوع لا يعنى أنهما شىء واحد** ، فعلى سبيل المثال أنا ألعب الكرة ، ومحمد صلاح أيضا يلعب الكرة ، لكن هل لعبى كلعبه؟ بالتأكيد لا ، لأن محمد صلاح من أحسن لاعبى العالم ، أما أنا فلا شىء. وبالمثل أنا أمتلك مالا ، وبيل جيتس أيضا يمتلك مالا ، فهل مالى مثل ماله؟ طبعا لا لأنى أمتلك عدة آلاف ، أما هو فيمتلك مائة بليون دولار. والله عز وجل عالم وقادر ، وأنا أيضا عالم وقادر ، لكن هل علمى مثل علم الله؟ وهل قدرتى مثل قدرته؟ طبعا لا.

إذن اتفاق شيئين فى الجنس والنوع لا ينفى وجود فرق ضخم بينهما. وقياسا على ذلك نقول أن المعجزة والسحر يتفقان فى أن كليهما خارق للعادة ، ولكن هذا لا ينفى وجود فروق كبيرة بين الاثنين تمكن الناس بسهولة من التعرف على كل منهما. ثم إن **حكمة الله تعالى قضت بأن توجد دائما شبهات قليلة حول الحق بحيث تكون هذه الشبهات بمثابة ابتلاء يفرق بين قلوب الناس** ، فالأبرار يقلبون النظر فى الأمور ، فينبذون الشبهة لضعفها ، أما أصحاب القلوب المريضة فيقبلون على الشبهات فاتحين أذرعهم ، وفى هذا قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [آل عمران: 7]. وعلى ذلك فلا غرابة فى وجود قدر ضئيل من التشابة بين المعجزة والسحر. والحقيقة أن الأدلة القاطعة على صدق قضايا الدين التى لا يخالطها أى شبهات ستتوافر فقط يوم القيامة حين ينكشف لنا كل شىء ، أما فى الدنيا فلا بد من وجود بعض الشبهات الخفيفة بهدف اختبار الناس.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الباب الثامن: لماذا انتهى عصر المعجزات والكرامات؟

كان آخر نبى أجرى الله تعالى على يديه المعجزات المادية هو عيسى عليه السلام الذى استطاع خلق الحياة فى الجماد ، كما تمكن من إحياء الموتى. وبعد عيسى حدثت معجزات كثيرة لتلاميذه يرويها العهد الجديد الذى لا نثق به كثيرا ، لكن القرآن يخبرنا بحدوث معجزة أهل الكهف ، وهى معجزة جرت لبعض النصارى بعد موت عيسى بزمن. ثم جاءت معجزة الطير الأبابيل التى دمرت جيش أبرهة فى نفس العام الذى ولد فيه رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام. ولما جاء محمد صلى الله عليه وسلم لم يقدم للكفار معجزة مادية ، ولكن حدثت على يديه كرامات لا يقصد بها إثبات النبوة للكفار.

والسؤال هو: لماذا لم يرسل الله تعالى لنا فى العصر الحديث رسلا ويجرى على أيديهم معجزات تبرهن على صدقهم؟ إليكم الأسباب:

السبب الأول: إخفاق المعجزات المادية

أثبتت أحداث التاريخ الدينى أن المعجزات المادية ليست وسيلة ناجعة لنصر قضايا الدين كما يُظن لأول وهلة. والنقاط التالية توضح ذلك بجلاء:

أولا: أخفقت المعجزات المادية فى هداية أغلب الناس للإيمان. قال تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ} [الإسراء: 59]. وقال قوم فرعون لموسى أنه مهما بلغ شأن الآيات التى سيأتيهم بها فلن يتبعوه لأنه فى نظرهم مجرد ساحر: {وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [الأعراف: 132].

وأحد أسباب إخفاق المعجزات المادية أنها تحدث وتنتهى فى وقت قصير، فمثلا تتحول عصا موسى عليه السلام إلى ثعبان فى ثوان معدودة ، وبعد ذلك لا يستمر الثعبان مشاهَدا إلا لدقائق قليلة ، تعود بعدها العصا إلى سيرتها الأولى ، وهذا لا يتيح لكافة الناس أن يروا المعجزة. كما أن المعجزة المادية تحدث فى بلد واحد فقط أو فى عدد قليل من البلدان ، وهذا يقلل من ذيوع أثرها ، وقدرتها على الإقناع ، ولا ريب أن من سمع عن المعجزة ليس كمن رآها. وفضلا عن

ذلك فإن من رأى المعجزة بعينيه يفتر تأثره بها شيئا فشيئا ، وربما ينتهى تماما بعد شهور أو سنوات كعادة النفس البشرية التى لا تجيد شيئا أكثر من إجادتها للنسيان والفتور ، وهذا ما عبر عنه القرآن حين خاطب بنى إسرائيل عقب إحيائه ميتا أمام أعينهم: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً......} [البقرة: 73، 74].

ولو أراد الله تعالى أن يكره الناس كلهم على الإيمان لجاءهم بمعجزات لا تفارقهم أبدا ، كأن يُبقى الجبل مرفوعا فوق بنى إسرائيل أينما ذهبوا عبر مئات السنين ، فيبقون تحت تهديد دائم بالموت، ويضطرون لطاعة الله دون أى تقصير ، ولكن الله تعالى لم يشأ أن يفعل ذلك لأنه خطط لجعل الدنيا دار اختبار يكشف عن معادن الناس ، فيتبين المعدن النفيس من المعدن الردىء ، قال تعالى: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4)} [الشعراء: 3، 4]. وقال: {أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا} [الرعد: 31]. وقال: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس: 99]

ومن أسباب إخفاق المعجزات المادية التقليدية وجود تشابه بينها وبين السحر لأن كلا منهما يتضمن خرقا للعادة. واتهام الرسل بالسحر ورد كثيرا فى القرآن الكريم ، ومن قبيل ذلك قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } [النمل: 13]. وهذا التشابه بين المعجزة والسحر جعل المعجزة دائما هدفا لطعنات الكفار.

ولا شك أن المعجزة تكون فى العادة أضخم أثرا من السحر ، فعلى سبيل المثال من المستحيل على الساحر أن يشق البحر إلى نصفين كما فعل موسى ، وقد يدعى الساحر القدرة على تحضير روح ميت لبضع دقائق ، لكن من المستحيل أن يرد الروح إلى الجسد الميت كما فعل عيسى. ورغم ذلك فمن الصعب على المرء التفرقة بين السحر وبين معجزة خفيفة مثل إخبار عيسى بما يدخره الناس فى بيوتهم ، كما أن ألاعيب السحرة قد تتشابه مع المعجزات الحقيقية ، فمثلا قد تصعب التفرقة بين خلق عيسى للطير وبين ما يفعله السحرة اليوم بخفة اليد حين يخرج الواحد منهم للجمهور طائرا من قبعته أو من ملابسه.

ومع هذا فمن الممكن لأصحاب الفطر السوية والقلوب النقية أن يفرقوا بين الرسول والساحر ، وذلك من مجرد النظر إلى أعمال كل منهما وسماع كلامه ، فالرسول تجد فى أفعاله الخير والرحمة والتسامح والعطف والبر والعفاف ، أما الساحر فترى منه الكذب والغش والغدر والحقد والحسد والفجور والقسوة بالحيوان والإنسان وعشق الدماء. وفضلا عن ذلك فإن وجه النبى يكسوه نور ويسبب الراحة ، أما وجه الساحر فمخيف ومنفر ويسبب انقباض القلب. إذن من الممكن للإنسان أن يتأمل فى سلوك صاحب الفعل الخارق وخلقه وسمته وصدقه ومنطقه وبراهينه العقلية، فإن وجد خيرا فى ذلك مال إلى الاعتقاد بأنه نبى مرسل من الله ، فالله هو إله الخير ، أما السحرة فهم يتبعون الشيطان داعية الشر والرذيلة. ولا أبالغ إذا قلت أن من كان ذا بصيرة فمن أسهل الأشياء عليه أن يعرف النبى بمجرد النظر إلى وجهه ، وأن يعرف الساحر بمجرد النظر إلى وجهه ، أما الكفار والمجرمون ، فهم يفتقدون لهذه البصيرة لأن قلوبهم سوداء شريرة مثل قلوب السحرة ، والطيور على أشكالها تقع ، وكل إنسان يميل لمن كان على شاكلته ، والأشرار من الناس تميل قلوبهم إلى السحرة والشياطين وينفرون من الأنبياء والصالحين ، مثلما نجد اليوم شبابا يعشقون صورا مخيفة ، ويملأون صفحاتهم بوجوه الشياطين المرعبة. وعلى ذلك فإن **من السهل على الإنسان الصالح أن يفرق بين المعجزة والسحر ، لكن الأمر صعب بالنسبة لعامة الناس الذين يصنف أغلبهم على أنهم أشرار أو يتمتعون بدرجات متوسطة من الشفافية النفسية التى تحول بينهم وبين اكتشاف الفرق بين المعجزة والسحر.**

ثانيا: أخفقت المعجزات المادية المعتادة فى تخويف الناس من الله: لقد كان من المفترض أن يشعر الناس بالهلع حين يرون قوانين الطبيعة تتحطم على يد نبى فيدركوا أنهم أمام قوة خارقة يجب أن يرهبوها ويعملوا لها ألف حساب ، لكن هذا الهدف لم يتحقق فى أغلب الأحيان ، بل إن المعجزات قوبلت بمزيد من الجرأة على الله ورسله ، فقد رأينا –على سبيل المثال– كيف قدم عيسى لليهود معجزات لم يسبق لها مثيل مثل خلق الحياة وإحياء الموتى ، فإذا بهم يكذبونه بل يحاولون قتله. ورأينا كيف شق الله البحر لينجى بنى إسرائيل ، ويهلك جيش فرعون ، لكن بمجرد ما عبر بنو إسرائيل بسلام طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم صنما يعبدونه مثل بقية الشعوب: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [الأعراف: 138]. ورأينا كذلك ما فعلته ثمود

بالناقة العجيبة التى جاءهم بها نبى الله صالح ، فبدلا من أن يؤمنوا بالإله الذى خلق الناقة إذا بهم يقتلونها ، وفى هذا قال تعالى: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} [الإسراء: 59]. وقال فى الآية التى بعدها: {وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا} [الإسراء: 60]

ولكن إذا كان الله تعالى يعلم مسبقا أن المعجزات المادية ستخفق فلماذا جاء بها من الأصل؟

إن الله تعالى كان يعلم كل شىء ، وهو عز وجل لا يجرب ولا يتعلم من أحداث التاريخ لأنه صانع التاريخ ، ولكن علينا أن نتذكر أنه فى بعض الأحيان يتعمد المرء فعل شىء وهو يعلم مقدما أنه سيمنى بالإخفاق ، فمثلا قد يبادر رجل طيب إلى زيارة جاره فى بيته ليسترضيه ، ويقبل رأسه ، ويطلب منه إنهاء كل ما بينهما من خلافات. والرجل يفعل هذا وهو يعلم مقدما أن جاره سيقابل تودده بالجفاء. وبالفعل يُغلظ الجار له القول ، ويطرده من بيته ، وهنا يبتسم الرجل الطيب، ويقول لمن حوله: "ألم أقل لكم أن جارى شخص سىء ، وأننى لست العاق كما كنتم تظنون بى؟" وبالمثل أنزل الله تعالى المعجزات عبر التاريخ حتى يكشف على الملأ قلوب الناس، فالناس لو لم تأتهم معجزات لقالوا: "إننا كفرنا لأننا لم نلق من الرسل برهانا ، ولو جاءتنا معجزات لآمنا على الفور". ولكن بعد مجىء المعجزات المادية لم يعد من الممكن لأحد أن يتذرع بهذه الحجة ، فقد أثبت التاريخ أن من أحب الكفر فلن تفلح معه ألف معجزة.

ثالثا: من الخطأ الاعتقاد بأن الكفر ينشأ فقط بسبب غياب البراهين على وجود الله وصدق الرسل. إن الكفر ينشأ فى أغلب الأحيان بسبب التكبر والعناد ، وأكبر دليل على ذلك قصة إبليس الذى كان يعلم يقينا أن الله موجود ، بل إنه كان يحضر حديث الله مع الملائكة ، وكان يتكلم مع الله دون واسطة ، أى أن إبليس كان لديه أدلة على وجود الله تعالى أقوى من الأدلة التى يمتلكها كثير من الأنبياء الذين لم يكلموا الله مباشرة ، ورغم ذلك فقد كفر إبليس لأنه تكبر وظن أنه أحق من آدم بخلافة الله على الأرض.

إن قصة إبليس ذات أهمية قصوى ، فهى تثبت أن الكفر لا يحدث بسبب الجهل بل بسبب الاستكبار والعناد. وهذا سبب آخر جعل الله تعالى يتوقف عن عمل المعجزات المادية التقليدية

التى لا تؤدى بالضرورة للإيمان. والآن يمكننا أن نفهم لماذا انتقل القرآن فى سورة الإسراء من الكلام عن التوقف عن المعجزات المادية إلى الكلام عن قصة إبليس:

{وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (60) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا} [الإسراء: 59 – 61].

ولاحظ فى هذه الآية الأخيرة تكرار كلمة (وإذ) ، فهذا التكرار يدل على أن قصة إبليس سيقت للبرهنة على نفس الفكرة التى تبرهن عليها عبارة (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) ، وإذا كانت العبارة الأخيرة تقدم مبررا لتوقف الله تعالى عن عمل المعجزات المادية (لأن صدق النبوءة بهزيمة الكفار تمثل برهانا بديلا يغنى عن المعجزات المادية) فكذلك تمثل قصة إبليس مبررا لتوقف الله تعالى عن عمل المعجزات المادية التى لا يحتم وجودها حدوث الإيمان.

وإضافة إلى قصة إبليس فهناك موقف مهم حدث مع كفار قريش الذين طالبوا الرسول عليه الصلاة والسلام بمعجزات مادية تشبه معجزات موسى ، فكان الرد القرآنى الصاعق هو: ولماذا لم تؤمنوا بموسى صاحب المعجزات إن كنتم ترون أن المعجزات المادية سبب كاف للإيمان؟ {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ} [القصص: 48]

والآن لعلك لاحظت عزيزى القارى أن النقاط الثلاثة السابقة وردت كلها فى نفس السياق من سورة الإسراء ، وهذا الجزء من السورة هو – بحق– أعمق ما يمكن أن يقرأه المرء دفاعا عن غياب المعجزات المادية فى الإسلام.

رابعا: يؤكد القرآن على فكرة فى غاية الإثارة ألا وهى أن الإيمان يأتى أولا وبعد ذلك تأتى الآيات والبراهين. وهذا قلب للقضية التقليدية التى تقول أن الإنسان لا يؤمن إلا بعد أن تأتيه الآيات والبراهين. والحقيقة أن القرآن لم يقلب القضية بالضبط ، ولكنه أقر القضية ونقيض

القضية ، ودمجهما معا فى قضية واحدة أكثر شمولا. وبعبارة أخرى نقول **أن الإيمان يؤدى لاكتشاف الآيات ، واكتشاف الآيات يؤدى لمزيد من الإيمان.**

وهذه الفكرة التى نطرحها الآن نجدها فى عبارة: (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) التى خُتم بها قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [البقرة: 118]. وفى هذه الآية الأخيرة تجد القرآن يقول أن من يرى آيات الله هم فقط أولئك الذين يوقنون بألوهية الله.

وفى آية أخرى يقول المولى عز وجل: { وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [العنكبوت: 50 – 51]. ولاحظ فى هذه الآية أن من يرى فى القرآن رحمة وذكرى هم المؤمنون وحدهم ، وهذا تأكيد لقضية الإيمان أولا ثم الآيات ثانيا ، والتى هى فى الحقيقة جزء من قضية أكبر هى أن **الإيمان يوصل للآيات ، والآيات توصل لمزيد من الإيمان.**

وفى آيات أخرى عديدة يذكر القرآن أن المرء إن كان لديه إيمان ويقين بالله فإنه سيكون أقدر على الاقتناع بآيات الله عز وجل:

{وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأنعام: 99]

{أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79)} [النحل: 79]

{أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النمل: 86]

{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [العنكبوت: 24]

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الروم: 37]

{أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الزمر: 52]

{إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4)} [الجاثية: 3، 4]

وفكرة القرآن تقوم على اعتبار أن الإيمان بالله مزروع فى قلوب كل الناس لأن كل البشر كانوا قبل خلق الكون فى عالم روحى ، وكانوا جميعا يعلمون بوجود الله: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } [الأعراف: 172]. **ولما ولد كل واحد من الناس فى هذا العالم المادى حمل معه استعدادا فطريا للإيمان بالله ، وهذا الاستعداد كاف جدا لاتخاذ قرار الإيمان بالله** وبرسله. وهذا الاستعداد الفطرى تؤيده بعض المبادىء العقلية البسيطة مثل: (لكل مخلوق خالق ، والإنسان ضعيف ، والخليقة تفتقر لإله ، وهذا الإله إله خير لأن الشر نقص ، وكل ما فى الكون من موجودات طبيعية لا يصلح أن يكون خالقا للكون كله). هذه هى الفطرة التى تكفى تماما للإيمان المبدئى بالرسل. **ولما يبدأ المرء فى السير على طريق الإيمان يبدأ فى اكتشاف كثير من الآيات والدلائل التى تؤكد صحة قراره الأول** ، وتثبت له أنه يسير على الطريق السليم، وهذا المعنى يعبر عنه قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: 17].

إن القرآن يتضمن كنوزا من الأدلة التى تبرهن على صدق الإسلام. وهذه الأدلة تتطلب قدرا من الحساسية والشفافية ورقة القلب ، ولذا تجد كلا من المؤمن والملحد يقرأ القرآن ، فيخرج منه المؤمن بأفكار فى غاية العمق ، بينما لا يرى فيه الملحد سوى كل ما هو مثير للسخرية ، والعيب قطعا ليس فى القرآن ولكن فى تلك القلوب الجافة ، وفى هذا قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } [الإسراء: 82]. إن كل الناس ترى التفاح وهو يسقط على الأرض لكن إسحاق نيوتن وحده استلهم قانون الجاذبية من هذا الحدث المعتاد ، وذلك لأنه كان يمتلك استعدادا فيزيائيا مسبقا جعله يرى ما لا يراه الآخرون. وبالمثل سنجد أن المرء كلما ازداد إيمانا بالله كلما اكتشف مزيدا من الآيات والأفكار العميقة فى القرآن ، وصار أكثر تأثرا به وخضوعا لله.

وهكذا نجد أنه مع إخفاق المعجزات المادية فى هداية الأمم السابقة كان لا بد من تعديل فى الخطة الإلهية ، والاعتماد على أنواع أخرى من المعجزات.

السبب الثانى: تغير نوع المعجزات

توقف الله تعالى عن الاستعانة بالمعجزات المادية التقليدية وازنه على الجانب الآخر عمل معجزات جديدة من نوع مختلف ، معجزات غير صارخة ، لكن يفترض أنها تقدم براهين قاطعة على صدق نبوة محمد عليه السلام.

كانت معجزة رسولنا الكبرى هى القرآن الذى كان معجزة بلاغية أدهشت العرب دون أن يفهموا تفاصيلها. وبمرور الزمن بدأت تفاصيل معجزات القرآن البلاغية تنكشف وتبهر العقول ، وكل يوم نكتشف منها وجها جديدا. وحديثا اكتشفنا اتفاق القرآن الكامل مع الاكتشافات العلمية الحديثة، وهو ما يعرف بالإعجاز العلمى للقرآن.

ومن قبيل براهين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم إخبار القرآن بأمور ستجرى فى المستقبل مثل انتصار الإسلام على الكفر ، وهذا المعنى هو المقصود من قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ} [الإسراء: 60] الذى أعقب إخباره عن توقف المعجزات المادية. لقد سبق أن قال الله لرسوله وهو فى ذروة الضعف والهوان: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر: 45] ، وقد تحقق هذا الوعد فيما بعد حين هزمت قريش هزيمة ساحقة فى غزوة بدر ، وبعدها سقطت القبائل العربية واحدة تلو الأخرى تحت أقدام المسلمين. ولا شك أنه ليس من السهل تجاهل مغزى هذا النجاح العجيب فى التنبؤ بانتصار الإسلام رغم أن المسلمين كانوا فى البداية أقلية مضطهدة مطرودة من وطنها. وتنبأ القرآن كذلك بهزيمة اليهود فقال: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: 12]. كما تنبأ القرآن بانتصار الروم على الفرس بعد بضع سنين من هزيمتهم الساحقة كما هو مشهور فى مقدمة سورة الروم. وقبيل غزوة بدر تنبأ الرسول عليه السلام بأسماء قتلى الكفار وأماكن قتلهم ، وفى هذا روى مسلم أن عمر رضى الله عنه "كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ، بِالْأَمْسِ، يَقُولُ: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللهُ»، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَئُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

وإضافة لما سبق فقد امتلأ القرآن بكثير من الآيات التى تلفت الأنظار إلى مظاهر قدرة الله فى الطبيعة والتى تثبت أن لهذا الكون إلها يختلف عن كل ما يعبده الناس على الأرض. واعتمد

القرآن كذلك بشكل مكثف على البراهين العقلية والمنطقية التى تثبت وجود الله وقضايا الدين وتفند دعاوى الأديان الأخرى كاليهودية والنصرانية.

إن علينا أن نلتفت إلى أنه فى العصر الحديث حدث تغير نوعى ألا وهو **انتقال المعجزات من أيدى الأنبياء إلى أيدى البشر**. لقد كان فرعون بحاجة لأن يرى معجزة العصا كى يصدق أن موسى يعبد الإله الحق، أما اليوم فلا حاجة بنا لمعجزات من هذا النوع لأننا صرنا نمتلك آلافا مؤلفة من الأدلة على وجود الله ، وهى لا تقل قوة وسطوعا ونصاعة عن معجزات موسى وعيسى وسليمان عليهم السلام. أقسم لكم أننى حين أتصفح كتب الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية والطب فإننى أرى تفاصيل مدهشة تثبت بشكل قاطع أن هناك إلها خلق هذا الجسم البشرى العجيب ، وأشعر وكأننى أرى الله رأى العين. إن الخلايا الحية تحتوى على أنظمة وآليات فى غاية الدقة والإحكام وتعمل بتنسيق تام وانضباط كامل ، فتشعر وكأنك أمام مجمع صناعى ناجح فى دولة متقدمة. إن هذه الأدلة تثبت لى بشكل قاطع أن الله موجود ، وهى من وجهة نظرى أفضل من معجزات الأنبياء المعتادة. إن عضوا صغيرا من أعضاء الخلية الحية مثل الميتكوندريا له تركيب فى غاية التعقيد ، وهو يعمل بآلية مدهشة لا يمكن أن تكون قد صممت بالمصادفة دون إله. إن الميتوكوندريا بالنسبة لى مثل عصا موسى تماما. لقد كانت البشرية حتى وقت قريب لا يتجاوز ألفى عام فى حالة تخلف شديد فى العلم والعقل والثقافة ، وكان من الصعب على الناس أن يعثروا على أدلة تثبت قضايا الدين ، ولذا كانت الحاجة ملحة لحدوث المعجزات المادية على أيدى الأنبياء ، فهى تمثل دليلا مباشرا واضحا دون لف ولا دوران. لكن بمرور الزمن تقدم المستوى الفكرى والعلمى للبشرية ، وبلغ الذروة فى الحضارة اليونانية حيث استطاع الفلاسفة ابتكار براهين عقلية متينة تثبت وجود الله حتى أن فيلسوفا مثل أرسطو توصل بعقله للتوحيد ، وأثرت فلسفته على أتباع الديانات السماوية من مسلمين ومسيحيين ، ولا تزال أفكاره حتى اليوم تحظى بأهمية بالغة.

وقد كان من الطبيعى أن يأخذ الله عز وجل هذا التغير فى فكر البشرية فى الاعتبار ، ولهذا جاء القرآن معتمدا بشكل أساسى على الفكر فى إثبات قضايا الألوهية والتوحيد والبعث. لقد تخلى الله تعالى عن سياسة صنع المعجزات المادية التى اتبعها عبر التاريخ ، ورمى الإنسانية

بدين يدعو للنظر فى الكون للبرهنة على وجود الله. لقد أمعن القرآن فى هذا المنهج ، فتكررت عبر صفحاته الدعوة للتأمل والتفكر والتعقل واستباط وجود الله من مظاهر الكون البديع. إننى لا أعرف دينا غير الإسلام اعتمد بهذا الشكل على العقل والعلم فى إثبات صدقه. وإضافة إلى هذه المعجزات الكونية جاء الإسلام بمعجزة اسمها القرآن ، وهى معجزة من نوع فريد لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ، ولأول مرة نجد نبيا يتحدى البشر أن يؤلفوا كتابا فى نفس مستوى كتابه. وقد ربح القرآن التحدى ، وهذه معجزة فى متناول يد كل إنسان ، فكل واحد يستطيع أن يجرب قدرته على تأليف كتاب بليغ يبارى به القرآن ، وسيجد أن مصيره الإخفاق.

وهكذا نجد أن **الله تعالى أحسن توزيع الأرزاق** ، فهو عز وجل إن منح نعمة سلب أخرى ، فقد يعطى المال ويسلب الصحة ، وقد يعطى المال والصحة ويسلب راحة البال ، وقد يسلب السعادة الزوجية ويعطى الذرية الصالحة ، بحيث تكون المحصلة فى النهاية التساوى التقريبى بين الناس فى مجموع النعم. وبالمثل سنجد **أن الله تعالى منح البشرية فى عصرنا الحديث نعمة كبرى تتمثل فى اكتشاف العلم لآلاف مؤلفة من البراهين على وجود الله ، ولهذا كان من الطبيعى أن يسلب الله تعالى منهم المعجزات المادية والكرامات حتى يتساووا مع الأمم القديمة** فى مستوى البرهنة على وجود الله ، وتكون الصورة العامة كالتالى: **معجزات مادية للقدماء ، وأدلة علمية عقلية للمحدثين. وهذا هو العدل.** خلاصة القول أن غياب المعجزات المادية التقليدية فى الإسلام لم يؤثر على قدرة هذا الدين على إقناع العقول واستمالة القلوب.

السبب الثالث: إعجاز التكنولوجيا الحديثة

لو حدثت المعجزات المادية المعتادة فى عصرنا الحديث فإن رد فعل الملحدين سيكون غريبا. إنهم سيكذبونها على أساس أنها مجرد تكنولوجيا متقدمة ، وأن العلماء قادرون فى خلال سنوات غير بعيدة على تحقيق كل المعجزات من خلال التقنيات البارعة التى تظهر كل يوم. وقد رأينا على سبيل المثال كتاب ميشيو كاكو الذى تنبأ فيه بنجاح العلم فى صنع المستحيل.

إن غرور العلم بلا حدود. على سبيل المثال العلماء الآن يتسابقون من أجل إنتاج خلية حية من المواد الجامدة غير الحية كى يخرجوا لنا فيما بعد حشرة وحيوانا وربما إنسانا دون أب أو أم.

وهذا الطموح الجنونى جاء على إثر سلسلة طويلة من الإنجازات التى بدأت بمعرفة تركيب الحامض النووى ثم عزل الجينات ، ومعرفة تركيب الجينوم كله للإنسان ولغيره من الأحياء. كما أصبح بإمكان العلماء تصنيع الجينات والكروموزومات وكذلك بعض الإنزيمات التى تقوم بنسخ DNA ، وإنتاج RNA ، وتصنيع البروتينات.

وعلى ذلك فلو جاء للناس رسول فى هذا العصر الحديث حاملا معجزات مادية فستسود روح التحدى والتنافس بينه وبين العلماء ، وستفهم معجزاته على أنها مجرد شكل متطور من أشكال التقنية يمكن للعلماء فى يوم من الأيام أن يحاكوه. ومن المؤكد أن البعض سيعزو هذه المعجزات التى يأتى بها أنبياء العصر الحديث إلى تكنولوجيا متقدمة مستمدة من كائنات فضائية تسكن كوكبا آخر نشأت الحياة عليه قبل ظهورها على الأرض ببليون عام ، وهذا يجعل التقنيات التى يمتلكها سكان هذا الكوكب أكثر تقدما من تلك التى يملكها سكان الأرض بمراحل كبيرة للغاية ، ولذا فلا توجد فى أنظارهم معجزات حقيقية ، ولا تدخل إلهى فى الكون. ومن ناحية أخرى سينظر البعض باستخفاف للمعجزات مثلما ينظرون اليوم إلى السحرة الذين يستعملون خفة اليد والذكاء فى خداع الجماهير فى السيرك. وهكذا لن تكون المعجزات المادية ذات جدوى كبيرة فى العصر الحديث.

السبب الرابع: المعجزة تفضى إلى الفلسفة

شاء الله تعالى أن أعثر على مقال[166] لأستاذ فى الفلسفة بجامعة ولاية كاليفورنيا اسمه "مات مكورميك" ، وكان موضوع المقال مثيرا بالنسبة لى ، فهو يكذب المعجزات اعتمادا على الفلسفة ، بينما كان القدماء لا يجدون شيئا أمامهم إلا إطلاق تهمة السحر. **وهذا يثبت أن الله عز وجل كان على حق حين توقف عن عمل المعجزات المادية فى العصر الحديث لأن هذا النوع من المعجزات لو ظل يحدث فى عصرنا لأفضى حتما إلى صراع فكرى فلسفى ، ولهذا كان من الحكمة الإلهية أن تتوقف المعجزات المادية لأنها لن تكون قادرة على حسم القضية ، وسيكون من المحتم اللجوء لمواجهة فكرية بين الإيمان والكفر ، فى صراع قوامه الفلسفة**

166) **God Would Not Perform Miracles**. By Matt McCormick, Ph.D; Department of Philosophy; California State University. 2008. https://www.csus.edu/indiv/m/mccormickm/godwouldn'tdomiracles.pdf

والعلم والفطرة، فهذه طبيعة العصر ، ومن المحتم أن يجاريها الإسلام باعتباره الدين الخاتم.
وسنقوم فيما يلى بتقديم أهم الاعتراضات التى ساقها أستاذ الفلسفة المذكور على المعجزات:

أ- تواضع حجم المعجزات

يسوق المؤلف اعتراضا كثير التداول وهو أن الله لو كان يهدف إلى حمل جميع الناس على الإيمان به لفعل ما هو أفضل من المعجزات التى وصلتنا أنباؤها ، فمثلا كان من الممكن ليسوع أن يَظهر بعد صلبه وموته (طبقا لعقيدة المسيحية) لكل شخص بدلا من أن يظهر لنفر قليل فقط، وذلك كى يثبت لأكبر عدد ممكن من الناس أنه لم يمت وأنه صاعد إلى السماء ، كما كان من الممكن لله أن يحفظ الإنجيل من التحريف وأخطاء الترجمة ، وكان من الممكن له أن يرسل ملايين الملائكة لتدعو الناس إلى الإيمان ، وتقنعهم بدين الله ، لكننا وجدنا أن ما فعله عيسى- كالمشى على الماء وإحياء الموتى- كان أعمال ضئيلة مقارنة بما هو متوقع من إله. وبالمثل كان من الممكن لله أن يحسم صراع بنى إسرائيل مع فرعون بسرعة فينقذهم من فرعون فى لمح البصر بدلا من أن يتركهم يمرون بسلسلة طويلة من الأحداث والجولات المؤلمة التى تضمنت على سبيل المثال قتل ذكور بنى إسرائيل.

والقرآن يرد على هذه الفكرة قائلا: {إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} [الشعراء: 4] ، أى لو شاء الله لأنزل على الكفار معجزة فى قمة القوة والوضوح فيظلون خاضعين لها مدى الحياة دون فتور ، كأن يجعل الله تعالى كل من يقول كلمة كفر يموت فى الحال ، وكل من يسرق تشل يده فى التو ، وكل من ينظر إلى امرأة غريبة بشهوة يصاب بالعمى فى نفس اللحظة. وكان من الممكن أن ينزل الله ذهبا من السماء على كل من يؤمن ، ونارا على كل من يكفر. ولئن رأى الناس أن كل ذنب يقابله عقاب خارق للطبيعة فسيؤمنون جميعا ، وسيبقى إيمانهم ثابتا حتى قيام الساعة دون أى فتور. ولكن هذا ظلم بيّن لأن أصحاب النفوس الطيبة لن يتميزوا عن أصحاب النفوس الشريرة ، فجميعهم سيخضعون لله خوفا من العقاب المحتوم ، وهذه الحالة تشبه ما سيحدث يوم القيامة حيث سيقف كل الناس منكسرين مستسلمين لله ، وكأنهم من الأتقياء الزهاد العباد مع أن من بينهم أبو لهب ونيتشه ونتانياهو، وستكون هذه الحالة أشبه بحالة مدرس ساذج أتى بامتحان فى الرياضيات للثانوية العامية من

المنهج الدراسى للصف الأول الابتدائى ، فأجاب كل الطلبة عن كل الأسئلة ، وحصلوا جميعا على الدرجات النهائية ، فكان هذا ظلما للطلبة الذين تعبوا فى المذاكرة ، ومحاباة لأولئك الذين لم يفتحوا الكتب طوال العام. وبنفس الطريقة سنجد أن الله عز وجل لو جعل المعجزات المادية شديدة القوة والاضطراد لكان ظالما. حاشا لله[167].

ب- معجزات بالمصادفة !!

ويقول المؤلف المذكور أيضا أن المعجزات لا تدل على القدرة المطلقة لله لأن من الممكن للمرء أحيانا أن يحقق النجاح بمحض الصدفة ، فمثلا قد تتعطل السيارة ، فيحاول قائدها – الذى لا يفهم فى ميكانيكا السيارات – العبث بها لعله يصلحها ، فيقوم بفك هذا ، وربط ذاك ، ويضغط على أى أزرار أمامه ، ويضرب بعض أجزاء المجرك ، ويهز البطارية ، وفجأة تدور السيارة بمحض المصادفة بفضل صاحبها الجاهل! وهذا المثال الذى يسوقه المؤلف يدعو للضحك لأنه لا ينطبق مطلقا على حالة المعجزات ، فصاحب السيارة الجاهل لم يزعم مقدما بكل ثقة أنه قادر على إصلاح خلل السيارة ، بينما جاء الرسل متكلمين بثقة تامة عن قدرتهم على خرق العادة ومخالفة المألوف. كما أن خلل السيارة الذى كان هذا الرجل الجاهل يحاول إصلاحه لم يكن خللا ضخما عجز مهندسو السيارات على إصلاحه فتقدم هو متحديا ليفعل ما عجز الآخرون كلهم عن فعله ، بينما النبى يتقدم ليعمل عملا خارقا لم يُر مثله من قبل ، ولا يستطيع أحد أن يقلده. ثم إن صاحب السيارة الجاهل إن نجح مرة بالمصادفة فلن ينجح غالبا فى المحاولات الأخرى ، بينما يستطيع النبى تكرار معجزاته مثل تحويل موسى عليه السلام للعصا إلى ثعبان أكثر من مرة أمام فرعون ، وشفاء عيسى عليه السلام لأكثر من مريض فى أوقات مختلفة.

ج- المعجزات ليست دليلا على قدرة الله المطلقة

ويقول المؤلف كذلك أنه بفرض أن المعجزات حدثت حقا فإنها لا يمكن أن تكون دليلا على وجود إله كامل مطلق القدرة ، فمثلا إن قارنا بين معجزة مثل مشىء يسوع على الماء (التى

[167]) رد المؤلف المذكور على نفسه مستبقا الحجة التى يمكن أن يرد بها المؤمنون وهى أن الله لا يريد أن يجبر الناس على الإيمان به ولكنه ترك لهم حرية الإرادة ليؤمن به من يشاء ويكفر من يشاء. والمؤلف يرد على هذه الحجة بكلام باهت فيقول أن الله كان بإمكانه أن يفعل معجزات كثيرة أفضل بشكل لا يتعارض مع حرية الإرادة البشرية. ولا أدرى أى شىء أفضل من شق البحر وإحياء الموتى يمكن أن يقنع المرء بقضية الإيمان؟

وردت فى الإنجيل) ومعجزة مثل الإيقاف الكامل لتفاعلات الاندماج النووى داخل كل النجوم فى الكون بحيث تنطفىء كل النجوم وتتحول إلى كتل باردة مظلمة ، فإننا سندرك أن المعجزة الأولى تتطلب قدرة أقل مقارنة بتلك التى تتطلبها المعجزة الثانية. وعلى ذلك فمعجزة المشىء على الماء لا تثبت أن عيسى مؤيد بقدرة مطلقة.

ونحن نرد على هذا الكلام مكررين القول أن الغرض من المعجزات– طبقا للقرآن– ليس حمل جميع الناس على الإيمان لأن هذا يؤدى إلى الظلم ، فلو بالغ الله عز وجل فى ضخامة معجزاته لآمن جميع الناس ، ودخلوا كلهم إلى الجنة رغم اختلاف قلوبهم وأهوائهم. ثم إن أهم غرض للمعجزات هو التخويف: قال تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} [الإسراء: 59]. إن الله يريد أن يجعل الناس يخافون من عاقبة كفرهم ، فيكون هذا دافعا للإيمان بتلك القوة الجبارة التى لم يروا لها مثيلا من قبل. وبفرض أن المعجزات ليست قادرة على أن تثبت القدرة اللانهائية لله ، فإنها ولا شك تضع الناس فى مواجهة قوة أكبر بكثير من كل القوى المعروفة فى الوجود ، وهذا يجعل من الحكمة الخضوع لها خوفا من التعرض للبطش والانتقام. وإذا كان غرض المعجزات هو التخويف فلا داعى للمبالغة الشديدة جدا فى ضخامة المعجزات لأن تخويف الإنسان – ذلك الكائن الضعيف– لا يحتاج لأكثر من المعجزات التى جاء بها الأنبياء والتى تثبت تفوق الله عز وجل على ما عداه.

وفضلا عن ذلك فمن يشترط وجود معجزات ضخمة بشكل لا نهائى كدليل وحيد على القدرة المطلقة لله فهو يفكر بطريقة ساذجة وسطحية لأن الكون لا يحتوى على شىء لا نهائى ، فكل ما فى الكون محدود ، والكون كله يعتريه النقص والضعف ، وأى قدرة يظهرها الله ستكون حتما محدودة لأنه لا يوجد من الأصل شىء مادى لا نهائى. وحتى فى يوم القيامة سيرى الناس قدرات رهيبة جدا لله ، لكنهم لن يروا قدرات لا نهائية ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يرى ما هو لا نهائى ، فمهما تصورت من شىء فستجد فى مخيلتك دوما ما هو أكبر منه ، ولا يوجد شىء من خلق الله لا نهائى ، وحتى الجنة يصفها القرآن بأن لها عرضا محدودا ، فعرضها يساوى عرض السماوات والأرض ولكنه ليس عرضا لا نهائيا: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الحديد: 21]. وحين نقول أن قدرة الله لا نهائية فنحن نقصد أن الله

تعالى قادر على خلق كل شىء مهما كانت ضخامته وكثرته ، ولكن ما العمل إذا كان من المستحيل وجود اللانهاية على أرض الواقع ، أى الوجود الفعلى لشىء هو أضخم من كل شىء يمكن تصوره؟ إن قدرة الله لا نهائية ، لكن خلق الله لا يمكن أن يكون لا نهائيا ، فهو دائما متناهٍ ومحدود مهما بلغ كمه وكيفه. وحتى بفرض وجود شىء مادى لا نهائى فقطعا لن يكون الإنسان قادرا على إدراكه فى مجموعه لأن حواس الإنسان وآلاته قاصرة ، ولا تستطيع أن ترى عبر المسافات الشديدة البعد ، ولن تكون هناك وسيلة للتأكد من أن شيئا ما لا متناه. باختصار القول بأن المعجزات المحدودة تثبت فقط قدرة محدودة لله هو قول سطحى جدا ، وهو يذكرنى بطفل قال لأمه: "إن كنت تحبيننى فأحضرى لى عشرة أطنان من اللحم المشوى فى الغذاء" ، فابتسمت الأم من سذاجة هذا الطفل الذى يريد دليلا غير عملى على حب أمه له ، إذ يكفى كيلو واحد فقط على إثبات حبها له.

إن الحكمة تفرض علينا اللجوء لفكرة "العينة" ، فالعلماء حين يدرسون ظواهر الطبيعة فمن المستحيل أن يدرسوا كل الأمثلة الخاصة بظاهرة من الظواهر فى الماضى والحاضر والمستقبل ، ولذا فهم يكتفون بدراسة عدد كبير من الأمثلة ليستنتجوا منها قانونا عاما. ولو اشترط العلماء مثلا رصد كل الكواكب والنجوم فى الكون ليتأكدوا من صدق قانون الجاذبية لظلوا إلى قيام الساعة دون وجود قانون للجاذبية! وعلى ذلك فقوانين الكون تصاغ اعتمادا على استقراء أمثلة محدودة العدد للظواهر المختلفة. وبنفس المنطق نؤكد أنه يكفى النظر إلى "عينة" من خلق الله (الكون المنظور) كى نستنتج منها أن قدرة الله غير محدودة.

د- المعجزات لا تدل على أن الله إله للخير

ويواصل المؤلف ممارسة الشك المرضى فى المعجزات فيقول أن المعجزات (مثل شفاء المرضى) لا تدل بالضرورة على أن الإله الذى صنعها خيِّر بشكل مطلق لأن صدور فعل واحد أو اثنين أو عدة أفعال طيبة من شخص ما لا يعنى بالضرورة أنه رجل صالح ، فكم من رجل يقابل مسكينا فيتصدق عليه ، ثم يذهب إلى عمله فيخدع زملاءه ويغش الناس. وهذا الكلام الذى يقوله المؤلف ينم عن وسواس قهرى يذكرنى بفترة المراهقة الساذجة. على أى حال لنا أن نسأل: كم فعلا طيبا تريد أن تراه من الله كى تقتنع أنه يتصف بالخير المطلق؟ عشرة أفعال طيبة؟ عشرين؟

مليون؟ بليون؟ إن أى رقم ستذكره لنا سيكون رقما محدودا ، وسيكون – طبقا لمنطقك المريض – غير كاف لإثبات لا نهائية خير الله ، وعلى ذلك فإثبات الخير المطلق لله شيء مستحيل من وجهة نظرك. ثم إن منطقك السقيم سيحتم عليك أن تقطع صلاتك بأبيك وأمك وإخوتك وكل أصدقائك الطيبين لاحتمال أن ترى منهم فى يوم من الأيام شرا يسوءك. هذه الطريقة فى الحكم على الآخرين طريقة شاذة وغير عملية ، ولو تبناها كل واحد من الناس لعاش الجميع فى عزلة قاتلة. إن المنطق يحتم على الإنسان أن يكتفى بوجود "عينة" لينطلق منها لبناء قاعدة عامة أو قانون شامل. وإذا كان المرء يتأمل فى الكون فلا يجد فعلا واحدا يمكن أن يفسر على أنه شر من الله ، وكل أفعال الله –حتى إن بدت فى ظاهرها شرا – فسيتبين بقليل من التفكير أنها فى الحقيقة خير ، فهذا يفرض على العقل أن يستنتج أن الله إله خير.

ولا شك أن كل الطاعات التى يطلبها الله تعالى منا لا تساوى نعمة واحدة من نعمه كالعين. وهب أنك حُرمت من نعمة البصر، وعجز الأطباء عن علاجك ، وفجأة وجدت إنسانا يعرض عليك أن يؤجر لك إحدى عينيه لتستعملها نظير أن تصلى خمس مرات فى اليوم (كل صلاة تستغرق عشر دقائق)، وتعطى اثنين ونصف فى المائة من دخلك اليومى للفقراء ، وتكف عن سب الناس وخداعهم ، فهل سترفض؟ إنك ستوافق بلا تردد لأن هذا الثمن لن يكلفك شيئا ، وهو أقل كثيرا من التمتع بنعمة العين. هذا عن ثمن نعمة واحدة كالعين ، فما بالك بنعمة الأذن ونعمة اللسان والقلب واليد والقدم ، والعقل ، وغيرها؟ وفضلا عن ذلك فعليك أن تلاحظ أن الثمن الذى يطلبه الله تعالى منا هو فى نفسه خير للآخرين. وهكذا فقد فرض الله علينا تكاليف خفيفة ، وفى نفس الوقت فإن هذه التكاليف تعود على الآخرين بالخير ، كما أن التكاليف التى يؤديها الآخرون ستعود عليك أنت أيضا بالخير. وأقسم لكم أننى أخجل أشد الخجل من نفسى كلما أنعم الله علىَّ بخير أو أنقذنى من شر لأن كل النوافل والطاعات التى أفعلها – مهما بدت لى كثيرة – لا تساوى نعمة واحدة مثل الشفاء من مرض خطير ، أو النجاة من موت محقق فى الطريق. وأنا على يقين تام أن دخول الجنة دليل دامغ على كرم الله لأنه لا أحد منا يستحق الجنة. أما عن تلك التكاليف التى تبدو فى ظاهرها شاقة مثل الجهاد فى سبيل الله ، فهى لست شرا لأن القتال يفرض فى الغالب للدفاع عن النفس والعرض والوطن ، وهذا شيء فى صالح الإنسان ، وقد أثبت التاريخ أن أسوأ شعوب الأرض هى تلك التى تقبل العيش فى مهانة. وانظر إلى النحلة

تجدها تضحى بحياتها من أجل درء الخطر عن خليتها، فموتها لا يمكن أن يعد شرا. ثم إن القتال فى الإسلام له هدف سام، فهو قتال من أجل نشر الحق ، ورفع الظلم الجاثم فوق صدور الشعوب ، وليس قتالا من أجل الاستعلاء أو نهب الخيرات. والكلام فى هذه المسألة يطول.

هـ –المعجزات من عمل الطبيعة !

ويواصل المؤلف انتقاداته فيقول أنه بفرض أن المعجزات وقعت فمن أدرانا أن من فعلها شخص ذو وعى وإرادة وعلم ، وليس مجرد قوة عمياء من قوى الطبيعة؟ مثلا من الممكن للشجرة أن تنقطع بفعل أحد العمال ومن الممكن أيضا أن تنقطع بفعل قوة الرياح والأعاصير. والرد على هذه الدعوى بسيط لأن القوى الطبيعية تحدث بشكل عشوائى ولا يظهر أثرها فقط حين يريده أحد الأشخاص ، ولو كانت المعجزات تحدث بفعل قوة طبيعية عمياء فسنرى المعجزات تجرى على أيدى الأنبياء وعلى أيدى غيرهم من عامة الناس ، وهذا ضد المشاهدات. وإن فُرض أن النبى قد تمكن من اكتشاف تلك القوى الطبيعية الخارقة ، ونجح فى السيطرة عليها فمن الواجب أن نتساءل: ومن أين له بمعرفة هذه القوى وتسخيرها؟ ولماذا هو وحده من بين كل البشر الذى اكتشف قوة فريدة لم تُعرف من قبل؟ هل اكتشفها بواسطة الدراسة؟ قطعا لا لأنه لا توجد أى دلائل على أن الأنبياء كانوا من العلماء أو المؤلفين أو الدراسين أو قراء الكتب. وبفرض أنهم كانوا كذلك فممن تعلموا هذا العلم؟ من أساتذة؟ وأين هؤلاء الأساتذة؟ وهل كان هناك أساتذة لإبراهيم وموسى اللذين لم يكن قبلهما أنبياء بفترة طويلة؟ وبفرض وجود أساتذة فلماذا لم يفعلوا معجزات مثل تلاميذهم؟ ثم لماذا اندثر هذا العلم فى العصر الحديث مع أنه كان من المتوقع أن يزدهر بالتوازى مع التقدم الرهيب لبقية العلوم؟ باختصار نحن إزاء دعوى بلا برهان.

و– هل من مَزيد؟

يتساءل المؤلف أيضا: لماذا لا يقدم الله المزيد من المعجزات؟ فإنه فى الوقت الذى يفعل فيه الله معجزة لشفاء أحد المرضى مثلا فإن هناك ملايين من المرضى غيره يعانون من المرض والمجاعات والكوارث. وهذا الاعتراض يرتد فى حقيقته إلى مشكلة الشر الشهيرة ، والرد عليها بسيط ، وسنتعرض له فى موضع آخر من هذا الكتاب. ويضرب المؤلف مثالا فى غاية المكر فيقول ما الرأى فى طبيب معه 1000 حقنة تطعيم لمرض شلل الأطفال فأعطى التطعيم لعشرة

أطفال فقط ، وحجبه عن الباقين؟ أليس هذا طبيبا شريرا؟ ولا شك أن هذا المثال العاطفى خاطىء تماما ، فهو يوهم أن الله كتب الشقاء على أغلب الناس ، مع أن الله تعالى فى الحقيقة لم يجعل الألم هو الغالب فى الدنيا ، فالمرضى والجوعى والمتخلفون عقليا والمشوهون والصم والبكم والعمى والمشلولون قلة بين الناس. ثم إن الله تعالى فى بعض الأحيان يحدث الألم لدى بعض الناس تحقيقا لغايات أكبر وأشمل كما سنرى فيما بعد ، فمثلا لو لم يكتب الله ألم الفراق بالموت على كل الناس لامتلأت الكرة الأرضية بتريليونات الناس ، ولقتل بعضهم بعضا من أجل الطعام ، وهذا مثال ناصع يثبت أن أكبر الشرور فى الدنيا (شر الموت) هو فى حقيقته خير للجميع.

****

وهكذا يتضح من خلال هذا المقال وأشباهه كيف قادت المعجزات إلى هجوم فلسفى مضاد من أحد الكفار ، أعقبه دفاع فلسفى من أحد المؤمنين ، وهذا يؤكد أن الله تعالى لو استمر فى عمل المعجزات المادية فى عصرنا الحاضر لتعرضت تلك المعجزات لطعنات أشد من ذلك الاتهام البسيط البدائى بالسحر الذى وجهه لها القدماء ، فعصرنا الحديث لم يبرع فى شىء أكثر من براعته فى الفلسفة والجدال والمنطق. **وستفضى المعجزات المادية حتما إلى جدال فلسفى حاد حول مغزاها ومدلولها. ولهذا السبب اختصر الله على الإنسان المعاصر الطريق ، وحثه على اللجوء إلى العلم والمنطق والفكر والفطرة والروح كى يصل إلى الإيمان.** ما أحكم صنع الله!

السبب الخامس: الله يريده عصرا ماديا

من الحقائق التى أثارت انتباهى طويلا أن بعثة النبى محمد عليه الصلاة والسلام ارتبطت بأمرين فى غاية الخطورة ورغم ذلك لم يحظ هذان الأمران بما يستحقان من الدراسة:

1. **توقف المعجزات المادية التقليدية.**
2. **اضمحلال دولة الجن.**

وهذان الأمران وجهان لحقيقة واحدة هى أن الله تعالى أراد للعالم الحديث أن تسوده السببية المادية. كيف؟

1-توقف الاعتماد على المعجزات المادية

إن من الأمور العجيبة حقا أن ينتهج الإسلام منهجا جديدا لأول مرة فى تاريخ الأديان -على حد علمنا- من أجل إثبات صدقه. لقد استند صدق الإسلام إلى القرآن والعقل والعلم وليس إلى المعجزات المادية المعتادة. كان الكفار يتحدون الرسول مطالبين إياه أن يأتيهم بمعجزة مادية تبرهن على صدقه ، ولكن جاء رد القرآن قاطعا: "لن تكون هناك معجزات لأن المعجزات المادية ثبت قصورها وعجزها عن هداية الناس": {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} [الإسراء: 59]. وهذه الآية الرائعة تخبرنا أن الله تعالى تعمد ألا يمنح نبيه محمد معجزة مادية يبرهن بها لقومه على نبوته ، والسبب فى ذلك أن هذه المعجزات ثبت إخفاقها عبر التاريخ فى هداية أغلب الناس ، ففرعون وقومه قدم لهم موسى معجزات ساطعات فكذبوا بها. وعيسى أحيا الموتى وشفى الأعمى والأبرص وبث الحياة فى الجماد ، فكان مصيره التكذيب والملاحقة. وإبراهيم خرج من النار سالما، فبقى قومه على كفرهم. وطوفان نوح صار عبره لكل أمم الأرض ، ومع ذلك سرعان ما خفتت الموعظة ، وعاد الناس لغيهم. ولهذا كان التصرف الطبيعى بعد هذه السلسلة الطويلة أن يتوقف المولى عز وجل عن عمل هذه المعجزات.

ومن الطريف أن أحد كبار الملحدين فى مصر أخذ ذات مرة يتندر على افتقار محمد عليه الصلاة والسلام للمعجزات المادية ، وأخذ يتساءل: لماذا لم يعط موسى عصاه لمحمد ليلة الإسراء والمعراج كى يعمل بها بعض المعجزات أمام قومه؟ مع أن نفس هذا الملحد هو الذى انبرى فى موقف آخر ليفند معجزة عصا موسى عليه السلام ويعتبرها مجرد حيلة ماكرة استغل فيها موسى ظاهرة طبيعية. سبحان الله! وكأن القرآن قد استبق تناقض هذا الملحد ، فقال: {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ } [القصص: 48]

وتخلى الله تعالى عن عمل المعجزات المادية يجب ألا ينظر إليه على أنه من قبيل الظلم والحرمان من وسيلة مهمة من وسائل الهداية ، فكل ما فى الأمر أن الله تعالى غير فقط من شكل آياته ، فبدلا من الآيات المادية جاءهم عز وجل بآيات علمية وعقلية ، فقد تمكن العلماء

من اكتشاف عجائب لا يصدقها العقل فى خلق السماء والأرض وخلق الكائنات الحية. إن كل ما قدمه موسى لفرعون من برهان على وجود الله انحصر فى تسع آيات أهمها معجزة العصا ، أما اليوم فأى طالب فى كليات الطب أو العلوم سيجد مئات الأدلة على وجود الله من قراءة كتاب فى فرع واحد من فروع علم وظائف الأعضاء. وكلما اتسعت معارف الإنسان كلما ازدادت أدلته على وجود الله. وعلى ذلك فكل ما فعله الله هو تغير فى الخطة ليس إلا.

2-اضمحلال دولة الجن

من الآيات القرآنية المثيرة التى توقفت أمامها منذ سنوات طويلة وأحسست أن لها مغزى فى غاية العمق هو قوله تعالى على لسان الجن: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (9) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [الجن: 8 – 10]. فى هذه الآية يقول بعض الجن المعاصرين للنبى محمد عليه السلام أنهم التمسوا الصعود للسماء فوجدوا ظاهرة غريبة تحدث لأول مرة ، وهى أن السماء قد ملئت بالحراس الأشداء والشهب الحارقة[168] ، فعجزوا عن التوغل فيها. لقد انتهت تلك الأيام السعيدة التى كان الجن يصعدون فيها إلى السماء لسماع ما يقال فى الملأ الأعلى من أمور الغيب ، وبهذه المعرفة كان الجن يتمكنون من القيام بالأمور العجيبة الخارقة للطبيعة ويخبرون السحرة ببعض الأمور الغيبية المخلوطة بكثير من الأكاذيب. وقد تساءل هؤلاء الجن المعاصرون للرسول: هل هذه الحراسة المشددة التى منعتهم من الاقتراب من السماء هى من قبيل الشر أم الخير بالنسبة لأهل الأرض؟

لقد كنت أقرأ هذه الآية **فأتساءل: ما الجديد الذى حدث مع بعثة محمد عليه السلام كى يضيق الله تعالى الخناق على الجن** ، ويسد عليهم بابا كانوا يلِجُون منه بغية إفساد حياة البشر؟ هل كان الأمر مجرد تشريف لخاتم الأنبياء؟ فى رأينا أن المسألة أعمق من ذلك: لقد أراد الله تعالى للبشرية أن تحيا فى العصر الحديث حياة تسودها السببية والمادية ، وهذا يتطلب قمع الجن ،

[168]) عرف الناس الشهب قبل الإسلام ، لكن الجديد هو كثرة هذه الشهب وملؤها للسماء إضافة إلى وجود حراس أشداء ، وهم على ما يبدو من الملائكة. يقول الرازى: (الْأَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ أَنَّ هَذِهِ الشُّهُبَ كَانَتْ مَوْجُودَةً قَبْلَ الْمَبْعَثِ إِلَّا أَنَّهَا زِيدَتْ بَعْدَ الْمَبْعَثِ وَجُعِلَتْ أَكْمَلَ وَأَقْوَى، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ لفظ القرآن لأنه قال: فَوَجَدْناها مُلِئَتْ [الجن: 8] وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَادِثَ هُوَ الْمَلْءُ وَالْكَثْرَةُ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ أَيْ كُنَّا نَجِدُ فِيهَا بَعْضَ الْمَقَاعِدِ خَالِيَةً مِنَ الْحَرَسِ وَالشُّهُبِ وَالْآنَ مُلِئَتِ الْمَقَاعِدُ كُلُّهَا، فَعَلَى هَذَا الَّذِي حَمَلَ الْجِنَّ عَلَى الضَّرْبِ فِي الْبِلَادِ وَطَلَبِ السَّبَبِ، إِنَّمَا هُوَ كَثْرَةُ الرَّجْمِ ومنع الاستراق بالكلية). انظر: **تفسير مفاتيح الغيب للرازي** (30/ 670)

والأخذ على أيدى السحرة ، بحيث يبدو الكون للناس على أنه محكوم بمنظومات من الأسباب المادية والقوانين المحكمة المنضبطة التى تحكم كل ظواهر الكون بشكل منتظم فى كل وقت وكل مكان. ولو استمر السحر بنفس القوة القديمة لتأخرت مسيرة العلم الحديث بشدة ، فالعلم الحديث قائم على أن لكل ظاهرة تفسير طبيعى وسبب مادى ، وأن علماء الطبيعة قادرون – من حيث المبدأ– من خلال أدواتهم الفيزيائية والرياضية على اكتشاف أسباب كل شىء ، وبفضل هذه الأسباب يمكنهم التنبؤ بالشكل الذى ستسير عليه الأمور فى المستقبل. كما يمكن للعلماء أن يُسخروا قوانين الطبيعة لاختراع الأدوات والآلات التى يتمكنون بها من التحكم فى الكون والسيطرة على ظواهر الطبيعة بهدف جعل حياة الإنسان أكثر سهولة ورفاهية.

ولو بقى السحر فى قوته القديمة لمال الناس إلى تفسير الظواهر الطبيعية الغامضة بأسباب غير طبيعية ، ولوجدنا رجلا مثل نيوتن يفسر دوران الكواكب حول الشمس بوجود ملاك خفى يحملها فى الهواء حتى لا تقع ، ويدفعها بأجنحته كى تدور حول الشمس ، وما كان نيوتن ليتعب نفسه وقتها فى استنباط المعادلة الرياضية التى تحدد قوة الجاذبية لأن الأمر برمته موكول إلى قرار الملاك. كما كنا سنجد العالم ماكسويل يفسر القوة الكهربية بأنها من عمل جنى ، والقوة المغناطيسية من عمل جنى آخر دون أن يتوصل إلى معادلاته الشهيرة التى اعتبرت الاثنين قوة واحدة تخضع لقانون رياضى منضبط. وأذكر أننا لما كنا صغارا كانوا يقولون لنا أن الرعد سببه أن جمل الشتاء يجرى وراء جمل الصيف ، وكنا نصدق هذا. ولو بقى السحر فى نفس قوته لسارع الناس إلى تفسير الصداع والقىء اللذين يعانى منهما أحد الأشخاص على أنهما نتيجة مس من الشيطان ، بينما هذا الشخص فى الحقيقة مصاب بورم خبيث فى المخ.

إن مرضا واحد مثل الصرع أو التشنجات كان القدماء يفسرونه دوما على أنه مس من الجن ، لكن العلماء الذين يعتنقون مبدأ السببية ظلوا يبحثون وراء المرض فاكتشفوا من خلال أبحاثهم عشرات الجينات التى يؤدى الخلل فى تركيبها إلى وجود بؤر فى المخ ينطلق منها تيار كهربى غير طبيعى يجعل الجسد يتحرك حركات غريبة. وبالمثل تبين أن كثيرا من الظواهر النفسية (مثل القلق والاكتئاب والخوف والوسواس القهرى) ليست نتيجة الجن والسحر والحسد وإنما نتيجة خلل فى الجينات ، ومن الممكن علاجها بالعقاقير.

وحدث يوما أن إحدى الأمهات جاء تبكى لى لأن ابنها ظهرت عليه أعراض تخلف عقلى وتشنجات وشلل بعد أن كان طبيعيا تماما. وأخبرتنى الأم أن ولديها السابقين كانا يعانيان من نفس الحالة التى انتهت بالوفاة ، وقالت لى الأم أنها تشك أن امرأة أخى زوجها عملت لها سحرا حتى لا يعيش لها ولد. وبعد فحص الطفل وإجراء تحاليل الجينات تبين لى أن الطفل يعانى من طفرة فى أحد الجينات الوراثية تسببت فى خلل فى التمثيل الغذائى أدى لظهور هذه الأعراض العصبية ، فقلت للأم أن هذا المرض كان سيصيب ابنك حتى لو كنت تعيشين وحدك فى جزيرة منعزلة لا يراك فيها أحد ولا يقطنها أى ساحر.

ومن القصص الطريفة فى هذا السياق قصة نقلها المستشرق المعروف مونتجومرى وات بخصوص طبيب مسلم ذهب لعلاج امرأة من الفرنجة الأوربيين كانت تعانى من الجفاف ، فرأى مدى تخلف الطب لديهم ، فقد كان هناك طبيب إفرنجى يرى أن مرض المرأة سببه أن شيطانا دخل جسدها ، وأن هذا يستلزم حلق شعر رأسها وأن تأكل الثوم والخردل. ولكن المريضة تدهورت حالتها ، وزاد الجفاف ، ففسر الطبيب ذلك بدخول الشيطان إلى رأسها ، فأحدث الطبيب جرحا فى رأسها على شكل صليب ثم أزال جلد الرأس عن موقعه حتى ظهرت الجمجمة ، ثم دلكها بالملح ، فماتت المرأة على الفور[169].

وبشكل عام فكلما أصر العلماء على البحث عن الأسباب المادية والقوانين وراء الظواهر والمشاهدات كلما تقدم علمهم ، واتسعت معارفهم ، وتعمق فهمهم للكون ، وازدادت قدرتهم على السيطرة على الطبيعة. وتخيل معى لو أن الناس ظلوا ينظرون للمجنون على أنه شخص أصابته الجن – كما يوحى بذلك اشتقاق كلمة (مجنون) نفسها– لما اكتشفنا مئات الجينات التى تعمل بشكل عجيب ودقيق كى يحيا الإنسان عاقلا ذكيا ، ولما تبين لنا أن بعض حالات الجنون يمكن منع حدوثها بتدخلات بسيطة مثل تقليل تناول بعض العناصر الغذائية أو استخدام جرعات عالية من بعض الفيتامينات.

وهكذا ترى أنه كان لا بد أن يتلقى الجن والسحرة ضربة موجعة تطيح بهم من على عروشهم الذى تربعوا عليها منذ فجر التاريخ. لقد كان من المحتم أن تنتهى عربدة الجن فى الأرض لأن

---

[169]) **فضل الإسلام على الحضارة الغربية**. تأليف مونتجومرى وات. ترجمة حسين أحمد أمين. صفحة 90-91.

دوام الحال من المحال ، ولأن الله تعالى خطط لأن تدخل البشرية إلى مرحلة تاريخية جديدة هى مرحلة العلم ، والعلم قائم على السببية والقوانين المنتظمة ، وقوة الجن والسحر تعوق بشدة خطوات البشرية نحو مرحلة تشرق عليها شمس العلم.

ومن المؤكد أن هذه الخطة الإلهية قد نجحت بشكل كبير ، فقد قل كثيرا انتشار الخرافات فى الحضارة الإسلامية ، تلك الحضارة التى مثلت بداية انطلاق البشرية نحو التقدم والعلم. ويمكنك على سبيل المثال أن تقرأ سير كبار الصحابة والخلفاء الراشدين والزعماء السياسيين وعلماء الدين وكبار قراء القرآن وكبار رواة الأحاديث والفقهاء لتلاحظ قلة – بل ندرة– الحكايات الخرافية والأساطير التى نسجت حولهم. وستشعر حين تقرأ كتب التراجم والطبقات أنك أمام بشر من دم ولحم وليس أمام شخصيات تعيش فى عالم يسكنه الجن ويسوده السحر. ويمكنك أيضا أن تلاحظ كيف واجه علماء الكلام بشراسة خرافات الغنوصية التى حاولت أن تنخر فى جسد الإسلام ، وكان النصر للإسلام الصافى الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام.

ونحب أن نوضح نقطة مهمة ألا وهى أن الجن لم يصابوا بالشلل التام مع بعثة محمد صلى الله عليه وسلم. لقد تلقوا ضربة قاصمة حقا ، لكن بقى لهم بعض القوة ، ولهذا فلا يزال السحر موجودا حتى اليوم وإن كانت حدته قد خفت كثيرا مقارنة بما قبل الإسلام. والدليل على بقاء بعض القدرة للجن قوله تعالى: {لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ } [الصافات: 8 – 10] ، فقوله (خطف الخطفة) تشير إلى حالة الجنى الذى يقوم بمحاولات يائسة للتنصت على الملأ الأعلى ، وأخيرا ينجح بصعوبة فى اقتناص بعض المعلومات ، فيخطفها (يأخذها بسرعة) ، وينطلق مسرعا لعله يستغلها فى السحر ، والإضرار بالناس ، وإيهام ضعاف النفوس بقدرته على معرفة الغيب. وهنا يرسل الله تعالى وراءه شهابا ثاقبا يقضى عليه. وفى آية أخرى يرد نفس المعنى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (17) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} [الحجر: 16 – 18]. **ويبدو أنه رغم كفاءة الشهب فى ملاحقة الشياطين إلا أن نجاحها لا يصل إلى درجة 100% ، وأن بعض الشياطين ينجح فى أن يلقى بسرعة المعلومات التى سمعها فى السماء إلى أصدقائه من السحرة قبل أن**

يهلكه الشهاب ، وكأنه شيطان فدائى يقوم بعملية انتحارية يحاول فيها أن ينال من أعداءه بأى شكل قبل أن يلقى حتفه. وهذه المعلومات التى ينجح الشياطين فى اقتناصها يتم خلطها مع كثير من الكذب لخداع الناس ، وهذا فى رأينا معنى قوله تعالى: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ } [الشعراء: 221 – 223]. ويؤكد هذا ما رواه البخارى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أن النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ عن أوامر الله التى تصدر فى السماء: "...**فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ** – وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ، وَفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ اليُمْنَى، نَصَبَهَا بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ – **فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ المُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيُحْرِقَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ، إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ، حَتَّى يُلْقُوهَا إِلَى الأَرْضِ** – وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ: حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الأَرْضِ – **فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُصَدَّقُ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ**". وعن عائشة قالت: سَأَلَ أُنَاسٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الكُهَّانِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ، فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ» رواه البخارى. وقرقرة الدجاجة: صوتها.

باختصار لقد اضمحل السحر كثيرا لكنه لم يختف.

ولكن لماذا أراد الله تعالى أن يكبت الجن ويوقف المعجزات والكرامات ويدخل البشرية عصر العلم؟

أولا من سنة الله تعالى فى الكون أن "دوام الحال من المحال" ، وقد عبر الله عن هذا المعنى بقوله: {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران: 140]. الثابت الوحيد فى الكون هو الله ، وكل طير مهما علا وارتفع فلا بد له يوما أن يقع ، ولم يحدث أبدا أن نهضت أمة دون أن تسقط ، ولذا فما الغرابة فى أن يتلقى الجن ضربة موجعة تفقدهم قدرتهم على العبث بحياة البشر ؟

ثانيا العلم ابتلاء كبيرا للبشرية ، العلم اختبار مثله المال والصحة والجمال والذكاء. وما الدنيا إلا سلسلة لا تنتهى من الامتحانات التى يكشف بها الله تعالى عن معادن البشر. ولقد أراد المولى عز وجل أن يمنح البشرية قوة رهيبة اسمها العلم ، تُمكنها من إحداث تغيرات هائلة على كوكب الأرض. لقد أصبح بإمكان الإنسان السفر إلى أبعد الأماكن فى ساعات قليلة بعد أن كان الأمر يستغرق شهورا. أصبحنا بالعلم نقدر على رؤية أصحابنا والكلام معهم من خلال الإنترنت. أصبحنا بالعلم نقدر على علاج آلاف الأمراض التى ظلت تحصد أرواح الملايين عبر آلاف السنين. بالعلم صرنا قادرين على التنقيب عن الماء واستخراج المعادن والنفط. بالعلم صرنا قادرين على الصعود إلى القمر. بالعلم تخلينا عن المكتبات الضخمة ووضعنا ملايين الكتب فى جهاز فى حجم الكف. بالعلم جعلنا الأرض تضاعف إنتاجها من الغذاء. بالعلم أصبحنا نأكل فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف. بالعلم غيرنا من أشكال الخضروات والفواكه ومن لونها وطعمها وحجمها.

باختصار: لقد جعل العلم أفقر إنسان بيننا يتمتع بما لم يكن يحلم به الملوك فى العصور القديمة. وكل هذه النعم تمثل ابتلاءات من الله للناس. لقد أعطانا الله تعالى العلم ليرى ماذا سنفعل به وكيف سنستخدمه؟ هل سنشكر الله عليه أم سنغتر به؟

إن من الأمور العجيبة بالنسبة لى أن العلم الحديث كشف عن إعجاز مذهل فى تصميم الكون ، وهذا الإعجاز كان يفترض أن يجبر المرء على الإيمان بوجود خالق للكون ، لكن الذى حدث هو العكس ، حيث أصبح أغلب علماء الطبيعة من الملحدين ، وبالمثل وجدنا علماء الأحياء يدخلون فى منافسة شرسة مع الله محاولين صنع الخلية الحية بأنفسهم ، ومحاولين خلق كائنات حية بما فى ذلك خلق البشر.

إن العلم أصعب اختبار شهدته البشرية منذ نشأتها ، وفى رأينا أن التفسير الوحيد لانتشار الإلحاد بين أوساط العلماء المعاصرين هو أنهم شعروا أنهم قد أصبحوا قادرين على عمل كل ما كان ينسب للإله فعله ، فإذا كان الله يشفى المرضى فالعلم أيضا يشفى المرضى ، وإذا كان الله يسقط المطر فالعلم يسقط المطر ، وإذا كان الله يوجد فى السماء فالإنسان أيضا قادر على صنع سفن فضاء تخترق أقطار السماء ، وإذا كان الله يعلم ما يجرى فى الخفاء فالإنسان أيضا يعلم ما

يجرى فى الخفاء بكاميرات المراقبة ، وإذا كان الله يؤثر على المخلوقات من بُعد فالإنسان أصبح يتحكم فى السيارة والتلفاز والحاسوب وسفينة الفضاء بالريموت كونترول. وإذا كان الله يخلق الحياة فالعلم أيضا يوشك على خلق الحياة من الجماد ، وإذا كان الله يحيى الموتى فالعلماء أيضا قادرين على إعادة الحياة للقلب بعد توقفه.

لقد شعر الإنسان أنه لم يعد بحاجة إلى الله. إن البشرية تتصرف الآن كالطفل الصغير الذى كبر ، فحاول الخروج من عباءة أبيه ، وصار يكلمه بأسلوب فظ غليظ ، ويجحد كل فضل له عليه. لقد كانت الحكمة تحتم على الإنسان المعاصر أن يتمهل قليلا ليفكر على النحو التالى: (إذا كنت قد أصبحت قادرا على عمل كثير من الأشياء العجيبة فى الكون فهل سأقدر يوما على خلق كون من العدم؟ وهل سأقدر على جعله يتصرف وفق قوانين دقيقة تكفل له البقاء؟) إن هذا السؤال وحده كفيل بكسر سورة الغرور لدى أى عالم.

من تكون أيها الإنسان بجوار الإله الذى خلق هذا الكون الشاسع؟ لقد استوقفتى آية من آيات القرآن فى يوم من الأيام: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [غافر: 57]. كنت أتساءل: كيف يقول القرآن أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس مع أن أقوى أدلتى على وجود الله أخذتها من الطريقة المدهشة التى صمم بها جسم الإنسان حتى أننى التحقت بكلية الطب خصيصا لأدرس جسم الإنسان بعمق كى أزداد إيمانا بالله؟ وبدا لى وقتها أن القرآن أساء الترتيب ، فقد كان الأجدر به أن يقول أن خلق الناس أكبر من خلق السماوات والأرض. ولكن فى أحد الأيام وأنا أسير فى جنازة أحد الموتى سرح فكرى فى أحد الأساتذة المشرفين على رسالتى للدكتوراة. كان هذا الأستاذ أفضل عالم فى مصر فى تخصصه ، وبينما أنا أفكر فى مواهبه وإنجازاته شعرت قدماى بالتعب من طول الطريق ، وإذا بسؤال يقفز إلى ذهنى: هل يستطيع هذا الأستاذ أن يخلق قطعة من الأرض طولها مثل طول الطريق الذى سرنا عليه من المسجد حتى المقابر وبعمق مترين فقط؟ كان الإجابة القاطعة: طبعا مستحيل. فاستمر التساؤل: وهل يستطيع الأستاذ أن يخلق كوكبا مثل كوكب الأرض؟ فجاءت الإجابة مرة أخرى: مستحيل ، فتساءلت: وهل يقدر على خلق مجرة كمجرتنا؟ طبعا لا ، واستمرت السؤال تلو السؤال ، والإجابة تلو الإجابة ، فاكتشفت كم هو حقير ذلك الأستاذ الذى

ينبهر به الناس. إن كل هذه الهالة التى تحيط به هى هالة كاذبة ، فالرجل فعلا حقير ، وليس هناك وصف يناسبه – ويناسب كل إنسان غيره– أفضل من كلمة "حقير" و"تافه" مع احترامنا للجميع. وفى هذه اللحظة فقط فهمت لماذا أكد القرآن أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس. إن كوننا المنظور ضخم جدا وواسع بشكل خرافى ، وفوق ذلك فالعلماء يؤكدون أن ما نراه هو مجرد جزء صغير جدا من الكون الحقيقى الذى تسوده المادة المظلمة والطاقة المظلمة. إننى كلما فكرت فى المسافات الرهيبة التى تفصل بين النجوم وفى السرعات الخيالية التى تتباعد بها المجرات عن بعضها البعض (التى تزيد أحيانا عن سرعة الضوء) شعرت بضآلتى وحقارتى وعجزى ، فأنا لست فقط عاجزا على خلق كون مثل هذا الكون ، ولكن أنا لا أستطيع حتى أن أتخيل مدى ضخامته واتساعه. لقد كان على الإنسان المعاصر أن يفهم أن كل الإنجازات التى حققها على الأرض ليست أكثر من لعب عيال مقارنة بخلق السماوات والأرض. إن كل ما حققته البشرية من علم واختراعات وحضارة أهون بليون مرة من خلق كوب صغير مثل كوكب الأرض الذى هو أقل من قطرة واحدة فى محيط لا آخر له. وتحضرنى الآن تلك المناظرة الشهيرة التى دارت بين نبى الله إبراهيم عليه السلام وذلك الملك المغرور الذى ادعى الألوهية. لقد قال إبراهيم أنه يعبد الإله الذى يحيى ويميت فرد الملك قائلا أنه أيضا يحيى ويميت لأنه يمكن أن يصدر حكما بموت هذا والعفو عن ذاك ، وهنا باغته إبراهيم بحجة صاعقة أردت ذلك المغرور صريعا: لقد طلب إبراهيم من الملك أن يجعل الشمس تشرق من المغرب خلافا لسنة الله ، فبهت الذى كفر لأن الكون الكبير (السماوات والأرض) يفضح عجز أى إنسان مهما علا قدره: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: 258].

وبعد هذا الاسترسال نلملم أطراف الحديث فى عبارة موجزة قائلين:

لقد أراد الله تعالى أن تتقدم البشرية بالعلم ليختبرها ، ويرى هل تتواضع وتشكر أم تغتر وتكفر؟ ولكى يتم هذا الاختبار كان من الضرورى أن يوقف الله تعالى عمل المعجزات ، ويقلل من

حدوث الكرامات ، ويوجه ضربة قوية للجن والسحرة حتى تكون الصورة السائدة عن الكون أنه منظومة من الظواهر التى تحكمها القوانين والأسباب المادية الصارمة.

وهنا قفز إلى ذهنى سؤال مهم: كيف أوقف الله تعالى المعجزات المادية ووجه ضربة قاصمة للسحر بمجيء رسالة محمد عليه الصلاة والسلام مع أن البشرية لم تكن وقتها قد تقدمت علميا؟

ونحن نجيب مؤكدين أن بعثة محمد عليه الصلاة والسلام تمثل فجر العلم الحديث ، فحضارتنا الحديثة لم تبدأ فى القرن العشرين أو القرن التاسع عشر كما يتخيل البعض وإنما بدأت بما يعرف بعصر النهضة ، وعصر النهضة بدأ فى إيطاليا فى القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن السادس عشر. وعصر النهضة لم ينشأ من فراغ ، ولكنه كان استكمالا لمسار بدأ منذ سنوات طويلة ، فجذور الحضارة الحديثة ترجع أساسا إلى الحضارة اليونانية[170] حيث ظهرت الفلسفة لأول مرة بشكل حقيقى لدى اليونان الذين أخذوا يتأملون فى الكون ، ويبحثون فيما وراء الطبيعة. لقد مثل الفكر اليونانى نقلة نوعية فى تاريخ البشرية ، فلأول مرة أصبح الفكر البشرى منظما وخاضعا للمنطق، ولأول مرة تحول التفكير من مجرد ممارسة آلية إلى احتراف وعلم يمكن اكتسابه ونقله للآخرين ، ولولا هذه الخطوة الحاسمة لما نشأت الحضارة الحديثة.

ولكن حضارة اليونان لم يكتب لها الدوام ، ففى عام 146 ق.م تعرضت بلاد اليونان للغزو على يد الامبراطورية الرومانية القوية[171]. وفى البداية سقط الرومان أسرى فى هوى ثقافة اليونان، **لكن لما أصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية بدأت الثقافة اليونانية تتعرض لضربات قاتلة على أيدى رجال الكنيسة** الذين اعتبروا أن حضارة اليونان هى حضارة الكفر والوثنية التى يجب محوها من الوجود ، وأن المعرفة الوحيدة الجديرة بأن يكتسبها الإنسان هى معرفة الإيمان المسيحى ، ومن قبيل التفاهة أن يسعى الإنسان لتعلم أى شيء آخر من

170) يجب أن ننبه – رغم هذا – إلى أن الحضارة اليونانية لم تبدأ من فراغ ، فمن المعروف أن اليونانيين استفادوا من معارف الحضارة المصرية والبابلية وغيرها.

171) قبل ذلك سقطت بلاد اليونان سياسيا فى قبضة الإسكندر الأكبر الذى غزاها عام 338 ق.م ، ولم يكن الإسكندر معاديا للثقافة اليونانية.

علوم الدنيا. ولم تقتصر معارضة الكنيسة للثقافة اليونانية على مجرد المناوأة الفكرية بل كانت مقاومة بالسيف والنار والدم[172].

وباضمحلال الثقافة اليونانية دخلت البشرية فى حالة ركود حضارى. ورغم أن شعوبا عديدة كانت قد ورثت جزءا كبيرا من التراث اليونانى ، إلا أن هذه الشعوب كانت كالميت الذى دفنوا معه فى القبر كنوزا ثمينة من الذهب والفضة ، فأنى ينتفع بها؟ تقول سيجريد هونكه عن إخفاق الشعوب القديمة فى الاستفادة مما وصلها من تراث الحضارة اليونانية:-

(إن بيزنطة الوريثة الغنية لا للشرق القديم فحسب بل للثقافة اليونانية أيضًا لم تنتج شيئًا وظلت حتى اليوم عاقرًا. والسريان وهم تلاميذ اليونان الحقيقيون وصلتهم الثقافة اليونانية كما وصلت العرب، فترجم السريان كثيرًا من المؤلفات اليونانية إلى لغتهم السريانية إلا أن السريان لم ينهضوا بما ترجموا، ولم تتفتق هذه الترجمات وتلك العلوم عندهم عن حركة علمية أو نهضة ثقافية عالمية. كما أن هذه النهضة العلمية لم تنبعث أيضًا في إيران التي كانت ملتقى الثقافات الصينية والهندية واليونانية، فقد استقبلت إيران كل هذه

---

172) تقول سيجريد هونكه عن الضربات القاصمة التى وجهتها المسيحية للحضارة الإغريقية: (لكن الإمبراطورية الرومانية حُولت إلى إمبراطورية مسيحية، فقد أعلن أوجسطين تعيين الرئيس المطلق للقوة الروحية، كما أرسلت روما الكهنوتية توجيهات إلى مختلف الجهات التي سبق لها أن أوفدت مبشريها. ففي بلاد الغال وبريطانيا أخذت الثقافة الهلّينية تختفي بمجرد وصول رسل روما، وتوارت مع الثقافة الهلّينية اللغة اليونانية، وذهبت روما الكهنوتية بعيدًا فعملت جاهدة على القضاء على العناصر الثقافية الهلّينية القديمة وحتى تلك التي تأصلت فيها من قبل. فالقديس «هيرونيموس» اعتبر مجرد التفكير اليوناني لعنة حلت بالإنسانية، كما ترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية ليقضي على الفولجاتا وأمثال هوميروس وفرجيل ويطهر العقول من آثارهما، وهكذا نجد الثقافة المسيحية تتجه اتجاهًا خطيرًا معاديًا للثقافة الهلّينية ومقوضًا لها. فالعقل البشري ليس هو الذي يضيء السبيل أمام النفس البشرية بل الوحي الإلهي. **وكانت العقيدة السائدة في العالم المسيحي أن استخدام القوى العقلية ودراسة الظواهر الطبيعية ومعجزاتها عوضًا عن الانصراف إلى دراسة تعاليم الديانات السماوية مفسدة لهذه القوى العقلية،** وذلك لأنه إذا كانت الفرصة مواتية لمعرفة الحقيقة عن طريق هذه الدراسات فلا بد أن توجد، «هكذا نادى المعلم الديني لكتنيوس» لكن لما كان هذا الاستعداد غير موجود فلن يجدي ضياع الزمان والمجهود في سبيل الهداية وبلوغ الحكمة»......... ولن نجد هذه الظاهرة أكثر وضوحًا وجلاء من أعمدة الدخان ولهب النيران التي غطت الإسكندرية، هذه المدينة التي ظلت قرونًا عديدة ملجأ الثقافة اليونانية وقلعتها الحصينة فقد تحولت الآن إلى روما، المركز الرئيسي للكنيسة المسيحية. **إن سماء الإسكندرية لم تعد هذه السماء الزرقاء الصافية بل عكست عليها لهب النيران المندلعة في مراكزها العلمية الرئيسية التي كانت مركز الإشعاع في دلتا النيل لونًا أحمر قانيًا، وذلك لأن دواوين الشعر اليوناني التي لا تعوض والتراث الأدبي والفلسفي وتاريخ العلوم الهلّينية تحولت بين عشية وضحاها إلى أكوام من الرماد بفعل المسيحيين المتعصبين الذين شفوا غليلهم وأرضوا شهواتهم فحرقوا وأبادوا ودمروا كل ما وصلت إليه أيديهم من تراث علمي يوناني اعتقادًا منهم أنه قد يتعارض والتعاليم المسيحية.** ففي عام 48 ق. م. عندما حاصر يوليوس قيصر الإسكندرية التهمت ألسنة النيران جزءًا كبيرًا من المكتبة الشهيرة الكائنة في «موسيون»، فما كان كليوباترة إلا أنها عوضت هذه الخسارة ببعض الكتب التي كانت موجودة في «برجامون». **لكن في القرن الثالث الميلادي نجد عمليات التخريب والإتلاف تواصل عملها دون انقطاع، فنجد بطريركًا مسيحيًا يغلق الموسيون ويطرد علماءه، وفي عهد القيصر «فالين» تحولت عام 316 م جامعة «كيزاريوم» إلى كنيسة، كما خربت مكتبتها وأحرقت محتوياتها واضطهد فلاسفتها بتهمة السحر والشعوذة. وفي عام 391 م حصل البطريرك «ثيوفيلوس» من القيصر «ثيودوسيوس» على إذن بتخريب أكبر مزار في العالم القديم وهو آخر وأكبر أكاديمية علمية، أعني «سرابيون»، كما حرق مكتبته القديمة، ولعمري إنها أكبر كارثة أصابت الإنسانية إذ كانت أكبر ضربة وجهت إلى العلوم العقلية الإنسانية، وإن مصيبة العالم فيها لا تعوض فهي ولا شك مأساة المآسي. ولم تقف أعمال التخريب والحرق والتدمير التي قام بها متعصبو المسيحية عند هذا، بل نجد حتى أشباه الأقوياء يهيمون باقتراف أعمال الاضطهاد والتعذيب ويتخذون من ذلك لا هواية فحسب بل وسيلة للتفاني في المسيحية،** فنحن نعلم أن صديق البطريرك الأنطاكي وهو «سيفيروس» يعترف دون خجل كيف أنه وصديقه كثيرًا ما اقترفا، أيام شبابهما في القرن الخامس الميلادي وفي الإسكندرية حيث كانا منضمين إلى هيئة مسيحية، كثيرًا من الآثام والجرائم الخلقية ضد العلماء الوثنيين وضد دور عبادتهم، فقد كسرا أنصاب آلهتهم وخربا معابدهم، وهكذا مجد مراكز الثقافة الهلّينية يختفي الواحد بعد الآخر. ففي عام 529 م أقفلت آخر مدرسة للفلسفة في أثينا، وفي عام 600 م احترقت في روما المكتبة التي أسسها «أغسطس»، كما **حرم تدريس أدبيات الأقدمين وعلومهم وبخاصة الرياضيات**، وهدمت حتى بقايا المباني القديمة. ولما تقدم العرب نحو الإسكندرية ودخلوها عام 642 م لم تكن بها منذ زمن بعيد دور للكتب سواء كانت هذه الدور كبيرة أو صغيرة).

نقلا عن كتاب: **شمس العرب تسطع على الغرب** (فضل العرب على أوروبا) (صفحة: 265). تأليف سيجريد هونكة. ترجمة وتحقيق وتعليق د. فؤاد حسنين على.

الثقافات ولم تطورها بالرغم من أن بيئتها الطبيعية وحالتها الاقتصادية ومستواها الثقافي تساعد على هذا التطور. لكن الملاحظ أن العقلية الإيرانية لم تنتج ولم تتطور ولم تنهض إلا عندما وجدت بيئة أخرى وخضعت لمؤثرات ثقافية خاصة. ليست بيزنطة وليست بلاد السريان وليست إيران التي كانت القنطرة التي تصل بين الثقافتين الشرقية والغربية ليست جميع هذه البلاد هي التي ظهرت على المسرح الثقافي العالمي كحاملة لمشعل الثقافة القديمة ومكملة لها) [173].

وقد ظل الركود الحضارى العالمى بعد موت الحضارة اليونانية إلى أن جاء الإسلام فأنشأ حضارته التى صارت النواة التى أنبتت الحضارة العالمية الحديثة. تقول سيجريد هونكه[174]:

(أما الشعب الذي خلف الثقافة القديمة ، وحمل لواء النهضة العلمية الفكرية في العالم فهو شعب صحراوي خرج من الصحراء وبسرعة البرق قبض على صولجان السيادة الثقافية في العالم، وظل أبناء الصحراء حاملين لهذا الصولجان دون منازع مدة لا تقل عن ثمانية قرون، كما أن هذه الثقافة العربية قد تفتقت وازدهرت وأينعت أكثر من الثقافة اليونانية، كما كان العرب أخصب وأقوى من اليونانيين).

وتقول سيجريد هونكة فى موضع آخر:

(إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التي نهض بها أبناء الصحراء ومن العدم من أعجب النهضات العلمية الحقيقية في تاريخ العقل البشري. فسيادة أبناء الصحراء التي فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة في نوعها، وإن الإنسان ليقف حائرًا أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة، هذه المعجزة العقلية التي لا نظير لها والتي يحار الإنسان في تعليلها وتكييفها. إذ كيف كان من المستطاع أن شعبًا لم يسبق له أن يلعب دورًا سياسيًا أو ثقافيًا من قبل يظهر بغتة إلى الوجود ويسمع العالم صوته ويملي عليه إرادته ويفرض عليه تعاليمه، وفي زمن قصير أصبح ندًا لليونان. إن هذه المنزلة التي بلغها العرب أبناء الصحراء لم تبلغها شعوب أخرى كانت أحسن حالا وأرفع مكانة.[175])

---

173) **شمس العرب تسطع على الغرب** صفحة: 258.

174) **شمس العرب تسطع على الغرب**. صفحة 259

175) **شمس العرب تسطع على الغرب** (فضل العرب على أوروبا) (صفحة: 258).

ومن الحقائق الشديدة الأهمية أن **حضارة الإسلام "نبعت" من قلب الإسلام وليس مما وصل إليها من حضارات العالم القديم.** ويجب أن نفهم جيدا أن حضارة الإسلام لم تبدأ فى عصر الأمويين ولا العباسيين الذى نشطوا فى ترجمة كتب الأمم السابقة بعد قرنين أو أكثر من وفاة الرسول كما يتصور كثير من المثقفين ؛ **لقد بدأت حضارة الإسلام بالتزامن مع نزول القرآن.** وليست هذه مبالغة دفعنى إليها تعصبى لدينى ، ولكنها عين الحقيقة.

لقد انتشر الإسلام وسط شعوب خامدة ، فكان كالشرارة التى أشعلت لهيب عقول ظل نشاطها مدفونا عبر قرون طويلة من الاحتلال والظلم والكهنوت. لقد فعل الإسلام شيئا بسيطا فى أهل العراق والشام ومصر وفارس والأندلس ألا وهو "**خلق مناخ علمى**". هذا كل ما حدث! لقد كان الإسلام أهم شىء فى حياة المسلمين ، ومن الطبيعى أن يسعى الإنسان إلى معرفة كل شىء عن الأمور التى يراها ذات أهمية قصوى: كان من المهم أن يتلقى المسلم إجابة عن كل ما يعن له من مسائل عملية كالزواج والطلاق والصلاة ، ومن هنا نشأ علم الفقه. كما نظر المسلمون فى القرآن فوجدوا فيه غموضا ساحرا جذابا فانكبوا عليه يحاولون كشف أسراره ومعرفة خباياه ، فنشأ علم التفسير. وكان من الطبيعى لأناس يحبون رسولهم أن يتتبعوا كل شىء روى عن حياته وحياة أصحابه ، فنشأ علم السيرة والتاريخ. كما أدت غيرة المسلمين على الرسول وحرصهم على نقاء الإسلام إلى نشوء علم الحديث الذى يفرق بين الصحيح والضعيف. وأدى حرص المسلمين على نقاء لغة القرآن وخوفهم من اندثارها إلى نشوء علوم اللغة. كما ساهم اصطدام المسلمين فكريا بالديانات الأخرى إلى نشوء علم الكلام أو الفلسفة الإسلامية. باختصار: **كان الإسلام أهم شىء فى حياة المسلمين ، فاندفعوا لدراسته والتعمق فيه ، وهنا بالتحديد تقع نقطة التحول ، فما الحضارة إلا انتشار واسع لظاهرة حب العلم والحرص على اكتسابه ونقله للآخرين.** لقد نجح الإسلام فى خلق جو علمى بين المسلمين ، وأصبح هناك مناخ عام يشجع على التعلم والتعليم والتفكير والبحث واستخلاص النتائج. **ورغم أن هذا المناخ نشأ أساسا فى ربوع الدين إلا أنه امتد بشكل تلقائى لكل مناحى الحياة** ، فنشأت علوم أخرى مثل الطب والفلك والرياضيات والهندسة والكيمياء. **إن وجود مناخ عام يشجع على التعلم والدراسة كفيل بأن يجعل حتى الإنسان غير المتدين حريصا على أن يصنع لنفسه مستقبلا علميا فى المجال الدنيوى الذى**

يحبه ، فروح التنافس لا تفرق بين التخصصات. لقد جعل الإسلام الشعوب القديمة تعيد ممارسة رياضة التفكير والتعلم والتعليم ، فكان كدواء تناوله مشلول ، فقام يعدو كالريح.

لقد أمر الإسلام بخلق طبقة من المؤمنين المخلصين يَدْرسون الدين ويُدرسونه للآخرين ، وهذا ما نجده فى قوله تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } [التوبة: 122]. إن هذه الآية تثبت أن الإسلام كان سببا مباشرا فى ظهور الحضارة الإسلامية ، فقد فرض القرآن وجود طائفة تتخصص فى دراسة الإسلام ، ثم تعلمه لبقية المسلمين. ولما مات الرسول عليه السلام واتسعت الفتوحات الإسلامية أصبحت هناك حاجة ملحة لأن تتعلم الشعوب الدين الجديد ، وكان المعلمون فى هذه الحالة هم الصحابة ثم التابعون ، فانتشرت حلقات العلم فى المساجد ، وظهرت أجيال جديدة تتتبع كل ما قيل عن الإسلام من مختلف العلماء فى مختلف البلدان. لقد نبتت روح علمية حول الدين الجديد ، وكان من الطبيعى أن تسرى هذه الروح العلمية من مجال الدين إلى بقية المجالات ، فازدهرت العلوم الدنيوية بجوار العلوم الدينية.

ومن العوامل المهمة التى أسهمت فى نشوء الحضارة أن الإسلام كان دينا بلا كهنوت ، دينا أتاح لكل إنسان أن يتعلم دينه ، ويفكر فيه ، ويُدرسه ، دون رقابة رسمية تزعم اتصالها بالسماء ، وتدعى حملها لصكوك اللعنة والغفران. وظهرت فرق إسلامية كثيرة ، لكن أيا منها لم يزعم أنه يتلقى وحيا من السماء يؤهله لمحاكمة الآخرين ، بل كان الصراع بين الجميع قائما على العقل ونصوص الوحى التى يقرؤها الكافة. كما يجب ملاحظة أن الإسلام أتاح التعليم لكل الناس من كل الأجناس والطبقات ، وحتى العبيد كان منهم علماء ، ولك أن تعلم أن عكرمة مولى ابن عباس كان عبدا من أصل غير عربى ، فتحول فى ظل الإسلام إلى واحد من كبار العلماء[176].

ومن المؤكد أيضا أن القرآن نفسه كان له أكبر الأثر ، فالقرآن كتاب فكر ، يدعو للتأمل واستخلاص العبر من ظواهر الكون. وفكر القرآن فكر جاد محترف يختلف بشكل واضح عما

---

176) أصله من البربر من أهل الْمغرب. قَالَ: طلبت الْعلم أَرْبَعِينَ سنة وَكنت أُفْتِي بِالْبَابِ وَابْن عَبَّاس فِي الدَّار. قَالَ أَبُو الشعْثَاء عِكْرِمَة أعلم النَّاس. وَقيل لسَعِيد بن جُبَير تعلم أعلم مِنْك قَالَ عِكْرِمَة. وَقَالَ قَتَادَة أعلم التَّابِعين أَرْبَعَة كَانَ عَطاء بن أبي رَبَاح أعلمهم بالمناسك وَكَانَ سعيد بن جُبَير أعلمهم بالتفسير وَكَانَ عِكْرِمَة أعلمهم بسيرة النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَكَانَ الْحسن أعلمهم بالحلال وَالْحرَام. وَقَالَ أَيُّوب اجْتمع حفاظ ابْن عَبَّاس فَمنهمْ سعيد بن جُبَير وَعَطَاء وَطَاوُس على عِكْرِمَة فجعلُوا يسألونه عَن حَدِيث ابْن عَبَّاس. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْريّ خُذُوا التَّفْسِير عَن أَرْبَعَة عَن سعيد بن جُبَير وَمُجاهد وَعِكْرِمَة وَالضَّحَّاك. وَقَالَ ابْن الْمَدِينِيّ لم يكن فِي موَالِي ابْن عَبَّاس أغزر من عِكْرِمَة كَانَ من أهل الْعلم. انظر: **طبقات الحفاظ** . تأليف جلال الدين السيوطى. (صفحة: 44).

نجده فى كتب الأديان الأخرى التى نالها التحريف ، وتسلل إليها الفكر البشرى الساذج ، فصارت قراءتها تبعث على الاستخفاف ، وتثير الضحك فى كثير من الأحيان.

وبمرور الوقت بدأ المسلمون يكتشفون علوم الأمم الأخرى ، ويترجمونها إلى العربية فى القرن الثامن والتاسع الميلادى.[177] ومنذ القرن العاشر بدأ المسلمون يؤلفون كتبا فى العلوم الطبيعية من إبداعهم الخاص. وبعد فترة بدأ الأوربيون يكتشفون أن الفرق بينهم وبين المسلمين كالفرق بين السماء والأرض ، فشرعوا يترجمون الكتب العربية إلى لغتهم اللاتينية ، وكان العصر الذهبى للترجمة فى القرن الثانى عشر والثالث عشر[178] ، فاطلع الأوربيون على نتاج الحضارة اليونانية والإسلامية ، فتقدموا ، إلى أن وصولوا إلى القمة فى عصر النهضة منذ 1300م حتى 1600م. لقد كان من المستحيل حدوث نهضة فى أوربا لولا اطلاع الأوربيين على الحضارة الإسلامية واليونانية من خلال حركة الترجمة التى جعلت الأوربيون يمارسون رياضة التفكير ، فانطلقوا يكتشفون الكون ، فجاءت الحضارة الغربية الحديثة.

إن كثيرا من الناس يحسبون أن الحضارة ترادف تقدم العلوم الطبيعية والاختراعات فقط ، وهذا خطأ ، فالحضارة ظاهرة عامة تتلخص فى وجود مناخ يشجع على التفكير والتعلم والتعليم والبحث فى شتى المجالات. ويمكنك أن تنظر إلى الحضارة الغربية الحديثة لتلاحظ أن أهلها لم يتفوقوا على غيرهم فى الفيزياء والكيمياء والتقنية فقط ، بل تفوقوا عليهم فى شتى المجالات ، ففى الفلسفة كان لديهم ديكارت وكانط وهيوم وشوبنهور وبيرجسون وهيجل وكيركجارد وسارتر وهيدجر وليفى شتراوس وغيرهم. وفى الاقتصاد كان لديهم ماركس وآدم سميث وكينز. وفى الأدب كان لديهم شكسبير وموليير وفولتير وكافكا. وبالمثل تفوق الأوربيون على العالم فى علوم التاريخ والسياسة والصحافة. والغريب أنهم تفوقوا على الآخرين حتى فى الفنون كالسينما والنحت والرسم. والأعجب أنهم تفوقوا فى الرياضة والألعاب. ومن المضحك أيضا أن الحضارة الغربية تفوقت حتى فى الجنس والعرى والإغراء والأزياء ، ويكفى أننا كل عام نلهث وراء الموضة التى تأتينا من عندهم. وأغرب شىء على الإطلاق أنهم تفوقوا علينا فى عقر دارنا أقصد فى صميم

---

177) كانت الترجمة فى البداية من اللغة السريانية المنتشرة فى العراق، وبعد ذلك بدأ ترجمة الكتب مباشرة من اللغة اليونانية التى كانت نادرة الاستخدام ، وذلك بفضل جهود حنين بن إسحاق. انظر كتاب: **فضل الإسلام على الحضارة الغربية**. تأليف مونتجومرى وات.

178) يقول مونتجومرى وات أنه بانتهاء القرن الثالث عشر انتهى العصر الذهبى للترجمة من العربية للاتينينة ، ولكن استمرت ترجمة بعض الكتب العربية حتى القرن السادس عشر والسابع عشر. انظر كتاب: **فضل الإسلام على الحضارة الغربية**. صفحة 86

ديننا ، فقد تعمق المستشرقون فى دراسة الإسلام حتى فاقوا شيوخ المسلمين ، وأصبحنا نرى رجال الأزهر يسافرون فى بعثات إلى بلاد أوربية لدراسة الإسلام ، ومن أشهر هؤلاء شيخ الأزهر عبد الحليم محمود والشيخ مصطفى عبد الرازق ، وغيرهم. ومن يقرأ كتب المستشرقين – بصرف النظر عن سوء نوايا أغلبهم – يلاحظ إلماما واسعا عجيبا بعلوم الإسلام بشكل قل أن تجده بين المسلمين أنفسهم. وأنا الآن أتذكر آية قرآنية رائعة تلخص بشكل مدهش فكرتى السابقة: قال تعالى:{ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ } [الأنعام: 44]. إن هذه الآية تؤكد أن الله تعالى إن أراد رفع شأن قوم فإنه قد ينعم عليهم فى كل المجالات ، وليس فى مجال واحد فقط (أبواب كل شىء). وهذا بالضبط هو ما حدث فى الحضارة الغربية التى تقدمت ليس فقط فى العلوم الطبيعية ولكن حتى فى الأدب والفن والرياضة. وهذه الظاهرة تثبت صحة قولنا أن جوهر الحضارة هو ممارسة رياضة التفكير وازدهار مناخ التعليم والتعلم.

نخلص من كل هذا النقاش الطويل إلى أن الحضارة الحديثة لم تنشأ فى القرن العشرين ، ولكنها نشأت مع ظهور الإسلام ، وبالتحديد مع نزول القرآن الذى أشعل شرارة التفكير والدراسة لدى المسلمين. وعلى ذلك فحين أنزل الله عز وجل دين الإسلام فإنه هيأه كى يكون ملائما للحضارة الحديثة التى كان يعلم أنها توشك أن تبدأ وتستمر بلا انقطاع ، فالحضارة الحديثة لم تبدأ كما يتصور الكثيرون منذ قرن أو قرنين ولكن منذ حوالى 1400 سنة. **وهكذا يمكننا الآن أن نفهم لماذا لم يتَحَد الإسلام البشرية بمعجزات مادية ، ولماذا وجه الله تعالى ضربة موجعة للشياطين والسحرة بالتزامن مع نزول الوحى على محمد عليه السلام.**

وحين نقول أن الحضارة الحديثة نشأت مع ظهور الإسلام فليس فى هذا إنكار لدور الثقافة اليونانية ، لكن على الرغم من ذلك فنحن لا نرى تأريخ بدء الحضارة الحديثة بظهور الثقافة اليونانية لعدة أسباب:

1- **نبعت حضارة الإسلام من الإسلام نفسه** ، فقد بدأت كحضارة دينية خالصة دون أى إسهام من الحضارة اليونانية ، فمثلا علم التفسير وعلم الحديث وعلم الجرح والتعديل وعلم النحو والصرف وعلم البلاغة وعلم العروض وعلم الصوتيات وعلم الفقه وغيرها ، كل هذه علوم

إسلامية خالصة ، لم تأت للمسلمين من بلاد اليونان ، بل إن بعضها لا يوجد له مثيل فى أى مكان آخر فى العالم.

2- **الحضارة اليونانية لم تواصل ازدهارها ، بل تعرضت للاندثار** بسبب الحرب الشعواء التى شنتها المسيحية على الفكر اليونانى وعلى الفلاسفة اليونانيين. واستمر هذا الخمود الحضارى إلى أن ظهر الإسلام ، فأشعل لهيب العقول ، وعاد تيار الحضارة يسرى ، واستمر متصلا حتى عصر النهضة ثم الحضارة الحديثة. وعلينا أن نعلم أن الحضارة الإسلامية ظلت مزدهرة حتى القرن السابع عشر على الأقل[179] ، بينما وصلت الحضارة الأوربية إلى درجة الازدهار والإبداع فى القرن الثالث عشر[180] ، أى أن هناك فترة تداخل ازدهرت فيها الحضارتان معا ، وهذا يعنى أن **التيار الحضارى الذى بدأه الإسلام ظل ساريا فى العالم حتى يومنا هذا دون انقطاع** ، أى أن من الأدق أن نؤرخ لبدء الحضارة الحديثة بظهور الإسلام وليس بظهور الحضارة اليونانية مع اعترافنا بفضل اليونان الذى لا ينكره أحد.

3- من أهم مميزات الحضارة الحديثة استخدام المنهج التجريبى القائم على استقراء ظواهر الطبيعة واستخراج القوانين منها. **والمنهج التجريبى لم يأخذه الأوربيون من اليونان ، ولكنهم أخذوه من المسلمين.** لقد كان اليونان يهتمون ببناء النظريات ، ثم يُخضعون لها التجربة ، ولكن المسلمين قدموا التجربة والاستقراء على النظرية ، فالتجربة فى نظرهم هى التى تصنع النظرية ، وهذا سبب آخر يجعلنا نرفض اعتبار الحضارة اليونانية بداية الحضارة الحديثة. وتقول سيجريد هونكة فى هذا الصدد[181]:

(لقد طور العرب بتجاربهم وأبحاثهم العلمية ما أخذوه من مادة خام عن الإغريق ، وشكلوه تشكيلا جديدا. **فالعرب فى الواقع هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمى الحق القائم على التجربة.** لقد سرت بين العلماء الإغريق –الذين لم يكونوا جميعا بالإغريقيين بل كان أغلبهم من أصل شرقى– سرت بينهم رغبة فى البحث الحق ، وملاحظة الجزئيات ، ولكنهم تقيدوا دائما بسيطرة الآراء النظرية. **ولم يبدأ البحث العلمى الحق القائم على الملاحظة والتجربة إلا عند**

---

179) **فضل الإسلام على الحضارة الغربية**. مونتجومرى وات. صفحة 22

180) **فضل الإسلام على الحضارة الغربية**. مونتجومرى وات. صفحة 85

181) **شمس العرب تسطع على الغرب**. تأليف زيجريد هونكه. صفحة: 401. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقى. راجعه مارون عيسى الخورى. دار الجيل بيروت- دار الآفاق الجديدة بيروت. الطبعة الثامنة 1993م- 1413 هجرية. وقد وقع فى أيدينا ترجمتان لنفس الكتاب ، وقد آثرنا فى هذا الموضع هذه الترجمة لاضطراب العبارة فى الترجمة الأخرى.

العرب. فعندهم فقط بدأ البحث الدائب الذى يمكن الاعتماد عليه ، يتدرج من الجزئيات للكليات ، وأصبح منهم الاستنتاج هو الطريقة العلمية السليمة للباحثين. وبرزت الحقائق العلمية كثمرة للمجهودات المضنية فى القياس والملاحظة بصبر لا يعرف الملل. وبالتجارب العلمية الدقيقة التى لا تحصى اختبر العرب النظريات والقواعد والآراء العلمية مرارا وتكرارا ، فأثبتوا صحة الصحيح منها ، وعدلوا الخطأ فى بعضها ، ووضعوا بديلا للخاطىء منها متمتعين فى ذلك بحرية كاملة فى الفكر والبحث ، وكان شعارهم فى أبحاثهم الشك هو أول شروط المعرفة. تلك هى أول الكلمات التى عرفها الغرب بعدهم بثمانية قرون. وعلى هذا الأساس العلمى سار العرب فى العلوم الطبيعية شوطا كبيرا أثر فيما بعد بطريق غير مباشر على مفكرى الغرب وعلمائه أمثال روجر بيكون وماجنوس وفيتليو وليوناردو دافنشى وجاليليو. إن العرب لم ينقذوا الحضارة الإغريقية من الزوال ونظموها ورتبوها ثم أهدوها إلى الغرب فحسب ، **إنهم مؤسسوا الطرق التجريبية** فى الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع. وبالإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية فى مختلف فروع العلوم – والتى سرق أغلبها ونسب للآخرين – **قدم العرب أثمن هدية وهى طريقة البحث العلمى الصحيح** التى مهدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم[182].)

كما أثبت الأستاذ على سامى النشار بشكل قاطع خطأ الفكرة القائلة بأن المسلمين أخذوا بالمنطق اليونانى واعتبروه منهجا لأبحاثهم. ويتساءل النشار :

(لكن إذا كان المسلمون لم يقبلوا منطق القياس فهل كان لهم منهج آخر؟ إن الإجابة الحاسمة على هذا السؤال هى أن **المسلمين وضعوا المنطق الاستقرائى كاملا. وقد نبه العالم التجريبى الأول – روجر بيكون– إلى هذا.** وقد عرف هذا المنهج ووصل إليه..... إن أهم خصائص المنهج التجريبى الإسلامى أنه منهج "إدراكى" أو "تأملى" ، فقد أدرك مفكرو الإسلام تمام الإدراك أنه لا بد من وضع منهج فى البحث يخالف المنهج اليونانى ، حيث إن هذا المنهج الأخير إنما هو تعبير عن حضارة مخالفة وتصور حضارى مخالف. ويثبت هذا الحملة العنيفة التى قام بها علماء الإسلام على "منطق يونان" ، وتاريخ هذه الحملة العنيفة واضح وضوحا بالغا فى كتابات المسلمين.

---

[182]) **"شمس العرب تسطع على الغرب. أثر الحضارة العربية فى أوروبة"**. صفحة 401-402. تأليف زيجريد هونكه. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقى. راجعه مارون عيسى الخورى.

فإذا أقدموا على وضع المنهج فإنما عن تأمل تام وشعور حقيقى بما يفعلون. فلم يكن المنهج الجديد إذن عبارات شاردة ولماحية عابرة وإنما هو بناء منهجى كامل.[183]

وبعد ، نعتذر للقارىء عن الإطالة فى هذا الفصل ، ونتمنى أن نكون قد وفقنا فى بيان سبب امتناع الله تعالى عن عمل المعجزات المادية فى العصر الحديث.

إضافة أخيرة: يمكننا الآن أن نجيب على سؤال يردده بعض الملحدين وهو: لماذا لم يحفظ الله تعالى بيته الحرام من عدوان القرامطة الذين أفسدوا فيه وسرقوا الحجر الأسود مثلما فعل مع جيش أبرهة الذى أرسل عليه الطير الأبابيل؟ إن أحد أوجه الإجابة هى أن الخطة الإلهية تغيرت مع بدء نزول الوحى على محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم يعد هناك مجال للمعجزات المادية، وذلك مسايرة لتغير الثقافة العالمية. إن الله تعالى إن قرر انتهاج منهج معين فى حقبة زمنية معينة فلن يغير منهجه مهما كان السبب. وفضلا عن ذلك فإن الله تعالى قطعا قادر على نصر دينه ، ولكنه أوكل مهمة الدفاع عن الدين إلى البشر. لقد أراد الله تعالى أن يختبر الناس ليعرف أيهم يغضب لربه ، وأيهم ينشغل بنفسه وماله وولده ، وقد عبر القرآن عن معنى مقارب حين أمر المؤمنين بالجهاد ضد الكفار ، وعقب على ذلك بقوله: {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ } [محمد: 4] ، وهذه الآية تعنى أن الله تعالى قادر على نصر دينه ولكنه تعالى يريد أن يختبر الناس ليرى أيهم مخلص لدين الله. وفى آية أخرى قال: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحديد: 25]. ولنعلم أن الله تعالى حليم ، يمهل الظالم ، ويتركه يطغى إلى أن يأتى يوم القيامة ، فينال جزاءه العادل: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [النحل: 61].

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

---

[183]) **نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام**. تأليف دكتور على سامى النشار. الجزء الأول ، صفحة 38- 39

الباب التاسع: اختفت المعجزات وبقيت بعض الخوارق

سبق أن أوضحنا أن الله تعالى لم يعد يرسل أنبياء ويجرى على أيديهم المعجزات لأسباب منها أنه عز وجل أراد وضع البشرية فى العصر الحديث فى اختبار كبير اسمه المادية ، إلا أنه عز وجل لم يشأ أن يكون الاختبار بالغ الصعوبة ، ولهذا ترك لنا دلائل لطيفة غير فجة على أن كوننا ليس ماديا بالشكل الصارم الذى يتخيله العلماء. وهذه الدلائل اللطيفة تشمل ظواهر مثل الدعاء والحسد والسحر وتحقق الأحلام.

وهذه الظواهر لا تمثل خرقا للعادة ، وذلك لأنها شائعة ، ولذا فمن الخطأ أن نخلع عليها مصطلح "المعجزات". والأفضل أن ننظر إليها على أنها خرق فى ثوب الفلسفة المادية. إن على المسلم أن **ينظر إلى هذه الظواهر على أنها أدلة على أن الكون ليس محكوما بالقوانين المادية والأسباب الفيزيائية فحسب** ، بل هناك فضاء آخر رحب غير مادى يؤثر على حياتنا. إن هذه الظواهر تمثل **شوكة فى حلق كل من يحاول ابتلاع المادية.** لقد ترك لنا الله تعالى هذه الظواهر، وكأنه يخاطب الإنسان المعاصر قائلا: (على رسلكم ، لا تحسبوا أن علمكم هو كل شيء ، وأن المادة هى كل ما فى الوجود. لا تنكروا وجود الله لكونكم لا ترصدونه فى مختبراتكم ولا يظهر لكم فى معادلاتكم الرياضية، فهناك أمور غيبية لا يمكن لعلمكم أن يفهمها ، فاستقيموا وتواضعوا ، وأنصتوا إلى خالقكم).

إن الله تعالى يتصرف بطريقة فى غاية الحكمة ، **فحين أراد أن يرمى العالم باختبار المادية فإنه ترك بصيصا من نور لا مادى ، إذ لو خلا العالم من ظواهر السحر والحسد وتحقق الأحلام وغيرها لشك المؤمن فى دينه** ، ولظن أنه لا حاجة به لافتراض وجود شيء وراء الطبيعة ، ولانتهى به الأمر للكفر. إن اختبار المادية قد حُددت درجة صعوبتة بدقة بالغة ، ولو كانت درجة صعوبته 100% لما نجح أحد ولكفر كل الناس ، لكن بالوضع الحالى فدرجة الصعوبة فى رأيى حوالى 70% ، وهى كافية للتفرقة بين الصالح والفاسد. وهذا يذكرنى بقوله تعالى: {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [الزخرف: 33، 35]. وفى هذه الآية الأخيرة يقول الله تعالى أنه

كان يود أن يزيد الاختبار صعوبة على الكفار ، وذلك بأن يغمرهم بالنعم الدنيوية فينشغلوا بها وينسوا ربهم ، فيدخلون جهنم. ولكن لو فعل الله ذلك لكفر الناس جميعا لأنهم سيجدون أن كل من يكفر تنهال عليه النعم والخيرات.

إن هذا يذكرنى – مع الفارق الكبير– ببعض الحكومات التى تدبر الحادث ، ثم تلقى بالتهمة على إحدى الجهات المعادية ، لكنها فى نفس الوقت تترك متعمدة ثغرة توحى بقوة أن الحكومة هى التى دبرت الحادث. فعلى سبيل المثال حدث فى بعض الدول أن الحكومة دبرت هجوما على مؤسسة حكومية ، وتراخت قوات الأمن بشكل واضح فى نجدة المؤسسة رغم قربها الشديد ، فكان هدف هذه الحكومة أن تقول للعالم: (هذا الحادث ليس دليلا على أننى لا أحكم قبضتى على البلاد ، وكل ما فى الأمر أننى أريد شيطنة بعض المعارضين فدبرتُ حادثا ، ونسبتُه إليهم). وبتتبع عدد كبير جدا من الحوادث المماثلة اكتشفت أن هذا منهج معروف تتبعه أجهزة الاستخبارات التى تفضل أن تترك وراءها دليلا يشير إلى أنها من دبرت الحادث أو المؤامرة ، وكأنه تفاخر صامت بإنجاز لا يمكن الإعلان عنه. وطبعا أنا لا أشبه الله –إله الخير – بأجهزة الاستخبارات الفاسدة ، ولكن فقط أوضح للقارىء معنى استراتيجية الأدلة اللطيفة الخفية.

والآن نأتى إلى أمثلة لتلك الظواهر الخارقة. وسيلاحظ القارىء أننى أورد حكايات كثيرة حدثت لى شخصيا ، ولا يهمنى ما إذا كان البعض سيصدقها أم لا لأننى كتبتها لأستفيد أنا منها شخصيا إذا قرأتها فى المستقبل ، كما أننى لا أقدم وقائع فريدة لم يسبق لها مثيل ، فكثير من الناس حدثت لهم مواقف مشابهة ، بل أشد قوة. فلنبدأ بعون الله:

1- الدعاء

خبرات شخصية مع الدعاء

كانت المستشفى الخاص الذى أعمل به تضغط علىَّ كى أصف لكل الأطفال المولودين حديثا ألبانا صناعية نظير عمولة تتقاضاها المستشفى من شركات الألبان. كنت أرى أن من الحرام أن أخدع الأم ، وأخبرها أن اللبن الصناعى ضرورى لابنها ، فأكلف الأسرة نفقات لا داع لها ، وأحرم الأم والطفل من فوائد الرضاعة الطبيعية التى لا يباريها أى نوع من أنواع الألبان

الصناعية. كانت الضغوط تتزايد عليَّ حتى أن إحدى الشركات حاولت تنظيم لقاء علمى فى المستشفى للترويج للبن ، وكنا طبعا نعلم أنه لقاء ترفيهى يتم فيه توزيع وجبات على الأطباء على سبيل الرشوة. رفضت بشدة لأننى لا يمكن أن أكتب اللبن نظير قطعة لحم أو جاتوه. جاء مدير المستشفى ليهددنى ضمنيا بالإقالة. احترت: ماذا أفعل؟ كنت كارها لهذا اللقاء الترفيهى الذى سآكل فيه من دم الفقراء ، فدعوت الله تعالى أن تحدث أى مصيبة أو كارثة أو زلزال أو حريق يحول دون انعقاد اللقاء. لا أدرى ما الذى جعلنى أتمنى أن تحدث مثل هذه الكوارث الطبيعية ، فقد كانت هذه أول مرة أدعو دعاء بهذا الشكل؟ وفى اليوم التالى حان وقت اللقاء ، ففوجئت بمندوب شركة الألبان يتصل بى ، ويعتذر بشدة عن عدم الحضور لأن الأمطار غزيرة جدا ، والعواصف شديدة ، والقيادة على الطريق مغامرة. كدت أخر لله ساجدا. سبحان الله لقد أجيب دعائى ، فلم يتم اللقاء ، والأهم أن السبب كان كارثة طبيعية ، تماما كما دعوت الله. لقد أجيب الدعاء بشكل حرفى. إننى حين دعوت الله لم أكن أتصور أن يجاب الدعاء بهذا الشكل الدقيق. لقد شاهدت أصابع الرحمن وهى تحرك أحداث الكون.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فبعد أن هددنى المدير بالإقالة ذهبت إلى بيتى وقلت لأهلى: استعدوا فنحن نوشك على الرحيل ، فأجابت زوجتى بكل ثقة: (لا لن يحدث ، وسترى إن شاء الله أننا سنبقى ، ومدير المستشفى هو الذى سيتركها). وحدث فعلا أنه بعد مضى عام واحد حدثت مشاكل عديدة ترتب عليها إقالة مالكى المستشفى لهذا المدير ، وبقيت أنا ، وتحسن مركزى بعد أن وفقنى الله تعالى لإحداث إنجازات مهمة فى المستشفى ؛ لقد طُرد من كان يريد أن يطردنى.

****

منذ أكثر من عشرين عاما تخرجنا من كلية الطب ، وكان علينا أن نذهب إلى نقابة الأطباء الرئيسية فى القاهرة لاستخراج بعض الأوراق ، وبالفعل ذهب أغلب الزملاء معا فى يوم واحد. وبالقرب من النقابة كان زميل لنا اسمه محمد يمر من الطريق ، ففوجئنا بسيارة مسرعة تظهر بغتة ، وتطيح به بعيدا. كان السائق شخصية دبلوماسية مهمة فى إحدى السفارات الأجنبية، وغطت إحدى الصحف المعروفة الحادث على صدر صفحتها الأولى. دخل زميلنا المستشفى بسبب كسر فى الجمجمة ، ونزيف فى المخ ، وارتفاع فى ضغط المخ ، وبقى أسابيع عديدة فى

غيبوبة ، وأخبرنا الأطباء أثناء ذلك أنهم استأصلوا جزءا من المخ. وفى أحد الأيام دخلنا العناية المركزة لزيارة زميلنا ، فوجدناه لا يزال غائبا عن الوعى ، ولما خرجنا جلسنا مع أخيه الأكبر الذى كان يبلغ وقتها من العمر حوالى ثلاثين عاما. كان الوجوم يخيم على الجميع ، وكنت وكل زملائى نتوقع سماع خبر وفاة محمد بين لحظة وأخرى ، ولكن لما توجه بصرى إلى الأخ الأكبر لمحمد وجدته يحرك شفتيه بلا توقف ذاكرا الله فى خشوع. انشغلت بعدها بالكلام مع بعض الزملاء ، ثم وجهت بصرى إلى الأخ فوجدته لا يزال على حاله من الذكر والتسبيح. وأثناء ذلك تكلم معه أحدنا عن صحة محمد ، ففوجئت بالأخ الأكبر يتكلم بلهجة كلها ثقة قائلا أن أخاه سيشفى بإذن الله ، وسيعود إلى بيته سالما. وكرر الأخ نفس الكلام فى لهجة أقرب للتحدى ، فأشفقت عليه من هذه الثقة المفرطة ، وقلت فى نفسى: ألا يرى كيف يرقد أخوه بين الحياة والموت؟ وبدا لى وكأن الأخ قد تأثرت قواه العقلية من فرط التعب وقلة النوم. وفى هذا الجو أخبر أحد أطباء المخ والأعصاب الأخ بأن حالة محمد سيئة للغاية ، وأنه إن كتبت له الحياة وعاش فسيكون لديه إعاقة عصبية شديدة ، وإن تمكن فقط من أن يتناول الطعام ويشرب الماء بنفسه فسيكون هذا إنجازا كبيرا. وهنا انفجر أخو محمد ثائرا على هذه النظرة اليائسة التى بثها الطبيب، وقال له: (سترى أن أخى سيشفى تماما بإذن الله ، وسيخرج من المستشفى ماشيا على قدميه ، وسيكون طبيبا أفضل منك).

ومرت الأيام ، واستجاب الله لدعاء الأخ المؤمن ، فبقى محمد على قيد الحياة ، بل أخذ يتحسن بالتدريج ، وأفاق من الغيبوبة ، وبدأ يقف على قدمية ، فقرر الأطباء أن من الممكن له أن يخرج من المستشفى ، ويكمل العلاج فى البيت. ولما كان محمد لا يقوى على المشى لمسافة طويلة ذهب أبوه ليحضر له كرسيا متحركا ، ولكن محمد لم يطق الانتظار ، وأصر على أن يمشى على قدميه إلى السيارة ، وفعلا خرج من المستشفى ماشيا على قدميه ، فكان تحققا حرفيا لدعاء أخيه. ولما ذهبنا إلى بيت محمد كى نزوره بعد الخروج من المستشفى أصبنا بغم شديد ، فقد كان يتكلم بصوت يصعب فهمه ، بل كان كلامه غير مترابط ، وأقرب للهذيان، وخرجنا من عنده بانطباع أنه أصبح مجنونا ، وأن هذه نهاية زميلنا الذى كان فى يوم من الأيام فى قمة الحكمة.

ومرت الأيام ، واستمر محمد فى التحسن ، وأخذ يسترد قواه العقلية والحركية شيئا فشيئا ، ثم استلم عمله كطبيب ، وهو الآن طبيب باثولوجيا إكلينيكية ، ومتزوج ، ولديه عدد من الأبناء. ورغم مرور السنوات إلا أن مشهد الأخ الأكبر لمحمد ظل يلازمنى طوال عشرين عاما ؛ لقد تعلمت منه أن الله تعالى يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء ، والأحمق هو من ييأس من رحمة ربه ، ويستسلم للظروف.

****

منذ حوالى 16 عاما دخل إلى العناية المركزة عندنا طفل يعانى من متلازمة داون (طفل منغولى) ، وكان يعانى من تخلف عقلى ، وعدم قدرة على الكلام ، وعيوب خلقية فى القلب ، والتهاب رئوى شديد. ساءت حالة الطفل ، وأصيب بهبوط فى الدورة الدموية ، واحتاج لأدوية مقوية لعضلة القلب ومساندة للدورة الدموية. وأثناء ذلك أصيبت كل أوردة الطفل بالتلف ، ولم تنجح الممرضات فى تركيب قسطرة وريدية طرفية (كانيولا) رغم المحاولات الكثيرة ، وفى ذلك الوقت كانت العناية المركزة بدائية ، ولم نكن نستعمل القسطرة الوريدية المركزية ، ولذا أخبرت الطبيب زميلى حين هممت بمغادرة المستشفى أن هذا الطفل حالته سيئة جدا ، والنبض فى الشرايين غير محسوس ، والأدوية المقوية للدورة الدموية لا يمكن إعطاؤها بسبب عدم وجود كانيولا ، وأن الطفل سيموت فى الغالب ، ولكى تريح ضميرك أعطه اللبن عن طريق أنبوب المعدة، وغالبا لن يستطيع جهازه الهضمى تحمل اللبن ، لكن على أى حال هذا أفضل من أن تتركه يموت دون أن تفعل شيئا. وفى هذه اللحظة دخل والد الطفل المريض وأخوه لرؤيته ، ففوجئت أنهما متأثران بشدة بسبب مرضه ، وكانا يدعوان الله بإخلاص أن يشفيه ، وكان من الواضح تعلقهما الكبير به. تعجبت جدا من هذا المشهد لأن هذا الطفل معاق ، ومصاب بالتخلف العقلى ، وبمرض القلب ، ويحتاج لجراحة فى القلب ، وإن شفى من مرض القلب فسيبقى عالة على أبويه ، وسيكون بحاجة دائمة لمن يرعاه ، والأطفال من هذه النوعية يتمنى كثير من أهليهم أن يموتوا كى يريحوا ويستريحوا ، فكيف يحرص هذان الرجلان على أن يستمر هذا الطفل فى الحياة؟ المهم أننى غادرت المستشفى بعد انتهاء عملى ، وتركت زميلى بجوار الطفل. وفى اليوم التالى ذهبت إلى المستشفى ، وأنا على يقين أننى سأسمع خبر الوفاة ، ولكننى

فوجئت بما لم يكن فى الحسبان: لقد وجدت الطفل لا يزال حيا ، بل وجدت أن حالته الصحية قد تحسنت ، وأحسست بنبض جيد فى شرايين يده ، ولم يعد هناك هبوط فى الدورة الدموية. سألت زميلى: ماذا حدث؟ وكيف تحسن الطفل؟ هل أدخلتم له كانيولا؟ هل أعطيتموه محاليل؟ هل أضفتم له علاجا جديدا؟ رد زميلى نافيا كل هذا ، وأخبرنى أن الطفل ظل طوال الليل دون علاج، ولم يأخذ إلا اللبن عن طريق أنبوب المعدة. أصابنى ذهول لا يوصف من هذا الطفل الذى شفى وحده دون تدخل الأطباء، وأخذت أراجع علاجى لعل المشكلة كانت تكمن فى الأدوية التى نعطيها فلم أجد تفسيرا لما حدث إلا أن الله تعالى استجاب لدعاء الأب والأخ اللذين كانا حريصين على حياة الطفل. لقد كانت واقعة مزلزلة ، هزتنى بشدة ، وظللت أرويها لكل طبيب جديد كدليل على ضرورة بقاء الأمل فى الله ، وأهمية التوجه إلى المولى عز وجل بالدعاء مهما كانت شدة الكرب.

****

فى أحد الأيام كنت أنهى بعض الإجراءات فى المستشفى ، فتلقيت اتصالا من أحد الزملاء الذى يعمل مدرسا لطب الأطفال فى نفس القسم الذى أعمل به. كان هذا الزميل يطلب منى أن أحضر كى يأخذ رأيى فى حالة طفل مصاب بمرض غامض ، فأخبرته أننى قادم إليه. شعرت حينئذ ببعض الزهو لأن زملائى يلجأون إلىَّ لحل الألغاز الطبية المستعصية ، لكن الحمد لله سرعان ما تغلبت على هذا الشعور المقيت ، **ودعوت الله تعالى أن يوفقنى لحل مشكلة المريض دون أن أصاب بالفرح أو الغرور**. ولما رأيت المريض وجدت أنه يعانى من التهاب متكرر فى البنكرياس بلا سبب واضح. بدأت أفكر مع الزملاء ، وفى النهاية رجحت بعض الاحتمالات ، وطلبت أن نجرى بعض الفحوص للوصول إلى التشخيص النهائى. كنت من داخلى غير راض عن الحل الذى اقترحته وشعرت أنه لن يحل اللغز. وكان يجلس معنا فى الغرفة أحد الزملاء الأصغر سنا الذى سمع النقاش فى صمت، وفجأة اقترح علينا أحد الحلول ، فأحسست بسداد رأيه ، ووافقت فورا على اتباع خطته فى التشخيص والعلاج. والحمد لله لم يأخذنى الكبر ، فلم أُسفه من رأيه حتى لا أبدو أقل منه مهارة، بل بالعكس قمت بالإشادة برأيه بشكل متكرر. أحسست فى هذه اللحظة براحة تعم المكان ، فقد تمت الإشادة بطبيب صغير ولم يتكبر أحد

على أحد ، ووجدت الجميع يشيدون بأهمية الشورى. لقد كان الزملاء فى البداية يظنون أننى سأفك لغز الحالة الغامضة ، ولكن تبين للجميع أن كل واحد – مهما صغر– يمكن أن يكون له دور مهم.

ولما انصرفت وأخذت أراجع الموقف **وجدت أن دعائى لله قد تحقق بشكل حرفى** ، فقد حُلت مشكل المريض ، وكنت سببا فى هذا الحل (من خلال مباركتى للرأى الصائب الذى كان من الممكن أن أعترض عليه حرصا على كرامتى) ، وفى نفس الوقت لم يتسلل الغرور إلى قلبى لأننى لم أكن صاحب الحل. **لقد أجيب الدعاء حرفيا: توفيق فى حل مشكلة المريض دون غرور.** شعرت فى هذه اللحظة ، وكأنى أرى الله بعينى. وطبعا أنا لم أر الله ، ولكن طغى علىَّ هذا الإحساس ، وقتها. وقلت: حقا الله موجود. الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

****

كانت هذه مجرد عينة من مئات المواقف التى عشتها بنفسى. وهناك مواقف أكثر جدية وإثارة مما سبق ، ولكن يتعذر أن أقصها على الملأ. ولئن تأمل كل منا فى حياته فلا بد أن يلاحظ أن الإنسان إن دعا من قلبه فإن الله تعالى يستجيب له ويحقق مراده. وبالنسبة لى فقد لاحظت أن الدعاء كلما كان لهدف سام كلما استجاب الله تعالى له ، كأن أدعوه عز وجل أن يصلح بينى وبين بعض الأصحاب والأقارب ، أو أن ينعم بالشفاء على أحد الناس من غير أهلى.

وهنا يقول البعض: لماذا ندعو فلا يستجيب الله لنا أحيانا؟

الرد على هذا بسيط :

1- من المستحيل أن يلبى الله تعالى رغبات كل إنسان ، ليس لأنه عز وجل عاجز ، ولكن لأن هذا ضد فلسفة الدنيا ، فكل إنسان منا يتمنى أن يصبح غنيا وقويا وجميلا ولبقا وذكيا ومحبوبا. كل واحد يريد أن يكسب دون عمل ، وينجح دون استذكار، ويأكل دون بدانة ، ويقوى دون رياضية. كل واحد يريد ألا يقترب المرض من جسده ، وألا يطرق الموت بابه. ولو أجاب الله تعالى رغبات كل الناس لتحول كوكب الأرض إلى كوكب

مأهول بكائنات من نوع كامل خال من العيوب ، لا كوكب يحيا عليه البشر. ستجد أن كل الناس قد صاروا أغنياء ، ولهذا فلن يكون هناك نجار ولا حداد ولا عامل نظافة لأنه لا أحد من الناس بحاجة إلى العمل. ولكن من يصلح حينئذ باب بيتك أو صنبور حمامك أو سور حديقتك؟ لن تجد أحدا يفعل ذلك ، وسيكون الحل أن تدعو الله لينفذ لك كل هذا ، فتجد أن البيت قد صار نظيفا وحده ، والباب قد أُصلح دون نجار ، والصنبور لم يعد يسرب ماء دون سباك. ولن تكون بعد ذلك بحاجة لمن يعد لك الطعام لأنك ستدعو الله فينزل لك من السماء أطباقا ممتلئة بالطعام لتأكل منها ما تشتهى. وهكذا ستجد أن كل أحلامك قد أصبحت حقائق دون أى مجهود. ولكن ألن يؤدى هذا إلى الملل؟ بلى ، فالإنسان إن لم يجد ما يفعله مات من السآمة. إذن سيكون عليك أن تدعو الله أن يذهب عن نفسك السآمة ويملأها بالتجدد والإثارة ، فيستجيب الله لك. ما هذا؟ أتراك قد أصبحت تعيش فى الجنة؟ نعم إنها الجنة ، فالحياة التى تحصل فيها على كل ما تريد لا تختلف كثيرا عن الجنة ، لكن الله عز وجل لم يخلق الدنيا لتكون جنة بل لتكون دار اختبار يكشف الصالح من الفاسد ، أما الجنة فأجلها الله تعالى إلى الآخرة ليمنحها فقط لمن ينجح فى اختبار الدنيا ، ولهذا كان من المستحيل أن يجيب الله كل دعاء ندعو به ، فهذا أمر ضد فلسفة الدنيا.

2- انظر إلى نفسك ولمن حولك وأجبنى: هل نستحق فعلا أن يلبى الله كل طلباتنا؟ هل نحن ملائكة تعبد ربها ليلا ونهارا ، ولا تفعل أى كبيرة من الكبائر ولا صغيرة من الصغائر؟ طبعا لا ، فالإنسان مخلوق يميل إلى الشر ، وحتى أفضل الناس خلقا يرتكبون بعض الذنوب ، فما بالك بمن يأكلون الحرام أكلا؟ وروى مسلم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام "ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ " وباطمئنان شديد أقول أن من الجرم أن يغفل الإنسان عن ذكر ربه ولو لدقيقة واحدة مع أنه إن سمع كلمة مديح من وزير لظل طوال يومه – وربما طوال حياته- يفكر فى هذا الحدث التاريخى، على الرغم من أن ما فعله الله تعالى لكل منا أكبر مليون مرة مما يمكن أن يفعله لنا أى وزير؟ يكفى أن الله تعالى أعطاك عينها تبصر بها وذهنا

تفكر به ، وهذا شيء يستحيل أن يمنحه لك رئيس أو ملك. وعلى ذلك فليس غريبا أن ندعو أحيانا فلا يستجاب لنا ، ويكفى أن الواحد منا يقف فى صلاته غافلا عن الله ، ولو وقف أحدنا أمام أحد الرؤساء فأخذ يتلف يمينا ويسارا ويفكر فى حياته الخاصة بينما يكلمه الرئيس عن أمور الدولة والسياسة، لو حدث ذلك لطرده الرئيس على الفور من قصره ، وربما أصدر أمرا باعتقاله. إن الملحدين يستغلون وجود الشرور والآلام فى العالم للزعم بأن الله ليس موجودا لأنه لو كان موجودا لما ترك الناس يعانون بهذا الشكل **، وكأنه يجب على مدير الشركة التى أعمل بها أن يجيب كل مطالبى المالية كى يثبت للمساهمين أن الوضع المالى للشركة ممتاز. والحقيقة أن امتناع المدير عن صرف مكافاة شهرية لى لا يعنى بالضرورة أن خزائن الشركة خاوية ، فربما كان الأمر لا يعدو كونى لا أستحق تلك المكافأة بسبب نقص كفاءتى.**

3- أحيانا أدعو الله عز وجل بقلة اكتراث ، بمعنى أننى لا أكون شديد الحرص على أن يستجيب الله لى ، فمثلا قد يوجد عطل فى الحاسوب الخاص بى ، فأدعو الله أن يزول العطل ، ولكننى لا أكون فى تلك اللحظة شديد الحرص على أن ينصلح العطل لأن أمامى حل بديل وهو أن أغير نظام التشغيل (ويندوز). وفى هذه الحالة لا يستجيب الله لى لأننى لم أكن معتمدا عليه عز وجل بشكل كامل بل كنت أعتمد على حل بديل. وقد أبحث عن بعض البضائع فأدعو الله أن أجدها فى المحلات ، ولكننى لا أكون شديد الإخلاص فى الدعاء لأنى أعرف أننى إن لم أعثر على مرادى هنا فسأجده غدا فى محلات أخرى بجوار مقر عملى ، وفى مثل هذه الحالة لا يستجيب الله لدعائى لأننى لا أشعر بالاعتماد الكامل عليه. وبعبارة أخرى أقول أن من يتوكل على قدراته وحلوله فسيوكله الله لها ، أما من يضع كل أمله على الله فلن يخذله الله. وبعد سنوات طويلة من التجربة وجدت أنه فى كل المرات التى أدعو الله تعالى فيها بخشوع وتضرع وإخلاص، شاعرا أن كل الأبواب الأخرى مغلقة ، وكل الطرق التقليدية مسدودة ، وكل الحيل قد عجزت ، حينئذ يجيب الله تعالى دعائى بشكل كامل. وصدق الله العظيم حين قال: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} [النمل: 62]

4- قد يتلهف الإنسان على أمر ما ويلح فى الدعاء من أجل أن يحققه الله له ، ولكن الله تعالى لا يستجيب له لأنه عز وجل يعلم أن هذا الأمر لن يكون فى مصلحته. على سبيل المثال قد يتمنى الإنسان المال ، ولكن الله تعالى يعلم أن المال إن جاءه فسينفقه على المخدرات والبغايا. وقد يتمنى الإنسان النجاح فى عمله ، فلما ينجح يصيبه والغرور ويبتعد عن ربه. وقد عبر القرآن عن هذه الفكرة أروع تعبير حين قال: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ } [الشورى: 27]. وقد يتطلع الإنسان إلى السفر للخارج لجلب المال ، ولكن ابتعاده عن أولاده يؤدى بهم إلى الانحراف والضياع. ولما كنت صغيرا ظللت لأكثر من سنة ألح على أبى كى يشترى لى مسدسا حقيقيا ألعب به ، وطبعا كان أبى يرفض ، ولو وافق لقتلت إخوتى وأصحابى. ولنفس السبب يمتنع الله تعالى عن إجابة كثير من دعواتنا التى يعلم مقدما أنها ستضرنا أبلغ الضرر. والإنسان العاقل إن شعر يوما بالحيرة من أمره ، وكان أمامه عدة خيارات ، ولا يعرف أيها الأفضل بالنسبة له ، فعليه أن يصلى صلاة الاستخارة ، ويدعو الله أن يختار له الأصلح ، ويقول: (اللهم احكم لنا ، وارزقنا الرضا بحكمك) ، فإن رأى الله أن الأصلح أن يحرمه مؤقتا فى الدنيا من شىء فليرزقه الصبر والرضا على هذا الحرمان.

5- قد يتعمد الله تعالى ألا يستجيب للدعاء كى يبقى عبده فى ضائقة وشدة ليرى هل يصبر أم يجزع ، فإن صبر كان جزاءه الجنة فى الآخرة ، والآخرة خير من الدنيا. ومن أمثلة هؤلاء رجل فقير يدعو الله أن يرزقه ، فلا يستجيب الله له ليرى هل يصبر أم يسرق ويقبل الرشوة. ورجل آخر دخل السجن ظلما لأنه يدافع عن دين الله ، فظل فى سجنه يدعو الله أن ينجيه ، فلم يجب الله دعاءه ، لكن الرجل لم يستسلم للقنوط ، وصبر ورضى بقضاء الله ، حتى مر عشرون عاما فمات فى السجن ، فكتب عند الله بطلا ، أوليس من البطولة أن يعيش الإنسان راضيا فى السجن عشرين سنة؟ ترى ما الجزاء العظيم الذى أعد له فى الجنة؟ أليس هذا أفضل مما لو أخرجه الله من السجن بعد عشرين يوما فقط ، وعاش فى الدنيا ليأكل ويتمتع دون بطولة حقيقية يقدمها لآخرته ؟ إنها صفقة رابحة: تعب قليل فى الدنيا مقابل نعيم عظيم مقيم فى الآخرة.

6- فى بعض الأحيان كنت أدعو الله تعالى فلا يستجيب لى ، فيتبين لى بعدها أن الله فعل ذلك لأنه أراد لى خيرا أكبر فى الدنيا ، فمثلا تقدمت ذات مرة للتدريس فى بعض البرامج التدريبية فحذف أولو الأمر اسمى ، ووضعوا مكانى من هم أقل خبرة ، فحزنت لأننى كنت فى حاجة شديدة للمال. ولكن لم يمض أكثر من شهرين حتى رزقنى الله تعالى بوظيفتين إضافيتين كان الدخل من ورائهما أكبر من الوظيفة التى فاتتنى ، فأدركت أن الله عز وجل أراد ألا أنشغل بوظيفة تدر دخلا قليلا عن وظيفة تدر دخلا كبيرا.

7- أحيانا يكون امتناع الله تعالى عن إجابة الدعاء فى صالح البشرية كلها. على سبيل المثال لو استجاب الله لدعاء كل ابن بشفاء أبيه وأمه وإنقاذهم من الموت لتضخم عدد السكان على الأرض بشكل لا يحتمل. كما أن طول بقاء الإنسان على الأرض ينشر الملل ، ويحرم الأجيال الجديدة من أن تأخذ فرصتها وتثرى الحياة بنظرتها الجديدة وإبداعها المبتكر ، وقد لاحظت أن أغلب كبار المفكرين يصابون بحالة من الركود فى أواخر حياتهم ، فهم يكررون نفس الأفكار التى ظلوا يرددونها لعشرات السنين ، ويفتقدون القدرة على الإتيان بالجديد. وفى عالم الفيزياء مثلا ستجد أن آينشتين حقق إنجازات مذهلة فى شبابه ، لكنه توقف عن الإنجازات لسنوات طويلة قبل وفاته. وبالمثل حقق ستيفن هوكنج إنجازات مدهشة فى البداية ، ثم توقف بعد ذلك. والشيخ الشعراوى رحمه الله أحدث ضجة كبيرة فى بداية ظهوره فى الإعلام ، ولكن فى السنين الأخير من حياته لم نجد منه إلا تكرارا لنفس الأفكار. ونفس الشىء ينطبق على الدكتور مصطفى محمود، وأغلب من أذكرهم من المفكرين ، وهذا لا يعيب أحدا ، فهى سنة الله فى خلقه ، ولهذا كان التجديد ضرورة حتمية. وعلى ذلك فلا مفر من أن يتجاهل الله تعالى دعاءنا لكبار السن بطول البقاء، ففى موتهم ازدهار للحياة على الأرض ، وكل الجيوش تضحى ببعض جنودها فى عمليات فدائية من أجل انتصار الوطن كله. والنحلة تلسع عدوها وتموت بعدها كى تحيا خلية النحل كلها. والجسم يقتل بعض خلايا اليد فى عملية تسمى "الموت المبرمج للخلايا" (Apoptosis) كى تترك مكانها فراغات ، فتتكون الأصابع التى تؤدى الأشغال الماهرة.

8- لو استجاب الله تعالى لدعاء إنسان يتمنى ألا يشعر بأى ألم فى جسده مدى الحياة لكان هذا وبالا عليه ، فقد تلتهب الزائدة الدودية أو تحدث قرحة فى المعدة أو انسداد معوى أو ورم سرطانى أو حصوة فى الكلية دون أن يشعر المريض ، فتكون النتيجة اشتداد المرض ووصوله لمرحلة خطيرة قد تؤدى إلى الوفاة. ويمكننا أن نقول أن الألم نعمة ، والحرمان من الألم نقمة. وهذا الأمر نلاحظة بجلاء لدى المرضى المصابين بضمور فى الأعصاب الحسية ، فإذا تعرضوا لإصابة -كوخز مسمار فى القدم- لم يشعروا بالألم ، ولم يسارعوا بإبعاد العضو المصاب ، فتتلف أنسجة الجسم بدرجة أكبر.

9- فى بعض الأحيان أجد أن الله تعالى قد أنعم علىَّ بنعمة كبيرة ، وأن من الصعب أن ينعم على بنعمة أخرى كبيرة فى نفس الوقت ، والسبب هو أن الله لم يشأ أن يجعل الدنيا دار فرح وسعادة مطلقة ، ولا بد من وجود قدر من الألم. ومن مصلحتى أن أبقى محاطا ببعض المتاعب والمشاكل لأن الحياة المريحة تجعلنى أنسى الله. على سبيل المثال كنت ذاهبا لمقابلة من أجل الالتحاق بوظيفة فى إحدى المستشفيات ، ولما فتحت بريدى الإلكترونى وجدت أن أحد أبحاثى الطبية قد تم نشره فى مجلة دولية. كان هذا خبرا سعيدا ، لكننى فى نفس الوقت شعرت أن الله تعالى جاء لى بالخبر فى هذه اللحظة لأنه ينوى ألا أنجح فى المقابلة ، فيكون البحث الطبى مقابل الوظيفة: سعادة تخفف من الحزن. وهنا شعرت بالرضا والقناعة ، فجاء دعائى خافتا ضعيفا لأننى تعودت ألا أطمع أن يحقق الله لى كل شىء. وفعلا لم أوفق فى المقابلة ، ولكننى لم أحزن. وتكرر معى نفس الأمر فيما بعد أكثر من مرة فى ظروف مشابهة.

وحدث أيضا أننى مررت فى إحدى الفترات بضائقة مالية كبيرة فى ظل الارتفاع الشديد للأسعار لكننى لم ألح على الله تعالى كى يرزقنى المال لأن الله تعالى كان قد أنعم علىَّ قبلها بشفائى من مرض استمر لثلاث سنوات دون أى تدخل من الأطباء ودون الاستعانة بالأدوية ، فشعرت بالحياء من الله لأن نعمة الصحة لا تقدر بمال ، واستمرار تقديم الطلبات لله أمر لا يليق بالمؤمن لأن ما أقدمه لله من طاعة أقل كثيرا مما أتطلع إليه من فضل. وهنا أتذكر آية قرآنية تتضمن ذما ضمنيا لأولئك الذين لا يكفون عن طلب

الخير فى الدنيا: {لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ } [فصلت: 49].

10- كثيرا ما يتساءل الملحد: لماذا لا يجيب الله دعاء أم أصيب طفلها الصغير بالسرطان؟ ما ذنب هذا الطفل؟ ونحن نقول أن مرض الطفل اختبار لأمه وأبيه وللناس من حوله حتى يتبين من يتعاطف مع الطفل ومن يقسو عليه؟ هل يرأف به الطبيب المعالج والممرضة والأقارب والدولة أم لا؟ ثم إن الله تعالى سيعوض هذا الطفل يوم القيامة عن آلامه التى قاساها فى الدنيا بشكل ينسيه كل ما حدث له فى الدنيا.

11- كتب الله تعالى على كل إنسان حظا معينا من الألم فى الدنيا. وبعض الناس يصيبه الألم بشكل متقطع ، وبعضهم يصيبه الألم مرة واحدة ، فمثلا قد يعانى إنسان ما من ألم يومى متوسط فى ظهره أو فى معدته لمدة عشرين سنة ، بينما يظل إنسان آخر يتمتع بصحة من حديد دون أى ألم إلى أن يصاب بالسرطان فيعيش فى آلام مبرحة لمدة ستة شهور ، فيكون مجموع ألم الرجل الأول مساويا لمجموع ألم الثانى ، وكل ما فى الأمر اختلاف فى سياسة التوزيع. ولو أجاب الله تعالى دعاء مريض السرطان لاستمرت حياته بدون أى ألم ، وهذا مناف لسياسة الله التى قضت بوجود عدالة نسبية فى توزيع الآلام فى الدنيا بين الناس.

والآن لعلك لاحظت عزيزى القارىء أن الأسباب السابقة هى نفس ما نرد به على الملحد حين يسأل: لماذا خلق الله الشر فى هذا العالم؟

وأهم من كل الأسباب السابقة أننى تعلمت عبر تجربة شخصية طويلة جدا أن **أهم شىء أن أدعو الله ، ففى كثير من الحالات أشعر أن المتاعب التى أمر بها يمكن حلها بقدراتى وإمكانياتى ، فأنسى أن أدعو الله ، فلا يتحقق مرادى.** على سبيل المثال أذهب للكلية فى الصباح وأنا أريد أن أوقع طلبا من العميد ، وأضع فى حسبانى أننى إن لم أجد العميد فسأوقع الطلب من وكيل الكلية ، وأنسى أن أدعو الله ظنا أن الأمر سيسير على ما يرام ، فإذا بى أفاجأ بأن كلا من العميد والوكيل غير موجودين. وقد تتعطل الثلاجة فى بيتى فأستدعى الصيانة ، وكلى اطمئنان إلى أن المشكلة ستحل بسرعة بمجرد مجيئهم ، فلا أفكر فى أن أدعو الله ، فإذا

بى أفاجأ بأن مهندس الصيانة يقول أن الثلاجة تحتاج لقطع غيار غير متوفرة حاليا ، فلا يتحقق ما كنت أثق فى حتمية حدوثه. والأمثلة كثيرة جدا ، وفى كل هذه الحالات أشعر كأن الله تعالى يقول لى: (إن اعتمدت على نفسك وعلى الأسباب فلا تنتظر منى عونا).

إننا نؤكد أن الدعاء علاج فعال لكثير من مشاكلنا ، ولكن من المهم جدا أن نعلم أن **العلاج لا يشترط أن يكون فعالا بنسبة مائة فى المائة كى نعتبره علاجا ناجحا**. إن عملنا فى مجال الطب جعلنا ندرك أن الأغلبية الساحقة من الأدوية لا تحقق الشفاء بنسبة مائة فى المائة ، بمعنى أن الدواء لا بد أن يفشل فى علاج بعض المرضى. على سبيل المثال كل أنواع المضادات الحيوية لا بد لها من نسبة فشل ، ولا يوجد مضاد حيوى ينجح فى قتل كل الجراثيم. وأتذكر أن إحدى الشركات روجت لنوع من المضادات الحيوية ، وقالوا لنا أنه يقتل البكتريا الموجبة والسالبة واللاهوائية ، وظننا وقتها –لحداثة عهدنا بالطب– أن أى طفل مصاب بعدوى سيشفى بمجرد تناوله لهذا العقار ، ولكننا فوجئنا بأن حالات كثيرة لا تستجيب للدواء ، ووقتها أخذتنا الدهشة ، لكن رئيس القسم كان يبتسم فى سخرية لأنه لخبرته يعرف أن الدواء الممتاز لا يشترط أن يكون ناجحا على الدوام ، ويكفى فقط أن يكون ناجحا فى أغلب الحالات. وبنفس المنطق سنجد أن عدم إجابة الدعاء فى بعض الأحيان ليس معناه أن الدعاء عمل لا جدوى من ورائه.

هل يجيب الله دعاء الكافر والعاصى؟

فى بداية عهدنا بالطب كان عندنا مدرس مساعد فى قسم طب الأطفال ، ولم يكن متدينا على الإطلاق ، وكان هذا الطبيب كلما كانت له نوبة عمل فى المستشفى فوجئنا بدخول مرضى حالتهم صعبة جدا. وطبعا كنا نكره دخول هذه الحالات التى ترهقنا بشدة وتضطرنا للسهر معها طوال الليل ، بينما كان المدرس المساعد يفرح بشدة لأنه يحب الحالات الصعبة التى تتطلب الذكاء فى التشخيص والعلاج خاصة أنه لن يسهر مع المرضى ولن يتعب معهم مثلنا ، والأمر بالنسبة له يشبه مشاهدة الأفلام البوليسية المثيرة. وكان هذا الأمر يتكرر باستمرار مع هذا المدرس المساعد بالذات دون غيره ، وكان الرجل كلما رآنا سارع إلى القول متباهيا: (أنا معكم اليوم ، وأنتم تعرفون أن اليوم سيكون صعبا كالعادة). وكنت أندهش بشدة لأن هذا الطبيب مسلم

غير متدين ، وعلى الأرجح لا يدعو الله أن يرزقه بحالات صعبة ، فكيف يتحقق له ما يريد كل مرة دون دعاء؟

وأيضا لما كنا أطباء امتياز كان لدينا جراح مسيحى اشتهر أن أغلب المرضى الذين يدخلون المستشفى فى نوبته فى المستشفى للعلاج تكون حالتهم الجراحية غير تقليدية وتحتاج لمهارة خاصة. وكان هذا الطبيب يحب ذلك ويتباهى به لأنه يكتسب من هذه الحالات خبرة كبيرة أكثر من زملائه. وفى هذه الحالة أيضا كنت أندهش من هذا الطبيب المسيحى الذى يحقق الله تعالى له ما يريد رغم أنه كافر. ونفس هذه الظاهرة لاحظتها مع كثير من زملائنا الذين كان التوفيق الشديد يحالفهم بطريقة فى غاية الغرابة ، وكأنهم قد عقدوا اتفاقا مع الله يقضى بأن يجيب لهم كل حاجاتهم.

وبعد سنوات بدأت أفهم ما يحدث. لقد انتبهت إلى آية قرآنية رائعة تقول: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} [الشورى: 20]. إن هذه الآية تحل المشكلة تماما ، فهى تؤكد أن الله تعالى ينظر إلى رغبات كل منا ، فمن يحب الآخرة ويعمل لها سيعطيه الله إياها ، ومن يحب الدنيا سيعطيه الله منها. وعلى ذلك فرغم أن الطبيب لم يدْعُ الله ولم يتضرع إليه إلا أن الله أجاب له رغبته دون دعاء. والله تعالى فى بعض الأحيان يرى أن من الحكمة أن يزيد الضال ضلالا ، مثلما يضيق المدرس بالطالب المهمل فيقوم بتضليله أثناء حل إحدى الأسئلة فى الامتحان حتى لا ينجح لأنه لا يستحق أى خير ، وفى هذا قال تعالى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون: 55، 56]. وقال أيضا: {قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا } [مريم: 75].

وعلى ذلك فإن رأيت إنسانا عاصيا ينجح بينما المؤمن يتعثر فاعلم أن الله يمهد الطريق للعاصى لأنه يعلم أن النجاح سيزيده غرورا وطغيانا ، فيصبح مستحقا لعذاب أكبر فى الآخرة. والقرآن يورد أمثلة على إجابة الله لدعاء الكفار:

{فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت: 65، 66]

{قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ} [الأنعام: 63، 64]

{قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ } [الأنعام: 40، 41]

{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [النمل: 62]

وفى هذه الآيات نجد أن الله تعالى يجيب دعاء المشركين وينعم عليهم ، فالله تعالى على ما يبدو لا يرد من يلجأ إليه مخلصا ، ففى لحظة الخطر حين يوقن المشرك أن الآلهة التى يعبدها لن تنفعه بشىء لا يكون أمامه إلا أن يلجأ إلى الإله الأعظم طالبا العون بعد أن كان ينحيه بعيدا عن حياته، وهنا يجيبه الله وينقذه ، لكن الإنسان الكفور ينسى بعدها ما حدث ، ويعود إلى الباطل ، فيكون مستحقا للعذاب. وهكذا فالله تعالى قد يوفق أهل الباطل سواء بالدعاء أو بدون الدعاء.

ولعلك لاحظت عزيزى القارىء تنوع أهداف الله تعالى ومقاصده ، فهو عز وجل يجيب دعاء المؤمن ليكافئه (فى الدنيا)، ويجيب أيضا دعاء الكافر ليعذبه (فى الآخرة). وكذلك يمتنع الله تعالى عن إجابة دعاء العاصى ليعاقبه (فى الدنيا) ، ويمتنع عن إجابة دعاء الصالح ليختبر صبره أو ليدفع عنه شرا. وهذا ليس تناقضا ، بل مرونة وحكمة فى تعامل الله تعالى مع كل إنسان بميزان فى غاية الدقة.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

2- الحسد

ما الحسد وما الدليل على وجوده؟

الحسد هو تمنى إنسان لزوال النعمة من إنسان آخر ، فيؤدى هذا الحقد إلى وقوع ضرر مادى على المحسود مثل المرض أو خسارة المال أو الشعور بالضيق والاكتئاب. ولا حاجة بنا للبرهان على صحة ظاهرة الحسد لأن الغالبية العظمى من المسلمين يعتقدون فى وجوده ، ويحسبون له ألف حساب ، بل إننا نعانى الآن من ظاهرة خوف المسلمين المفرط من تأثير الحسد.

ومن خلال تجربة طويلة رأيت أدلة كثيرة على وقوع الحسد ، فمثلا أثناء عملى فى إحدى المستشفيات كان هناك طبيب يكرهنى بشدة ، ويتغير وجهه كلما سمع منى كلمة تدل على مهارتى الطبية ، وكان هذا الطبيب كلما مر على طفل مريض دخل حديثا إلى الحضانة تدهورت حالة الطفل بشكل غير مفهوم.

وحكى لى صديق أن ابنته الصغيرة الجميلة ترفض الذهاب إلى حفل فى المدرسة لأنها لما نظرت فى المرآة رأت وجهها يشبه وجه الحمار. وأدركتُ من ملابسات عديدة أن جارتهم كانت تحسد الطفلة لأنها أجمل من ابنتها.

وكثيرا ما رأيت مشاكل زوجية مفاجئة بين زوجين متفاهمين لما قابل أحدهما شخصا فاشلا فى حياته الزوجية ، يحقد على كل زوجين سعيدين. وقد سمعت من زملاء كثيرين نفس الملاحظة ، حيث يجد الواحد منهم نفسه فجأة يشعر بالغيظ الشديد من شىء تافه فعلته زوجته ، ويبدأ – دون مبرر – فى تذكر تصرفات قديمة ومشاجرات بينهما مرت عليها شهور وسنين.

وذات مرة ذهب رجل يشترى من الصيدلية أنواعا متعددة من الأطعمة لطفله الرضيع الذى بدأ يتعلم الأكل ، فشاهده زميل معروف بقلبه الأسود ، فرفض الطفل بعدها مباشرة الأكل من كل الأطعمة التى اشتراها أبوه ومن كل الأطعمة الأخرى التى كان يحبها ، واستمر كذلك لشهور طويلة.

والنصوص الدينية تؤكد وجود ظاهرة الحسد ؛ فإذا ذهبنا إلى القرآن الكريم لوجدناه يأمرنا بأن نستعيذ بالله (أى نلجأ إليه) من شر الحسد: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} [الفلق: 1 – 5]. وهذه الآية لا تقدم لنا تعريفا للحسد ولا لنوع الشر الذى ينشأ عنه ، ربما لأن ذلك كان مشهورا وقت نزول القرآن. وفى آية أخرى يقول الله تعالى لرسوله أن الكفار يكادون يزلقونه بأبصارهم: {وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} [القلم: 51]. وكلمة (يزلقونك) معناها يجعلونك تنزلق ، أى تزل ولا تثبت قدمك على الأرض[184]. ويميل كثير من المفسرين – مع بعض التردد– إلى فهم هذه الآية على أنها تشير إلى الحسد. وأنا أرى أن الآية تشير إلى ظاهرة تكررت أمامى أكثر من مرة ألا وهى انزلاق شخص وقور فجأة ، وسقوطه على الأرض بشكل يجعله أضحوكة بين الناس ، ففى إحدى المرات كان عضو برلمان من قريتنا خارجا من أحد البيوت ، وأثناء خروجه انزلق ، فوقع على الأرض بشكل مهين جدا ، وقام وهو فى غاية الحرج. وحدث موقف مماثل معى حين كنت ذاهبا إلى كلية الطب مرتديا حلة فى غاية الأناقة ، فقابلت رجلا وتكلمنا فى أحد الأمور واختلفنا ، وبمجرد ما تركته زلت قدمى ووقعت على الأرض بشكل مفاجىء وكامل ، وقمت وأنا فى قمة الخجل مما حدث. ويمكننى أن أؤكد أن الآية الأخيرة تشير إلى نفس الأمر ، فقد شعر الكفار بالغيظ من مواعظ الرسول وبلاغته ومنطقه وقدرته على الإقناع ، وهذا الحقد كان يفترض أن يترتب عليه وقوع ضرر من نفس النوع ، بمعنى أن كراهية الكفار لتفوق الرسول عليهم فى العقل والحكمة يتوقع أن يؤدى لحدث يغض من هذا التفوق العقلى والفكرى للرسول. ولو حدث هذا الموقف مع رجل غير الرسول لوقع له ما يقلل من قدره كأن يسقط على الأرض بسبب الحسد ، فينفجر الكفار من الضحك ، ويستغلون هذه اللحظة – لحظة السخرية من السقوط– ليجعلوها قضية عامة ، فيتكلمون عن الرسول وكأنه لا يستحق السخرية على هذا الموقف فحسب ، بل على كل كلامه وأفكاره وتصرفاته. لو انزلق الرسول فجأة لكانت هذه هى الشرارة التى ينفخ فيها الكفار لاتهامه بالجنون ، ولهذا وجدنا القرآن يقول بعدها: (ويقولون إنه لمجنون): {وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} [القلم: 51]. وعلى ذلك فنحن نؤكد

[184]) زلق: الزَّلَقُ: الزَّلَلُ، زَلِقَ زَلَقاً وأَزْلَقَه هُوَ. والزَّلَقُ: الْمَكَانُ المَزْلَقَة. وأَرض مَزْلقة ومُزْلقة وزَلَقٌ وزَلِقٌ ومَزْلَق: لَا يَثْبُتُ عَلَيْهَا قَدَمٌ، وَكَذَلِكَ الزَّلَّاقة؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ، أَي أَرْضاً مَلْساء لَا نَبَاتَ فِيهَا أَو مَلْسَاءَ لَيْسَ بِهَا شَيْءٌ؛ قَالَ الأَخفش: لَا يَثْبُتُ عَلَيْهَا الْقَدَمَانِ (انظر: لسان العرب)

على أن كلمة (**يزلقونك**) تشير إلى أن الله تعالى حمى الرسول عليه السلام من حسد الكفار ، فلم يؤد غيظهم منه إلى انزلاقه على الأرض ، فلو حدث هذا لضحك الكفار عليه ، واتهموه بالجنون. ومما يؤكد صحة كلامنا أن فكرة اتهام الرسول بالجنون هى فكرة مركزية فى سورة القلم التى افتتحت بتبرئة الرسول من تهمة الجنون: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} [القلم: 1، 2]

وفى آية أخرى يحذر يعقوب عليه السلام بنيه من أن يدخلوا مصر من باب واحد ، ويطلب منهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة. ويفهم عامة المفسرين من ذلك أنه خاف عليهم من الحسد: {وَقَالَ يَابَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [يوسف: 67]. وهذا تفسير معقول رغم وجود احتمالات أخرى.

والسنة النبوية أكدت وجود الحسد. ومن قبيل ذلك ما أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قَالَ: «**العَيْنُ حَقٌّ**». وروى البخارى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوِّذُ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: " إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ "

وكلمة (هامة) تعنى كل حشرة لها سم ، وقيل كل مخلوق يهم بسوء. وكلمة (لامة) يقصد بها العين التي تجمع الشر على المحسود. وقيل هي كل داء وآفة تلم بالإنسان. وقال عليه الصلاة والسلام أيضا: " العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر ". وهذا حديث حسن[185].

متى نشك فى الحسد؟

هناك بعض المؤشرات التى تدل على أن الضرر الذى أصاب الإنسان قد نشأ من الحسد:

أولا: أن يسبق وقوع الضرر رؤية شخص يكرهك ؛ فمثلا إن كان هناك نزاع قضائى بينك وبين أحد الأشخاص ثم مررت على هذا الشخص ، وبعدها بقليل انقطع قميصك الجديد بسبب مسمار

---

185) قال الألبانى: (وإسناده حسن عندي لأن شعيب بن أيوب وثقه الدارقطني وابن حبان، وجرحه أبو داود جرحا مبهما فقال: إني لأخاف الله تعالى في الرواية عنه ". انظر: **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها** (3/ 251) لمحمد ناصر الدين الألبانى.

فى الباب ، فهنا ربما يكون خصمك قد حسدك. ولكن إن وقعت لك مصيبة بعد لقائك برجل طيب معروف أنه يحب الخير للناس ، فلا تسارع إلى الشك فيه. وفى بعض الأحيان يقع الحسد من شخصك لا يكرهك بشكل عام ، ولكنه يكره أن يأتيك خير فى مجال خاص بعينه ، فمثلا قد يراك موظف فقير وأنت خارج من محل حلويات حاملا ما لذ وطاب ، فيحسدك على هذه النعمة دون أن يكون على سابق معرفة بك تجعله يكرهك. وننبه أيضا إلى أنه فى بعض الأحيان يحدث الحسد دون رؤية الحاسد للمحسود بل بمجرد التفكير فيه ، حتى لو كان كل منهما فى بلد مختلف ؛ على سبيل المثال ذهبت إحدى الأسر للمصيف ، وهناك تعرضوا لمشاكل كثيرة أفسدت جو الرحلة ، وكان السبب على ما يبدو حسد جارة لهم لم تتمكن من الذهاب إلى الشاطىء مثلهم بسبب فقرها.

ثانيا: كلما كان الكره الذى يكنه لك الشخص الذى قابلك قبل المصيبة شديدا كلما زاد احتمال كون الضرر الذى وقع عليك بسبب حسده. لكن هذه القاعدة ليست مطلقة ؛ ففى بعض الأحيان يصدر الحسد من شخص يُكن لك كرها قليلا ، كما يصعب على المرء فى بعض الأحيان أن يعرف حجم الكراهية التى يكنها له الآخرون لأن بعض الناس يستطيعون إخفاء مشاعرهم وانفعالاتهم.

ثالثا: أن يكون الضرر الواقع عليك من نفس النوع الذى يغيظ الحاسد منك ؛ مثلا إن وجد رجل يحقد على صحتك فإن تسقط مريضا ، وإن كان زميلك فى العمل يغتاظ من حب المدير لك فإنك تقع فى خطأ جسيم يجعل المدير ينقلب عليك ، وإن كان الحقد ينصب على ثوب جديد اشتريته فإن الثوب ينقطع.

رابعا: فى العادة يحدث الضرر فى نفس لحظة لقائك بمن يكرهك أو بعدها بفترة قصيرة.

خامسا: كلما كان الضرر النفسى الواقع عليك شديدا كلما زاد احتمال أن يكون السبب هو الحسد. وقد جربت شخصيا فى أحيان كثيرة التعرض لإهانات بالغة تمزق القلب إثر حسد الحاسدين ، لكن أعترف أيضا أنه فى كثير من الأحيان يكون الحسد خفيفا.

سادسا: فى بعض الأحيان حين ألتقى بشخص يكرهنى بشدة ثم أذهب إلى بيتى لأنام فإننى أرى أحلاما مخيفة أو صور شياطين أو مجرمين يطاردوننى ، فأدرك أن هذا بسبب الحسد.

سابعا: كلما كان الضرر الذى أصابك مفاجئا وغير متوقع كلما زاد احتمال أن يكون بسبب الحسد. عايشت فى إحدى الفترات زوجين عن قرب ، فكان الزوج فى بعض الأحيان يأتينى شاكيا من أن زوجته انفجرت غضبا بشكل مفاجىء على إثر خلاف تافه. ولما كنت أسمع من الزوجة أتأكد أن الزوج على حق. وتكرر هذا الموضوع بنفس الطريقة أكثر من مرة ، فأيقنت أن هذه الزوجة محسودة ، وأن هذا الحسد يجعلها تغضب من زوجها ، وتتذكر كل عيوبه التى طواها الزمان. وفى إحدى المرات قلت للزوجة بصراحة استعيذى بالله من الشيطان ، فغضبك ليس بسبب سوء معاملة زوجك لك ، ولكن لأن هناك شخصا ما يحسدك. وبالفعل استجابت الزوجة ، واقتنعت بكلامى ، وهدأت ، واعتذرت لزوجها. وبشكل عام فإنك إن فوجئت بضرر يهبط عليك فجأة دون توقع ودون سبب واضح فهنا يمكن أن يكون السبب هو الحسد. ولكن نحن نحذر فى نفس الوقت من الركون إلى الحسد فى تفسير كل ما يقع لنا من مصائب ، فعلى سبيل المثال قرر الأطباء ذات مرة إخراج طفلة من المستشفى بعد أن شفيت تماما من التهاب سحائى ، ولكنهم فوجئوا بعد 8 ساعات فقط بعودة الطفلة إلى المستشفى ، وهى تعانى من ارتفاع شديد فى درجة الحرارة وجفاف. وكلمنى أحد الأطباء فكان رأيه أن الطفلة تعرضت للحسد لأنها نجت من مرض الالتهاب السحائى الخطير ، ولكن لما حقق أحد الأطباء مع الأم اكتشف أنها أهملت الطفلة ، وتركتها لساعات طويلة دون رضاعة بسبب انشغالها بحفل زفاف قريب لها. وبالفعل تحسنت حالة الطفل بسرعة شديدة لما أعطيت التغذية اللازمة. وهذا نموذج مهم يجعلنا نفكر ألف مرة قبل أن نتهم الحسد لأن الركون إلى الحسد قد يفوت علينا فرصة علاج السبب الحقيقى.

ولعلك لاحظت عزيزى القارىء كيف أن هذه مجرد قواعد استرشادية ، وهى لا تتمتع بدقة كاملة، ومن الممكن أن تخطىء فى بعض الأحيان ، ولذا فالحكمة تقضى بألا يفرط المسلم فى الشك، وأن يحسن الظن بأخيه بقدر الاستطاعة كما يقول المولى عز وجل: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: 12]. كما يجب على المسلم أن يعلم أن الحسد

مجرد سبب زائف كغيره من الأسباب الطبيعية ، فالسبب الحقيقى لكل ما يقع فى الوجود هو الله عز وجل الذى بيده كل ضُر وكل نفع.

كيف يتسبب الحسد فى وقوع الضرر؟

لا شك أن الحسد يقع بأمر الله تعالى، بمعنى أن الله تعالى يمكنه أن يترك الحسد ليؤذى الناس أو يمنع وقوعه ، وما الحسد إلا قوة خاضعة لسيطرة الله مثل غيرها من قوى الطبيعة ، فالسيارة على سبيل المثال قد تتسبب فى موت إنسان ، ولكن الله تعالى هو الذى يتحكم فى السيارة وهو الذى يتركها لتصدم ذلك الشخص أو ينقذه منها. وبالمثل سنجد أن الحسد مجرد سبب مثله مثل السيارة أو المسدس أو غيرها من وسائل الأذى ، ولا يمكن لأى حسد أن يضر إلا بعد أن يقرر الله تعالى أن يتركه يضر. إن الحسد مجرد سبب يدخل تحت مظلة السبب الأعظم وهو الله.

حسن. الله تعالى هو السبب الحقيقى فى وقوع الحسد ، لكن الله تعالى سبب غير مباشر ، فماذا عن السبب المباشر للحسد؟ لدينا احتمالان:

أولا: أن يكون الشيطان هو الذى يؤذى المحسود نيابة عن الإنسان الحاسد.

ثانيا: أن النفس البشرية– باعتبارها موجودا غير مادى– هى التى تمتلك القدرة على إيذاء المحسود.

وليس لدينا نص دينى يرجح أحد الاحتمالين ، بيد أننى أميل إلى أن الشيطان هو الذى يسبب الضرر الناشىء عن الحسد ، وذلك قياسا على السحر. فكما أن الشيطان هو الذى يفعل السحر استجابة لطلب صادر من الإنسان فكذلك فى حالة الحسد يؤذى الشيطان إنسانا استجابة لحقد فى قلب إنسان آخر. وعلى ذلك فالفرق بين السحر والحسد أن السحر ينشأ عن طلب واع يتقدم به الإنسان للشيطان كى يؤذى إنسانا آخر ، بينما الحسد ينشأ عن طلب لا شعورى يتقدم به الحاسد للشيطان كى يؤذى إنسانا آخر. ومن الأسباب المهمة التى تجعلنى أميل إلى أن الشيطان –وليس النفس البشرية– هى التى تسبب الحسد أن الضرر الناشىء عن الحسد كثيرا ما يتم فى غيبة من الإنسان الحاسد ، وبشكل غير متوقع على الإطلاق ، فمثلا حدث ذات مرة أن التقى أحد الأطباء بطبيب آخر فى أحد شوارع القاهرة ، وكانت العلاقة بينهما سيئة ، لكن القواعد

الاجتماعية جعلت كل منهما يبتسم فى وجه الآخر. كان الطبيب الأكبر يشعر بحقد شديد – كما بدا من وجهه وقتها– على الطبيب الأصغر لأنه علم أنه يتلقى تدريبا مميزا فى إحدى جامعات مصر ، وهذا سيرفع قدره العلمى فى مكان عمله. ولم يستمر اللقاء بين الاثنين أكثر من عشر ثوان ، ثم مضى كل منهما إلى حاله ، وذهب الطبيب الأصغر ليركب مترو الأنفاق فدخل بطريق الخطأ فى إحدى العربات المخصصة للنساء لأنه كان حديث عهد بركوب المترو. وبمجرد نزوله من المترو وجد الشرطى فى انتظاره ، فاقتاده بطريقة مهينة كى يدفع غرامة مالية. وكما هو واضح فإن هذا الموقف نشأ بسبب الحسد ، ومن غير المحتمل أن تكون "نفس" الطبيب الأكبر هى التى فعلت ذلك لأن الطبيب الأكبر لم يكن موجودا فى مترو الأنفاق ، كما أنه لم يفكر أبدا ، ولم يخطر بباله أن من الممكن أن تتم إهانة عدوه بهذا الشكل بالتحديد. إن الطبيب الأكبر كان يتمنى فقط أن يتلقى خصمه إهانة ، ولكنه لم يتمن أن تقع الإهانة بأن يدخل عربة السيدات ، فهذا الخطأ غير معهود ونادر الحدوث. وعلى ذلك فالتفسير الوحيد هو أن الشيطان تولى مهمة التخطيط لإهانة الطبيب نيابة عن خصمه.

وحكى لى أحد الزملاء أن صديقه مدحه يوما فى حضرة شخص حقود ، ولما انتهى اللقاء ذهب الزميل الممدوح ليشترى حلوى العيد من أحد المحال ، ولما وزن البائع الحلوى وجد الزميل أن كل قطع الحلوى مغلفة بطريقة سيئة تجعلها مكشوفة للجو ، فطلب من البائع أن يرجعها ويأخذ بدلا منها حلوى أخرى سعرها أغلى لكنها جيدة التغليف ، فكانت المفاجأة أن البائع هب فى وجهه ، واختطف منه الحلوى ، وأغلظ له فى القول ، ورفض أن يبيع له أى شىء ، وكاد يعتدى عليه رغم أن الطبيب كان يتكلم بكل أدب. وهنا نجد أن الحاسد لا يمكن أن تكون نفسه هى السبب فيما وقع لأن نفس الحاسد لا تعلم البائع كى تؤثر عليه وتجعله يغضب ، كما أن النفس لم تكن تعلم أن الطبيب كان ينوى شراء حلوى ، ولا من أين سيشتريها لأن كليهما من بلد مختلف. ولا تفسير لما حدث سوى أن الشيطان ناب عن الحاسد فى التخطيط لإهانة المحسود.

الدرس الذى نتعلمه من الحسد

الحسد مثله مثل الدعاء ، يمثل ظاهرة غير مادية تؤثر على مجريات الأحداث فى حياة الناس من خلال أسباب غير طبيعية. والحسد يؤثر فى حياتنا بشكل لطيف خفى ، فالله تعالى أراد أن

تظل حياة البشر مصبوغة بصبغة مادية طاغية ، وهذا يتفق مع مجمل السياسة الإلهية التى ارتأت أن يكون هذا العصر الحديث عصرا ماديا خاضعا للقوانين والأسباب الطبيعية التى يمكن رصدها وقياسها كما سبق أن أوضحنا.

ومن الطريف أننى عرفت جراحا ملحدا ، كان دائم الهجوم على الإسلام ، وفى أحد الأيام أخذ يشكو من سوء الحظ ، فقد تم فى يوم واحد تأجيل جراحتين كان ينوى إجراءهما ، وكانت هذه خسارة مالية كبيرة. وكان واضحا من أسلوب الرجل فى الكلام أنه يحاول أن يظهر للناس أنه محسود حتى لا يتعرض لمزيد من الحسد فى المستقبل. ظللت أضحك لفترة طويلة من هذا الأحمق الذى يصدق وجود قوة غيبية خارقة للطبيعية اسمها الحسد ، وهى قوة محدودة للغاية، وفى نفس الوقت ينكر وجود قوة غيبية عظمى خالقة للكون ومهيمنة عليه هى قوة الله. إنه غارق فى مستنقع فكرى ، فهو ينكر الغيب حين يتعلق الأمر بالله ، ولكنه يؤمن بالغيب حين يتعلق الأمر بالشيطان. هذا ليس إلحادا ، بل تخلف عقلى.

إن المسلم العاقل ينظر إلى الحسد ليس على أنه قوة مخيفة ، بل على أنه دليل على بطلان النزعة المادية ، وبالتالى فهو دليل غير مباشر على وجود الله.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

3-الأحلام وقراءة المستقبل

أحلام رأيتها وتحققت

** فى أحد الأيام اتصلت أمى بأخى المسافر ، وأخبرته أنها رأت فى المنام أن زوجته أنجبت ولدا ، وأن اسمه أحمد. كان هذا الحلم غريبا لأن أخى كان قد توقف عن الإنجاب منذ فترة طويلة ، ولم يكن يحرص – لاهو ولا أحد من المحيطين به– على إنجاب طفل آخر ، وبالتالى فمن غير الممكن أن نقول أن الحلم يعبر عن أفكار من الواقع تشغل بال أمى فى اليقظة ، فقام المخ بتخزينها لتعاود الظهور أثناء النوم. ولكن ما هى إلا أيام معدودة حتى تبين أن زوجة أخى قد حملت ، ثم علمنا أن الجنين ذكرا ، فأسموه طبعا أحمد.

** رأيت فى المنام منذ عدة سنوات حلما من مشهد واحد قصير لم يستمر لأكثر من ثانية ، وكان ذلك منظر طفل مريض بعيوب خلقية فى الأعضاء التناسلية ، فلا هو ذكر ولا هو أنثى. وفى اليوم التالى لما ذهبت إلى المستشفى عرض علىَّ الزملاء طفلا مولودا بتشوهات فى الأعضاء التناسلية ، مع العلم أن مثل هذه الحالات لم تكن شائعة حينئذ فى المستشفى عندنا ، ولم نكن نراها إلا كل عدة أشهر ؛ لقد تحقق الحلم بدقة بالغة.

** كنت أستعد للترقية من درجة مدرس إلى درجة أستاذ مساعد فى طب الأطفال. كنا قد قدمنا أبحاثنا للجنة الترقية فى القاهرة ، وكان المفترض أن يتم تقييم الأبحاث بواسطة أعضاء اللجنة ، لم تكن النتيجة مضمونة أبدا لعوامل كثيرة يطول شرحها. وفى ظل هذه الظروف حدث فى أحد الأيام – قبل موعد ظهور النتيجة بحوالى أسبوعين– أن رأيت فى المنام أن اللجنة أثنت بشدة على أبحاثى. لا أذكر ماذا رأيت بالضبط ، لكن على ما أذكر كان هذا الثناء مكتوبا فى ورقة غير رسمية (مسودة). استيقظت من نومى وأنا سعيد ومطمئن بهذا الحلم غير المتوقع ، فأنا فعلا لم أكن أطمع فى التفوق ولا أنتظر مدحا من أحد ، بل بالعكس كان غاية أملى أن أنجح وكفى. إذن هذا الحلم له مغزى كبير ، فهو ليس تعبيرا عن حالة نفسية أعيشها فى الواقع ، بل هو شىء يختلف تماما عن الواقع لأننى فى الواقع أنتظر الإخفاق ، بينما الحلم يشير إلى النجاح ، ولو كنت فى الواقع متفائلا ، ثم رأيت فى المنام حلما سعيدا ، فهذا طبيعى ، لكن الغريب أن يأتى حلم سعيد وأنا لا أتوقع الخير. وهذا يعنى أن هذه الرؤيا بشرى من الله تعالى. حمدت الله ودعوته أن يتحقق الحلم. وبعد أيام قليلة أخبرتنى أمى أنها رأت فى المنام أننى أرتدى حُلة جميلة ، وقالت لى بشكل مفاجىء: هل ستترقى قريبا؟ كانت أمى تعرف أننى أجرى أبحاثا للترقية منذ فترة طويلة ، لكنى لم أكن قد أخبرت أيا من والدىَّ أننى قدمت أوراقى حتى لا يعيشا فى قلق ، فيكفيهما مشاكلهما الأخرى. ابتسمتُ ، وقلت لأمى: خير. ولم أخبرها بشىء. كانت رؤيا أمى ذات مغزى كبير جدا ، فازددت بشرى ، وسألت الله أن يجعل الحلم خيرا. وفى اليوم السابق للقاء اللجنة بالقاهرة وجدت ابنتى ذات الخمس سنوات ترتجل أغنية من تأليفها ، ولم تكن الأغنية تتضمن أى كلمات سوى أن أباها سيفرح غدا. لم تكن ابنتى – ولا أى أحد من أولادى– يعلم أننى سأذهب للجنة غدا ، ولم أكن أوحى إليهم بأننى غدا سأنجح أو أخفق ، بل إننى لم أكن فى هذا اليوم مرحا معهم بشكل يختلف عن بقية الأيام. وفضلا عن ذلك فقد كانت هذه أول مرة

نسمع فيها هذا الأغنية من البنت ، كما أن الطفلة لم تتعود أن تغنى لى من قبل على الإطلاق. كانت هذه ثلاث بشريات بالنجاح ، وكلها جاءت فى فترة كنت أكاد أجزم بأننى لن أنجح. ولو كانت الأحلام تعبير عما يدور فى النفس أثناء اليقظة بطريقة رمزية لجاء الحلم مشابها للواقع. ولما ذهبنا للقاء اللجنة أخبرونى بالنتيجة وبالنجاح ، فحمدت الله عز وجل، لكن الأهم من النجاح أننى أيقنت أن هناك شيئا ما وراء الطبيعة ، فقوانين الطبيعة لا يمكنها أن تجعلنا نعرف ما سيحدث فى المستقبل أثناء النوم ، وبالتالى فمعرفتنا بهذا المستقبل لا يمكن أن تتم إلا من خلال إلهام جاءنا من قوة عليا تعرف المستقبل. إن هذه الرؤى تثبت لى بشكل شخصى تهافت الإلحاد. الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

** رأيت فى المنام منذ أربعة أيام تقريبا أن زوجتى انقلبت بها السيارة عدة مرات ، لكنها لم تصَب بسوء ، ولم أكن أشعر فى المنام بأى خوف أو حزن مما جرى لها. ولما استيقظت دعوت الله تعالى أن يجعله خيرا ، ثم نسيت الحلم. ولكن اليوم علمت فجأة أن زوج أختى قد وقع له حادث أضر بسيارته ، ولكنه لم يصب بسوء ، بينما انقلبت السيارة النقل التى اصطدمت به. وبعد ساعة من سماع الخبر تذكرت الحلم ، ولاحظت العلاقة بينه وبين الواقع: إن زوجتى فى الحلم ترمز إلى أخيها ، كما أن خروج زوجتى سالمة يرمز إلى أن أخاها سيخرج سالما. وانقلاب السيارة فى الحلم يرمز إلى انقلاب السيارة النقل فى الواقع.

** رأيت فى أحد الأيام وأنا نائم ظهرا أن حوض الاستحمام (البانيو) مملوء بسبب خلل أصابه ، فجعل الماء يفيض منه ، ويقع على الأرض ، كما وجدت بجداره خروقا يتسرب منها الماء. ولما استيقظت أخبرتنى زوجتى أن حوض المطبخ يتسرب منه الماء ، وأنها فشلت تماما فى إيقافه. كان التشابه بين الحقيقة والمنام جليا. وكانت هذه أول مرة منذ وقت طويل يحدث فيها عطل فى المنزل ، ولذا فلا يمكن تفسير ما حدث على أننى رأيت فى المنام أمرا يشبه ما يشغلنى فى الحقيقة. كما أن زوجتى لم تكن تصرخ أثناء نزول الماء على الأرض كى أفسر الأمر على أننى سمعت صوتها أثناء النوم فرأيت مناما يشبه محتوى ما تكلمت به.

** رأيت فى أحد الأيام حلما مكونا من مشهد واحد ، وهو أن أمامى "كانيولا". والكانيولا هى أداة طبية تستخدم لإعطاء المحاليل فى الوريد للمرضى. كنت فى المنام حذرا من أن تدخل الكانيولا

فى يد أحد ، فتنقل له مرضا بالدم. وفى الصباح ذهبت إلى المستشفى فوجدت كل الممرضات يتحدثن عن أن إحداهن أصابتها وخزة كانيولا بطريق الخطأ ، وأنها خائفة بشدة من أن تصاب بمرض خطير. أيقنت حينئذ أن الحلم قد تحقق.

** نمت فى أحد الأيام بعد الظهر لساعتين. وفى المنام رأيت عدة أشياء لا أذكر أيا منها. وكان المشهد الوحيد الذى استيقظت وأنا أتذكره بوضوح أننى كنت أحاول أن أدير مفتاح السيارة لكنها لم تكن تستجيب وبقيت معطلة. وبعد ساعة ونصف فقط خرجت مع زوجتى وأولادى لنشترى بعض الاحتياجات ، وبعد أن خرجنا من أحد المحلات سعداء بشراء بعض البضائع ركبنا السيارة ، وأدرت المفتاح ، فلاحظت تغيرا فى صوتها أعقبه توقف تام. حاولت أن أعيد تشغيلها فلم أفلح. ساعدنى بعض المارة ففشلوا. اتصلت بخبير الإصلاح (الميكانيكى) فحضر ، وأخبرنى أن العطل كبير ، وسيحتاج لوقت طويل. وسط هذه الأحداث كاد الذهول يعصف بى: ما هذه المصادفة العجيبة؟ كيف تحقق الحلم بشكل حرفى بهذه القوة والسرعة؟ إن سيارتى رغم أنها قديمة جدا إلا أنها لا تتعطل إلا كل فترة طويلة ، ولو كان بها أى خلل صغير فى الأيام السابقة لقلت أن الحلم جاء متأثرا بالأحداث التى تدور حولى فى الواقع ، لكن أن يخبر الحلم عن شىء سيقع فى المستقبل دون أى سابق إنذار فهذا هو الغريب حقا.

** فى أحد الأيام نمت بعد الظهر ، ثم استيقظت وقد رأيت فى المنام أن رئيس الوزراء الإسرائيلى "نتانياهو" جالسا ، وكنت أنا و"على جمعة" مفتى الجمهورية السابق واقفين ، وبجوارنا شخص ثالث لا أعرفه ، ولا أذكر ملامحه ، ولكنى لم أكن أستغرب تواجده معنا. كان نتانياهو فى المنام يطلب من على جمعة أن يصدر فتوى تصب فى مصلحة إسرائيل ، فتدخلتُ وأخذتُ أحذر على جمعة من أن يصدر هذا التصريح فى وجود نتانياهو لأن هذا سيفهم على أنه خيانة وعمالة لصالح إسرائيل ، وإن كان ولا بد من هذا التصريح فليقله فى أى مكان آخر. وفعلا اقتنع على جمعة ، وترك المكان وخرج. ثم رأيت فى مشهد آخر فى نفس الحلم أننى أوزع جنيها واحد على زوجتى وكل واحدة من بناتى. انتهى الحلم ، ولما استيقظت حكيته لزوجتى بأسلوب ساخر. وكان الحلم بالنسبة لى غريبا ، فأنا لم أكن أفكر فى نتانياهو ولا فى على جمعة فى هذا الوقت ، ولم تكن وسائل الإعلام تتحدث عن أخبار ذات بال بشأنهما. ولما حانت صلاة المغرب قمت

لأتوضأ ، فلاحظت وجود رائحة كريهة بالبيت ، فطلبت من زوجتى أن تبحث عن السبب ، ثم خرجت إلى المسجد ، ولما عدت وجدت الرائحة قد زادت وملأت البيت ، وأصبحت لا تطاق. أخذت زوجتى تبحث عن السبب فلم تجد ، فقامت بتنظيف المنزل كله وأغلقت النوافذ لعل الرائحة تكون قادمة من الخارج ، ولكن دون جدوى. دخلت إحدى غرف المنزل وظللت بها حتى حان وقت صلاة العشاء ، فخرجت من الغرفة ، فوجدت الرائحة قد اختفت تماما. وفى هذه اللحظة فطنت إلى فكرة مثيرة للغاية: لقد كان الحلم الذى رأيته منذ قليل يرمز إلى هذه الرائحة الكريهة ، فرئيس الوزراء الإسرائيلى نتنياهو عندما ظهر على الساحة السياسية منذ أكثر من عشرين عاما كان المصريون يكرهونه بشده ، وينطقون اسمه: (نتن ياهو) ، والمقطع الأول كما ترون يمثل سبابا للرجل حيث يوصف بأن رائحته نتنة. حينئذ فهمت الحلم ، فوجود نتانياهو فى بيتى يرمز إلى أن رائحة نتنة ستوجد فى البيت. ولا تتوقف الإثارة على ذلك ، فعلى جمعة هو الآخر له علاقة بالرائحة الكريهة ، فالرجل اشتهر بتصريح نارى هاجم فيه تيارا سياسيا واصفا المنتمين إليه – بألفاظ عامية – قائلا أنهم "منتنون ورائحتهم كريهة". إذن كلا من نتنياهو وعلى جمعة له علاقة واضحة بالرائحة الكريهة. ولاحظت أيضا أن على جمعة فى المنام ترك نتانياهو وخرج ، وهذا شىء متوقع لأن على جمعة ينفر من الرائحة الكريهة (كما قال فى تصريحه الشهير) ، بينما نتنياهو فى ذاته نتن (طبقا لوصف المصريين له) ، ومن الطبيعى أن ينفر على جمعة من نتانياهو. ولما خطرت ببالى هذه الخواطر ، قلت لزوجتى: سأعطيك مكافأة إن عرفتِ ما تفسير الحلم؟ وبعد ساعة انتبهت إلى أن هذا أيضا ورد فى الحلم ، ففى الحلم كنت أوزع جنيها على زوجتى وبناتى ، وهو شىء كنت أفعله فى الآونة الأخيرة على أرض الواقع حيث كنت أجرى مسابقات دورية بين الأبناء ، ثم أعطى كل منهن جنيها على سبيل التشجيع. وعلى ذلك فرؤية مشهد توزيع الجنيه فى المنام يرمز إلى أننى سأتحدى زوجتى فى الواقع طالبا منها أن تفسر الحلم. لكن ماذا عن الشخص الثالث الذى كان يقف معى فى الحلم ؟ لا أدرى ، لكنه على الأرجح كان ملاكا أوكله الله تعالى لتبديد الرائحة الكريهة من بيتنا ، فهذه الرائحة لم يكن لوجودها أى تفسير طبيعى على الإطلاق ، وربما كانت من قبيل الحسد. ومعروف أن الملائكة تتدخل بأمر الله تعالى لتقديم المساعدة للناس ، وربما كان هذا أحد معانى قوله تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [الرعد: 11] الذى فسره مجاهد قائلا: (مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا

وَلَهُ مَلَكٌ يَحْفَظُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْهَوَامِّ فِي نَوْمِهِ وَيَقَظَتِهِ)[186]. وفى تفسير ابن كثير: (وَقَوْلُهُ: لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أَيْ لِلْعَبْدِ مَلَائِكَةٌ يَتَعَاقَبُونَ عَلَيْهِ، حَرَسٌ بِاللَّيْلِ وَحَرَسٌ بِالنَّهَارِ، يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْأَسْوَاءِ وَالْحَادِثَاتِ). ولا شك أن حفظ الملائكة للمؤمنين ظاهرة عامة ، وليس ميزة أنفرد بها دون غيرى. الحمد لله رب العالمين.

** رأيت يوما فى المنام أن اثنين من أبناء أختى قد مرضا. ولما استيقظت من النوم نسيت الحلم ، لكن فى المساء اتصلت بى أختى لتخبرنى أن ابنتها تعانى من قىء وألم فى البطن ، وكانت قلقة جدا عليها. وفى نفس اليوم اشتكت ابنتى الصغرى بنفس الشكوى تماما مع أنهما لا يقيمان معا. الحمد لله شُفى الاثنان بعد يوم واحد فقط. المهم أننى انتبهت إلى أن الحلم تحقق بشكل بشكل عجيب. إن ما رأيته فى المنام من مرض اثنين من أولاد أختى تحقق ولكن بشكل غير حرفى كالعادة ، فهناك اتفاق بين الحلم والواقع فى عدد المرضى وهو اثنين (ابنتى وابنة أختى) ، كما أن الأخُوَّة تحققت ، فأولاد العم يمكن اعتبارهم إخوة مجازا ، والأحلام فى العادة تتحقق بشكل غير حرفى.

** رأيت يوما فى المنام أننى أقود سيارتى فى طريقى للعمل ، وفجأة وجدت أن شحن بطارية الحاسوب المحمول (اللابتوب) قد نفد ، فقلت كيف سأذهب الآن إلى عملى وشحن بطارية اللابتوب قد انتهى؟ الغريب أننى فى الحلم تصرفت على أن بطارية اللابتوب ستؤدى إلى تعطل السيارة مع أن السيارة لا تسير بواسطة بطارية اللابتوب ، ولكننى تصرفت فى المنام على هذا النحو الغريب. شعرت فى المنام وقتها أن هذا العطل بسيط جدا ، وأنه لا يحتاج لأكثر من مقبس (كوبس) لشحن بطارية اللابتوب ، فتواصل السيارة المشوار. كنت فى هذه اللحظة فى القرية المجاورة لنا ، وأخذت أتلفت حولى فوجدت فى الطريق أكثر من مقبس على الجدران ، مع أننا فى الواقع لا نرى مقابس كهرباء على جدران المبانى من الخارج. وأخذت بعد ذلك أنتقى من بين هذه المقابس المتعددة ، وفى النهاية اخترت أن أشحن اللابتوب من مقبس على جدار المستشفى التى كنت أقف بجوارها ، ولاحظت وقتها أن المقبس عال ، لكن كان بإمكانى أن أصل إليه بسلك الشاحن. أذكر الآن أيضا أن اللابتوب الذى كان معى وقتها هو الحديث نسبيا

[186]) **تفسير الرازي** (19/ 17)

، ولم يكن اللابتوب الآخر الذى كان قديما ومتهالكا. انتهى الحلم ، فاستيقظت من نومى وأنا على يقين أن هذا الحلم تفسيره أن سيارتى ستتعطل، واستنتجت أن اللابتوب الحديث نسبيا يرمز لتعطل سيارتى الحديثة نسبيا ، وليست السيارة القديمة جدا التى يستعملها أبى. ولم يكن هذا أول حلم فى هذه الليلة ، فقد رأيت فى نفس الليلة قبلها حلما يتكرر كل عدة أيام منذ سنوات طويلة بنفس الشكل: رأيت أننى طالب ، والامتحان لم يبق عليه إلا أيام معدودات ، وأنا أذاكر فقط مادة واحدة أو مادتين وأهمل تماما عددا كبيرا من المواد التى تحتاج لمذاكرة عميقة مثل الرياضيات والأحياء والكيمياء واللغة الفرنسية. هذا الحلم كلما رأيته يصيبنى بالرعب لأن من المفترض أننى إنسان متفوق فى دراستى ، وسيكون من العار أن أرسب فى الامتحان. وفى السنوات الأخيرة بدأت أرى أن من الحكمة أن أفسر هذا الحلم على أنه تنبيه من الله إلى أن يوم القيامة قد اقترب ، وأننى لست مستعدا لحساب الآخرة بما فيه الكفاية. المهم أننى استيقظت ، وكل ما يشغلنى هو عطل السيارة المتوقع ، وقد تعودت فى مثل هذه الأحوال على أن أصلى ركعتين لله ، وأدعوه عز وجل قائلا: (اللهم اجعله خيرا). وأثناء الصلاة لاحظت أن خوفى ينصب على عطل السيارة مع أن الأهم هو الحلم الآخر الذى يفترض أنه يحذرنى من إهمال يوم القيامة ، فأخذت أدعو الله أن يجنبنى شر الآخرة قبل شر الدنيا. ثم ذهبت إلى عملى ، ونسيت كل شىء. وفى الظهيرة ، نزلت من السيارة لشراء بعض الأشياء ، فوجدت رجلا له لحية يتجه نحوى ويكلمنى ، فظننته – بسبب الضوضاء– يطلب منى أن أدفع معه سيارته المتعطلة ، لكنه أخبرنى أن سيارته متعطلة ، وأنه يريد أن يشحنها من بطارية سيارتى ، وأن هذا لن يستغرق أكثر من ثانية واحدة. حينئذ فهمت فى الحال أن الحلم قد تحقق ، ولكن من رحمة الله أنه استجاب لدعائى فجعل العطل لسيارة أخرى غير سيارتى. وبما أننى ذو خبرة ضعيفة جدا فى أمور السيارات فقد خفت أن أستجيب له لأنى لم أجرب من قبل شحن سيارة لأحد ، وربما يكون فى هذا ضرر على سيارتى. وبعد تردد لثانيتين تذكرت الحلم الثانى الذى يحذرنى من نسيان الآخرة ، فوافقت أن أساعد الرجل الذى يمر ضائقة طلبا لرضا الله. وفعلا شحن الرجل سيارته ، ومضى وهو يظهر الامتنان لى.

ظللت بعدها أضرب كفا بكف على تحقق الحلم بهذه الطريقة المثيرة: لقد رمزت بطارية اللابتوب فى الحلم إلى بطارية السيارة ، وأن عطل السيارة لن يكون بسبب خلل فى المحرك أو الكوابح أو فى أى جزء آخر غير البطارية. انتبهت أيضا إلى أن اللابتوب الجديد فى الحلم يرمز إلى أن

السيارة المعطلة ستكون من النوع الحديث وليس القديم ، والسيارات الحديثة إن تعطلت فهى تحتاج للشحن وليس للدفع اليدوى. انتبهت أيضا إلى أن مقابس الكهرباء المنتشرة فى كل مكان فى الطريق فى الحلم ترمز إلى كثيرة السيارات المارة فى الطريق والتى يمكن أن تستخدم لشحن السيارة المتعطلة. وفهمت أيضا أن شحن البطارية من مقبس موجودة على جدار مستشفى يرمز إلى أن السيارة التى ستستخدم فى شحن السيارة المعطلة هى سيارة طبيب (وأنا طبيب)، والطبيب يعمل بالطبع فى مستشفى. وانتبهت كذلك إلى أن وجود المقبس على ارتفاع عال يرمز إلى أن سيارتى أحدث وأعلى مستوى من السيارة المعطلة ، ومع ذلك فسيارتى ليست سيارة محافظ ولا وزير ولا مدير أمن ، وبالتالى فيمكن لصاحب السيارة المعطلة أن يلجأ إليها لإعانته. وانتبهت أيضا إلى الراحة النفسية التى شعرت بها من النظر لوجه الرجل ذى اللحية ، ولاحظت أننى أيضا لى لحية مثله ، وهذا تطابق فى الشكل وتطابق فى الروح ، فكأننى أنا وهو واحد ، وكأن كل ما حدث فى الحلم لى قد حدث له لأننا نحن الاثنين واحد.

وبعد ، فقد كانت هذه مجرد عينة صغيرة من أحلام كثيرة رأيتها وتحققت. وبعض هذه الأحلام تحقق بشكل أعجب مما يمكن تخيله ، ولكن ليس من الملائم ذكر تفاصيل شخصية. الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الأحلام تهدم الإلحاد

أعترف أن الأحلام كانت من أقوى الأدلة التى برهنت لى على خطأ الإلحاد ، وجعلتنى أخر لله ساجدا. إن من الممكن للإنسان أن يرى رؤيا تعبر عن حدث وقع فى الماضى كأن يرى نفسه جالسا فى بيت قديم مع زميل قديم. وقد يعبر الحلم عن أمر حاضر يمر به الإنسان كحفل زفاف حضره فى نفس الليلة. وفى هاتين الحالتين – رؤيا الماضى ورؤيا الحاضر– لا يوجد شىء غريب ، إذ يمكن تفسير الأمر على أن الخبرات والمشاهدات المخزنة فى المخ تنشط بطريقة ما لتعاود الظهور فى المنام. أما الشىء المذهل فهو أن يرى الإنسان شيئا سيقع فى المستقبل ، وهنا يكون السؤال الخطير: من أين أتت هذه الرؤيا؟ كيف أنتج المخ مشهدا لم يسبق له أن خزنه فى خلاياه؟ إن الأشياء التى يدركها المخ تأتيه من خلال الحواس الخمس (السمع والبصر واللمس والشم والتذوق) ، وهذه الحواس تكون مشلولة أو معطلة بشدة أثناء النوم ، فكيف رأى

المخ ما رأى؟ وبفرض أن الحواس لها بعض النشاط أثناء النوم ، فكيف تلتقط هذه الحواس ما سيجرى فى المستقبل وهو لم يقع بعد؟ وبفرض أن النفس تتحرر من الجسد أثناء النوم[187] ، وتصبح أكثر قدرة على الإدراك فهذا اعتراف بوجود كيان غيبى اسمه النفس ، وهذا يهدم ركيزة كبرى من ركائز الإلحاد الذى لا يعترف بوجود شىء اسمه النفس ، كما أن السؤال حينئذ سيبقى: وكيف تعرف النفس شيئا لم يحدث بعد؟ لا أجد أمامى من تفسير إلا أن النفس تلقت أثناء النوم إلهاما من الله الذى يعلم المستقبل. وربما يجىء هذا الإلهام من الله إلى النفس بشكل مباشر أثناء النوم، ولكن هناك احتمال آخر هو أن النفس أثناء مفارقتها للجسد وقت النوم تطلع على بعض ما يقال فى الملأ الأعلى بخصوص ما سيحدث فى المستقبل مثلما يفعل الجن الذين يسَّمَّعون إلى الملأ الأعلى: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا } [الجن: 9].

هذا هو التفسير الوحيد. والبديل هو افتراض فى غاية التطرف ، مفاده أن الماضى والحاضر والمستقبل موجودون معا بشكل حقيقى فى نفس الوقت ، وأن تقسيم الأحداث إلى ماض (وقع بالفعل) وحاضر (واقع الآن) ومستقبل (لم يقع بعد) هو مجرد تقسيم وهمى ، وهذا ما مكن النفس من رؤية المستقبل لأن المستقبل موجود الآن مثله مثل الحاضر تماما، وهذه النظرية الأخيرة تعرف عند الفلاسفة بالنظرية الأبدية للزمان Eternalism[188] (أو النظرية-باء B-theory)، وهذه النظرية لا يمكن قبولها قط ، فمثلا أنا أنظر إلى الكرسى الموجود أمامى الآن ، وأعتبر أن هذه اللحظة هى الحاضر ، وبعد ذلك أركل الكرسى بقدمى ، لكى يقع على الأرض ، وأعتبر أن لحظة وقوعه على الأرض هى المستقبل. وإن افترضت أن كلا من الحاضر والمستقبل موجودان معا فى نفس اللحظة ، فهذا معناه أن الكرسى قائم وواقع فى نفس اللحظة ، أو أن هناك نسختين من نفس الكرسى ، إحدهما قائمة ، والأخرى واقعة على الأرض فى نفس اللحظة ، وهذا تناقض. وبالمثل إن كان لك صديق يعانى من مرض خطير فى اللحظة الحاضرة ، وبعد خمس دقائق وافته المنية ، فسيجوز القول – طبقا لهذه النظرية- أن صديقك ميت وحى فى نفس اللحظة ، أو

---

[187]) مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الزمر: 42]

[188]) **The ontology of time**. By L. Nathan Oaklander. In “Studies in analytic philosophy” series; editor: Quentin Smith. Prometheus Books, New York, USA. 2004.

أن صديقك ليس فى الحقيقة رجلا واحدا بل رجلين اثنين ، أحدهما حى والآخر ميت فى نفس اللحظة ، وهذا تناقض. وبالمثل سيصح القول أنك الآن فى غرفة النوم تتناول الإفطار على سريرك وفى نفس اللحظة أنت فى الحمام تعانى من الإسهال. وستؤدى هذه النظرية إلى القول بأن كل إنسان منا ليس شخصا واحدا بل هو فى الحقيقة عدد هائل من الأشخاص ، فمثلا إن كان لك صديق وحيد مات وعمره خمسون عاما ، فهذا يعنى أنه عاش فى الدنيا 18000 يوم تقريبا ، وحوالى 26 مليون دقيقة ، أى مليار ونصف ثانية تقريبا ، وهذا يعنى أن صديقك يوجد منه على الأقل مليار ونصف نسخة فى نفس الوقت ، أى أنك كنت واهما حين حسبت أن لك صديقا وحيدا ، فقد كان فى الحقيقة مليار ونصف إنسان! باختصار: النظرية الأبدية للزمان لا يمكن قبولها. وعلى ذلك فليس أمامنا من تفسير لظاهرة تحقق الأحلام إلا أنها دليل على وجود النفس ووجود الله. إن رؤية المستقبل فى المنام تمثل خرقا صارخا للمادية ، وهذا يقصم ظهر الإلحاد ، ويفتح الباب للإيمان بالغيبيات وعلى رأسها الله. هذا هو الدرس الأعظم الذى استخلصته من الأحلام.

لقد انتهيت للتو من قراء مقال طويل حول المشكلات الفلسفية التى أثارتها نظرية فيزيائية مشهورة اسمها نظرية الوتر. وكان من أكثر الأشياء إثارة أن أستنتج أن عالم الغيب (الميتافيزيقا) ليس بعيدا عنا ، بل إننا غارقون فيه ، فالطبيعة عند المسافات الصغيرة جدا (طول بلانك) والأزمنة الصغيرة جدا (زمن بلانك) يستحيل معرفتها ، وهى لا يختلف عن الغيبيات الميتافيزيقة المعهودة. وكان من المدهش أن يقع فى يدى كتاب عنوانه: "الفيزياء تلقتى مع الفلسفة عند نطاق بلانك" Physics meets philosophy at the Planck scale. إن قراءة هذه الموضوعات العلمية الفلسفية شىء مرهق ، ويحتاج للتمهل والتأنى والبحث ، وقد ظللت طوال شهور عديدة أبحث فى هذا الموضوع لأصل إلى النتيجة القائلة بأن الغيب أقرب إلينا مما نتصور ، ولكن يمكننى أن أؤكد لكم أن حلما واحد من الأحلام السابقة يفوق فى أهميته بالنسبة لى آلاف الصفحات التى قرأتها فى نقد الإلحاد. حقا إن هدى الله هو الهدى. أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله. اللهم أرنا آيتاك واجعلها لنا موعظة وذكرى.

لست من أولياء الله الصالحين

الحمد لله لم أقع فى فخ الغرور بسبب ما رأيته من أحلام تحققت على أرض الواقع ، فأنا على يقين من أن تحقق الأحلام ليس دليلا قاطعا على صلاح المرء ، ففى قصة يوسف عليه السلام وجدنا أن ملك مصر الكافر رأى رؤيا تحققت فى المستقبل ، كما رأى كل من رفيقى يوسف الكافرين فى السجن رؤيا تشير إلى ما سيحدث لهما فى المستقبل. إذن القرآن يؤكد أن من الممكن لله تعالى أن يمنح الكافر القدرة على رؤية المستقبل. وفضلا عن ذلك فقد حكى لنا أحد الزملاء غير المتدينين بالتفصيل عن رؤى كثيرة رآها وتحققت ، وأنا على يقين أن هذا الزميل لم يكن يكذب فى هذه المسألة. بل إننى رأيت بنفسى تحققا حرفيا لرؤيا رآها رجل أعرف يقينا أن سلوكه يشوبه من الفسوق قدر غير قليل ، كما أن قلبه به قدر كبير من الحقد على من حوله.

ومع ذلك **يعتقد البعض – وهم مخطئون فى ذلك– أن الرؤيا الصالحة دليل على شدة إيمان المرء** ، وذلك لما رواه البخارى فى صحيحه عن عبادة ابن الصامت وأبى هريرة وأنس أن رسول الله عليه السلام قال: «رُؤْيَا المُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ». وفى رواية أخرى فى البخارى عن أبى سعيد الخدرى "الرؤيا الصالحة" بدلا من "رؤيا المؤمن". وروى البخارى أيضا أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا المُبَشِّرَاتُ» قَالُوا: وَمَا المُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ».

ومصطلح "الرؤيا الصالحة" يشير –على الأرجح– إلى الرؤيا التى تبشر بحدث سعيد، فيتحقق هذا الحدث فى المستقبل ، ودليلنا على ذلك الحديث الذى رواه البخارى والذى يفرق بين الرؤيا الصالحة والحلم ، ويعتبر الأولى من الله ، والثانية من الشيطان: (الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ، وَالحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا حَلَمَ فَلْيَتَعَوَّذْ مِنْهُ، وَلْيَبْصُقْ عَنْ شِمَالِهِ، فَإِنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ)

ومن جانبنا **فنحن نرى أن هذه الأحاديث لا تشير إلى شىء أكثر من وجود تشابه ضعيف جدا (يبلغ قدره واحد على 46) بين الرؤى الصالحة والنبوة** ، ووجه الشبه هو أن كلا منهما هبة من الله ، وكلا منهما يُمَكن الإنسان من الاطلاع على أمور لا يمكن التوصل إليها بوسائل الإدراك المادية المعتادة ، فالنبى يستطيع أن يعرف الغيب والمستقبل (من خلال الوحى)، وبالمثل يستطيع الإنسان العادى أن يعرف قليلا من الغيب والمستقبل (من خلال الرؤيا). **ولكن لا يوجد فى نص هذه الأحاديث ما يفيد أن من رأى رؤيا صالحة حسنة فهو بالضرورة إنسان تقى**

قريب من الله أو أن الله تعالى قدم له الرؤيا الصالحة على سبيل المكافأة ، بل إنك قد تفاجأ إذا علمت أن الرسول عليه الصلاة والسلام – كما ورد فى صحيح البخارى– قد رأى رؤيا سيئة أخبرته بما وقع لأصحابه من قتل يوم أحد: (وَرَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ هَذِهِ أَنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا، فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ فَإِذَا هُوَ مَا أُصِيبَ مِنَ المُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، ثُمَّ هَزَزْتُهُ بِأُخْرَى فَعَادَ أَحْسَنَ مَا كَانَ فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الفَتْحِ، وَاجْتِمَاعِ المُؤْمِنِينَ وَرَأَيْتُ فِيهَا بَقَرًا، وَاللَّهُ خَيْرٌ فَإِذَا هُمُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَإِذَا الخَيْرُ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الخَيْرِ وَثَوَابِ الصِّدْقِ، الَّذِي آتَانَا اللَّهُ بَعْدَ يَوْمِ بَدْرٍ»)[189].

وعلى ذلك فرؤيتى لبعض الأحلام التى تتحقق لا يعنى أننى شخص مميز وذو حظوة عند الله. كل ما فى الأمر أن الله تعالى أنعم علىّ بدليل على وجوده. وربما الشىء الذى أتميز به عن الآخرين أننى أجيد بعض الشىء تفسير رموز الأحلام ، فأكتشف تشابهها مع الواقع. وربما لو فكر كل واحد منا فى أحلامه جيدا لاكتشف قدرا كبيرا من التشابه بينها وبين ما يحدث فى المستقبل ، فالأمر لا يعدو رياضة ذهنية يمكنها اكتسابها وتنميتها.

الأحلام ترمز للواقع ولا تتطابق معه

علينا أن نعرف جيدا أن الأحلام فى العادة لا تتحقق بشكل حرفى فى الواقع ، فالأحلام تتخذ غالبا شكل رموز تشير إلى ما سيحدث فى الواقع. ولعلكم تتذكرون ذلك الحلم الشهير الذى رآه ملك مصر ، فقد رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وكان هذا رمزا لسبع سنوات من الرخاء ، يعقبهن سبع سنوات من القحط. كما أن أول رؤيا رآها يوسف عليه السلام لم تتحقق حرفيا فقد رأى أن أحد عشر كوكبا يسجدون له ومعهم الشمس والقمر ، فتبين بعد ذلك أن الكواكب الأحد عشر هم إخوته ، والشمس والقمر هما أبواه. وفى قصة يوسف عليه السلام أيضا نتذكر أن أحد رفاقه فى السجن رأى فى المنام أنه يعصر خمرا ، فتحققت الرؤيا بشكل غير حرفى حيث أطلق سراح الرجل ، وصار ساقى الملك.

---

[189]) قوله: (وَالله خير) قيل مَعْنَاهُ ثَوَاب الله خير أَي: صنع الله بالمقتولين خير لَهُم من مقامهم فِي الدُّنْيَا، والأرجح أن عبارة (والله خير) من جملَة الرُّؤْيَا، أى أنها كلمة سَمعهَا الرسول فِي الرُّؤْيَا عِنْد رُؤْيَاهُ الْبَقر بِدَلِيل تَأْوِيله لَهَا بقوله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: (فَإِذا الْخَيْر مَا جَاءَ الله بِهِ). انظر: **عمدة القاري شرح صحيح البخاري** (16/ 153). تأليف: بدر الدين العينى.

لكن هذا لا ينفى أنه فى بعض الحالات القليلة يكون التشابه بين الحلم والواقع شديدا إلى حد التطابق ، وقد أخبرتنى إحدى قريباتى يوما أنها رأت لأول مرة فى حياتها وجه رجل غريب فى المنام ثم رأت نفس الشخص فى الحقيقة فى اليوم التالى فى السوق. وروى البخارى ومسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: (أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ). وكون الرؤيا مثل فلق الصبح (أى نور الصباح[190]) يعنى أن التشابه بينها وبين الواقع كان شديد الوضوح.

الجأ إلى الله لا إلى مفسرى الأحلام

كثير من الناس يتعبون أنفسهم فى محاولة تفسير الأحلام التى يرونها ، فليجأون إلى مفسرى الأحلام ، وأغلب هؤلاء أفاكون ، فقد وجدت من خلال تجربة طويلة أن **من المستحيل أن يعرف الإنسان على وجه اليقين ما إذا كان الحلم الذى رآه سيتحقق فى المستقبل أم لا ، وإن تحقق فما الكيفية التى سيتحقق بها.** وهذا الكلام أقوله من واقع تجربة طويلة ، وقد وجدت دليلا عليه من السنة ، فقد **أخطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم– وهو النبى الموحى إليه– فى تفسير أحد الأحلام** ، فقد رأى أنه سيهاجر إلى بلد به نخل ، فظن أنها مدينة اليمامة أو مدينة هَجَر ، لكن خاب ظنه ، وتبين أنها يثرب:

عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «رَأَيْتُ فِي المَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا اليَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ، فَإِذَا هِيَ المَدِينَةُ يَثْرِبُ) رواه البخاري.

وفى أحد الأيام رأى النبى عليه السلام أن المسلمين يطوفون بالبيت الحرام فظن – على ما يبدو بلا وحى– أن الرؤيا ستتحقق فى نفس العام ، ولهذا انطلق بالمسلمين قاصدا مكة ، لكنهم لم ينجحوا فى دخولها بسبب صلح الحديبية مع قريش الذى منعهم من زيارة البيت الحرام إلا فى العام التالى. وفى هذا روى البخارى تساؤل عمر بن الخطاب رضى الله عنه: (قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ»، قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ»). ثم نزل قوله تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ

[190]) فلق الصبح أي: ضياءه إذَا أنفلق وانماز عن ظلام الليل، وذلك حتَّى يتضح فلا يشك فيه. قَالَ أهل اللغة والغريب: فَلَق الصبح وفَرَقه -بفتح أولهما وثانيهما- ضياؤه. أي: إنارته واضاءته وصحته، وإنما يقال هذا في الشيء الواضح البين، يقال: هو أبين من فلق الصبح. انظر: **التوضيح لشرح الجامع الصحيح** (2/ 248). تأليف: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري.

الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: 27]

وكما ترى فقد ثبت أن النبى عليه الصلاة والسلام أخطأ فى تفسير الرؤيا ، فما بالك بإنسان حقير مثلى؟ ولهذا لم أعد أتعب نفسى كثيرا فى البحث عن تفسير لما أرى من أحلام ، وأكتفى بأن أدعو الله تعالى أن يحقق الحلم بطريقة حسنة قائلا: (اللهم اجعله خيرا) ، فيمر الأمر فى الغالب بسلام بحمد الله ، ولكن إن نسيت يوما أن أقول الدعاء فإن الحلم فى الغالب يتحقق بشكل مؤلم.

وهكذا أصبحت على يقين أن من المستحيل على أى إنسان أن يعلم كيف سيتحقق حلمه فى المستقبل ، وتعلمت ألا أثق بحلم جميل فأظن أنه يدل حتما على أن خيرا سيقع لى ، وتعلمت ألا أخاف من حلم مفزع وألا أجزم بأن شرا سيقع لى ، وصرت ألجأ إلى الله ، وأدعوه أن يتحقق الحلم بطريقة طيبة ، وبعد أن يتحقق الحلم بالخير أشكر الله على نعمته ، ثم أتأمل فى الدرس الأهم ألا وهو أن تحقق الأحلام دليل على وجود الله ووجود الغيب. وأذكر ذات مرة أننى كنت ذاهبا إلى أحد الأماكن لأداء مهمة ما ، فطلبت منى زوجتى ألا أذهب لأنها رأت لى حلما مفزعا فى هذا اليوم ، فأصررت على الذهاب معتمدا على الله الذى بيده وحده تفسير الأحلام ، فدعوته، ورجوته ، فمر الأمر بسلام تام ، والحمد لله رب العالمين.

4- معرفة المستقبل بدون الأحلام

فى بعض الأحيان يرى الإنسان المستقبل فى اليقظة حتى بدون أحلام. لقد جربت هذا فى أكثر من موقف. أذكر أن زوجتى كانت فى زيارة عابرة لجدها فى شهر رمضان ، ولما همت بالخروج من منزله وجدت نفسها تنظر إليه طويلا ، وانتابها إحساس قوى بأن هذه ستكون آخر مرة تراه فيها رغم أن حالته الصحية فى ذلك الوقت كانت جيدة ، ولم يكن يشكو من شىء. وظلت زوجتى طوال شهر رمضان تحس بأن أجل جدها قد اقترب ، ولكن منعتها بعض الظروف من زيارته إلى أن وافته المنية فجأة فى الشهر الكريم.

وقد ذكرت منذ قليل كيف أن ابنتى الصغيرة أخذت فجأة – على غير العادة– تردد أغنية من ارتجالها ، وكانت كلماتها تفيد أننى سأفرح ، وبالفعل تلقيت فى اليوم التالى نبأ ترقيتى فى العمل. والحكايات المشابهة كثيرة ، وأظن أننا جميعا جربناها.

5–التخاطر

التخاطر – أو الاتصال الذهنى Telepathy – هو ظاهرة يقصد بها انتقال المعلومات والأفكار من شخص لآخر بدون استخدام الصوت أو الكلام أو الإشارات أو تعبيرات الوجه.

ولا يوجد تفسير علمى لظاهرة التخاطر ، لكن كثيرين منا جربوها. وعن نفسى فأنا متأكد من وجود هذه الظاهرة ، وليس ذلك لأنى شخص صاحب كرامات ، ولكن لأننى أدقق بشدة فى الحالات النفسية التى أمر بها ويمر بها الآخرون ، فأكتشف ما يغفل عنه الآخرون ، المسألة دقة ملاحظة ليس إلا ، كما أن هناك كثيرين غيرى يمرون بمواقف مشابهة ، وأكثر صراحة مما سأقوله الآن. ولم أشأ أن أذكر هنا إلا المواقف التى عايشتها عن قرب شديد باعتبارى واثقا من صدقها، وربما جعلها الله سببا للذكرى والهدى لى وللناس إن قُرأت بعد ذلك بسنوات.

** فى أحد الأيام كنت مستلقيا على الفراش بعد أن استيقظت من النوم عصرا ، فقفزت إلى ذهنى فكرة مفاجئة هى أن ابنتى أصيبت فى عينها. جاءتنى هذه الفكرة فجأة دون أى سابق تفكير فى ابنتى أو فى أى شيء له علاقة بإصابات العين. ولم تمض أكثر من دقائق قليلة حتى عادت ابنتى من الحقل مع جدها ، وهى تبكى لأن نحلة لسعتها فى عينها فسببت لها ألما شديدا وتورما كبيرا فى الوجه. وما حدث لا يمكن أن يكون مصادفة.

** وحدث ذات مرة أننى التحقت بإحدى المستشفيات. وفى أول يوم رحب بى طاقم الأطباء ، وأحضروا لى كوبا من الشاى ، فلاحظت أن العامل الذى يقدم الشاى قواه العقلية مختلة ، وكان الأطباء يكلمونه ساخرين من تخلفه العقلى ، فتدخلت وأوضحت لهم أن من الخطأ السخرية من إنسان بسبب مرض كتبه الله تعالى عليه. انتهى الموقف بسرعة ، ونسيته تماما ، ولم أفكر فيه مرة أخرى ، ولو للحظة واحدة. وبعدها بعام كامل تقريبا ركبت السيارة فى أحد الأيام ذاهبا إلى المستشفى ، فشعرت فى الطريق برغبة ملحة فى شرب كوب من الشاى ، فقلت فى نفسى أنا اليوم غير صائم ، وإذا وصلت إلى المستشفى فسأطلب كوبا من الشاى على الفور. وفى هذه اللحظة لا أعلم ما الذى جعلنى أتذكر أن المرة الوحيدة التى شربت فيها الشاى فى هذه المستشفى كانت فى ظل وجود هذا العامل المجنون. المهم لما وصلت إلى المستشفى انشغلنا بفحص

المرضى ، ولم يعرض علىَّ أحد أن أشرب الشاى ، وبينما نحن واقفون إذا بنفس العامل المجنون – الذى لم أره ولم أذكره لمدة عام كامل– يدخل علينا ، فداعبه بعض الأطباء ، ثم انصرفنا. هل كانت هذه مصادفة؟ مستحيل لأننى لم أفكر فى العامل لمدة عام ولو لمرة واحدة ، وفى اليوم الوحيد الذى تذكرته فيه وجدته أمامى. فهل حدث اتصال ذهنى بينى وبين هذا العامل؟ إن هذا يثبت أن المادية الإلحادية قاصرة وخاطئة ، فهناك عالم آخر غير مادى ، وقوانين مجهولة تختلف عن قوانين الفيزياء المعروفة.

** وفى أحد الأيام أثناء عودتى من العمل ظهرا قفزت إلى مخيلتى صورة امرأة. كنت أعرف هذه المرأة جيدا ، فقد كانت تأتى للعيادة كثيرا كى أعالج أولادها المرضى. لكن ما اسم هذه المرأة؟ ومتى جاءت إلى العيادة: قريبا أم منذ سنوات بعيدة؟ وهل كانت تأتى إلى عيادة القرية أم عيادة المدينة؟ لا أعرف. سيطرت صورة هذه الأم على تفكيرى (مع العلم أنها لم تكن شابة ولا جميلة) ، وشعرت بتحد غريب داخلى كى أتذكر شخصيتها ، ولكن دون جدوى. ولما عدت إلى البيت ظللت أحاول تذكر أى شىء عنها، فلم أفلح ، وحاولت أن أتجاهلها لكن صورتها لم تفارق خيالى. أحسست أن هذا الظهور المفاجىء للمرأة فى عقلى له مغزى. ولما حل المساء ذهبت إلى العيادة فجاءتنى إحدى الأمهات بابنها الذى يعانى من مرض شديد ، فلما وصفت لها العلاج وانصرفت شغلتنى بعض الأمور. ولما عدت إلى البيت لاحظت فجأة أن الأم التى جاءت اليوم إلى العيادة تشبه بدرجة كبيرة جدا الأم الذى لازمت صورتها ذهنى اليوم. ورغم أن هذه الأم التى جاتنى اليوم قد رأيتها كثيرا فى الفترة الأخيرة مع أولادها إلا أن هذه أول مرة ألاحظ فيها هذا التشابه الكبير بينها وبين تلك المرأة المجهولة التى لا أزال غير قادر على تذكرها حتى الآن. خرجت من هذه الموقف بأن ما يقال عن التخاطر حقيقى تماما ، فالمسألة تفهم على أن أُما مرض ابنها فخافت عليه ، وفكرَتْ بقوة فى الطبيب الذى اعتادت على علاج أولادها عنده باعتباره المنقذ ، فانتقل هذا التفكير القوى إلى ذهنى ، ولكنه – مثله مثل الأحلام– لم يأت بشكل حرفى متطابق ، فكان ما رأيته هى صورة شبيهة بالصورة الحقيقية. كما أننى لاحظت شيئا آخر ، وهو أن المكان الذى لاحت لى فيه صورة المرأة المجهولة لأول مرة هو نفس المكان الذى تسكن فيه المرأة التى مرض ابنها فى قريتنا ، وهذا لا يمكن أن يحدث بالمصادفة.

** فى إحدى الليالى كانت زوجتى تعانى من مرض شديد فى المساء ، وفى الصباح خف المرض بحمد الله ، ولما فتحت زوجتى رسائل الهاتف فوجئت بأن إحدى زميلاتها أرسلت لها رسالة فى الفجر (حين كانت وقتها فى قمة الألم) تطمئن عليها ، وتقول أنها قلقة جدا عليها. وهنا نجد الصديقة تحس بالآلام التى تمر بها صديقتها رغم بعد المسافة التى تفصل بينهما.

** حدثى لى فى أحيان كثيرا أن رأيت فى المنام أن بعض الناس قد أتوا إلى منزلى كى أكشف على أطفالهم المرضى. كان هذا المشهد يتكرر كثيرا بتفاصيل متشابهة دون تغيير يذكر ، ولكن الشيء الغريب أنه فى أغلب المرات التى كنت أرى فيها الحلم كان بعض الآباء يقولون لى أن ابنهم كان مريضا بشدة فى المساء ، وأنهم كانوا يفكرون فى الذهاب إلى بيتى لولا أن الوقت كان متأخرا. وهذا شكل من أشكال التخاطر يتم أثناء النوم.

ومن المهم جدا أن أؤكد أن هذا التخاطر لا يحدث بقدرة ذاتية للإنسان على معرفة الغيب ، ولكن بفضل من الله عز وجل ، والدليل على ذلك أن هناك مصائب خطيرة وقعت لى ولأولادى فجأة دون شعور سابق ينذرنى بقرب حلول الخطر. وإن كنت قد تمكنت فى بعض المرات من التواصل مع الآخرين عن بُعد (التخاطر) فكل هذا مرجعه إلى الله تعالى ، ولم يكن لقواى النفسية دور أصيل فيه. يبدو أن الله تعالى يريد أن يقدم لنا من حين لآخر دليلا على أن المادية خطأ ، وأن هناك عالما مختلفا تماما عن العالم المنظور ، وله قوانين غير قوانين الطبيعة المعروفة ، وهذا سبب قوى يدعو للإيمان بالله ودينه. فالحمد لله رب العالمين.

6–السحر

ليس الله وحده هو الذى يخرق العادة. الجن أيضا يمتلكون تلك القدرة ، وكذلك السحرة الذين يتصلون بالجن. ويفهم من القرآن أن **الجن يمكنهم أن يؤثروا على حياة البشر ، ويؤذوهم إيذاء حقيقيا:** {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } [البقرة: 102]. وعلى ذلك فمن الخطأ أن ننحو منحى بعض علماء الدين الذين ينكرون وجود السحر بدافع الرغبة فى مسايرة العصر. وقد تناولنا مسألة السحر فى فصول سابقة ، وسأتكلم هنا أساسا عن تجربتى الشخصية معه.

فى صغرى كنت أرتعد من السحر والجن والشياطين ، وعشت أسوأ أيام حياتى فى عمر التاسعة تقريبا بسبب فيلم عربى لعب فيه يوسف وهبى دور الشيطان ، لكن لما كبرت ، ووصلت إلى المرحلة الثانوية ، وبدأت أتعرض لمسألة الإلحاد تغير الحال تماما ، فأصبحت أرى فى ظاهرة السحر كنزا لا يقدر بثمن: إن السحر دليل على خطأ الإلحاد والمادية ، فهذه الظاهرة تدل على وجود عالم الغيب ، وأن الكون المادى ليس كل شىء ، وأن هناك منظومة من القوانين تختلف عن القوانين الفيزيائية التى نعرفها.

لم يحدث من قبل أن تعاملت مع أحد السحرة ، لكننى علمت عن قرب بأن بعض الناس يترددون على السحرة ويعملون الأعمال لإيذاء الآخرين ، وهؤلاء الأشخاص الذين يقال أنهم يلجأون للسحر يكونون على درجة كبيرة من الشر وسواد القلب. ولقد شاهدت على وسائل الإعلام فى بعض الأحيان سحرة يسمى الواحد منهم نفسه "المعالج الروحانى" ، وهؤلاء تظهر على وجوهم أمارات الشر والغرور الشديد ، وبعضهم يتباهى بقدرته على معرفة كل شىء حتى ميعاد موته ، فى مخالفة فجة للقرآن الكريم.

ويجب أن نؤكد أن من يصدق بالسحر يستحيل أن يكون ملحدا ، فالسحر والإلحاد مثل الماء والزيت لا يمتزجان ، فالملحد شخص مادى ينكر كل ما هو وراء الطبيعة ، والجن الذين يتعامل معهم السحرة يدخلون فى نطاق هذه الغيبيات. ورغم ذلك فقد فوجئت بظاهرة فى غاية الغرابة ألا وجود تحالف متين بين عبدة الشيطان والسحرة من جانب والملحدين من جانب آخر. لقد وجدت السحرة وعبدة الشيطان منتشرين على صفحات مواقع التواصل الاجتماعى الإلحادية (العربية والأجنبية) حيث يوجهون سهام نقدهم للإسلام والأديان السماوية ، ويظهرون التناغم الكامل مع الإلحاد. وكثير من المشتركين فى الصفحات الإلحادية يضعون صورا قبيحة لما يبدو أنه شياطين ، وفى بعض الأحيان يتكلمون بودّ عن عبادة إبليس.

ويمكننى أن أورد هنا موقفا حقيقيا وقع لى ، ومن خلاله أدركت بشكل مباشر أن السحر حق:

فى أحد الأيام كان لى حساب على الفيس بوك ، كل أصدقائى فيه من الأجانب الناطقين بالإنجليزية. وكان هذا الحساب مخصصا للدعوة إلى الإسلام ، ولذا فكنت كلما رأيت مجموعة

ملحدة أو مسيحية أو بوذية أو منتمية لأية عقيدة ضالة انضممت إليها. وكان من بين المجموعات التى اشتركت فيها مجموعة اسمها "العدمية" Nihilism.

وفى أحد الأيام نشرت حديثين شريفين يظهران حكمة الإسلام وخلقه وسماحته ، وقمت بنشرهما على صفحتى وفى كل المجموعات التى أشترك فيها ، وكانت هذه أول مرة أنشر فيها شيئا فى مجموعة "العدمية" المذكورة. والعدميون هم قوم ملحدون لا يؤمنون بوجود إله ، ولا يؤمنون بالأخلاق ، ويشكون شكا عنيفا فى كل الحقائق ، وينظرون إلى الحياة نظرة سوداوية كلها تشاؤم، ولا يرون لها أى معنى على الإطلاق. وتقول موسوعة الإنترنت الفلسفية عنهم: "العدمى الحقيقى هو ذلك الذى لا يؤمن بشىء ، وليس له ولاء لشىء ، وربما ليس له من هدف سوى الرغبة فى التدمير"[191]

المهم أننى بعد نشر الحديثين فوجئت بعاصفة شديدة من الهجوم والسخرية اللاذعة والسباب البذىء لى وللإسلام ولرسول الله عليه الصلاة والسلام. تكاثر المهاجمون علىَّ كالجراد ، ولم يكن يدافع عن الإسلام معى سوى شخص واحد يبدو من اسمه أنه أوروبى أو أمريكى. وفى ذروة اشتداد الحرب الكلامية وجدت أحد العدميين يرد علىَّ برد فى غاية الغرابة قائلا: (لقد وقَّعتُ عقدا مع إبليس ، وإن لم تغادر هذه المجموعة ، وتتركنا لأفكارنا العدمية ، فإننى سأرسل لك إبليس ليقوم بزيارة لك).

أدركت على الفور أن من يكلمنى هو ساحر. والحقيقة أننى فوجئت بهذا التهديد الذى أسمعه لأول مرة فى حياتى ، وأعترف أننى ارتبكت بعض الشىء ، فلم أرد على هذا الساحر ، بيد أنى لم أستطع أن أمنع نفسى من الرد على ملحد آخر كان يشوه الإسلام بالباطل.

فكرت فى هذا التهديد فوجدت فيه مغزى عميقا جدا ألا وهو أن الإلحاد من خلق الشيطان ، إذ ما الذى دعا هذا الساحر للانخراط فى هذه الجماعة العدمية الملحدة التى لا تؤمن بما وراء الطبيعة؟ إن هذا الساحر اعترف لى بوجود إبليس ووجود الجن فلماذا ينخرط فى جماعة لا تؤمن بما وراء المادة والطبيعة؟ لماذا لا يحاول أن يثبت للعدميين وجود الجن والشياطين كى يقتنعوا

---

[191]) **Nihilism**. By Alan Pratt. Internet Encyclopedia of Philosophy.

مثله بالحقائق التى يعرفها؟ لم أجد إلا تفسيرا وحيدا وهو أن هذا الساحر الذى يعمل لحاسب إبليس يحاول أن ينشر أفكار العدمية التى يعلم أنها خاطئة لمجرد أنها شكل من أشكال الكفر بالله ، وهذا يؤكد وجود تحالف خطير بين الشيطان والإلحاد. ولهذا مدلول آخر عميق جدا ، فإن لنا أن نتساءل: لماذا لا يحاول الشيطان – من خلال الساحر وكيله– أن يدعو العدميين لأن يعبدوه هو أى يعبدوا إبليس نفسه؟ لماذا يرضى الشيطان أن يبقى فى الظل؟ لماذا يدعم وجود جماعة من الناس تنكر وجود كل المخلوقات غير المحسوسة بما فيها الشيطان نفسه؟ لماذا لا تنتشر عبادة الشيطان فى العالم مثل انتشار الأديان السماوية رغم أن أغلب سكان الأرض أشرار؟ الإجابة الوحيدة هى أن الشيطان رغم قدراته الخارقة إلا أنه موجود تافه ، ذو هدف دنىء وضيع ، هدفه أن يهدم الإيمان بالله ، الشيطان يهتم بأن يكفر الناس بالله أكثر من اهتمامه بأن يؤمنوا بالشيطان نفسه ، وهذا يثبت أن الشيطان مخلوق وضيع حقير لا يقارن بالله خالق الكون ورب العرش العظيم. إنه يشبه أعداء النجاح الذين يقضون ليلهم ونهارهم من أجل تحطيم العباقرة والنابغين حتى لو لم ينعكس هذا عليهم بفائدة. لقد وضعت يدى على دليل مباشر يثبت أن خوارق عالم الجن أحقر من أن تهز عرش الله. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ولم تنته القص بعد. لقد آويت بعد هذه المعركة الكلامية إلى الفراش ، فرأيت فى المنام أننى مع أولادى فى الأرض التى توجد خلف بيتنا حيث كانت توجد خلايا النحل منذ سنوات بعيدة، ووجدت أمامى ثمارا كثيرة بعضها هو البطيخ الذى أحبه ، وبعضها شجر الليف المعروف الذى كان الناس يزرعونه ، ويأخذون ثمرته ، ويستعملونها فى الاستحمام. وكان المتوقع أن أتناول البطيخ الذى أحبه ، ولكننى تناولت فى المنام ثمرة الليف.

استيقظت بعد هذا الحلم لأصلى الفجر ، فدخلت الحمام لأفاجأ بأنه ملىء بجيش جرار من الحشرات الطائرة كبيرة الحجم على الأرض والحوض والبانيو ، وكانت الحشرات من نوع غريب أراه لأول مرة فى حياتى، وكان أغلبها ميتا والباقى يصارع الموت. والشىء الغريب جدا أن الحشرات لم تدخل إلا إلى الحمام الصغير الخاص بى ، ولم تدخل إلى الحمام الأكبر الذى يستعمله بقية أفراد الأسرة ، ولم تدخل كذلك إلى أى مكان آخر فى البيت. شعرت لحظتها أن هذه الحشرات جاءت خصيصا من أجلى أنا بالذات. كان هجوم الحشرات غير معتاد بهذه

الكثافة والنوعية الغريبة وفى هذا الوقت من الليل. ثم من أين دخلت كل هذه الحشرات رغم أن شباك الحمام مغلق بشكل محكم للغاية؟ ربما تكون الحشرات قد دخلت من الفتحة الصغيرة جدا الموجودة فى شباك غرفة المعيشة ، لكن لماذا لم أر أيا منها فى غرفة المعيشة؟ ولماذا تركت كل الأماكن فى البيت وغزت الحمام الذى أدخله رغم بعده الكبير عن غرفة المعيشة؟ لم تكن الحشرات نفسها مخيفة ، ولكن كان سبب الفزع أننى أيقنت على الفور أن الساحر الذى هددنى منذ قليل قد نفذ تهديده ، وأنه بالفعل على علاقة بالجن الذين سلطوا علىَّ هذه الحشرات كى تؤذينى وترعبنى ، وإذا كان الأمر قد اقتصر هذه المرة على الحشرات ، فمن يدرى ما الذى يمكن أن يحدث المرة القادمة؟ استعنت بالله ، وذهبت لأصلى الفجر ، وهناك وجدت الإمام يتلو فى الركعة الأولى قصة موسى عليه السلام وسحرة فرعون. شعرت بأن الله تعالى يقف بجانبى فألهم الإمام لكى يذكرنى بقصة تثبت أن السحر موجود ، وأنه يؤثر على حياة البشر ، وأن البشر يخافون من السحر ، فها هو نبى الله موسى يخاف للحظة من انتصار السحرة، ولكن الله تعالى فى النهاية ينصر عباده المؤمنين. عدت إلى البيت ونمت ، وقبل أن أستيقظ رأيت فى المنام رؤيا مخيفة: رأيت فيه ثعبانا فى بيتنا فأخذت حذاء لكى أقتله ولكنه فر من الغرفة وكلما ذهبت وراءه دخل إلى غرفة أخرى ، وأثناء المطاردة استيقظت فزعا. وفى الصباح سجلت ما حدث لى فى مذكراتى.

ولما عاودت بعد ست سنوات قراءة ما سجلته انتبهت إلى أن حشرات النحل التى رأيتها فى المنام بجوار بيتنا ترمز إلى أننى سأقابل حشرات فى بيتى. والنحل بالذات كنت أخاف منه بشدة لأن لسعه مؤلم ويسبب لى حساسية شديدة وتورما يستمر لعدة أيام ، وهذا يرمز إلى أننى سأتعرض لحشرات تخيفنى. كما أن النحل بجوار بيتنا لم يكن يوجد بشكل فردى على شكل نحلة هنا أو نحلة هناك ، بل كان يوجد فى المنحل بأعداد كبيرة جدا تملأ الجو كالعادة ، وهذا يشبه جيش الحشرات الجرار الذى هجم على بيتى. والمدهش أننى فى المنام تناولت الليف وتركت البطيخ ، وهذا يرمز إلى أن الحشرات ستدخل الحمام لأن الليف يوضع فى الحمام لتنظيف الجسم. وتركى للبطيخ الذى كان موجودا فى الحلم بجوار الليف يرمز إلى أن الحشرات لن تدخل المطبخ الملاصق للحمام ، فالبطيخ يوضع فى المطبخ. وانتبهت الآن فقط إلى التشابه الشديد بين كلمة

(بطيخ) وكلمة (مطبخ) ، وهذا يؤكد أن تركى للبطيخ يرمز إلى أن الحشرات لن تدخل المطبخ. يا له من تحقق عجيب للحلم!

كان مجمل ما حدث فى غاية الإثارة ، فهو يمثل دليلا مباشرا يؤكد لى أن عالم الغيب حقيقة ، وأن الإلحاد باطل تماما ، كما تبين لى أن الله تعالى حفظنى من كيد الشيطان لأننى كنت أدافع عن الإسلام ، ولهذا اقتصر إيذاء الشيطان لى على تلك الحشرات الكسيحة الميتة ثم حلم الثعبان المخيف الذى نسيته سريعا ، ولم يتحقق على أرض الواقع. فالحمد لله على نعمته وتأييده.

ويمكننا أن نقول **أن الله عز وجل قد قضى بأن يبقى الجن أذلاء مهما أوتوا من قدرات خارقة.** ولهذا تجد أن السحرة لا يمكنهم القيام بعمليات سحر ضخمة واسعة النطاق **من حيث الكم أو الكيف.** وإذا كنا نسمع كثيرا عن السحرة ، **فإننا لم نسمع أبدا عن ساحر جمع عظام ملك ميت من القبر ورد إليه الروح نظير مبلغ كبير من المال** ، كما لم نسمع عن ساحر شفا رئيس دولة من السرطان دون جراحة ، أو عالج ثقبا فى القلب لابن أحد المشاهير بدون إجراء جراحة (أو قسطرة) ، أو منح الذكاء لطفل مصاب بمتلازمة داون. هذه مجالات ممنوع على السحرة الاقتراب منها مطلقا ، **وهذا عجز كيفى واضح للسحر**. كما لم نسمع عن ساحر شق بحرا أو رفع جبلا أو هزم جيشا أو أغرق حاملة طائرات أو دمر الأسلحة النووية لدولة عظمى أو تسبب فى وقوع زلزال ، بل بالعكس تجد السحرة ملاحقين من رجال الشرطة ومعرضين للعقاب القانونى ، ولا يمكن أن يزيد نشاط الساحر على عمل بعض الألاعيب أمام الجمهور على المسرح أو غير ذلك من الأعمال الخفية مثل التفريق بين رجل وزجه أو جعل الرجال ينصرفون عن الزواج بامرأة جميلة. **وهذا عجز كمى واضح للسحر**. أما السحر الضخم واسع النطاق فيستحيل أن يحدث لأن الله تعالى قضى على الجن بالضآلة والصغار ، ولأن الله أراد للحياة العصرية أن تسودها السببية والعقلانية.

خلاصة القول: السحر موجود ، والمؤمن الحق لا يخاف منه بل يفرح لوجوده لأنه دليل قوى على وجود عالم الغيب بما يثبت تهافت المادية والإلحاد.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الباب العاشر: المعجزات المادية تعاود الظهور

سبق أن قلنا أن الخطة الإلهية تغيرت مع مجيء محمد عليه الصلاة والسلام ، فقد تم الامتناع عن إرسال الأنبياء ، والتوقف عن عمل المعجزات المادية لإثبات النبوة ، وسدد الله تعالى ضربة قوية للشياطين والسحرة ، وترك البشرية لتستخدم العقل والمنطق والعلم كى تصل إلى الإيمان. ولكن يبدو أن هذه السياسية الإلهية لن تظل ثابتة ؛ ففى آية مهمة يقول لنا القرآن ما يفهم منه أنه فى نهاية الزمان ستقع حادثة كبرى خارقة للعادة ، حيث تخرج للناس دابة تكلمهم قائلة أن الناس كانوا لا يوقنون بآيات الله. وخروج الدابة لن يكون الأمر العجيب الوحيد الذى سيحدث فى نهاية العالم ، بل ستشهد الأرض أمورا أخرى غريبة ، هى ما يعرف بعلامات الساعة الكبرى. وقد أشار القرآن إلى ذلك فى آية أخرى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ} [الأنعام: 158]. والقرآن هنا يسمى علامات الساعة الكبرى "آيات" ليس لكونها علامات على صدق الدين ، ولكن لأنها علامات على أن الساعة قد أوشكت.

وسنكتفى فى هذا المقام بالكلام عن خروج الدابة.

قصة الدابة

قال تعالى: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} [النمل: 82]. وهذه الآية –كما نرى– تتسم بالإيجاز. وبالمثل لا تقدم لنا السنة النبوية الصحيحة أى تفاصيل عن خروج الدابة ، وكل ما نجده كلاما عاما:

روى مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا، طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا، فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا**».

وروى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ"**.

روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: **" بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوِ الدُّخَانَ، أَوِ الدَّجَّالَ، أَوِ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ"**[192].

وأخرج مسلم عن حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ، قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ، فَقَالَ: «مَا تَذَاكَرُونَ؟» قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: " إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ – فَذَكَرَ – الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَأَجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ".

ورغم الفقر الشديد فى المعلومات المتعلقة بخروج الدابة إلا أن بوسع المرء أن يقدم بعضا من التفاصيل. فلننظر فى المسألة ، وبالله التوفيق:

نسأل أولا: ما معنى قوله: (وإذا وقع القول عليهم)؟

كلمة (القول) تعنى الأمر الإلهى ، وإذا نظرنا إلى كلمة (القول) لوجدنا أن التعريف بالألف واللام يفيد أن هذا القول معروف ومشهور ، وهذا يدل على أن المقصود يوم القيامة الذى يعرف به القاصى والدانى. إذن قوله تعالى: (وإذا وقع القول عليهم) معناه: (إذا صدَرَ الأمر الإلهى بالبدء فى أحداث الساعة). وأحداث الساعة لا تشمل فقط لحظة خراب العالم ، وإنما أيضا ما يسبق هذا الخراب من تمهيد ، أى ما نسميه بعلامات الساعة الكبرى ، ومنها ظهور الدابة. وليس فى هذا تعسف ، فعلى سبيل المثال لم تبدأ حرب الخليج عام 1990م فى لحظة ضرب الطائرات

[192]) (بادروا) أي: سابقوا بالأعمال الصالحة، واغتنموا التمكن منها قبل أن يحال بينكم وبينها بداهية من هذه الدواهي المذكورة. و(قوله: وخاصة أحدكم) يعني به: الموانع التي تخصه مما يمنعه العمل، كالمرض والكبر والفقر المنسي، والغنى المطغي، والعيال والأولاد، والهموم، والأنكاد، والفتن، والمحن إلى غير ذلك مما لا يتمكن الإنسان مع شيء منه من عمل صالح، ولا يسلم له. وقوله: (وأمر العامة) يعني: الاشتغال بهم فيما لا يتوجه على الإنسان فرضه. انظر: **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم** (7/ 308) تأليف: أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي.

الأمريكية وحلفائها للعراق ، وإنما بدأت منذ أن بدأ حشد الرأى العام العالمى ضد صدام حسين، والتضخيم من قوته ، وإرسال حاملات الطائرات إلى الخليج ، وحشد قوات على الحدود الكويتية ، وبعد كل هذا الاستعداد جاءت لحظة القصف. ومن يؤرخ لتلك الحرب فلن يبدأ كتابه بالكلام عن قصف الطيران للقوات العراقية ، بل لا بد أن يسجل أولا الحملة الدبلوماسية والإعلامية الرهيبة التى سبقته ، والتى كانت جزءا لا يتجزأ من الحرب. إذن صدور الأمر الإلهى بقيام الساعة ليس معناه أن تقوم الساعة على الفور ، ولكنه يعنى ظهور مقدماتها وأماراتها ، ومن بينها الدابة التى تُكلم الناس ، ويعقب ذلك بقليل نهاية العالم.

وما معنى كلمة (دابة)؟

ونأتى إلى كلمة (الدابة) ، فنقول أن الدابة هى كل ما يمشى على الأرض ، والقرآن يطلق كلمة (دابة) على مختلف أنواع الحيوانات المتحركة سواء كانت حيوانات زاحفة تمشى على بطنها (مثل الثعبان) ، أو تمشى على رجلين (مثل الطيور) ، أو تمشى على أربعة أرجل (مثل البقرة): {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [النور : 45]

وكيف ستخرج الدابة من الأرض؟

قد يشعر الناس فى أحد الشوارع أو أحد الحدائق العامة بصوت طرقات واهتزازات قادمة من تحت الأرض ، فيتجمعون حول الصوت ، ويتساءلون مندهشين عن سبب هذا الصوت ، وقد يحسبونه زلزالا ، لكنهم يلاحظون أن الصوت يتركز فى منطقة محددة بعينها. وبعد فترة يرتفع الصوت بالتدريج ، وتزداد الاهتزازات شدة ، فيتجمع عدد أكبر من الناس ، ثم تأتى وسائل الإعلام لتنقل ما يحدث ، وفجأة ترصد الكاميرات خروج حيوان حى متحرك من تحت الأرض ، فيسرى المشهد كالنار فى الهشيم إلى جميع أرجاء العالم. وربما يكون العلم قد تقدم فى هذا العصر بحيث يكون كل مواطن قادرا على معرفة كل ما يجرى فى أى بقعة من العالم من خلال الأقمار الصناعية الشديدة التطور دون حاجة لكاميرات القنوات فضائية ، ولا للصحف ، ولا للمجلات ، بحيث يكون كل ما على المرء عمله أن يدير مؤشر جهاز صغير فى يده ، ويوجهه

ناحية الموقع الذى تدل الإحصائيات على أنه يحظى فى تلك اللحظة باهتمام عدد كبير من الناس ، فيصل المشهد إلى كل إنسان فى العالم لحظة وقوعه.

وما وجه الإعجاز فى خروج الدابة من تحت الأرض؟

أولا: أول أوجه الإعجاز وأهمها فيما يتعلق بخروج الدابة هو أن الحياة ستعود إلى جسد ميت ، وهذا أمر خارق للعادة بكل المقاييس. حقا ربما يتمكن العلماء من أخذ خلايا من أجساد الكائنات الحية ، ثم يخزنونها تحت درجات حرارة شديدة الانخفاض ، ليعيدوا استخدامها لاستنساخ الحيوان بعد وفاته بسنوات ، لكن هذا الكائن المستنسخ لن يكون هو نفس الكائن الذى مات ، بل مجرد نسخة شبيهة ، وسيبقى تحويل التراب الميت إلى كائن حى خيالا بالنسبة للعلماء.

ثانيا: علينا أن نلاحظ أن القرآن يقول: (أخرجنا لهم دابة) ، ولم يقل: (أخرجوا دابة) ، ولا: (استخرجوا دابة). وأحد المدلولات المحتملة لذلك أن الدابة لن تخرج بجهود الناس بل بقدرة الله ، أى أنها لن تخرج مثلا أثناء قيام علماء الآثار أو علماء الحفريات بالتنقيب فى باطن الأرض ، بل ستخرج بقوتها الذاتية المستمدة من الله ، وهذه معجزة لأن من الصعب جدا على أى كائن حى أن يزيح بجهده الخاص الكميات الضخمة من الطين والحجارة من فوقه كى يخرج سليما دون معونة من آلات الحفر وجهود العمال. وهناك مدلول آخر لإضافة فعل الإخراج إلى الله (أخرجنا) ألا وهو أن العلماء سيبقون حتى يوم القيامة غير قادرين على رد الحياة إلى الموتى مهما تقدمت تقنياتهم الحيوية والجينية ، ولهذا لم ينسب الله خروج الدابة لهم.

وثالث أوجه الإعجاز أن الدابة بعد خروجها من الأرض ستتكلم ، وهذا يعنى أنها ستكون بصحة جيدة ، وهذه معجزة فى حد ذاتها ، إذ كيف تتحمل الدابة البقاء تحت الأرض لفترات طويلة بعد أن تعود إليها الحياة؟ إن أى كائن لا يمكن أن يصمد لأكثر من دقائق معدوة ، ثم يموت بعدها ، أو على الأقل يتعرض مخه لإصابات بالغة نتيجة نقص الأكسجين ، وسيدخل حتما فى غيبوبة تفقده القدرة على الوقوف والحركة والكلام ، وحتى إن أفاق بعد عدة أيام أو أسابيع فغالبا ستكون مراكز المخ المختلفة قد تلقت إصابات دائمة تمنعها من الكلام للأبد.

ورابع أوجه الإعجاز أن الدابة ستكلم الناس. ولا شك أن الحيوانات تتفاهم فيما بينها بلغات لا نفهمها ، ولكن المعجزة أن تتكلم الدابة بلغة البشر ، والمعجزة أيضا أن تفهم الدابة كلام البشر ، إنها معجزة مزدوجة. ولاحظ هنا أن القرآن قال: (دابة من الأرض تكلمهم) ولو قال: (دابة من الأرض تتكلم أن الناس..) أو (دابة من الأرض تقول أن الناس..) لجاز أن يفهم من هذا أن الدابة تشبه الببغاء الذى يردد الكلام دون أن يقصد توجيهه للبشر ، ودون أن تكون بغيته توصيل معنى معين إلى من يسمعه ، لكن وجود المفعول به (هم) فى كلمة (تكلمهم) يعنى أن كلام الدابة موجه إلى البشر ، وليس مجرد حركات صوتية تصدرها الدابة بشكل آلى حتى لو كانت وحدها. والحقيقة أن الناس تشك فى القوى العقلية لمن يتكلم وحده فى غيبة الناس ، وتعتبره أقرب للجنون ؛ إذن نحن أمام دابة عاقلة ، وهذه معجزة فى حد ذاتها.

وخامس أوجه الإعجاز أن الدابة ستروى للعلماء وللناس أحداثا تاريخية ، وهذا ما نفهمه من عبارة (تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون). ولو قال القرآن: (تكلمهم أن الناس بآياتنا لا يوقنون) لفهم من ذلك أن الدابة تتكلم عن كفر البشرية فى لحظة خروجها ، أى أنها تنتقد كفر سكان الأرض قبيل نهاية العالم ، ولكن الدابة ستتكلم عن كفر فئة أخرى من البشر هم الناس الذين عاشت الدابة فى عصرهم منذ آلاف السنين قبل أن تموت ، ويؤكد هذا استخدام القرآن لكلمة (كانوا) التى تشير إلى الماضى. ونحن نرى أن الدابة ستكون عند خروجها من الأرض منفصلة عن الحاضر الذى تحيا فيه ، وستكون أشبه بأهل الكهف الذين عادوا إلى الحياة ليجدوا أنفسهم فى عصر يجهلون عنه كل شىء. والحقيقة أن جهل الدابة بما يجرى حولها ، وكلامها فى الأساس عن الماضى سيجعلها أكثر مصداقية لأن الدابة لو كانت قد تكلمت بفعل سحر ساحر أو بفعل كائنات فضائية متقدمة لجاء كلامها متضمنا لأمور حاضرة مما يشغل الناس ومما يعايشونه.

ويبدو لنا أن الدابة ستتكلم عن كفر القبيلة أو الشعب الذى كانت تعيش فيه فى الماضى. ستخبرهم الدابة كيف كفر الناس ، وكيف كذبوا بآيات الله ومعجزاته التى جاء بها الأنبياء ، فغضب الله عليهم ، وأنزل عليهم عذابا أبادهم عن آخرهم ، ودمر مدنهم ، فلم تقم لهم قائمة بعدها. وربما يكتشف العلماء بجوار الدابة أو فى المناطق المجاورة لها آثارا أو ألواحا منقوش

عليها أحداثا تاريخية مشابهة لما روته الدابة ، وربما يكون لدى العلماء بالفعل اكتشافات أثرية سابقة تتطابق مع ما تقصه الدابة.

وإذا تأملنا **معجزة الدابة لوجدنا أنها تفوق معجزات عيسى عليه السلام:** لقد تكلم عيسى فى المهد ، وهذه معجزة ، ولكن إذا كان من الصعب على طفل مولود أن يتكلم ، فلا شك أن من الأصعب على الحيوان أن يتكلم لأن مخ الطفل أقرب لمخ الإنسان الكبير القادر على الكلام مقارنة بمخ الحيوان. وفضلا عن ذلك فإنه إذا كان عيسى قد أحيا الموتى فإن من أحياهم كانوا أناسا توفوا منذ وقت قليل ، أما الدابة التى ستخرج قبل قيام الساعة فستعود إلى الحياة بعد آلاف السنين من الموت.

ولكن ما نوع هذه الدابة؟

إذا ذهبنا إلى معاجم اللغة لوجدنا أن **فعل (دب) يغلب استخدامه للمشى الهين البطىء غير السريع**[193]. وفى المعجم الوسيط أن **كلمة (الدابة) تستخدم فى الغالب للإشارة إلى ما يركب من الحيوانات.** إذن **الدابة التى ستخرج للناس قبل قيام الساعة ستكون – على الأرجح– حيوانا يُركب ، ويمشى ببطء مثل الحمار أو الجمل.** وهذا النوع من الحيوانات مناسب تماما للغرض ، فالحيوان الأليف لا يخاف من الإنسان ، ولا يخاف منه الإنسان ، وهذا الود المتبادل سيعطى الناس فرصة أكبر للإنصات للدابة ، وسيعطى الدابة الطمأنة الكافية لتتكلم فى هدوء. ثم إن الحيوانات من هذا النوع تكون شهادتها أكثر مصداقية لأنها تكون قريبة جدا من الناس ، وخاصة من الأغنياء المرفهين الذين كانوا فى الماضى يركبون الدواب ولا يمشون على أقدامهم كثيرا ، خلافا للعامة والفقراء. ونحن نعلم أن الأغنياء كانوا دائما فى مقدمة من حاربوا الأنبياء وكفروا بالله لحرصهم الشديد على الزعامة وحقدهم على اختيار الله لرجال من عامة الناس ليمنحهم شرف النبوة ، كما أن الأغنياء لا يطيقون القيود التى يفرضها الدين عليهم مثل تحريم الزنا والخمر والتبرج ، ويجدون غضاضة فى الإنصات إلى كلام من قبيل التواضع والمساواة بين الأغنياء والفقراء والسادة والعبيد . وقد عبر القرآن عن ذلك قائلا: { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا

193) فى لسان العرب: دَبَّ النَّمْلُ وَغَيْرُهُ مِنَ الحَيَوانِ عَلَى الأَرضِ: مَشَى عَلَى هِينَتِه. ودَبَّ الشيخُ أَي **مَشَى مَشْياً رُوَيْداً**. ودَبَّ القومُ إِلَى العَدُوِّ دَبيباً إِذَا مَشَوْا عَلَى هِينَتِهِم، **لَمْ يُسْرِعُوا**. وَفِي الْحَدِيثِ: "عندَه غُلَيِّمٌ يُدَبِّبُ" ، أَي يَدْرُجُ فِي **المَشْيِ رُوَيْداً**.

مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } [الإسراء: 16]. وقال: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [سبأ: 34، 35]. وقال: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ} [الزخرف: 23]. وقال: {حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ} [المؤمنون: 64]. إذن الدابة التى ستخرج من الأرض ستبدى اهتماما أكبر بأولئك الأغنياء المترفين الذين كانت تعيش معهم فى بيوتهم ، فرأتهم يكذبون الرسول ، ويحيكون المؤامرات ضد المؤمنين ، وفى النهاية حل غضب الله ، فحصد أرواحهم ومحا آثارهم. وربما تكون هذه الدابة قد تعرضت لسوء المعاملة من هؤلاء الكفار الذى كانوا يتصفون بالغلظة والقسوة ، ومن يقس على الإنسان فلن يتورع عن القسوة على الحيوان ، وهذا سبب آخر يجعل الدابة تتكلم بانفعال وعاطفة وصدق على الجزاء العادل الذى استحقه هؤلاء الكفار فى الماضى ، وهذا سيجعل شهادتها أكبر مصداقية وتأثيرا وذيوعا فى العالم كله.

وما اللغة التى ستتكلم بها الدابة؟ العربية أم الإنجليزية أم الصينية؟

لا نعرف. ربما تتكلم الدابة بلغة القوم الذين كانت تعيش بينهم فى القدم ، ولكن كلامها سيكون مفهوما للإنسان الحديث لأن بعض اللغات القديمة لا تزال حية رغم مرور آلاف السنين مثل اللغة العربية والعبرية واليونانية. كما أن بعض اللغات القديمة التى انقرضت يعرفها العلماء المتخصصون حاليا مثل اللغة السريانية والآرامية والهيروغليفية وغيرها.

لكن هناك احتمال لأن تكون الدابة قادرة على التكلم بكل اللغات العالمية الحديثة ، فتكلم الإنجليزى بالإنجليزية ، وتكلم العربى بالعربية ، وتكلم الصينى بالصينية. وإن كانت الدابة تجيد لغة واحد فقط من اللغات الحديثة فهناك احتمال كبير لأن تكون التكنولوجيا فى المستقبل قد تطورت بما فيه الكفاية بحيث ينجح العلماء فى اختراع آلات دقيقة للترجمة الفورية تجعل الرجل العادى يفهم للتو أى كلام من أى لغة فى العالم دون حاجة لمترجم. وربما يؤدى التطور المتسارع لوسائل الاتصال فى المستقبل إلى اختفاء كل اللغات المحلية ، وانتشار لغة واحدة بين كل سكان الأرض ، وحينئذ سيكون على الدابة أن تتكلم بلغة واحدة فقط.

المغزى الفلسفى لخروج الدابة

سيتذكر الناس حين يرون خروج الدابة كلام القرآن عن خروج الموتى من تحت الأرض فى يوم القيامة: {خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ} [القمر : 7]. إن خروج الدابة سيكون دليلا على أن البعث حق ، وكما خرجت الدابة بعد موت دام لآلاف السنين فلن يكون عسيرا على الله تعالى أن يخرج الموتى من تحت الأرض يوم القيامة.

وستقدم هذه الدابة دليلا على أن الدين ليس اختراعا بشريا ، وستحطم مقولة نيتشه أن "الإنسان خلق الله" ، بمعنى أن الإنسان هو الذى اخترع فكرة الله لأنه كان فى حاجة إلى قوة عظمى تسانده وتحميه من ظواهر الطبيعة وأخطارها كالبرق والرعد والسيول والعواصف والأعاصير. ستأتى الدابة لتطيح بتلك الأفكار البالية التى ترى أن الدين ليس أكثر من ظاهرة تطورية أو تكيفا بيولوجيا ظهر لأنه يعود بالنفع على حياة الإنسان وصحته وسلامة المجتمع وتماسكه. ستبدد الدابة كل هذه الأفكار حين يرى الجميع أنه حتى الحيوانات تؤمن بالله ، وتسبح بحمده ، رغم أنها لا تمتلك القدر الكافى من الذكاء الذى يؤهلها لاختراع منظومة فكرية معقدة مثل الدين.

موقف الناس من الدابة

كما هو متوقع سيستبشر المؤمنون بخروج الدابة[194] ، وسيرون فيها آية تثبتهم وتبشرهم بقرب قيام الساعة. أما أغلب سكان العالم من الكفار والفجار فسيبهتون ، لكنهم لن يعدموا مخارج لفظية تحفظ ماء وجوههم ، فمثلا قد يقول بعضهم أن الدابة لم تكن ميتة ثم ردت إليها الروح كما تزعم، وما حدث لم يكن أكثر من مؤامرة دبرتها كائنات فضائية تنتمى لحضارة فائقة التطور تمكنت من دفن خلايا جنين حيوانى عدل وراثيا فى المختبرات بحيث يحتوى على جينات خاصة تكسبه القدرة على النمو والتطور والوصول لسن البلوغ دون حاجة لرحم الأم ولكن فقط بمجرد جلب الماء والمواد الغذائية من التربة المحيطة بآليات مبتكرة تشبه الآليات التى يتغذى بها النبات. كما تمكنت هذه الكائنات الفضائية من تعديل بعض الجينات المسئولة عن تكوين بعض المراكز العصبية فى مخ الدابة بحيث تكسبها القدرة على التحدث والتفكير والتأمل مثل البشر ، بل

---

[194]) سيظل فى الدنيا مؤمنون إلى قيام الساعة ، لكن أصحاب الدرجات العليا من المؤمنين سيكونون قلة مصداقا لقوله عز وجل: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ } [الواقعة: 10 - 14]

تكسبها الشعور الدينى والخبرة الإيمانية التى لا تعدو كونها فعلا خالصا لبعض الجينات. وسيتكلم العلماء فى وسائل الإعلام بكل ثقة مؤكدين أنه لا توجد معجزة على الإطلاق ، وأن الأرض تتعرض لمؤامرة خطيرة – وربما لعبة مسلية– من علماء بيولوجيا فى غاية الاحتراف ، ينتمون لحضارة أكثر تقدما. وسيعلن العلماء أيضا أنهم عازمون على سحب عينات من دماء هذه الدابة بهدف دراسة المحتوى الجينى لها بشكل كامل ، والتعرف على تلك الجينات التى أكسبتها هذه القدرة الخارقة ، بحيث يمكن تكرار الظاهرة فيما بعد لتعديل عقول الحيوانات الأليفة كالقطط والكلاب حتى تتمكن من الكلام والتواصل اجتماعيا مع مربيها بشكل أفضل ، وربما أمكن زراعة الأجنة البشرية فى التربة – أسوة بما حدث للدابة– والاستغناء تماما عن أرحام الأمهات ، فتصبح الحياة أكثر راحة للنساء ، ويصرن قادرات على تحقيق إنجازات أكبر فى أعمالهن ، ولكن سيتطلب الأمر بعض الوقت ، ولا شيء مستحيل على العلم.

وسيتدخل صبية الإلحاد لصبغ هذا الكلام بصبغة منطقية فلسفية زائفة ، قائلين أن (كوننا نجهل تفسير ظاهرة ما لا يعنى بالضرورة أن هذه الظاهرة بلا سبب مادى أو أن سببها هو الله ، فهذه مغالطة منطقية مشهورة اسمها "البرهان انطلاقا من الجهل" Argument from ignorance. وعلى ذلك فجهلنا فى هذه اللحظة للتفسير العلمى لخروج حيوان حى من تحت الأرض لا يعنى بالضرورة أننا سنبقى عاجزين عن العثور عن التفسير الصحيح فى المستقبل باستخدام مزيد من التقنيات التى لا تكف عن التطور كل يوم ، وتاريخ العلم حافل بما لا يحصى من الظواهر التى كانت فى البداية شديدة الغموض ، وكانت تنسب إلى الجن ، ولكن العلماء نجحوا فيما بعد فى فك ألغازها).

وسيكون بعض العلماء أكثر جرأة ، فيقولون فى تحد بالغ: (نعم ، ربما يكون الله هو الذى أحيا الدابة الميتة ، ولكن هذه ليست معجزة ، فنحن أيضا نستطيع أن نحيى الموتى ، فأنتم تعرفون أن من الممكن للعلماء استخراج بعض الخلايا من جسد الإنسان ثم حفظها فى أجهزة خاصة تحت درجات حراة شديدة الانخفاض ، وبعد أن يموت الإنسان بمئات السنين يمكن للعلماء أن يأخذوا هذه الخلايا ويستعملوها لاستنساخ إنسان جديد يشبه الميت تماما ، فيكون هذا إحياء للميت مارسه العلماء قبل أن يمارسه الله بمئات السنين. ولا مكان لكل هذه الضجة فى عصر العلم

الذى حقق المعجزات ، وليرينا ذلك الإله ما الذى يمكن أن يفعله أكثر من إخراج الدابة. ليرينا كيف سيوقف قانون الجاذبية ويفسد عمل نظرية النسبية ونظرية الكم كى يدمر ذلك الكون الشاسع يوم القيامة كما يهددنا أنبياؤه).

هنا ستكون لحظة الغرور الكبرى فى تاريخ البشرية ، هنا سيصل الإنسان إلى قمة التكبر والاستعلاء ، وهنا أيضا يبلغ المكر الإلهى منتهاه ، ذلك المكر الذى ترك البشرية تصعد وتصعد حتى إذا سقطت كان السقوط مدويا. إنها الساعة ، وما أدراك ما الساعة؟

لماذا تعود المعجزات المادية للظهور؟

كثيرا ما نرى لفعل واحد أغراضا مختلفة ، بل متعارضة ؛ فمثلا يمكنك أن تقول لإنسان: (شكرا) على سبيل الامتنان لجميله ، كما يمكن أن تقول نفس كلمة (شكرا) على سبيل اللوم والتوبيخ. ويمكن لمدير شركة أن يقيل أحد الموظفين لأنه يخالف القانون ، بينما يقيل مدير آخر موظفا لأنه يصر على الالتزام بالقانون. وبنفس الطريقة نقول أن **معاودة ظهور المعجزات فى نهاية الزمان سيكون له غرض آخر غير هداية الناس أو تخويفهم من عذاب الله** (والعلاقة وثيقة بين التخويف والهداية)[195]. إن معاودة ظهور المعجزات هذه المرة **لن يكون غرضه هداية الناس ، ولكنه سيكون بمثابة إعلان حرب ، وإيذان باقتراب النهاية**. لقد صدر الأمر الإلهى بتدمير الكون ، وانتهى كل شىء، وخروج الدابة مؤشر على أن النهاية باتت وشيكة ، وأن الله قرر أن يفصح عن خططه ، ويلعب على المكشوف كما نقول.

إن إخراج الدابة قبل قيام الساعة لن يكون هدفه هداية البشرية ، بل إثبات أن البشرية لم تعد قابلة للهداية بسبب نمط التفكير المادى الذى تمكن منها. وقد رأينا كيف أن العلماء حين يرون خروج الدابة فسيردون على ذلك زاعمين أن العلم قادر فى المستقبل القريب على فهم هذه المعجزة ومحاكاتها ، وسيدعى بعضهم زورا أن خروج الدابة مجرد تقليد لمعجزات العلم. وسيكون خروج الدابة دليلا صارخا على أنه لم يعد هناك أمل فى هداية هذا الجنس البشرى اللعين الذى دمر

195) التخويف من العذاب يؤدى إلى الهداية ، وبهذا يمكننا أن نفهم أسلوب القصر فى قوله تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } [الإسراء: 59] ، فأسلوب القصر المكون من (وما.....إلا) يعنى أن الله يرسل الآيات فقط بغرض تخويف الناس. وكما قلنا فالتخويف يؤدى إلى الهداية أى إلى اعتناق الإسلام ، ولذا فاستخدام أسلوب القصر صحيح.

عقله داء الغرور. إن هذا يشبه رجلا مخلصا حذر صديقه من سلوك ابنته المنحرف ، وظل يقدم له دلائل على سوء خلقها ، فلفت انتباهه إلى ملابسها الضيقة ، وصوتها المرتفع ، وضحكاتها الماجنة ، وصورها الشخصية التى يتداولها الشباب ، وكل هذا والأب يثق فى شرف ابنته ، ويرفض تصديق كلام صديقه المخلص عنها ، بل إنه لم يصدق حين عرض له صاحبه فيديو على اليوتيوب لابنته وهى تجلس مع رجل غريب فى وضع غير لائق ، فما كان من الرجل المخلص إلا أن اصطحب صديقه فى يوم من الأيام ، وولج إلى أحد البيوت ليفاجئه بأن ابنته التى كان يخالها عفيفة تعمل فى أحد بيوت الدعارة ، فيصرخ الأب فى وجه صديقه ، ويسب ، ويلعن ، ويقول له: "ابنتى شريفة. أنت كذاب. لن أصدقك مهما فعلت. أنت تحقد علىَّ لأن ابنتى جميلة وابنتك دميمة". وبنفس الطريقة **سيقدم الله تعالى من خلال إخراج الدابة البرهان الأخير على أنه لا أمل فى هداية الإنسان ، وسيعلن الله عز وجل براءته مما يوشك أن يحل بالدنيا من خراب شامل ، فالإنسان هو الذى صنع بنفسه ما أوجب فناءه ، وقتل بيديه كل آية جاءت لهدايته.** إذن إخراج الله للدابة لن يكون هدفه هداية البشرية ، بل إثبات أنها قد أصيبت بداء عضال حرمها إلى الأبد من نور الهداية. ولنعلم أن الله تعالى لا يحاسبه أحد ، وليس بحاجة لأن يبرهن لأحد على سلامة تصرفاته ، ولكنه عز وجل إله يحب العدل.

وسيكون أحد أهداف خروج الدابة أيضا إلحاق مزيد من الخزى بالكفار ، فالكافر حين يقف ذليلا أمام ربه ، ثم يلقى به فى النار فإنه يتذكر لحظة خروج الدابة فيعض على يديه من الندم لأنه لم يفهم إنذار اللحظة الأخيرة ، وظل يكابر فى غرور متمسكا بالتصور الأحمق القائل بأن الأديان خرافة ، وأنه لا حياة بعد الموت ، ولا جنة ولا نار. ولو قامت القيامة فجأة فلن يكون ندم الكافر بعد دخوله النار بحجم ندمه حين يتذكر أنه رأى بعينه الإنذار الأخير قبل النهاية ، فلم يأخذ الأمور بجدية. إننى أتذكر الآن أن قادة إسرائيل وردت إليهم معلومات استخباراتية عن اعتزام مصر شن حرب شاملة عام 1973م ، ولكن قادة إسرائيل استخَفوا بالمعلومات ، واستبعدوا تماما قيام مصر بعمل جنونى من هذا القبيل. ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فشنت مصر وسوريا الحرب ، وانهزمت إسرائيل. وحين يتذكر قادة إسرائيل منظرهم وهم يسخرون من المعلومات التى تؤكد اعتزام مصر شن الحرب فإن قلوبهم تتمزق من الندم والغيظ ، ويلعنون

أنفسهم وحماقتهم التى أوصلتهم إلى هذا الخزى والمهانة. ونفس المشهد سيتكرر يوم القيامة مع الكفار الذين سبق أن سخروا من ظهور الدابة[196].

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

[196]) من المعروف أنه عند ظهور علامات الساعة الكبرى لن تقبل توبة أحد مصداقا لقوله تعالى: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ} [الأنعام: 158]. ورغم أن الوقت سيكون قد فات بظهور الدابة إلا أن الكافر سيلوم نفسه لحماقته ، ولأنه لم يبد أى لفتة يمكن أن يتخذ منها أساسا لطلب المغفرة من الله يوم القيامة ، فلا شك أن من آمن بعد ظهور الدابة أفضل حالا ممن آمن بعد قيام الساعة.

خاتمة: بين فكى الإلحاد

انصب جل جهدنا فى هذا الكتاب على إثبات أن المعجزات الدينية ليست مستحيلة من منظور العلم الحديث. ولقد رأينا– بعون الله– كيف تهاوت شبهات الملحدين أمام معاول العلم والمنطق. إننا على ثقة أن الإلحاد قد هُزم بالضربة القاضية فى معركة إنكار المعجزات ، ليس بفضل كتابنا هذا ، بل بفعل التقدم العلمى المذهل الذى مكن الإنسان من أن يحقق المستحيل.

ولكن الإلحاد كالثعبان ، لا يكف عن الالتواء ، فتجده يغير من منهجه فى الهجوم على الدين بشكل متناقض ، فتارة يشكك فى الدين استنادا إلى استحالة المعجزات ، وتارة أخرى يدعى أن العلم الحديث قادر على صنع نفس المعجزات تنسب للأنبياء. إن الدين ليس ضعيفا ، ولكن الإلحاد حيوان غبى ، يتصور نفسه قويا ، ويخال أن الدين لم يعد له قدرة على الفرار من بين فكيه. وهذا الوحش المغرور لا يدرى أن الفريسة التى خطفها فى فمه هى حجر صلب ، سيكسر أنيابه ، ويمزق أحشاءه. وكل المؤشرات تدل على أن الإلحاد فى المستقبل سيشتط فى كبريائه ليناطح إله الكون ذاته ، وها نحن أولاء نرى سباقا بين العلماء من أجل صنع خلايا حية فى المختبرات ابتداء من مواد كيميائية جامدة. وربما ينجح العلم بعض الشىء فى مسعاه، وحينئذ سيهتف الملحدون مرددين مقولتهم الحقيرة: (لا إله إلا العلم) ، وسيواصل الحمقى سخريتهم من الدين ، وستنصب السخرية هذه المرة ليس على قدرة الله على صنع المعجزات ، ولكن على محاولة الدين ترويج بضاعة المعجزات فى عصر العلم الذى صنع المعجزات. ومن جانبنا لن نقول لمن تمكن منهم داء الغرور أكثر من الحكمة المأثورة: (من يضحك أخيرا يضحك كثيرا) ، وأروع منها قول الله عز وجل:

{إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المطففين: 29 – 36]

وليس لدينا ما نقوله بعد أن تكلم القرآن.

تم الكتاب. الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

المراجع

المراجع العربية

1. **إكمال تهذيب الكمال.** تأليف علاء الدين مغلطاي. تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن محمد – أبو محمد أسامة بن إبراهيم. الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر. الطبعة الأولى، 1422 هـ – 2001 م
2. **الآيات البينات في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات.** تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة الرابعة.
3. **البحر المحيط في التفسير.** تأليف أبو حيان أثير الدين الأندلسي. تحقيق: صدقى محمد جميل. دار الفكر– بيروت– 1420 هجرية.
4. **التوضيح لشرح الجامع الصحيح.** تأليف ابن الملقن سراج الدين أبو حفص الشافعي المصري. تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث. الناشر: دار النوادر، دمشق – سوريا. الطبعة الأولى، 1429 هـ – 2008 م
5. **الفصل في الملل والأهواء والنحل.** تأليف ابن حزم الظاهرى الأندلسى. مكتبة الخانجى – القاهرة
6. **الكون فى قشرة جوز.** تأليف ستيفن هوكنج. سلسلة عالم المعرفة. مارس 2003م.
7. **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم.** تأليف: أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي. حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو – أحمد محمد السيد – يوسف علي بديوي – محمود إبراهيم بزال. الناشر: (دار ابن كثير، دمشق – بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق – بيروت). الطبعة الأولى، 1417 هـ – 1996 م
8. **النبوات لابن تيمية.** تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان. الناشر: أضواء السلف ، الرياض، المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م
9. **بعد الحرب الكلامية.. هكذا يتمكن الرئيس الأمريكي من إطلاق الصواريخ النووية.** جريدة الوطن. الأحد 7 يناير 2018. https://www.elwatannews.com/news/details/2930606.
10. **تاريخ الطبري وصلة تاريخ الطبري.** دار التراث – بيروت. الطبعة الثانية – 1387 هـ
11. **تاريخ الفلسفة الحديثة.** تأليف يوسف كرم. دار المعارف– مصر – 1949م
12. **تاريخ دمشق** لابن عساكر. تحقيق عمرو بن غرامة العمروي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. 1415 هـ – 1995 م
13. **تاريخ موجز للزمان.** تأليف ستيفن هوكنج. ترجمة مصطفى إبراهيم فهمى. مكتبة الأسرة– الهيئة المصرية العامة للكتاب. 2001م.
14. **تفسير التحرير والتنوير** أو «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد». تأليف: محمد الطاهر بن عاشور التونسي. الدار التونسية للنشر – تونس.1984 هـ.
15. **تفسير الزمخشرى ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل.** دار الكتاب العربى– بيروت. الطبعة الثالثة 1407 هجرية.

16. **تفسير الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن.** تأليف أبو جعفر الطبري. تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م
17. **تفسير القرآن العظيم لابن كثير.** تحقيق: محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت. الطبعة الأولى - 1419 هـ
18. **تفسير مفاتيح الغيب.** تأليف فخر الدين الرازي. دار إحياء التراث العربي– بيروت. الطبعة: الثالثة - 1420 هـ.
19. **تهافت الفلاسفة تأليف ابو حامد الغزالى.** تحقيق دكتور سليمان دنيا. دار المعارف- مصر. الطبعة السادسة.
20. **تهذيب الكمال في أسماء الرجال.** تأليف: يوسف بن عبد الرحمن المزي. تحقيق د. بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة – بيروت. الطبعة الأولى 1980 م
21. **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها.** تأليف محمد ناصر الدين الألبانى. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض. الطبعة الأولى (لمكتبة المعارف). 1415 هـ - 1995 م
22. **شمس العرب تسطع على الغرب** (فضل العرب على أوروبا). تأليف سيجريد هونكة. ترجمة وتحقيق وتعليق د. فؤاد حسنين على. الطبعة الثانية 2011م. دار العالم العربى- القاهرة.
23. **شمس العرب تسطع على الغرب.** تأليف زيجريد هونكه. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقى. راجعه مارون عيسى الخورى. دار الجيل بيروت- دار الآفاق الجديدة بيروت. الطبعة الثامنة 1993م- 1413 هجرية.
24. **صحيح البخارى.** تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر. شرح وتعليق دكتور مصطفى ديب البغا. دار طوق النجاة. الطبعة الأولى، 1422هجرية
25. **طبقات الحفاظ .** تأليف جلال الدين السيوطى. دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولى، 1403 هجرية.
26. **عمدة القاري شرح صحيح البخاري.** تأليف بدر الدين العينى. دار إحياء التراث العربي – بيروت
27. **عمدة القاري شرح صحيح البخاري.** تأليف: بدر الدين العينى. دار إحياء التراث العربي –بيروت
28. **فضل الإسلام على الحضارة الغربية.** تأليف مونتجومرى وات. ترجمة حسين أحمد أمين. دار الشروق- مصر. الطبعة الأولى 1983- 1403 هجرية.
29. **قصة الفلسفة الحديثة.** تأليف ذكى نجيب محمود. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. 1936م
30. **كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات.** تأليف القاضى أبو بكر من بن الطيب بن الباقلانى. عنى بتصحيحه ونشره الأب ريتشارد يوسف مكارثى اليسوعى. منشورات جامعة الحكمة فى بغداد. المكتبة الشرقية. ساحة النجمة – بيروت. 1958م.
31. **لسان العرب.** تأليف ابن منظور. دار صادر- بيروت. الطبعة الثالثة – 1414 هجرية.
32. **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح.** تأليف أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري. دار الفكر، بيروت – لبنان. الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2002م
33. **مشكاة المصابيح.** تأليف محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة الثالثة، 1985.
34. **ميزان الاعتدال فى نقد الرجال.** تأليف شمس الدين الذهبى . تحقيق علي محمد البجاوي. دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان. الطبعة الأولى، 1382 هـ - 1963 م
35. **نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام.** الجزء الأول . تأليف دكتور على سامى النشار. الطبعة التاسعة. دار المعارف. القاهرة.

المراجع الإنجليزية

36. **46, XX sex reversal with partial duplication of chromosome arm 22q.** By Seeherunvong T, Perera EM, Bao Y et al. Am J Med Genet A 2004; 127A (2):149–151
37. **A Search for deviations from the inverse square law of gravity at nm range using a pulsed neutron beam**. By Christopher C. Haddock, Noriko Oi, Katsuya Hirota, et al. Phys.Rev. D97 (2018) no.6, 062002; arXiv:1712.02984v2 [nucl-ex] 22 Feb 2018
38. **A SOX9 duplication and familial 46,XX developmental testicular disorder. (Letter).** By Cox, J. J., Willatt, L., Homfray, T., Woods, C. G. New Eng. J. Med. 364: 91-93, 2011.
39. **A WNT4 mutation associated with Mullerian-duct regression and virilization in a 46, XX woman**. By Biason-Lauber A, Konrad D, Navratil F, Schoenle EJ. N Engl J Med 2004; 351:792–798
40. **Are Wormholes Real?** By Sabrina Stierwalt, PhD, Everyday Einstein. Scientific American, May 29, 2019, https://www.scientificamerican.com/article/are-wormholes-real/
41. **Artesian wells**. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/topic/artesian-well; accessed on 25/8/2019
42. **Chandrasekhar limit**. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/science/Chandrasekhar-limit; accessed on January 15, 2020.
43. **Conservation laws**: https://www.britannica.com/science/conservation-law; accessed December 17, 2019.
44. **Core crystallization and pile-up in the cooling sequence of evolving white dwarfs** (2019). By Tremblay, P.-E.; Fontaine, G.; Fusillo, N. P. G.; Dunlap, B. H.; Gänsicke, B. T.; Hollands, M. H.; Hermes, J. J.; Marsh, T. R.; Cukanovaite, E.; Cunningham, T. *Nature*. 565 (7738): 202–205. arXiv:1908.00370. doi:10.1038/s41586-018-0791-x.
45. **Darwin's Black Box: The Biochemical Challenge to Evolution**. By Michael J. Behe. Page 258; 10th anniversary edition. FREEE PRESS. USA. 2006.
46. **Death of Dolly marks cloning milestone.** By Williams N. Curr Biol. 2003 Mar 18;13(6):R209-10.
47. **Disruption of a long distance regulatory region upstream of SOX9 in isolated disorders of sex development.** By Benko S, Gordon CT, Mallet D et al. J Med Genet 2011; 48:825–830.
48. **Does Some Deeper Level of Physics Underlie Quantum Mechanics? An Interview with Nobelist Gerard't Hooft.** By George Musser. Scientific American. October 7, 2013.
49. **Effects of cycloheximide on parthenogenetic development of pig oocytes activated by ultrasound treatment**. By Mori H, Mizobe Y, Inoue S, Uenohara A, Takeda M, Yoshida M, Miyoshi K. J Reprod Dev. 2008;54(5):364-9.
50. **Ethical issues in animal cloning.** By Fiester A. Perspect Biol Med. 2005 Summer;48(3):328-43.
51. **Fault.** Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/science/fault-geology; accessed on August 25, 2019.
52. **Fifth force of nature: The hunt for a hidden realm that could change our understanding of the universe is about to begin.** By Aristos Georgiou. Newsweek Magazine. On 10/1/18, https://www.newsweek.com/fifth-force-nature-scientists-are-about-start-hunting-universes-hidden-realm-1145587
53. **From eternity to here.** By Sean Carroll. Oneworld publications, Oxford, England, 2010.

54. **Fusion physics**. Chapter 1: The case for fusion: Fusion basics. Page 14. Edited by Mitsuru Kikuchi, Karl Lackner, and Minh Quang Tran. INTERNATIONAL ATOMIC ENERGY AGENCY, VIENNA, 2012
55. **God Would Not Perform Miracles**. By Matt McCormick, Ph.D; Department of Philosophy; California State University. 2008. https://www.csus.edu/indiv/m/mccormickm/godwouldn'tdomiracles.pdf
56. **Has a Hungarian Physics Lab Found a Fifth Force of Nature**? By Edwin Cartlidge, Nature Magazine. 25 May 2016, https://www.nature.com/news/has-a-hungarian-physics-lab-found-a-fifth-force-of-nature-1.19957
57. **High-frequency generation of viable mice from engineered bi-maternal embryos.** By Kawahara M, Wu Q, Takahashi N, Morita S, Yamada K, Ito M, Ferguson-Smith AC, Kono T. Nat Biotechnol. 2007;25(9):1045-50. Epub 2007 Aug 19.
58. **How do mirrors reflect photons?** By David Biello; Scientific American; September 25, 2006. https://www.scientificamerican.com/article/how-do-mirrors-reflect-ph/
59. **The Milky Way.** NASA. https://imagine.gsfc.nasa.gov/features/cosmic/milkyway_info.html; accessed on December 1, 2019.
60. **Identification of SOX3 as an XX male sex reversal gene in mice and humans.** By Sutton E, Hughes J, White S et al. J Clin Invest 2011; 121:328–341
61. **In defense of miracles**. By Rachel McKee; Spring 2014. The Dartmouth ApologiA. Volume 8, issue 2.
62. **Intelligent Design: Humans, Cockroaches, and the Laws of Physics**. By Victor J. Stenger. Preprint of a paper submitted to Creation/Evolution. 1997. http://www.talkorigins.org/faqs/cosmo.html
63. **Laws of nature**. By Norman Swartz. Simon Fraser University, Canada. Internet Encyclopedia of Philosophy. https://www.iep.utm.edu/lawofnat/
64. **Mammalian sex determination—insights from humans and mice**. Stefanie Eggers & Andrew Sinclair. Chromosome Res (2012) 20:215–238.
65. **Miracles and Natural Law: Are They Compatible?** By Glauber S. Araújo. Journal of the Adventist Theological Society, 28/2 (2017): 120-138.
66. **Miracles and Violations**. By Timothy Pritchard. *Religious Studies* 47(1), 2011, pp. 41–58. Published online by Cambridge University Press: 06 April 2010. DOI: https://doi.org/10.1017/S0034412510000132
67. **Miracles**. By David Corner. Internet encyclopedia of Philosophy. Accessed on October 1, 2019. https://www.iep.utm.edu/miracles/#H4
68. **Miracles: metaphysics, physics, and physicalism.** By: Kirk McDermid**.** Religious Studies 44, 125–147; 2008. Cambridge University Press. doi:10.1017/S0034412507009262
69. **Misconceptions about the big bang**. By Charles H. Lineweaver and Tamara M. Davis. Scientific American. March 2005. Page 36-45.
70. **Neutron star**. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/science/neutron-star; accessed on January 15, 2020.
71. **Nihilism**. By Alan Pratt. Internet Encyclopedia of Philosophy. https://www.iep.utm.edu/nihilism/ ; Accessed on January 24, 2020.
72. **Nuclear fusion in stars**. https://www-zeuthen.desy.de/~pohlmadq/teach/346-s6/ch10.pdf; accessed on January 7, 2020.
73. **On the Interpretation of Quantum Mechanics.** Ryan Lee, PHYS 517, Spring 2008.
74. **Parthenogenesis**. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/science/parthenogenesis. Accessed on October 24, 2019.

75. **Physicists create negative mass**. By Eric Sorensen, Washington State University, April 17, 2017, https://phys.org/news/2017-04-physicists-negative-mass.html, accessed on June 20, 2019.
76. **Physics of the impossible**. By Michio Kaku. Published in the United States by Doubleday 2008.
77. **Quantum physics: What is real?** By Meinard Kuhlmann. Scientific American august, 2013. Page 41
78. **Quintessential universe**. By Jeremiah P. Ostriker and Paul J. Steinhardt. Scientific American; January 2001.
79. **Patient-specific stem cell lines derived from human parthenogenetic blastocysts**. By Revazova ES, Turovets NA, Kochetkova OD, Kindarova LB, Kuzmichev LN, Janus JD, Pryzhkova MV. Cloning Stem Cells. 2007; 9(3):432-49.
80. **R-spondin1 is essential in sex determination, skin differentiation and malignancy.** By Parma P, Radi O, Vidal Vet al. Nat Genet 2006; 38:1304–1309
81. **Swinging in Imaginary Time**: More on the Not-So-Simple Pendulum. By Cihan Saclioglu. Resonance. February 2010. Volume 15, issue 2. pp 104-115. https://doi.org/10.1007/s12045-010-0012-x
82. **Ten years of the fifth force**. By Ephraim Fischbach and Carrick Talmadg. 1996. Source: arXiv. https://www.researchgate.net/publication/2032463_Ten_Years_of_the_Fifth_Force
83. **Testing White Dwarf Crystallization Theory with Asteroseismology of the Massive Pulsating DA Star BPM 37093** (2004). By Metcalfe, T. S.; Montgomery, M. H.; Kanaan, A. *The Astrophysical Journal*. 605 (2): L133. arXiv:astro-ph/0402046. doi:10.1086/420884
84. **The arrow of time**. By Jacob Aron, January 29, 2007, https://pdfs.semanticscholar.org/b557/0523667f54fa91b5176804a8334a64fae041.pdf
85. **The cosmic origins of time's arrow**. By Sean M. Carroll. Scientific American, June 2008. Page 48.
86. **The discovery of the top quark**. By Tony M. Liss and Paul L. Tipton. Scientific American September 1997
87. **The emperor's new mind**. By Roger Penrose. The inexorable increase of entropy: Page 394.
88. **The Grand Design**. By Stephen Hawking and Leonard Malodinow. Bantam Books. New York. 2010.
89. **The higgs boson.** By Martinus J. G. Veltman. Scientific American. November, 1986. Page: 76-84.
90. **The ontology of time**. By L. Nathan Oaklander. In "Studies in analytic philosophy" series; editor: Quentin Smith. Prometheus Books, New York, USA. 2004.
91. **The particle at the end of the universe**. By Sean Carroll. Page 5. Oneworld Publications 2012
92. **The Quantum Mechanics of Alpha Decay**. Massachusetts Institute of Technology, MIT Department of Physics, February 6, 2012. Id: 45.alphadecay.tex,v 1.151 2012/02/06 14:33:51 rfoote Exp. http://web.mit.edu/8.13/www/JLExperiments/JLExp45.pdf
93. **The untestable multiverse**. By George Ellis. NATURE, VOL 469, 20 January, 2011. https://www.nature.com/articles/469294a.pdf
94. **The warp drive: hyper-fast travel within general relativity**. Miguel Alcubierre . Class. Quantum Grav. 11-5, L73-L77 (1994).
95. **Thompson & Thompson: Genetics in medicine**. Robert L. Nussbaum, Roderick R. McInnes, Huntington F. Willard. 8th edition. Chapter 3. Elsevier Inc, 2016.

96. **Trump can launch nuclear weapons whenever he wants, with or without Mattis**. By Bruce Blair and Jon Wolfsthal. *The Washington post*. Dec. 23, 2018; https://www.washingtonpost.com/outlook/2018/12/23/trump-can-launch-nuclear-weapons-whenever-he-wants-with-or-without-mattis/
97. **Viable offspring derived from fetal and adult mammalian cells.** By Wilmut I, Schnieke AE, McWhir J, Kind AJ, Campbell KH. Nature. 1997; 385 (6619):810-3.
98. **What Is a Supernova? NASA science: Space place**. https://spaceplace.nasa.gov/supernova/en/; accessed on January 15, 2020.
99. **What is solar mass**? By Marcus Woo; December 06, 2018 https://www.space.com/42649-solar-mass.html
100. **White dwarfs crystallize as they cool**. By R. Mark Wilso. Physics Today 72, 3, 14 (2019); doi: 10.1063/PT.3.4156
101. **White dwarf stars?** NASA, https://imagine.gsfc.nasa.gov/science/objects/dwarfs2.html; accessed on January 15, 2020.
102. **Whole Earth Telescope observations of BPM 37093: A seismological test of crystallization theory in white dwarfs** (2005). By Kanaan, A.; Nitta, A.; Winget, D. E.; Kepler, S. O.; Montgomery, M. H.; Metcalfe, T. S.; Oliveira, H.; Fraga, L.; et al. *Astronomy and Astrophysics*. 432 (1): 219–224. arXiv:astro-ph/0411199. doi:10.1051/0004-6361:20041125
103. **XX males SRY negative: a confirmed cause of infertility.** By Vetro A, Ciccone R, Giorda R et al. J Med Genet 2011; 48:710–712
104. **XX males without SRY gene and with infertility**. By N. Abusheikha, A. Lass, and B. Brinsden. Human Reproduction. Volume 16. No. 4, Pp 716-717. 2001

كتب أخرى للمؤلف

1. هل أهان الإسلام الرقيق؟ نظرات جديدة فى قضية قديمة

2. ما بعد الحداثة تجتاح ديار الإسلام